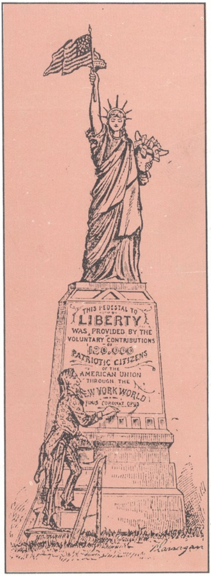
مجلة الفكر والفن المعاصر

القاهرة

العدد (١٤١) أغسطس ١٩٩٤

تمثال الحرية لمصر أم لأمريكا ؟



الشيوعية الجديدة؟

لمن يعود سولچنتسين لقيصر أم للكنيسة؟

لوحة الغلاف الأول
تمثال الحرية
للفنان: بارتولدى

القاهرة

مجلة الفكر والفن المعاصر

شهرية تصدر يوم ١٥ من كل شهر. الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب

العدد (١٤١) أغسطس ١٩٩٤

الثمن فى مصر : جنيهان

الثمن فى الخارج

العراق ـ ١٥٠٠ فلس ـ الكويت ١,٢٥٠ دينار ـ قطر١٥ ريالا ـ البحرين ١,٥٠٠ دينار ـ سوريا ٧٥ ليرة ـ لبنان ٣٠٠٠ ليرة ـ الأردن ١,٢٥٠ دينار ـ السعودية ٢٠ ريالا ـ السودان ٤٧٠٠ ق ـ تونس ٤ دينار ـ الجزائر ٢٨ دينارا ـ المغرب ٤٠ درهما ـ اليمن ١٠٠ ريال ـ ليبيا ١٦٠ دينارا ـ الإمارات ١٥ درهما ـ سلطنة عمان ١,٥٠٠ ريال ـ غزة والضفة والقدس ٢٥٠ سنتا ـ لندن ٤٠٠ بنس ـ الولايات المتحدة دولاران.

الاشتراكات فى مصر :

عن سنة (١٢ عددا) ٢٤ جنيها مصريا شاملا البريد.

الاشتراكات من الخارج [عن سنة ١٢ عددًا] :

- البلاد العربية: أفراد ٣٠ دولارا، هيئات ٥٢ دولارا شاملة مصاريف البريد.
- أمريكا وأوروبا: أفراد ٤٨ دولارا، هيئات ٧٠ دولارا شاملة مصاريف البريد.

العنوان: مجلة القاهرة ـ جمهورية مصر العربية ـ القاهرة ـ ١١١٧ كورنيش النيل ـ فاكس ٧٥٤٢١٣ ت/ ٥٧٨٩٤٥٥

المادة المنشورة مكتوبة خصيصا للمجلة، وتعبر عن آراء أصحابها ولاترد فى حالة عدم النشر. المراسلات باسم رئيس التحرير.

من المحـــــــرر

القصـيدة اسـمـهـا توفـــــيق زياد

قا بيت واحد من الشعر هو الخطأ.

أما القصيدة فاسمها توفيق زياد، بيتها الأخير هو الخطأ، أعنى زمن الرحيل، فقد غاب توفيق فى الزمن الخطأ، إيقاعاً ومعنى.

أم أن القصيدة كانت قد أقلعتْ عكس الزمن؟ لا أحد يدرى، فقد أخذ سرّه معه.. هذا الشيخ الذى عاش عمره فى صمت الزاهدين وحكمة المتكلمين ومقاومة المؤمنين.

هذا المتصوف فى إيمان فلسطينى يزحزح الجبال عن موقعها. كان «مؤمناً» فقط. ومن فيض الإيمان كان الشعر، أشبه ما يكون بشعر المتصوفة الذين يبصرون، ما لا نراه ويعتقدون أن ما لا يرى هو الحقيقى الوحيد.

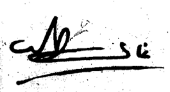
لم يدخل فى أية صراعات بين الربح والخسارة، لا داخل الحزب الذى اتخذ منه بيتاً للروح، ولا فى ساحة العمل السياسى الفلسطينى العام، لم يدخل من باب المزايدات أو المناقصات ولكن الناس من أهل الناصرة أدخلوه قلوبهم من أوسع أبوابهم، فأصبح رئيساً لبلدية، لم يسع إلى رئاستها، وأصبح عضواً فى البرلمان فى زمن المحرمات، ولكنه ظلّ صوتاً يخرق الأذن الإسرائيلية بكلمة واحدة اسمها: فلسطين.

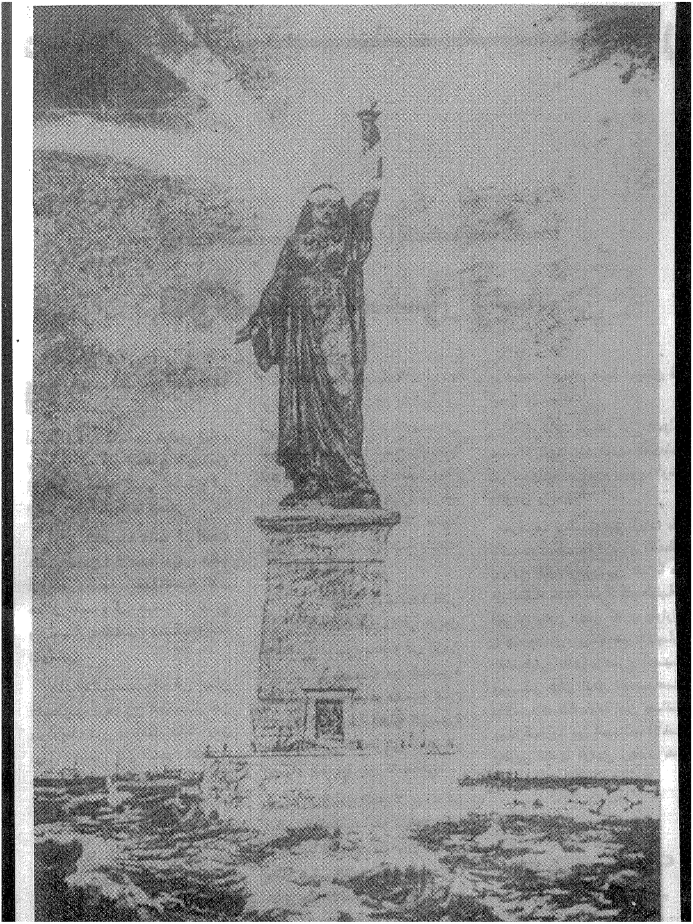
وهى الكلمة الوحيدة التى تكونت منها القصيدة فى الرجل والشعر. لم يكن يعنيه فى الزمن القديم القول بأنه من شعراء المقاومة، لأنه هو نفسه كان قصيدة المقاومة الحيّة الجسورة القادرة على النفاذ إلى البصائر العمياء فتضيئها بنور لا ينطفئ.

كان الإيمان الذى لا يبرد فى القلب الصامد، هو اللغة التى أشاعها توفيق زياد بين الناس. وظل حتى النفس الأخير يراهن على هذا الإيمان. لم يراهن قط على زعيم أو قوة مهما كان نوعها، سوى قوة الإيمان فى شعب لن يموت.

لذلك كانت قصيدة على الدوام، صلاة تربط بين قلوب المؤمنين فى سموات أحلامهم وبين الأرض والوطن والحرية.

وسوف يبقى توفيق زياد، بكل تأكيد، قصيدة الإيمان المعطرة بروائح التين والزيتون جزءاً من كل نطفة تلدها امرأة فلسطينية.. فهو لن يكون مجرد ذكرى يتوارثها الأجيال، وإنما هو «الإيمان» الفلسطينى الذى يزحزح الجبال ويبقى على الحق المحاصر بالأسلاك الشائكة من جانب، وبالزغاريد من الجانب الآخر. وطوبى لك يا توفيق زياد.. حتى ولو أخطأت زمن الرحيل. ■

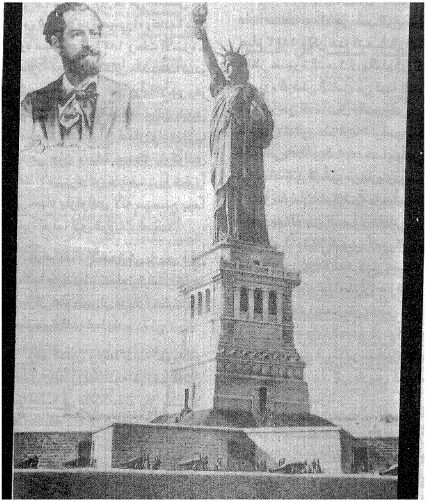




تمثال الحرية
لمصر أم لأمريكا؟

أحمد يوسف

باحث مصرى وأستاذ بجامعة باريس



التمثال حالياً

◀ إلى اليمين مشروع الفنان برتولدى لإقامة تمثال على هيئة منارة عند مدخل قناة السويس بتكليف من خديوى مصر وإلى أعلى تمثال الحرية وصورة الفنان برتولدى

« إن الشكل لصانع التمثال يمثل كل شىء ويمثل لا شىء، فهو لا شىء دون الروح، وهو كل شىء بالفكرة ».

من رسالة ليفكتور هوجو إلى بارتولدى فى ١٣ مايو ١٨٨٥

قارئ هل تذكر عزيزى القارئ فيلم يوسف شاهين «إسكندرية ليه»؟، هل تذكر بالتحديد نهاية الفليم عندما غمز تمثال الحرية بعينيه مستقبلا بابتسامة واعدة بالأمل لبطل الفيلم المصرى؟

هل كان يدرى **يوسف شاهين**، إن هذا المشهد الذى استغرق ثوان قليلة على الشاشة، يلخص قصة من أغرب قصص التاريخ المعاصر، وخاصة تاريخ العلاقات بين دول ثلاث هم أبطال هذه القصة: مصر وفرنسا وأمريكا؟ وقبل أن أدخل فى التفاصيل أريدك عزيزى القارئ أن لا تأخذ ما سوف تقرؤه على أنه محاولة منى لاسترداد ما لا يسترد، أو أنها محاولة لفتح باب المشاكل مع دولة، بل مع دولتين تربطنا بهما علاقات متينة، متشعبة ومعقدة، ولأنها كانت معقدة كان لابد من التسليم بأن الواقع لا ينطبق بالضرورة مع الحقيقة التاريخية، وأن

الواقع لا ينطبق بالضرورة مع الخطأ التاريخي أيضًا، وأقصد هنا الخطأ بمعنى erreur وليس بمعنى foute، وإنما الواقع هو استمرارية حدث ما في الزمان بصرف النظر عن تقديرنا لهذا الحدث، وبصرف النظر عن حكم التاريخ عليه.

ودون الدخول في المعضلات الفكرية لعلم «فلسفة التاريخ» واستعمال أداة الشرط «لو»، فإن عمل الشيطان تفتحه أيضًا سياسة الجهل أو سياسة التجاهل، وسوف يجد القارئ في الصفحات القادمة ما سوف يتطلب منه بعض الجهد في فهم «لا مباشرة» بعض الأحداث و«لا مباشرة» بعض العبارات لأن عملية الطمس، وربما أشهر عملية طمس في التاريخ، قد أخذت وأخفت وأضاعت وأحرقت وثائق خطيرة، ولم يبق منها إلا شذرات وقصاقيص قد تكون قليلة ولكنها - ولحسن الحظ - عظيمة الدلالة وأشد برهانًا إذا ما أحسنا فهمها وتحليلها.

وربما يحسن أن أبدأ أولا بنبذة سريعة عن حياة صانع هذا التمثال العظيم، النحات الشهير، بل أشهر نحاتي فرنسا في القرن التاسع عشر، واسمه **فردريك - أوجست الشهير ببارتولدي**، ثم استعرض مع القارئ الظروف التي صاحبت ظهور فكرة التمثال في فرنسا ثم في مصر، وأخيرًا دور رجلين ساهما في صنع المصير النهائي للتمثال وهما **دي ليسبس** من ناحية والمفكر الفرنسي **إدوارد دي لابولاي** Edouard de la-boulaye. وبعدها محصلة أو خاتمة نهائية لهذا البحث ثم أترك القارئ ومن يهتم بالموضوع من الباحثين وربما المسئولين ولهؤلاء جميعًا أهدي هذا العمل.

أولا: من هو بارتولدي؟

الداخل إلى مدينة كولمار Colmar القابعة في بطن إقليم الإلزاس شرقي فرنسا، يلحظ صغر الشوارع؛ وتشابك حواريها الجميلة في تقاطعات على نسق العصور الوسطى، وعند كل تقاطع نافورة صغيرة قديمة، ويلحظ أيضًا وبشكل لافت كثرة العلامات الإرشادية الدالة إلى متحف **بارتولدي**، والمتحف عبارة عن قصر صغير به فناء واسع ملحق به منزل الفنان نفسه ثم مكتبة هائلة تضم نفائس تخص حياة وأعمال **بارتولدي** ومنها استقينا أغلب معلومات هذه الدراسة.

ولد بارتولدي بالمدينة سابقة الذكر في أبريل ١٨٣٤ (وربما في أغسطس من نفس العام) لأسرة ميسورة، وعندما مات أبوه مبكرًا عام ١٨٣٦ رحلت الأسرة - المكونة من الأم وطفلين، أحدهما تبدو عليه بوادر التخلف العقلي أما الآخر وهو فناننا فكان ذا صحة ضعيفة - إلى باريس وأقامت عند ابن أخ لبارتولدي الأب ويدعى **جان - بابتيست بارتولدي** وهذا الأخير له ابن سيلعب دورًا خطيرًا في حياة **بارتولدي** لأنه سيصبح يومًا سفيرًا لفرنسا لدى الولايات المتحدة.

ورغم بقاء الأسرة في باريس فإن صلتها بكولمار لم تنقطع وكانت تزورها مرة كل عام وسيؤثر هذا أثرًا عظيمًا في حياة **بارتولدي** فيما بعد.

وتمر السنون وبينما يتجه أخوه نحو الجنون رويدًا رويدًا، اتجه هو نحو الفنون وخاصة فن النحت، ولم يكن بعد إلا تلميذًا بالمرحلة الثانوية بليسيه لويس الأكبر Lycée louis le grand أشهر مدارس باريس، حتى أخذ في التردد على أتيليه أشهر نحاتي ورسامي عصره في فرنسا **أنطوان إتيكس** Antoine Etex ثم خالط الرسام الفيلسوف الأشهر **آري شيفر** Ary scheffer، هكذا تنوعت مصادر التكوين النفسي والفني **لبارتولدي** بين الرسم والنحت والفلسفة، فإذا أضفنا إلى هذا التربية شبه العسكرية التي أعطتها له أمه، والتي كانت تعتقد أن النظام والطاعة في الحياة هما مفتاحا الحياة فشب **بارتولدي** شديد الالتصاق بأمه وكان يكتب لها في كل رحلاته كل يوم رسالة واحتفظت هي بكل هذه الرسائل وكانت تبوبها وترتبها تاريخيًا لشعورها أن ابنها سيكون يومًا ذا شأن عظيم، مما ساعدنا كثيرًا على فهم خفايا قضية تمثال الحرية التي اندلعت في أمريكا وفرنسا في الأشهر الأخيرة من حياة بارتولدي على نحو ما سيرى القارئ فيما بعد.

وقد قدم **بارتولدي** أول أعماله «Le Bon samaritain» في صالون باريس عام ١٨٥٣ ولكن هذا التمثال العظيم (انظر صورة التمثال بالملحق) كان مصيره الرفض الكامل من لجنة التحكيم فلم يعرض التمثال بالمعرض، وفي المعرض التالي عام ١٨٥٥ رفض تمثاله الثاني Les sept Souabes، وأدى به الإحباط إلى اليأس من باريس وسافر للراحة بكولمار مسقط رأسه، وأحاطته المدينة بهالة من المجد وطلبت منه أن يصنع لها تمثالا كبيرًا من البرونز للجنرال راب Rapp أحد كبار مساعدي نابليون، وكانت المفاجأة أن هذا التمثال عندما عرض بمعرض باريس الدولي ١٨٥٦ حاز إعجاب الجميع ثم تم افتتاحه بعد ذلك بأشهر في أكبر ميادين مدينة كولمار وعندما عاد إلى باريس كان اسم مصر على كل لسان!.

في حقيقة الأمر كانت باريس تعيش أولى سنوات إمبراطورية نابليون الثاني الكبيرة وكان السان سيمونيون Les Saints - Simoniens قد عادوا من مصر بعد إقامة طويلة كانت نتيجتها مشاريع هائلة كسد قناطر القاهرة وبعض المدارس الصناعية والصحية بالقاهرة ثم مشروع هائل لربط البحرين الأحمر بالأبيض وأقاموا علاقات ثقافية وطيدة مع أركان الثقافة المصرية وقتئذ مثل **رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك**، ومن ناحية

أخرى كانت أعمال الأدباء الفرنسيين الذين زاروا مصر بين الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضى قد بدأت فى الخروج إلى الجمهور الكبير وعلى رأسهم جيرار دى نرڤال وتيوفيل جوتييه والعملاق فلوبير صاحب «مدام بوڤارى الشهيرة»، كان اسم مصر إذن على كل لسان وجاء الإعلان عن مشروع قناة السويس بواسطة قنصل شاب يدعى **فرديناند دى ليسبس**، حتى يكمل الحلقة وتصبح مصر أرض أحلام للأدباء والفنانين ولعشاق التاريخ بل والباحثين عن المستقبل مثل السان سيمونيين.

ثانيًا: مصر فى أعمال بارتولدى

فى الشهر التالى لافتتاح تمثال راب أى شهر سبتمبر ١٨٥٦ سافر **بارتولدى** إلى مصر بصحبة بعض الفنانين، وكانت بتماثيلها الضخمة مفاجأة هائلة له وظلت ضخامة هذه التماثيل تمثل له لغزاً محيراً ولن يهدأ له بال حتى يصنع لنفسه تمثالا مشابهاً فى الحجم على نحو ما سيفعل فى تمثال الحرية، إلا أن أعظم ما تركته مصر فى أعمال **بارتولدى** على وجه الخصوص فى عشقه الشديد لمشاهد الحياة اليومية فى القاهرة القديمة، وهنا يكتشف النحات الكبير أنه مصور أيضًا فيرسم لنا لوحات رائعة لمشاهير من القاهرة ما زالت موجودة بمتحفه كولمار، وكان قد اصطحب معه آلة تصوير فوتوغرافية وكانت فى بدايتها الأولى، فصور لنا بعض الصور الفوتوغرافية أشهرها على الإطلاق واحدة من أقدم الصور لتمثالى ممنون، ثم عشرات الرسوم الكروكية لرجال ونساء من مصر خصوصاً الفلاحات المصريات، لا نعرف على وجه الدقة إذا ما كانت خططاً لمشاريع مستقبلية فى النحت أم فى الرسم أو فى شىء آخر.

وعندما عاد عام ١٨٥٧ قدم لجمهور باريس لوحة رائعة اسمها «قيثارة البربر» La Lyre du Berfére على أن أعظم أعماله على الإطلاق، ونقصد أعماله المستوحاة من مصر، هو تمثال **شامبليون** مكتشف الهيروغليفية، وقد وضع قدمه على رأس الفرعون رمسيس الثانى. وشامبليون فى وضع تأمل عميق، هذا التمثال موجود اليوم بمدخل الكوليچ دى فرانس Collége de France حيث قسم علم المصريات الأشهر فى العالم.

وفى مصر تعرف على **فرديناند دى ليسبس** ولم يكن يدرى أن لقاءه بالقنصل سيغير له مجرى حياته.

ثالثًا: دى ليسبس وبارتولدى

كان اللقاء بين الرجلين يشبه لقاء الماء بالزيت، كل شىء يفرقهما ولا يجمع بينهما إلا الطموح من ناحية وصلة كل منهما بمجموعة السان سيمونيين فى فرنسا ومصر من ناحية أخرى.

وكان السان سيمونيون مولعين حتى الجنون بنابليون والثورة الفرنسية، كانوا إذن جمهوريين حتى النخاع وكانت صلات **بارتولدى** بهم وبنخبة واسعة من الفلاسفة الجمهوريين وعلى رأسهم **لابولاى**، قد جعلت منه أيضًا جمهورياً عنيداً، بينما دى ليسبس رغم إعجابه الشديد بنابليون وبالثورة، فإن الأقدار دفعته فى اتجاه الملكيين الفرنسيين من أسرة نابليون؛ ربما لأن الامبراطورة أوچينى تمت بصلة قرابة بعيدة إلى أسرته، وربما لأن الدبلوماسى المحنك فيه قد جعله لايجاهر صراحة بآرائه، وربما - وهو الأرجح - أن مصالحه الشخصية بعد ارتباطه بأسرة محمد على فى مصر حتمت أن يرتبط بالأسرة المالكة فى فرنسا خصوصًا بعد توقيع امتياز حفر قناة السويس واحتياجه الشديد جداً لتأييد ومساعدة الإمبراطور والإمبراطورة فى فرنسا.

بقيت هناك نقطة أخرى مهمة تفرق بين **دى ليسبس وبارتولدى**، وهى مترتبة ولا شك على ميول كل منهما السياسية ألا وهى انتماء **بارتولدى** إلى جماعة ماسونية ترتكز معتقداتها على الأسس والجذور الغربية للماسونية، على عكس دى ليسبس وأبيه ماتيو الذى كان أحد مؤسسى الماسونية الشرقية فى مصر ولبنان.

على أية حال كان اللقاء الأول فاتراً إلى حد أن **دى ليسبس** «لم يكفّ عن صب الماءالبارد على وجهى» على حد تعبير **بارتولدى** فى رسالة لأمه (١) تعبيراً عن جفاف العلاقة التى ربطت بين الرجلين منذ اللقاء الأول، وبالطبع لم يتمكن **بارتولدى** من رؤية الخديوى سعيد وعاد بسرعة إلى فرنسا ليقدم للجمهور الفرنسى محصلة زيارته لمصر، وهى كما أسلفنا غنية بالأعمال الفنية المتعددة الأشكال فما أن حل موعد معرض باريس الدولى العام ١٨٦٧ وكان الحاكم قد تغير بمصر، وأصبحت علاقة دى ليسبس بأسماعيل متذبذبة بين الفتور والبرود لأن إسماعيل كان يعتقد أن دى ليسبس أسرف فى استخدام صداقته لسعيد لمصالحه الخاصة، وأسرف فى حقوق مصر، وكان الخديوى على وشك أن يدخل فى صراع مع شركة قناة السويس وأن يلجأ إلى تحكيم الإمبراطور نابليون الثالث، وكلنا يعرف صلة زوجة الإمبراطور بـ«دى ليسبس» ودون الدخول فى تفاصيل هذه المشكلة، فإن ما يهمنا أن الوضع قد تغير بالنسبة لكل الأطراف **دى ليسبس، وبارتولدى**، ومصر نفسها. من خلال المعرض سابق الذكر، عرض بارتولدى آخر لوحاته المستوحاة من مصر هذه اللوحة تحمل اسم «ذكرى من مصر» Souvenir d'Egypte وكانت مصر ممثلة فى هذا المعرض على نحو آثار إعجاب ودهشة الناس، ذلك أن

الخديوى أراد أن يظهر للناس ميوله للعظمة وللمدنية فأقام قصراً خشبياً رائع التصميم[٢]، وزخرفه بالرسم والنقوش الفرعونية وفى هذا القصر، عرض بارتولدى لوحته سابقة الذكر «ذكرى من مصر» وكان إعجاب الخديوى بها كبيراً

فى اللقاء الذى تم بين الخديوى وبارتولدى فى المعرض دعى الأول الثانى فى مصر وعرض مشروعاته عليه وهكذا تم مع إسماعيل ما لم يتم مع سعيد، وكان أن عاد إسماعيل إلى مصر بعد زيارة حافلة إلى فرنسا، وعكف بارتولدى على تصميم ضريح هائل للخديوى على شكل قصر دائرى يعلوه أسد هائل وقد تربع عليه الخديوى إسماعيل فى وضع التأمل (لاحظ نفس الفكرة فى تمثال شامبليون آنف الذكر)، وشد الفنان رحاله إلى مصر ليصلها فى مارس ١٨٦٩ ليقابله دى ليسبس ببعض الحرارة هذه المرة لأسباب قد لا تخفى الآن على القارئ، وفى اللقاء الذى يقال أن دى ليسبس رتبه مع الخديوى، رغم أن ليس هناك ما يثبت ذلك، عرض **بارتولدى** على الخديوى مشروعه ليفاجأ بأن هذا الأخير يطلب منه تمثالا هائلا يضعه عند المدخل الشمالى للقناة التى من المقرر أن تفتتح خلال أشهر، وهنا يخرج **بارتولدى** قلمه ويرسم أمام الخديوى تمثالا كبيراً على نمط تماثيل الفراعنة التى بهرته فى زيارته الأولى، لكن الخديوى يطلب منه «أن يكون المشعل على الرأس بدلا من اليد على نفس طريقة الفلاحات المصريات»[٣].

ويعود **بارتولدى** إلى فرنسا محملا بآمال تسع الدنيا كلها ويصمم عدة ماكيتات للتمثال، كلها موجودة الان بمتحف بكولمار وقد أطلق عليها المجموعة المصرية على أمل أن يعود إلى مصر ويحصل على موافقة الخديوى النهائية على إحداها ويشرع فى التنفيذ.

وتمر الشهور وتفتتح القناة دون تمثال، بل ونفاجأ أن هناك حفلة تبرعات واسعة النطاق فى فرنسا وأمريكا لاتمام صنع التمثال وإهدائه إلى الولايات المتحدة!.. فكيف حدث هذا؟

رابعًا: كيف تم تحويل مسار التمثال؟

بين عام ١٨٦٧ وعام ١٨٦٩، تاريخ افتتاح القناة جرت مياه كثيرة تحت الجسر، ذلك أن الخديوى الذى أنفق بجنون على مشاريعه لإدخال الحضارة الحديثة إلى مصر، كما أنفق ببذخ على حياته الخاصة وعلى حاشيته بالإضافة إلى حروبه فى السودان والحبشة وهداياه التى فاقت ألف ليلة وليلة إلى الباب العالى وأركانه... إلخ.

كل ذلك جعل الوضع المالى لمصر غاية فى الصعوبة فإذا ما أضفنا تكاليف حفل الافتتاح التى يصفها بشكل دقيق چان مارى كاريه فى كتابه العمدة «رحالة وكتاب فرنسيون فى مصر» Voyageurs et écrivains Francais en Egypte.

كانت الصورة إذن قاتمة وأدرك الخديوى الكبير أن أيامه أصبحت معدودة خاصة وأن الإنجليز دخلوا على الخط وأصبحوا من الحساسية من الخديوى ومن القناة ومن فرنسا إلى حد أنهم بدءوا يحسبون عليه خطواته ويضخمون مشاكله ويزيدون وضعه المالى تعقيداً.

على أية حال هذا الموضوع ليس محور اهتمامنا الآن إلا أنه يظهر المناخ الصعب الذى أراد فيه **بارتولدى** تحقيق حلمه بإقامة التمثال الفرعونى الضخم عند مدخل القناة الشمالى.

لكن المنطق، منطق الخديوى إسماعيل، كما عرفنا فى كل ما يخص إظهار عظمة ملكه، وما يخص علاقته بالفرنسيين والفنانيين منهم على وجه الخصوص، هذا المنطق الذى يطلب تمثالا ويعطى توجيهات، هذه المطالب المصحوبة بتوجيهات لابد أن تكون خديوية أقصد مدفوعة أو على الأقل مدفوع جزء منها، فكيف نتصور فنانا ينفق على ماكيتاته ثم رسومه ثم سفرياته وإقامته دون عون الخديوى؟

الذى نحن متأكدون منه أن الخديوى قد طلب التمثال والمقبرة معًا، وأنه قد أعطى تعليمات للفنان كى يُعَدِّل فى التمثال على نحو ما يريد **بارتولدى** نفسه وعلى نحو ما تثبته صورة التمثال التى قدمها للخديوى بنفسه وأشار هو بنفسه إلى ذلك أسفل الصورة، أما المدفن أو المقبرة فلا نعرف على وجه الدقة رأى الخديوى فيها، وإن كانت من العظمة والجمال بحيث أن رجلا كالخديوى إسماعيل لم يكن إلا ليرغب فيها ويطلبها من **بارتولدى**، وعلى أية حال فيما يخص المقبرة ما نملكه من وثائق لا يدل على شيء ذى أهمية للباحث العلمى أما التمثال الذى كان على ما يبدو مطلوباً فى عجلة من الأمر لأن القناة على وشك الإفتتاح، وهنا تحدث كارثتان ستقلبان الأوراق على المائدة، الأولى هى هزيمة فرنسا أمام بروسيا عام ١٨٧٠ واحتلال إقليم الألزاس موطن **بارتولدى** ثم وفاة الإمبراطور نابليون الثالث منفيًا فى انجلترا عام ١٨٧٣، وبعد ست سنوات فقط عزل إسماعيل وعاش ومات منفيًا فى استانبول، وأصبح صاحبا القناة، مالكها الأول، وحاميها الثانى، خارج اللعبة ويجد **بارتولدى** نفسه فى مأزق كبير.

وفى رسالة خطيرة إلى أمه بتاريخ ١٣ ديسمبر ١٨٦٩ يشرح لها فى مرارة أنه ينوى السفر إلى أمريكا للاستجمام. ثم يقول لها أنه لن يفعل ذلك قبل عام.

فى هذا العام حدث - كما رأينا - هزيمة فرنسا وحصار باريس، ثم صمت كامل من جانب الخديوى إسماعيل الذى وضح تماماً أن هناك شخصاً ثالثاً لا يرغب فى التمثال.

هذا الشخص الثالث قد يكون دى ليسبس الذى لم يحبه قط، وقد يكون الفيلسوف لابولاى عالم الفلسفة وعالم السياسة المتأمرك والذى كان يحبه حباً شديداً ويعتبره ابنه الروحى.

لقد جعلت هزيمة أسرة نابليون موقفه فى موضع صعب دون حماية ودون غطاء سياسى، وكان عليه البحث عن مغامرة جديدة فى عالم جديد على نحو ما سنرى فى مغامرة قناة بنما، ثم أن استفحال ديون الخديوى العامة منها والشخصية كانت تجعل رجلا مثل دى ليسبس يخشى دخول مغامرين جدد على الخط وأصبحت حاجته لإنجلترا تزداد يوماً بعد يوم، خاصة بعد ما وضح نفوذها فى القناة ونفوذها على الخديوى، ولاندرى على وجه الدقة سبب اللهجة المريرة التى يتحدث بها بارتولدى عن دى ليسبس فى رسائله لأمه دون أن يروى السبب لذلك، ولعله لم ير أن يسبب لأمه أحزاناً أو قلقاً شديداً، وعندما أطلق لابولاى فكرته بإقامة تمثال كبير تهديه فرنسا إلى أمريكا بمناسبة مرور مائة عام على استقلالها، كان دى ليسبس متحمساً جداً لأنه - ولا شك - كان يعد لتوجيه الأنظار إلى العالم الجديد من أجل مشروعه القادم.

أما لابولاى الذى أقنعه بضرورة السفر إلى أمريكا، يرد عليه بارتولدى فى الرسالة التالية بتاريخ ٨ مايو ١٨٧١: «لقد قضيت بعض الوقت من أجل تنظيم بعض شئونى المختلة، ولكن مع فكرة خلفية بالذهاب لاستنشاق الهواء فى مكان آخر، واعتقد أنها اللحظة المناسبة لتنفيذ الرحلة التى كان لى شرف الحديث عنها معك، وأعددت نفسى للسفر آخر هذا الشهر للولايات المتحدة، أطلب إذن - عزيزى - مساعدتك الكبيرة التى وعدتنى بها على شكل رسائل التى قد ترفع من قدرى لدى الجمعيات ولدى الصحافة والحكومة ... وأرجو عندما أعود أن أجد فرنسا المسكينة وقد برأت قليلا من المصائب المتعددة التى تسبب فيها النظام الإمبراطورى»، وعندما انتشرت فكرة تمثال الحرية فى فرنسا وأمريكا هاجمت الصحف فى فرنسا بارتولدى واتهمته بإهداء تمثال بيع مسبقاً، ويقول **برتراند لوموان** Berterand Lemoine أحد أعظم مؤرخى **بارتولدى** فى كتابه القيم «تمثال الحرية» لقد دافع **بارتولدى** بشكل شىء عن نفسه أمام اتهامات الصحافة له ببيع المشروع الذى كان قد باعه بادعاءه بأنه لم يرسم لقناة السويس إلا كروكيا صغيراً ويتابع لوموان ليدحض بنفسه حجة بارتولدى فيقول «إن الماكيتات المحفوظة تظهر لنا بشكل واضح عكس ذلك»(٥).

وعندما اشتدت الحملة على بارتولدى ولابولاى ظهر فى فرنسا من يدافع عن التمثال كهدية لأمريكا ولكن دون الإخلال بحق مصر، على الأقل ذكر اسمها فى لوحة قاعدة التمثال واعتبار هذا التمثال خيطاً رابطاً العالم القديم المتمثل فى مصر، بالعالم الجديد المتمثل فى أمريكا.

واختفت فجأة وثائق كثيرة ثم صمت الخديوى إسماعيل نفسه المحير والذى كان لا يزال على قيد الحياة فى استانبول عند افتتاح التمثال فى نيويورك عام ١٨٨٥(٦).

كل هذه علامات استفهام مازالت تحتاج إلى بحث وتحليل من الباحثين والمؤرخين

على أية حال أنا لم أدع ملكية مصر بعد لهذا التمثال ولكنى أشك فى ملكية فرنسا وأمريكا له، هناك فارق بين الفرضين أو بين الظنّين ولست أقصد هنا فتح النار على دول أو على أشخاص وإنما أبغى فتح الملف، وإذا كان لنا مسلة فى ميدان الكونكورد ورضينا بهذا وإذا كانت لنا آثار فى متاحف الدنيا كلها يعلم الله كيف خرجت من مصر فليس لنا أن نبكى على تمثال الحرية، لنا أن نبكى فقط على ضياع حقيقة تاريخية أخرى من حياتنا ■

هوامش

(١) فى رسالة من بارتولدى إلى أمه بتاريخ ٦ مارس ١٨٦٥ من أرشيفات المكتبة البلدية بكولمار. قسم بارتولدى.

(٢) هذا القصر موجود الآن فى قصر ليندر هوف Linderhof بباڤاريا بعد أن اشتراه لويس الثانى من الخديوى إسماعيل

(٣) من رسالة لبارتولدى لأمه ١٥ أبريل ١٨٦٩.

(٤) عددها يتجاوز السبعة وكلها من التماثيل متوسطة الحجم مرتدين ملابس الفلاحة المصرية وبعضها كتب عليه أنها موجهة للخديوى إسماعيل.

(٥) «La statue de la lihert» B le-moine, raioga Ed.

(٦) مات الخديوى عام ١٨٩٥. Bnuxallis. 1958.

مراجع البحث

(ذكرت هنا فقط أهم المراجع وخصوصاً منها الذى يهتم بالجانب المصرى المشروع)

المراجع الإنجليزية:

1 - «The Statue of liberty»

The Centenary edition of a classic history and Guide.

by. Harvin tra chthenberyry

ed. Elisabeth sifton Books Penguin Books 1984

المـــراجـــع الفـرنسـيـة :

المرجع الفرنسى الوحـيـد الذى يلقى بظـلال الشك عـلى حـق بارتولـدى فى التصرف فى التمثال هو كتاب برتران لوموان

(1) Le Statue de la liberty de Bertrand lemoine

ed . rardaga, bruxelles 1958.

(2) Vérité sur la statue de la liberty et son Createur

André Gschaedler

ed. Jerome dobintzinger Editer 1986.

2 - The story of the statue of liberty and Ellis is laud

James B. Bell

(Spécial centennial Commemoratius) Richard and .i Abrams.

ed. Double day and combagny in Garden city

new York 1984

المواجهات

ماذا يبقى للشيوعيين تحت مظلة الليبرالية والراية الوطنية ؟

- الاشتراكية غداة انهيار الستالينية، ترجمة: بشير السباعى.
- حول انهيار النموذج السوفييتى، خليل كلفت.

مـــــاذا يبـــــقى



للشـــيـــوعــــيـــين..

تحت المظلة الليـــبـراليـــة والراية الوطنيـــة؟

منذ عام ١٩٨٥ وصعود جورباتشوف إلى قمة السلطة بالاتحاد السوڤيتى السابق، والأحداث تتلاحق فى العالم بالتحولات العميقة والانهيارات الضخمة.

فقد بدا صعود جورباتشوف إيذاناً بتحولات جذرية فى أوروبا الشرقية وروسيا، حيث انهارت الاشتراكية التى طبقت (اشتراكية القياصرة)، ولقد تلقى الغرب الرأسمالى هذا الانهيار بمقولات مثل: «نهاية التاريخ»، و«انتصار الرأسمالية النهائى». وبالفعل كانت الثمانينيات حقبة توسع للمد الرأسمالى، وتراجعاً للمنظومة الاشتراكية، فقد بدأ العمال فى بولندا إضرابهم، الذى أنهى الحكم هناك ثم تسارعت الأحداث فى تشيكوسلوفاكيا ورومانيا وألمانيا الشرقية والاتحاد السوڤيتى نفسه.

لكن السؤال المُلِحّ فى أذهان مفكرى الشيوعية:

ماذا عن المستقبل؟!

وهنا فى «مجلة القاهرة» ـ ننشر دراستين، الأولى نشرت فى نوفمبر ١٩٩٠ ـ على شكل كراس صادر عن مجلة «سوشياليست آرتلوك» البريطانية دون إشارة إلى اسم المؤلف ومن ترجمة بشير السباعى، والثانية لـ «خليل كلفت» حول انهيار النموذج السوڤيتى والدراستان تقدمان رؤية للماركسية الجديدة، وتوضحان الأسباب التى أدت إلى هذا الانهيار للاشتراكية التى كانت على مدى عقود تحمل عوامل فنائها.

لا شك أن الديمقراطية الغائبة على مدى عقود طويلة، وتفشى البيروقراطية، أديا إلى تسارع سقوط نموذج الاشتراكية التى أخذت طريقها إلى التطبيق فى مجتمعات قادمة من التخلف الحضارى ـ روسيا مثلا التى كانت مليئة بالقنانة والعبيد والحكم القيصرى ـ ومن هنا كانت الرؤية الاشتراكية مزروعة بقوة فى أرض غير صالحة. ولذا انفجرت فى المجتمعات «الاشتراكية» السابقة الاثنيات والعرقيات والقوميات، تحت ستار الليبرالية والديمقراطية والتطلع إلى الغرب الرأسمالى.

ومنذ عام ١٩٩٠ وصعود ما يسمى بالنظام العالمى الجديد وانفجار الحروب والقوة الدولية الواحدة، نرى أن هناك أحزاباً ـ اشتراكية غيرت أسماءها وأضافت كلمة الديمقراطية وهنا لا يزال السؤال قائماً:

ماذا يبقى للشيوعيين تحت المظلة الليبرالية والراية الوطنية؟!

التحرير

ماذا يبقى للشيوعيين؟



الاشتراكية غداة انهيار الستالينية

ترجمة: بشير السباعي

● معالجة لمشكلات العالم المعاصر وآفاق تطوره، نشرت فى نوفمبر ١٩٩٠ على شكل كراس صادر عن مجلة «سوشياليست آوتلوك» الشهرية البريطانية، دون إشارة إلى اسم المؤلف.

الاشتراكية فى أزمة ؟

توجد اليوم أزمة تكاد تكون غير مسبوقة فى الإيمان بالاشتراكية - فى بريطانيا وفى معظم بلدان العالم. وليس من الصعب تمييز جذور هذه الأزمة. فانهيار «اشتراكية» الدولة فى أوروبا الشرقية والأزمة فى الاتحاد السوفيتى والأحداث فى الصين قد أفرزت شكوكا ضخمة فيما يتعلق بما إذا كان بوسع الاقتصاديات المخططة مركزيا أن تكون كفؤاً أو ديمقراطية فى أى يوم من الأيام. ونتيجة لذلك، فإن الأيديولوجيين المؤيدين للرأسمالية قد وجدوا مجالا واسعاً لإعلان أن الاشتراكية تتراجع فى كل مكان وأن الماركسية قد «ماتت».

وقد أدى التحرك السياسى إلى اليمين فى كثير من البلدان الغربية إلى إفراز الشكوك حول إمكانية الحصول فى أى يوم من الأيام على تأييد شعبى للاشتراكية. وهذا صحيح بشكل خاص فى بريطانيا، حيث أدى عقد من التاتشرية إلى تحويل مجمل المشهد السياسى صوب اليمين : إذ يبدو أن عديدا من الاشتراكيين السابقين يقبلون سياسات «كينوك» شبه التاتشرية بوصفها أفضل ما يمكن إنجازه.

والحال إن الشعور بأن أعداءنا يشنون الهجوم، وبأننا نتراجع، قد زادت من احتداده التحركات الرامية إلى استعادة الرأسمالية فى أوربا الشرقية. وحتى بالنسبة لغالبية اليسار الذى لم يكن يعتبر الكتلة الشرقية «اشتراكية»، فقد كان ينظر إليها على أنها تشكل عقبة فى وجه الغرب والإمبريالية، بوسعها مساعدة الثورات فى العالم الثالث على الأقل. والآن يبدو أن هذه العقبة تنهار فى اتجاه «انتصار نهائى للغرب» - وهو تصور عززه انفلات العسكرية الإمبريالية المسعورة فى الخليج والحال أن هذا التغير الواسع فى السياسة الدولية والمحلية قد أفرز فى جانب منه، واجتمع فى جانب آخر منه، مع شعور متزايد بين صفوف اشتراكيين كثير بأن نظرياتنا وبرامجنا التقليدية لا تملك

إجابات عن كثير من المشكلات الملحة ـ والأزمة الأيكولوجية ليست غير مجرد مثال واحد لذلك.

ونحن نرى في هذا الكراس أن ردا اشتراكيًا مناسبًا على الأزمة الراهنة يجب أن يستند إلى أمرين. الأمر الأول هو نبذ الاستسلام لليأس والتخلي عن الاشتراكية. والأمر الثاني هو الإصرار على التفكير العميق. في المسائل التي طرحتها الحالة العالمية الجديدة وعلى الانخراط في جهد جماعي يهدف إلى عصرنة وتجديد نظرياتنا واستجاباتنا السياسية العملية.

وإذا كانت الاشتراكية تواجه صعوبات جديدة جسيمة، فإن الرد لا يتمثل بالتأكيد في السقوط في موقف مؤيد للرأسمالية. فأيا كانت نجاحاتها المعاصرة، لا تظهر الرأسمالية الدولية أية دلائل على أنها قادرة على تلبية أبسط حاجات مئات الملايين من الفقراء فقراً ميئوسا منه، ومن الناس المستغلين في العالم. وأيا كانت الإجابة، فإن الرأسمالية ليست إجابة.

ومن الناحية الأخرى، فإن إدراك أن الرأسمالية لا تزال نظام الاستغلال والنهب الخبيث الذي كانته دائما، لن يقدم لنا إجابات عن طابع الأزمة العالمية. فالاشتراكية، لكي تكون هدفا قابلا للحياة، ودليلا للعمل يمكن أن يلهم ملايين العمال، يلزم لها دائماً أن تتغير وأن تتكيف. والحال إن المفكرين الاشتراكيين الكبار ـ بدءاً من ماركس نفسه، في الواقع ـ لم يكونوا كباراً لأنهم كرروا عن ظهر قلب الحكمة التي خلفتها لهم أجيال من الاشتراكيين. لقد كانوا كبارا لأنهم جددوا، لأنهم فكروا تفكيراً عميقًا في المشكلات الجديدة وقدموا إجابات جديدة، لأنهم قدموا رؤية اشتراكية لزمانهم.

وإعادة التفكير في الاشتراكية ليست في حد ذاتها «نزعة مراجعة». ومن الناحية الأخرى، فإن عصرنة النظرية الاشتراكية ليست أمراً مماثلا للقفز إلى عربات موسيقى الموضات الثقافية اليمينية الرائجة ـ «ما بعد الحداثة»، «مابعد الماركسية»، «ما بعد الفوردية»، وما إلى ذلك. إن احترام القيم المادية الأساسية، قيم البرهان والحقائق الواقعية يجب أن يكون نقطة انطلاقنا. أما أولئك الذين يتخلصون من الطفل الماركسي مع الحمام الستاليني فسوف ينتهون بسرعة كافية، إما إلى التفسخ أو إلى الدفاع عن الأمر الواقع.



الأزمة العالمية الجديدة

سوف يدخل عام ١٩٨٩ التاريخ بوصفه أحد الأعوام الرئيسية في تاريخ القرن العشرين. فقد رمز انهيار سور برلين إلى انهيار النظم الستالينية في أوروبا الشرقية. وأدت الأحداث الرهيبة في بكين إلى تبديد أية أوهام باقية في أن النظام البيروقراطي في الصين يقدم نموذجا أكثر انسانية وتقدمية. وخلف هذه الأحداث تهدر الدراما المتواصلة في الاتحاد السوفيتي نفسه، حيث لا يتوافر يقين عن أي مخرج اشتراكي في الأجل القصير.

وترتبط بهذه الأحداث هزيمة الساندينستا الانتخابية في نيكاراجوا، وهي حدث أدى إلى تفسخ عميق للجماهير في امريكا اللاتينية وخارجها. ومن السهل استنتاج أنه ترتيبا على ذلك فإن الستالينية العالمية هي وحدها التي في أزمة، جارة معها إلى الهاوية مجمل المشروع الاشتراكي. لكن الواقع أكثر تعقيدا من ذلك بكثير فانهيار الستالينية سمة محورية للأزمة العالمية الجديدة، لكنه ليس السمة الوحيدة أبداً.

فأزمة الستالينية تجتمع مع أزمة دامت عقودا للرأسمالية الدولية، لاتزال بعيدة عن الحل. وليس الصعود الجديد للعسكرية الإمبريالية في العالم الثالث غير جانب واحد فقط لمحاولة التغلب على تلك الأزمة وجعل العالم مكانا آمنا للرأسمالية. ولتكوين صورة واضحة عن الأزمة العالمية يلزم دمج العوامل التالية.

ماذا يبقى للشيوعيين؟



فشل الرأسمالية العالمية في الإفلات من دورة انحدارها النسبي المديدة

لقد أدى انهيار سوق الأسهم في نوفمبر ١٩٨٧ إلى إنهاء الرواج المحدود المضارب والتضخمي في الثمانينيات. فالرأسمالية العالمية الآن هي في مرحلتها بعد الرواجية. وعلى مدار نحو عشرين سنة والرأسمالية تحاول التغلب على أزمة الربحية والتي ترتبت على انتهاء رواج ما بعد الحرب (العالمية الثانية) والذي دام من عام ١٩٥٠ إلى نهاية الستينيات.

وشهدت الرأسمالية العالمية بالفعل توسعا في الثمانينيات. وهو توسع محدود ضمن موجة أزمة وانحدار عامة. وكان وقود هذا التوسع هو نمو الاقتصاد الأمريكي عبر الاستدانة. وهذا النمو، الذي كان يهدف في جانب منه إلى تمويل البرنامج الأمريكي الضخم لإعادة التسلح في ظل ريجان ووانبيرجر، قد جرى تمويله بالاقتراض الضخم من اليابان وألمانيا والبلدان الرأسمالية الرئيسية الأخرى. وقد استخدمت الديون في تمويل الرأسمالية الأمريكية في فترة كانت قد أصبحت فيها بالفعل قوة صناعية منحدرة. والحال أن رواج الثمانينيات قد انقلب إلى عكسه. فقد أدى في الولايات المتحدة إلى فوضى ميزانيات مالية مع تأرجح الحكومة على حافة الإفلاس.

ويتجه اقتصاد اليابان نحو الركود، ولم يعد بالامكان الاعتماد على أن البنوك اليابانية سوف تشتري كميات ضخمة من سندات الخزانة الأمريكية لكفالة الإنفاق الحكومي الأمريكي. أما ألمانيا، القوة الرأسمالية الرئيسية التي عززت موقفها الإجمالي في الثمانينيات، فهي تجهد بصعوبة لدفع تكاليف إعادة التوحيد. وطبيعي أن بريطانيا تتجه صوب «ركود تضخمي شامل» ـ حيث يجتمع ركود عميق مع كل من ارتفاع نسبة البطالة والتضخم، وهو ما يشهد على فشل «الثاتشرية» طويل الأجل. ويتمثل رد رئيسي من جانب الولايات المتحدة على انحدار قوتها الاقتصادية في محاولة استخدام تفوقها العسكري، قيادتها العسكرية والسياسية لـ «العالم الحر» لتعزيز وتوسيع موقعها الاقتصادي. وأزمة الخليج هي نجاحها الأكثر إثارة، حتى الآن، في كسب القيادة العسكرية والسياسية الشاملة للغرب.

وخلال السبعينيات والثمانينيات كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي على حد سواء قوتين اقتصاديتين آخذتين في الانحدار، وكانتا تدينان بمكانتهما كـ «قوتين عظميين» لجبروتهما العسكري. ومن الناحية الاقتصادية، فإن أوروبا الغربية واليابان على حد سواء قد عززتا موقعهما. والحال إن الأزمة السياسية قد ضعضعت الجبروت العسكري للاتحاد السوفيتي، تاركة الولايات المتحدة بوصفها القوة الوحيدة القادرة على استخدام العسكرية لموازنة الانحدار الاقتصادي. وهي تستخدم ذلك الخيار بلارحمة، كما يثبت ذلك غزو بنما والتدخل في الخليج و «الحملة الصليبية» العسكرية الجديدة «ضد المخدرات» في أمريكا اللاتينية والوجود الضخم المتواصل في المحيط الهادي.

على أن الرد الرأسمالي العام على الأزمة الطويلة، بشكل أكثر إثارة بعد ركود ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥، قد تمثل في جهد متواصل يرمي إلى إعادة الهيكلة والهندسة الاجتماعية من أجل استعادة الأرباح. وقد قاد ذلك، بين أمور أخرى، إلى انبثاق بطالة جماعية (٤٠ مليون إنسان في البلدان الرأسمالية المتقدمة)، وإلى محاولة تقويض قوة النقابات والمنظمات العمالية الأخرى، وإلى محاولة خلق «مجتمع ثلثين» سعيا إلى تهميش قسم ضخم من القوة العاملة وإزالة الإعانات الاجتماعية بشكل دائم، وإلى أشكال جديدة لتنظيم الإنتاج (تسمى على نحو مضلل بـ «مابعد الفوردية») هدفها الأساسي هو خفض تكاليف الإنتاج، خاصة تكاليف العمل. والحال إن كل هذه المحاولات قد أصابت النساء والعمال السود والعمال المهاجرين إصابة قاسية بشكل خاص.

وعلى الرغم من قرابة عقدين من الجهد المكثف، فإن الأزمة الرأسمالية

الأساسية لم يجر التغلب عليها، لأن الحلول لا تتعامل بشكل مناسب مع المشكلة. فأزمة الربحية هى فى أساسها أزمة فائض إنتاج (أزمة «التكوين العضوى المتصاعد لرأس المال») لا يمكن حلها حلا نهائياً إلا بالعثور على مصبات استثمار منتجة جديدة تسمح بتحقيق معدل ربح أعلى بكثير. وأحد السبل الرئيسية إلى ذلك هو الخفض الحاد لتكلفة قوة العمل - بعبارة أخرى، فرض هزائم ضخمة على الحركة العمالية العالمية. وبالرغم من كل شيء ، فإن مثل هذه الهزائم الضخمة لم تحدث بعد .

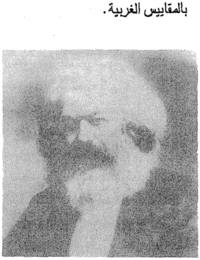
والقول بأن الرأسمالية فى أزمة طويلة لا يعنى أنها سوف تنهار من تلقاء نفسها. وقد اعتاد لينين القول بأنه ليست هناك أزمة لا يمكن للرأسمالية الخروج منها شرط أن تكون الطبقة العاملة مستعدة لدفع الثمن . والرأسمالية أمامها مخارج من هذه الأزمة.

ففى الأجل الطويل، لو أمكن إعادة الرأسمالية فى أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى، فإن ذلك بوسعه أن يوجد مركزاً ضخما جديداً للإنتاج الرأسمالى بتكاليف عمل أدنى بكثير مما فى الغرب. لكن ذلك يتوقف على إنزال هزيمة مطلقة بالعمال فى تلك البلدان، ليس فقط فيما يتعلق بإقامة الرأسمالية، وإنما أيضافيما يتعلق بمعدلات أجورهم وظروفهم الاجتماعية .

الاتساع المتواصل للهوة بين البلدان الغنية والبلدان الفقيرة

على مدار أكثر من عشر سنوات الآن والمستويات المعيشية الفعلية فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية آخذة فى الانحدار- وذلك بشكل مطلق وقياساً إلى المستويات المعيشية فى الشمال الأكثر ثراءً على حد سواء .

وخلال الفترة نفسها، زاد دخل الفرد فى آسيا زيادة طفيفة، لكن ذلك يرجع بشكل رئيسى إلى الثراء النسبى لـ «البلدان المصنعة حديثًا» الأربعة - تايوان وسنغافورة وهونج كونج وكوريا الجنوبية (وكذلك الزيادة فى إنتاجية الزراعة فى الصين) . وحتى فى البلدان الأربعة المصنعة حديثا، فإن معظم السكان فقراء بالمقاييس الغربية.



ماركس

والعامل الرئيسى هنا هو الميل طويل الأمد داخل البلدان الرأسمالية الرئيسية فى اتجاه معدلات ربح أدنى، وأزمة الديون المترتبة على ذلك. فخلال السبعينيات جرى تحويل أموال استثمار ضخمة إلى العالم الثالث - خاصة أمريكا اللاتينية. أما الآن فإن التدفق الاستثمارى يسير فى الاتجاه الآخر- فالفقراء يمولون استثمار الأغنياء من خلال أقساط سداد وفوائد الديون والانهيار فى أسعار السلع الأساسية التى يعتمد عليها كثير من بلدان العالم الثالث . والنتيجة هى الانعدام الدائم للاستقرار السياسى فى الجنوب.

تصاعد أخطار القنبلة الأيكولوجية الموقوتة

كان إفساد البيئة ولا يزال سمة للرأسمالية منذ الثورة الصناعية- وهو ظاهرة قلل ماركس من شأنها. لكن أبعاد ذلك الإفساد قد أصبحت الآن تشكل أزمة عالمية، وذلك لسبب واحد بسيط: أنها تهدد بأن تصبح غير قابلة للإزاحة. والجانب الأخطر لذلك معروف- ازدياد الحرارة فى الأرض وتدمير طبقة الأوزون

ولا أحد يعلم، ولايمكن لأحد أن يتوقع بدقة، الأبعاد المحددة للأزمة الأيكولوجية. وما نعلمه هو أنه مالم يتخذ إجراء جذرى على صعيد الكوكب لوقف حرق الوقود المستخرج من باطن الأرض وتدمير الغابات واستخدام الكلورو فلورو

مــاذا يبــقى للشــيــوعــيين؟



كربون، فإن بالإمكان أن تحدث كارثة عالمية. وهذا جانب محورى للأزمة العالمية الجارية، وهو جانب يفهمه الأيديولوجيون المؤيدون للرأسمالية الأكثر بعدا للنظر، لكن الرأسمالية والبيروقراطيات الستالينية عاجزة عن معالجة الأزمة. فهى تتطلب تخطيطاً دولياً وإيجاد أولويات أيكولوجية لا يمكن للسوق وللتخطيط البيروقراطى توفيرها وتبين الاعتبارات السالفة أنه فى حين أن الموقف الحالى يتبدى بالدرجة الأولى بوصفه لأزمة سياسية للستالينية الدولية، فإن الرأسمالية العالمية تواجه اتجاهات تهددها على مدى طويل. ومن الزاوية التى تهم البشرية بوجه عام، فإن البحث عن بديل للرأسمالية وللاقتصاديات البيروقراطية ليس مجرد مسألة أخلاقية، بل مسألة ضرورة عملية ملحة.

نهــايــة الســتــالينيــة
مــا الذى مثلته الستــالينية، ولمــاذا انهــارت؟

الستالينية هى أكبر مأساة حلت بالاشتراكية فى القرن العشرين. فقد بددت أحلام وحيوات وطاقات آلاف لا حصر لها من البشر، الذين كانوا ضحايا لها أو أنصارالها. ومحصلتها تجمع بين المأساة والمهزلة فى آن واحد. على أن انهيار الستالينية فى أوروبا الشرقية، وإن كان يستحق الترحيب، لم يؤد بعد إلى إقامة اشتراكية ديمقراطية. وللإجابة عن السبب فى ذلك، من الضرورى التساؤل عما مثلته الستالينية ولماذا انهارت.

إن الجدل حول أصول الستالينية هو جدل طويل ومعقد. وبشكل بسيط وواضح فإن الستالينية كانت نظامًا جمع بين التخطيط المركزى من جانب الدولة، وملكية الدولة للاقتصاد من ناحية والديكتاتورية السياسية التى مارستها نخبة بيروقراطية بهذه الدرجة أو تلك من العنف من ناحية أخرى. وقد جمع تطورها فى الاتحاد السوفيتي بين شيئين: الآثار الاقتصادية والاجتماعية للتخلف والعزلة، والهزيمة السياسية التى منيت بها القوى المتمسكة باشتراكية ديمقراطية.

والحال إن الحزب البلشفى الذى قاد الثورة الروسية كان يفتقر، بسبب غياب أية نماذج سابقة، إلى فهم عميق لمخاطر البيروقراطية. وكان على المعارضة المضادة لستالين أن تصوغ نظرية عن الانحطاط البيروقراطى للثورات تحت إلحاح الموقف وفى معمعات الصراع.

إن بذور دمار النظام الستاليني قد غرست فى نجاحاته الأولية. ففى الاتحاد السوفيتى، أثبت الاقتصاد الأوامرى البيروقراطى نجاحًا بالغًا فى التصنيع السريع للمجتمع عبر النمو التوسعى. وبسبب موارد الاتحاد السوفيتى الطبيعية الضخمة، كان بوسع تعبئة مقادير متزايدة الاتساع من المواد الخام والعمل أن تخلق بسرعة بنية أساسية صناعية، ولكن بثمن بشرى رهيب وغير ضرورى، بما فى ذلك موت الملايين فى التجميع الإجبارى للفلاحين وحملات التطهير الستالينية.

لكن الستالينية كانت تفتقر إلى شىء كانت الرأسمالية - فى فترات الرواج على الأقل - تمتلكه: ديناميــة متــأصلة نحو التجديد. وهكذا فبينما حققت نجاحاً بالغاً فى النمو التوسعى، افتقرت إلى القدرة على النمو المكثف، وعلى التجديد المتواصل لنوعية الإنتاج. كما افتقرت إلى القدرة على إشباع الحاجات الاستهلاكية المتزايدة فى الوقت الذى كان فيه مستوى المعيشة فى الغرب الرأسمالى آخذا فى النمو. فالاقتصاديات الأوامرية البيروقراطية تتميز باتجاه متأصل ليس فقط إلى التبديد المزمن واللاعقلانية المزمنة، وإنما أيضا إلى إعادة إنتاج نفسها باستمرار دون تجديد.

إن السبب البسيط لانهيار الستالينية فى الشرق هو أنها، إذ بدأت من موقع اقتصادى أكثر تخلفاً، قد خسرت المباراة الاقتصادية مع الغرب الرأسمالى.

وفى الثمانينيات، بينما شهد الغرب رواجا محدودا، فإن الهوة فى مستويات المعيشة بين الشرق والغرب قد اتسعت. وساهم الضغط الاقتصادى، بما فى ذلك سباق التسلح، مساهمة ضخمة فى هذه النتيجة. على الرغم من جميع النجاحات التى تحققت على مدار عقود - التصنيع الأساسى، ضروريات الحياة الأساسية الرخيصة، نظام الرعاية الاجتماعية

المتفاوت ولكن المجانى بوجه عام. فإن الاقتصاد السوفيتى قد أفلس فى نهاية الأمر. وقد أظهر، خلافًا لأوهام كثيرين من الاشتراكيين فى الخمسينيات والستينيات، عجز النظام عن إصلاح نفسه.

وأحد العوامل التى يجب ذكرها هنا هو أن البلدان الرأسمالية المتقدمة، على مدار الزمن الذى وجدت فيه الكتلة الشرقية، قد واصلت انتزاع منهوبات إمبريالية ضخمة من العالم الثالث ـ خلافا للاتحاد السوفيتى. والنتيجة هى أن النظام الرأسمالى العالمى لا يضم فقط البلدان المتقدمة، بل يضم أيضًا مناطق تعانى فيها مئات الملايين من البشر من الفقر والبؤس المزريين اللذين لم يعرفهما قط العمال فى الكتلة الشرقية. ولذا فإن أية صورة عن بؤس اقتصادى فى الشرق ونجاح مجيد فى الغرب هى فى غير محلها.

فلماذا إذن لم يؤد التمرد على الستالينية فى أوروبا الشرقية فورا إلى نتيجة اشتراكية ديمقراطية؟ أولا وبالدرجة الأولى لأن البديل المنظور الوحيد لـ «الاشتراكية القائمة فى الواقع» هو «الرأسمالية القائمة فى الواقع». وبالنسبة لجماهير ألمانيا الشرقية بوجه خاص، ولكن أيضا بقية أوروبا الشرقية، فإن الاشتراكية الديمقراطية هى مجرد فكرة لا إمكانية عملية. إذ لا يوجد مثال اشتراكية ديمقراطية جذاب فى أى مكان على هذا الكوكب. وبعبارة أخرى، فإن السبب يكمن فى غياب الاشتراكية فى البلدان المتقدمة، أى فى فشل الثورة الاشتراكية فى الغرب.

مصير الاشتراكية فى الغرب

للرد على السؤال عن السبب فى أن الثورات السياسية فى الشرق لم تؤد إلى اشتراكية ديمقراطية، يلزم لنا الرد على المسألة الرئيسية للاشتراكية فى الغرب. فهى، بمعنى ما، المسألة التى يتوقف عليها مجمل تاريخ القرن العشرين وأهلية الاشتراكية ذاتها كبديل.

ويتمثل أحد الردود على هذا اللغز فى القول بأن الاشتراكية لم تنجح لأن الرأسمالية «قوية جدا». وفى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، من الواضح أن الرواج الرأسمالى الطويل خلال الخمسينيات والستينيات قد خلق سياقا صعبا للتحول الاشتراكى. لكن قوة



تروتسكى

الرأسمالية ليست غير جزء واحد من أجزاء الصورة. وعلى أية حال، فإن الرأسمالية قد مرت فى القرن العشرين بحالات ركود وأزمات طويلة، بما فى ذلك نشوب حربين عالميتين. إن الرد على اللغز أكثر تعقيدا.

لم تهزم الرأسمالية فى الغرب لأنها صدت التحديات الضخمة التى واجهتها، وهذا يمكن تفسيره جزئيًا فقط بالقوة الداخلية للنظام الرأسمالى نفسه. وبشكل جزئى، فإن هذه النتيجة قد قررها وجود الستالينية عينه. فالستالينية، بتقويضها لتأييد الاشتراكية، قد ساهمت فى استمرار الرأسمالية وبشكل يدعو إلى السخرية، فى هلاكها هى نفسها. وينطبق هذا بشكل خاص على فترة ما بعد الحرب (العالمية الثانية) فى البلدان الرأسمالية الديمقراطية، حيث لم تكن الدول الستالينية جذابة إلا بالنسبة لأقلية معزولة من الطبقة العاملة.

وكان الشىء الحاسم بالنسبة لبقاء الرأسمالية هو هزيمة الأحزاب والتيارات الثورية التى انبثقت فى العشرينيات بعد الحرب العالمية الأولى. والحال إن الهزيمة التاريخية للحركة العمالية الألمانية ـ الأحزاب الشيوعية والاشتراكية الديمقراطية الجماهيرية ـ عندما وصل هتلر إلى الحكم فى عام ١٩٣٣ ـ كانت الفصل المحورى فى هذه المأساة. لكن هزيمة اليسار فى الحرب الأهلية الأسبانية وهزيمة حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية

ماذا يبقى للشيوعيين؟



والحرب العالمية الثانية نفسها قد ساهمت كلها فى تشتت وهزيمة الطليعة الاشتراكية التى تكونت فى فترة ما بين الحربين.

إن تاريخ القرن العشرين حافل بأمثلة فرص التقدم الاشتراكى المهدرة والهزائم غير الضرورية. وأساس ذلك هو أن الحركة العمالية قد سرحتها القيادات الستالينية والاشتراكية الديمقراطية التى سدت طريق الانتصار. وفى حين أن هزيمة الطليعة الاشتراكية خلال سنوات ما بين الحربين (العالميتين) كانت تراكمية، إلا إننا نود إبراز ثلاثة صراعات أساسية بوصفها حاسمة:

أولا، هزيمة ثورة ١٩١٨ - ١٩١٩ فى ألمانيا، وإقامة «جمهورية فيمار». ذلك أن عجز الطليعة الثورية الضخمة المنظمة فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى الموحد وعصبة سبارتاكوس وحركات لجان العمال الثورية عن كسر هيمنة إصلاحيى الحزب الاشتراكى الديمقراطى، قد فتح الطريق إلى الهزيمة. والحال إن ذلك، إلى جانب الفرصة المهدرة فى عام ١٩٢٣، قد أكدا عزلة الدولة السوفيتية الجديدة وجعلا صعود الستالينية أكثر سهولة.

ثانيا، أدت هزيمة المعارضة المناوئة للبيروقراطية فى الاتحاد السوفيتى فى العشرينيات إلى تأكيد صعود «اشتراكية» الدولة السلطوية واستيعاب الحركة الشيوعية العالمية فى الستالينية.

ثالثا، أدى صعود هتلر إلى السلطة، والذى أشرنا إليه أعلاه، إلى عزل الثورة فى أسبانيا ومهد الطريق إلى الحرب العالمية الثانية.

والقول بأن جميع هذه الهزائم كانت «حتمية» ليس أكثر من جبرية تاريخية: أى القول بأن التاريخ قد سار فى المسار الذى سار فيه لأنه كان المسار الوحيد الذى كان يمكن أن يسير فيه. ومثل هذا الموقف ميكانيكى بدرجة عميقة، وهو يقلل من دور الفعل الإنسانى الواعى.

وأيا كان الأمر، فإن الطليعة الاشتراكية الكفاحية التى عرفتها العشرينيات والثلاثينيات لم تبن من جديد فى سنوات ما بعد الحرب (العالمية الثانية). فبمجرد انتهاء أزمة ما بعد الحرب، أدى الرواج الرأسمالى الطويل - رغم أنه لم يخلق استقرارا دائما بالضبط - إلى قصر الثورة على العالم الثالث. ولم يحدث إلا بشكل تدريجى، مع بدء الركود الطويل فى نهاية الستينيات، أن بدأت الاشتراكية الكفاحية فى الانبثاق من جديد كتيار مهم فى الحركات العمالية الغربية وحتى الآن، لم تصبح الاشتراكية الكفاحية قوة جماهيرية، على نطاق ما كانت عليه فى العشرينيات والثلاثينيات على الأقل. فذلك النوع من القوة، الذى شهد وجود عدة أحزاب شيوعية ثورية جماهيرية فى أوروبا، كان نتيجة لجاذبية الثورة الروسية. ومثل هذه التطورات الثورية الأكيدة لم تحدث فى فترة ما بعد الحرب (العالمية الثانية)، خارج العالم الثالث.

وهكذا، فإن النتيجة المباشرة للثورات السياسية فى أوروبا الشرقية هى نتاج لهذا التطور التاريخى الطويل. ولا يمكن قلبها إلا عندما يمر العمال فى تلك البلدان بتجربة ما الذى تعنيه إعادة الرأسمالية وقوانين السوق فى الواقع.

مستقبل أوروبا الشرقية

إن محصلة مجمل الأزمة التى دشنتها الجلاسنوست والبيريسترويكا تتمحور على ما سوف يحدث فى الاتحاد السوفيتى. فالحكم البيروقراطى هناك أكثر انغراسا مما فى البلدان الأوروبية الشرقية الأخرى، والاتحاد السوفيتى غارق فى أزمة مديدة، ليست نتيجتها واضحة. ولا تزال القوى الاشتراكية الديمقراطية هناك ضعيفة. وليست هناك إمكانية فى الأجل القصير لإحلال الديمقراطية الاشتراكية محل الحكم البيروقراطى.

وقد أدت التطورات الأخيرة إلى إبراز دور البيروقراطية فى الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية بشكل حاد. فعلى الرغم من أن البيروقراطية كفئة حاكمة لايمكنها أن تخرج سالمة من إعادة الرأسمالية، فإن أقساما من البيروقراطية سوف تدفع فى اتجاه إعادة الرأسمالية بوصفه المخرج الوحيد لحماية مواقعها وامتيازاتها الخاصة.

وفى حين أن صعود الرأسمالية سوف يؤدى إلى دمار أقسام مهمة من جهاز الدولة، فان كثيرين من البيروقراطيين سوف يجدون ملاذا إما فى جهاز دولة معاد التكوين أو من خلال تحولهم إلى رأسماليين. وتبين التطورات فى بولندا أن البيروقراطيين على المستوى المحلى هم فى موقع مساومة قوى يتيح لهم أن يصبحوا مديرين أو ملاكا فى المؤسسات المحولة حديثا إلى الملكية الخاصة. وسوف يتعين على دولة رأسمالية جديدة استيعاب أقسام جماعية من الجهاز البيروقراطى القديم.

إن مختلف الخطط التى طرحها **جورباتشوف ويلتسين** والآخرون من أجل تحويل الاقتصاد السوفيتى إلى اقتصاد سوق إنما تسير كلها فى اتجاه اعادة الرأسمالية. لكنها سوف تؤدى فى المدى القصير إلى فوضى عميقة. وبما أنه لا توجد حتى الآن قوة اشتراكية ديمقراطية قوية بما يكفى على مسرح الفعل، فإن النتيجة قد تكون تماما «حكومة نظام» - تستند إلى قوة الجيش ولجنة أمن الدولة.

ويكاد يكون من المؤكد أن «حكومة نظام» كهذه سوف تكون عاجزة عن منع الانفصال الفعلى لكثير من الجمهوريات غير الروسية. كما أنها لن تمنع بالضرورة صعود الرأسمالية فى الجمهورية الروسية. والواقع أن حكومة شبه عسكرية يمكن أن تكون المدخل إلى إعادة الرأسمالية، كما حدث فى بولندا بعد عام ١٩٨١ .

وما نراه الآن هو أن البيروقراطية ليست القوة الأساسية لمنع إعادة الرأسمالية. وطالما كان بوسع البيروقراطية الدفاع عن سلطتها وامتيازاتها عن طريق تفادى الإمبريالية، وعن طريق صون الدولة البيروقراطية فقد اتجهت إلى ذلك الخيار. وعندما يبدو ذلك مستحيلا فإنها سوف تتجه إلى خيارات أخرى.

وفى بقية أوروبا الشرقية فإن الثورة المضادة البيروقراطية، استعادة الستالينية قديمة الطراز، تعتبر غير مرجحة إلى حد بعيد.

والواقع أن التوحيد الألمانى قد أعاد الرأسمالية بالفعل فى أراضى جمهوريةألمانيا الديمقراطية. وفى حين أن حركة ١٩٨٩ ضد نظام «هونيكر» قد



جورباتشوف

بدأها المنتدى الجديد وقوى أخرى يسارية، إلا أن هجوم الوحدة الذى شنه «كول» والبورجوازية الألمانية الغربية سرعان ما تجاوز الحركة. وقد ترك اليسار فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية نفسه عرضة لهذا الهجوم بتقليله من شأن المسألة القومية - واقع أن ألمانيا قد قسمت، ضد إرادة الشعب الألمانى، على يد الإمبريالية والستالينية، عند نهاية الحرب العالمية الثانية. وبمجرد بدء حركة ضد الحكم البيروقراطى، لم يكن هناك مفر من طرح مسألة إعادة توحيد ألمانيا طرحا حادا داخل الحركة. وبدلا من تكرار شعار « لا لألمانيا الموحدة»، كان على اليسار فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية أن يطرح هو نفسه مطلب التوحيد - لكنه توحيد يتضمن المكاسب الاجتماعية للعمال فى الشرق.

ومن المؤكد أن التكاليف الاجتماعية للانتقال إلى الرأسمالية فى ألمانيا الشرقية سوف تتمثل فى البطالة الجسيمة، والتدمير الجزئى لنظام الرعاية الاجتماعية وحركة ارتجاعية متزايدة بين صفوف العمال تجاه تكاليف إعادة الرأسمالية إلا أنه سوف يدور الآن فى مجمل أوروبا الشرقية صراع طويل الأمد على النظام الاجتماعى الذى سوف ينشأ فى المستقبل. وتوجد الآن فى بولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر حكومات موالية للرأسمالية إلاَّ أن من غير المرجح إعادة تأسيس الرأسمالية فى المدى القصير.

ماذا يبقى للشيوعيين؟



فهذه البلدان بحاجة إلى مدد ضخم من رأس المال الأجنبى لخصخصة اقتصاداتها المتدهورة، وهذا الرأسمال لن يكون فى المتناول فورا وعلى نطاق ضخم. فالمستثمرون الغربيون سوف ينتقون ويختارون القطاعات الأكثر ربحية وتقدما والمؤسسات الرأسمالية الدولية كالجماعة الاقتصادية الأوروبية وصندوق النقد الدولى والبنك الدولى تطرح الآن شروطا مرعبة للتمويل الاستثمارى ولإعادة التفاوض على الديون. والحال إن البطالة والتقشف،وإلغاء الدعم، والارتفاع الفادح فى الأسعار- وكل هذه الأشياء تحدث بالفعل فى بولندا- سوف تكون هى النتيجة.

إن هجوم التقشف وإعادة الهيكلة الرامى إلى خلق الشروط الأولية لبعث الرأسمالية لابد أن يؤدى إلى تمرد متزايد بين صفوف العمال. وهذا هو الذى يخلق الإمكانية الموضوعية لتطور معارضة اشتراكية قادرة على النضال من أجل مستقبل بديل.

وعلى الاشتراكيين فى الغرب أن يفعلوا كل ما هو ممكن لمساعدة حركات المعارضة الاشتراكية الآخذة فى التطور والمطالبة بإلغاء الديون وبإنهاء نظام التقشف الذى فرضه صندوق النقد الدولى والبنك الدولى والجماعة الاقتصادية الأوروبية .

خلاصة الموقف العالمى الجديد

بشكل عام إذن يمكننا أن نرى أن الموقف العالمى الجديد يجمع بين انهيار الستالينية العالمية التى أفلست وأزمة عميقة وممتدة للرأسمالية الدولية، تخلق فى أعقابها بؤسا متزايد العمق فى العالم الثالث، وتتفاعل مع أزمة أيكولوجية مزمنة.

وتحاول الإمبريالية حل هذه الأزمة من خلال هجوم يستهدف أوروبا الشرقية والعالم الثالث والعمال فى البلدان المتقدمة. إلا أننا يجب أن ننبذ جميع التفسيرات التى تنظر إلى هذا الموقف باعتباره مجرد أزمة للستالينية، تستفيد منه الإمبريالية من خلال هجوم شامل. فالرأسمالية الدولية لا تزال فى أزمة ممتدة تعتبر إحدى أعمق الأزمات فى تاريخها. فما الذى سوف يقود إليه كل ذلك فى الأجل المتوسط والطويل ؟.



خورتشوف

إن كثيراً يتوقف على النتيجة المحددة فى أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتى. فإذا ما أعيدت الرأسمالية فى المنطقة كلها، وإذا ما سمحت الطبقة العاملة فى تلك البلدان بتدمير مكاسبها على مدار فترة طويلة من الزمن دون أن ترد على ذلك، وإذا ما اجتمعت مثل هذه الهزيمة مع هزائم جديدة للعمال وللقوى التقدمية فى البلدان الرأسمالية المتقدمة والعالم الثالث- فسوف توجد إمكانية لتوسع جديد ضخم للرأسمالية، لموجة جديدة من التراكم المتواصل مماثلة لما حدث فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا واليابان بعد عام ١٩٥٠.

ويجب أن نتذكر أن انهيار الستالينية هو نعمة ذات حدين بالنسبة للغرب .

فمن الصحيح أن القادة الغربيين، بعد شىء من التردد فى البداية، قد قرروا، فى أواخر عام ١٩٨٩ ، الاتجاه بشكل سافر إلى تدمير الدولة الستالينية، خاصة من خلال فرض التوحيد الألمانى. لكن ثمن ذلك هو انتهاء نظام الكتل وتقسيم أوروبا، الذى كان عنصراً جوهرياً فى صون سلطة الرأسماليين فى الغرب والبيروقراطيين فى الشرق. والحال إن الرأسمالية الدولية- شأنها فى ذلك شأننا- تدخل مياها غير مستكشفة فى وضع يجرى فيه تجاوز انقسام الطبقة العاملة الأوروبية ويعاد فيه بشكل كامل تكوين وصياغة جميع الأحزاب السياسية والنقابات الرسمية وغير الرسمية- فى الشرق.

وهجوم الإمبريالية الدولى يتضمن مخاطره الخاصة. وأزمة الخليج تصور هذه المخاطر تصويرا حادا .

إن جميع التطورات فى أزمة الستالينية وهجوم الإمبريالية الناشىء عن أزمة، تبين أن العقبة الحاسمة فى وجه نظام عالمى جديد، يجمع بين الهيمنة الإمبريالية ومرحلة جديدة لتراكم رأسمالى سريع، ليست هى البيروقراطية الستالينية بل الطبقة العاملة الدولية. ويتطلب الأمر هزائم جديدة ذات مقاييس عالمية - تاريخية حتى يصبح العالم مكانا آمنا للإمبريالية من جديد - وهى هزائم لم تحدث . هذا يعنى إنزال الهزيمة بالحركة العمالية فى الغرب وبالعمال فى الشرق وبالتركزات الجديدة المتنامية بسرعة للطبقة العاملة فى بلدان مثل كوريا والبرازيل . وهذه مهمة جسيمة، محفوفة بالصعاب. إن كل شئ لا يزال محل رهان.

التخطيط والسوق

من المفهوم أن إفلاس الاقتصاديات الستالينية، وتجربة التأميم البيروقراطى فى الغرب، قد خلقا فورة نقاش حول ما يمكن أن يكون عليه نموذج عملى للاقتصاد الاشتراكى.

لكن الأيديولوجيين المؤيدين للرأسمالية يتلاعبون عندما يستنتجون أن الاقتصاد الأوامرى الستالينى، وتجربة التأميم البيروقراطى فى الغرب، قد أثبتا أن أى شكل للاقتصاد المشترك لا مفر من أن يكون بيروقراطياً وسلطويا وغيركفء. والتخيير الذى يتحدثون عنه - إما اقتصاد أوامر بيروقراطى أو السوق الرأسمالية- هو تخيير زائف. وحتى نرى ما يمكن أن يكون عليه البديل، فإن علينا شرح أسباب انهيار الاقتصاديات الستالينية.

فى رأينا أن الرد على ذلك هو أن الاقتصاد الأوامرى الستالينى (بل والتأميم فى الغرب) كان، بمرور الوقت، غير كفء لأنه كان، بالتحديد، سلطويا وبيروقراطيا. فانعدام الكفاءة والفوضى المتزايدة كانا نتيجة لمحاولة إدارة كل شيء من أعلى - الإفراط الضخم فى المركزة، حيث تحاول الوزارات القومية تحديد كل شيء. والنماذج المختلفة للنظام الاقتصادى لايمكن أن تكون ديمقراطية أو غير ديمقراطية تبعاللأهواء: فالنموذج الستالينى للاقتصاد كان لابد له من أن يكون ديكتاتورياً وسلطوياً ليتسنى له العمل، أما الاقتصاد الاشتراكى الذى يعمل من أجل تلبية حاجات الناس فلابد له من أن يكون ديمقراطياً.

ونقطة انطلاقنا هى نبذ الفكرة التى تذهب إلى أن السوق الرأسمالية هى وحدها التى يمكنها توفير الديمقراطية و«الاختيار الاستهلاكى». والواقع أن السوق الرأسمالية المعاصرة، على الرغم من توفير سلسلة واسعة من السلع والخدمات، هى بدرجة عميقة غير ديمقراطية فى تخصيصها لموارد المجتمع. فليس هناك «اختياراستهلاكى» أو « ديمقراطية» فيما يتصل بالأسلوب الذى يجرى به توزيع الناتج الاجتماعى الإجمالى بين الأرباح والأسلحة والرعاية الاجتماعية والاستثمار والأجور، إلخ. وقد تتأثر كل هذه الأمور بنضال الطبقة العاملة، لكنها فى نهاية الأمر إما أنها قرارات الشركات الرأسمالية القومية والدولية، أو قرارات الحكومات الرأسمالية - المحددة بقرارات تلك الشركات نفسها. أما الديمقراطية من خلال خيارات المستهلك الفرد فهى أسطورة بشعة المقاييس.

كما أنه لا وجود هناك لأى اختيار استهلاكى حقيقى فيما يتعلق بالمنتجات المنتجة. فمن هم بالضبط المستهلكون الذين قرروا، بشكل ديمقراطى، أن يكون هناك ٨٧ مسحوق غسيل متماثلة، لكل مسحوق منها تكاليف استحداثه وتعليبه والإعلان الخاص به؟ أو أن يكون هناك ٥٠٠ حاسب اليكترونى شبه متماثلة ذات تكاليف استحداث ضخمة وتسويق تنافسى؟ لايمكن لأى إنسان عاقل أن «يختار» هذه الحالة: إنها نتاج للمزاحمة الرأسمالية، خارج أى قرار ديمقراطى. إن القاعدة الأولى للاقتصاد الاشتراكى يجب أن تتمثل فى إخضاع القرارات الأساسية بشأن توزيع الموارد الاقتصادية التى يملكها المجتمع للرقابة الديمقراطية. لكن هذا المبدأ الأساسى لـ «الديمقراطية الاقتصادية» تترتب عليه آثار ضخمة

ماذا يبقى للشيوعيين؟



بالنسبة لشكل الاقتصاد الاشتراكى. فهو يعنى، على الأقل أن القرارات الأساسية المتعلقة بالاستثمار يجب اتخاذها بشكل جماعى. وبما أنه يجب اتخاذها بشكل متزامن (لا يمكنك تخصيص ٨٠ فى المائة من الناتج القومى الإجمالى للاستثمار و٨٠ فى المائة للأجور) فإنها لابد أن تكون جزءا من خطة عامة.

ويترتب على ذلك أن وحدات الإنتاج الرئيسية يجب أن تكون مملوكة ملكية اجتماعية. لماذا؟ إنها لو ظلت مملوكة ملكية خاصة فإن ذلك سوف يعنى شركات خاصة تتعرض أجورها وأرباحها واستثماراتها ومنتجاتها لقيود حادة مفروضة من جانب الخطة الاقتصادية القومية. لكن ذلك يزيل عين الدافع إلى الملكية الفردية، والذى يكمن على وجه التحديد فى تعظيم الأرباح. وهو ما يتطلب بدوره قرارات خاصة فيما يتعلق بجميع المسائل الأساسية لتوزيع الموارد. والشركة الخاصة التى يجرى رسم حدود رئيسية لها هى فى واقع الأمر شركة مشتركة وعندئذ يزول المبرر فى أن يكون المرء مالكا رأسماليا.

لكن هذه الاعتبارات العامة لا تعطينا أية أفكار تفصيلية عن الأسلوب الذى من شأن اقتصاد مشترك أن يعمل من خلاله. وعلى سبيل المثال، ما هو دور آليات السوق؟ هل هناك دور لمشروع خاص بشكل محدد؟

السوق

مادمنا لانملك موارد اقتصادية لا متناهية، فلابد من توزيع الناتج الاجتماعى بين الاستثمار والاستهلاك والسلع الاستهلاكية للأفراد إما أن يجرى توزيعها بشكل مباشر (عن طريق الحصص) أو أن تشترى وتباع. وإذا لم يكن لدينا توزيع عن طريق الحصص، فإن علينا إيجاد سوق. إلا أنه فى اقتصاد مشترك لبعض السلع والخدمات «المسوقة» حاليا للمستهلكين ـ كالنقل العام ـ أن تكون ذات سعر لا يذكر أو مجانية، أى أن توزع فى الواقع توزيعا مباشرا.

لكن غالبية حاجات الأسر المعيشية والأفراد سوف تشترى وتباع. والاقتصاد المملوك ملكية اجتماعية، مع وجود خطة قومية مقررة بشكل ديمقراطى، يمكن أن يخصص موارد لسلع الاستهلاك استنادا إلى مؤشرات السوق. وعلى سبيل المثال،



ماوتسى تونج

فإن هبوطا حادا فى عدد أجهزة الفيديو المشتراة (وهو أمر محتمل إلى حد بعيد فى مجتمع يكف فيه الاستمتاع بوقت الفراغ عن أن يكون استمتاعا خاصا داخل الأسرة النووية) سوف يؤدى إلى إدخال تعديل على الخطة. وإنها لأسطورة أن التخطيط لا يمكنه التجاوب مع الإيثارات الاستهلاكية التى تجد تعبيرا عنها فى السوق. ومن الطبيعى أن استطلاعات الرأى والدراسات الاستقصائية عن الاستهلاك يمكنها أن تقدم بعض البيانات عن أولويات المستهلكين. لكن الحقيقة الملموسة المتعلقة بما هى السلع التى اشتراها المستهلكون بالفعل سوف تكون معيارا حاسما لتخطيط الإنتاج.

ويذهب الأيديولوجيون المؤيدون للسوق إلى أن التخطيط القومى بطىء جدا فى استجابته لإيثارات المستهلكين. لكن الأمر لا يجب بالضرورة أن يكون كذلك. وفى المقام الأول، فإن «إيثارات المستهلكين» فى المجتمع الرأسمالى مهيكلة إلى حد بعيد بما تقرر الشركات الكبرى بشكل حاسم صنعه وتسويقه: ونحن نعتبر من المسلمات إنه لن يكون، فى مجتمع اشتراكى، طلب تلقائى على نوع آخر جديد من سيارات الجاجوار يتعين على الخطة أن تستجيب له. نحن نعتبر من المسلمات أن النزعة الاستهلاكية المتهوسة والسقيمة المميزة للرأسمالية سوف تنحسر تدريجيًا. لكن

«المؤسسات» المشركة، لكي تستجيب لإيثارات المستهلكين المتغيرة، لابد من أن تتمتع بقدر من الحرية لتحريك أولوياتها الإنتاجية. وهذا هو السبب في أن الخطة القومية لا يمكنها - كما فعلت الجوسبلان السوفيتية فيما يزعمون (ولكنها لم تفعل في واقع الأمر) - تخطيط مجمل الاقتصاد، من المواد الخام إلى كل منتوج نهائي. فهذا لا يؤدي إلى منع القدرة على التكيف وحسب، بل إنه يتطلب اتخاذ الكثير جدا من القرارات.

إن الخطة القومية في اقتصاد غير بيروقراطي سوف يتعين عليها التركيز على تحديد الخيارات الأساسية بين الاستثمار والاستهلاك، بين الموارد المخصصة للحاجات الاجتماعية كالصحة والنقل والبنية الأساسية الاجتماعية بوجه عام، والموارد المخصصة للاستهلاك الفردي.

وليس هناك سبب لئلا يكون هناك قطاع خاص من المؤسسات الصغيرة، في مجال الإنتاج والتوزيع على حد سواء. إن كتلا ضخمة للبيع بالتجزئة (مثل ماركس آند سبنسر وتيسكو) سوف تصبح بشكل منطقي ملكية اجتماعية: فهي لن تكون أكثر كفاءة إن كانت مملوكة ملكية خاصة أو موزعة. لكن الآلاف من منافذ تجارة التجزئة الصغيرة يمكن بسهولة أن تبقى في أيد خاصة، وسوف تبقى نسبة من «أرباح» السلع في أيدي الملاك الخاصين لتلبية حاجاتهم الاستهلاكية.

وبالمثل، يمكن أن تكون هناك مزايا محددة لوجود قطاع إنتاج خاص من المؤسسات الصغيرة والتعاونيات، الحرة في اتخاذ قرراتها الخاصة بشأن ما ستنتجه، الأمر الذي يمكن أن يساعد على تلبية طلبات جديدة غير متوقعة في السوق وباشتراط أنها سوف تكون محدودة من حيث الحجم، ومحدودة عن طريق الضرائب من حيث حجم الربح الذي يمكنها تحقيقه، وخاضعة لمبادئ توجيهية صارمة حول أجور وظروف عمالها، فإنها يمكن أن تكون عنصرا مساعدا مفيدا للمؤسسات المملوكة ملكية اجتماعية، وهذا ليس دعوة إلى «اقتصاد مختلط»، بل هو مجرد إقرار بأنه في الطور الأول للاشتراكية، فإن قطاعا من المؤسسات الصغيرة، المراقبة مراقبة صارمة والخاضعة للقطاع الاجتماعي الأكبر بكثير، يمكن أن يكون ملحقاً مفيدا يساعد على تحقيق المرونة.

الاختيار والديمقراطية

ليست هنالك ضرورة لأن يزيل الاقتصاد المشرك الاختيار من جانب المستهلك، بل إنه سوف يجعله أكثر عقلانية وسوف يوسع مجاله. فالاختيارات الأساسية المتعلقة بتوزيع موارد المجتمع بين القطاعات سوف تخضع للسيطرة العامة لأول مرة.

ومن المرجع أن الاختيار غير العقلاني - «حرية» الاختياريين ٧٨ مسحوق غسيل أو ٢٧٥ نوعا من البيرة الخفيفة المتماثلة أو ١٣٧ من أفران الميكرويف المختلفة - سوف يزول. إلا. إلا أن هناك اختيارات أكثر أهمية بكثير سوف يتعين اتخاذ قرارات بشأنها من جانب الأفرادوالمجتمع ككل.

وسوف يؤدي المزيد من الخدمات المشتركة - مثل توسيع عدد المطاعم الرخيصة، المملوكة ملكية اجتماعية والزيادة الضخمة في الاعتمادات المخصصة لرعاية الطفل المشركة - إلى خفض الطلب على السلع الاستهلاكية المعمرة. وشيئا فشيئا سوف يدور الاختيار من جانب الأفراد حول ما يفعلونه لا حول ما يملكونه. ومن شأن خفض جذري فيما يدفعه الأفرادمقابل السكن أن يؤدي بسرعة إلى زيادة الدخول الحقيقية الخاصة.

إلا أنه لن يسمح لإعادة الهيكلة الجذرية للطلبات الاستهلاكية عن طريق التشريك المتزايد بتقييد مجال اختيار السلع والخدمات التي يريد الناس مجموعة متنوعة منها. والملابس والمواد الغذائية والمطاعم والكتب أمثلة واضحة على ذلك. والشيء المهم في كل مرحلة هو أن الموارد المخصصة لكل قطاع. وترتيبا على ذلك لعدد المنتجات المختلفة التي يمكن إنتاجها في كل قطاع - سوف تكون موضوع قرار ديمقراطي.

ماذا يبقى للشيوعيين؟



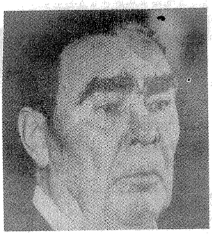
الكفاءة والتجديد

ولكن ما الذى سوف يجعل الاقتصاد المشرك يتحرك قدما إلى الأمام؟ ما الذى سوف يولد التجديد والنمو؟ فى المجتمع الرأسمالى يعتبر حافز الربح هو المدخل الرئيسى إلى التجديد وإلى جعل الإنتاج أرخص تكلفة. وفى الاقتصاديات البيروقراطية فإن منطق الخطة البيروقراطية هو الذى يعوق التجديد والكفاءة. إن الرد الأساسى هو الديمقراطية . وخلافا لذلك، فإن العمال فى أوروبا الشرقية ليست لهم مصلحة فى إدخال تجديدات وجعل الإنتاج أكثر كفاءة لأنهم لا يكسبون شيئا من ذلك. وفى مجتمع تخضع فيه الخطة للسيطرة الديمقراطية سوف يكون هناك عاملان رئيسيان لأن يجعل العمال ووحدات العمل إنتاجهم أكثركفاءة ولأن يدخلوا تجديدات.

فأولا، إذا كانت وحدات العمل الفردية حرة - ضمن إطار المبادئ التوجيهية للخطة - فى تنظيم إنتاجها بشكل ديمقراطى(ساعات العمل، تنظيم العمل، إلخ) ، فسوف يكون لدى العمال دافع أصيل لجعل عملهم أقل استهلاكا للوقت وأكثر كفاءة. فهذا من شأنه أن يولد رغبة جماعية فى تنظيم العمل بشكل كفء، وفى التخلص من انضباط العمل القهرى المميز للرأسمالية.

إلا أنه ثانيا، فإنه إذا (وفقط إذا) كان التوجيه العام للاقتصاد خاضعا للسيطرة الديمقراطية - ولم تكن هناك نخبة رأسمالية أو بيروقراطية منخرطة فى استهلاك مثير- فسوف يتولد حس جهد جماعى وتوحد مع الأهداف المشتركة للمجتمع.

ويمكن للتجديدات التكنولوجية الفردية أن تجد مقابلا ليس فقط عن طريق المكانة الأدبية الرفيعة التى سوف يحصل عليها أولئك الذين يستحدثونها، ولكن فى المراحل الأولى لاقتصاد مشرك، عن طريق حوافز مادية أيضا. إن مجمل هدف اقتصاد مشرك بشكل ديمقراطى هو إطلاق أكبر حجم من المعارف والمهارات والقدرة على القيام بقفزات تتميز باتساع الخيال وعلى التجديد، وهى القدرة التى لاتزال «حبيسة» ومكبوتة فى القوى العاملة التى يسيطر عليها انضباط عمل قهرى . ويتميز أمران بأهمية حاسمة لعمل ذلك: السيطرة الديمقراطية على الخطة القومية، والتسيير العمالى الذاتى فى المؤسسات ووحدات الانتاج.



ليونيد بريجنيف

الاختيارات المتعلقة بالنمو الاقتصادى

تتميز الرأسمالية باتجاه متأصل (فى فترات الرواج على الأقل) إلى التجديد التكنولوجى والنمو الاقتصادى. وفى اقتصاد مشرك يمكن القيام باختيارات أكثر أساسية فيما يتعلق بالنمو. وأيا كان الأمر، فلابد من أن يكون هناك حد للنمو الاقتصادى، ولا يوجد هناك غير عدد محدود من السلع المادية التى يمكن لأى فرد واحد استخدامها .

وعلاوة على ذلك، فإن النمو الاقتصادى قد تحد منه اعتبارات أيكولوجية. وقد يختار العمال، عند مناقشة الخطة القومية، نموا اقتصاديا أقل فى مقابل ساعات عمل أقصر. ومن هذه الزاوية، فإن من الخطأ طرح مسألة كيف يمكن لاقتصاد مشرك أن يفعل كل ما يفعله اقتصاد رأسمالى . ففى اقتصاد اشتراكى، لن نكون بحاجة إلى عمل كل ما يعمله اقتصاد رأسمالى. ويبدو من المحتمل أن أى نوع من الاشتراكية سوف يعطى الأولوية لإدخال تحسينات على نوعية الحياة، وهو أمر لا يتطابق بالضبط مع الإنتاج المرضى للمزيد والمزيد من الأشياء .

إن وقت الفراغ هو أعلى سلعة تحرم الرأسمالية والنظم البيروقراطية العمال

منها. والمزيد من وقت الفراغ، جنبا إلى جنب مع أساسيات الرعاية الصحية، والمزيد من العمل المنزلي المشترك، والتعليم، والنقل العام المتيسر، والسكن. جنبا إلى جنب مع توافر اختيارات عقلانية فيما يتعلق بالاستهلاك الفردي - هي أمور ممكنة في اقتصاد مشترك. والحال إن أي داعية للسوق لا يحلم ألبتة بأي شيء من هذه الأشياء.

الديمقراطية

إن أسوأ جانب من جوانب الأزمة في أوروبا الشرقية، من زاوية أيديولوجية، هو الخيار الاجتماعي الظاهر المثار: إما اقتصاد تهيمن عليه الدولة دون ديمقراطية أو رأسمالية مع حريات ديمقراطية. ولكسب أية مساندة جماهيرية، لابد للاشتراكيين من التمسك بأهداف الديمقراطية، ليس فقط في نوع المجتمع الذي يدعون إليه، وليس فقط في الأهداف المباشرة التي يناضلون من أجلها، وإنما أيضا في ممارساتهم الحركة العمالية عموماً ومنظماتهم بشكل خاص.

فالأشكال السلطوية للتنظيم الاجتماعي تجد جذورها دائما في الدفاع عن امتياز مادي أو اجتماعي، وليس فقط في أيديولوجية سلطوية. وهذا الامتياز يمكن أن يكون امتيازات طبقات، أو صفوات بيروقراطية، أو زعماء سياسيين. وصون أي شكل للامتياز الاجتماعي يتطلب دائما استبعاد الأغلبية غير المميزة من المشاركة الإيجابية في اتخاذ القرار.

والديمقراطية النشيطة على أي مستوى - في المجتمع ككل أو في المنظمات السياسية - تتطلب وقت فراغ ونشرا واسعا للمعلومات وهياكل مفتوحة للمشاركة، جنبا إلى جنب مع سيادة الأغلبية المعبر عنها من خلال التصويت. وهذا هو السبب في أن الديمقراطية النشيطة تتعارض تماما مع اقتصاد تهيمن عليه السوق، ففي اقتصاد تهيمن عليه السوق، يجري اتخاذ القرارات الاقتصادية المحورية وتحديد التوزيع الأساسي لوقت المجتمع وموارده على يد جماعات وزمر قوية وبشكل غير رسمي.

إننا لن نقدم هنا نقدا تفصيليا للديمقراطية في ظل الرأسمالية (الديمقراطية البورجوازية). فنحن نوافق على أنه مع أن هذه المجتمعات تتمتع بحريات صورية وفعلية واسعة - كحرية التعبير والنشر والتنظيم السياسي - فإن معنى هذه الحريات مقيد بعدم تساوي إمكانية الوصول إلى الموارد والمعلومات والوسائل المادية للسلطة واتخاذ القرار. فهل هناك بديل دون الانحدار إلى حكم الحزب الواحد والاستبداد البيروقراطي؟.

ما لم يفترض المرء وجود طبيعة بشرية شريرة أبدية ما، فإن النظام الاشتراكي الديمقراطي لابد من أن يكون ممكنا. فما هي الخصائص المحورية التي سوف تميزه؟ إن الديمقراطية الاشتراكية العملية سوف يتعين عليها الدمج بين عاملين محوريين؛

أولا، أن الديمقراطية الحقيقية ديمقراطية إيجابية، حيث يتوافر حق المواطنين في الانخراط بشكل شبه دائم في اتخاذ القرار، خاصة فيما يتعلق بحيواتهم، وقرارات المشروعات الجماعية - من المصانع إلى المناطق السكنية - التي تجمع بينهم.

ثانيا، أن أي هيكل قومي للديمقراطية هو دائما ديمقراطية تمثيلية إذا لا يمكن أن يكون هناك أبدا اشتراك دائم من جانب المجتمع برمته في كل قرار على حدة؛ فعند مستوى معين، لابد من قبول الإنابة وانتخاب النواب فكيف يمكن إذن، خلق تضافر بين الديمقراطية الإيجابية التشاركية عند «قاعدة» المجتمع وهيكل قومي «تمثيلي»؟ إن صوغ مشروع دقيق بصورة مسبقة هو أمر غير ممكن. لكن بعض المبادئ الأساسية واضحة.

إن كل مواطن يجب أن يكون له حق متساو في التصويت على قرارات المؤسسات التي ينتمي إليها. والمقترحات المتعلقة بكيفية تنظيم مكتب خاص أو مصنع أوناد أو لجنة محلية للمواطنين، إلخ - يجب مناقشتها مناقشة علنية والتصويت عليها بشكل علني. ويجب اتخاذ القرارات دائما على أدنى مستوى ممكن. ويتعين مد مبادئ «التسيير الذاتي العمالي» الى كل مؤسسة في المجتمع.

إن الديمقراطية الاشتراكية هي ديمقراطية تعدد الأحزاب. والأحزاب

ماذا يبقى للشيوعيين؟



التى تنظم نضالا مسلحا ضد الدولة هى وحدها التى يجب تحريمها. إلا أنه لكى تكون تعددية الأحزاب ديمقراطية فإن ذلك يعنى دمقرطة الوصول إلى وسائل الدعاية والإعلام. ولابد لجميع الأحزاب من أن تحصل على تمويل، ويجب أن تتمتع كافة الجماعات السياسية وجماعات المواطنين المنظمة بحرية الوصول إلى وسائل النشر والتليفزيون. فدمقرطة وسائل الإعلام مبدأ أساسى للاشتراكية الديمقراطية. ولابد من أن تتمتع جماعات العمال والمواطنين كلها وجميع الأحزاب الساسية بحرية استخدام قاعات ومكاتب الاجتماع.

وحتى فى نظام تسيير عمالى ذاتى، سوف تكون هناك حاجة إلى شكل ما من أشكال الجمعيات الوطنية. ولا يمكن التنبؤ مسبقا بالشكل المحدد لانتخاب مثل هذه الجمعية. وربما تنتخب انتخابا مباشرا فى انتخابات عامة، وربما تنتخب بشكل مباشر جزئيا، وتنتخب بشكل جزئى على شكل مندوبين من جمعيات عمالية محلية وإقليمية وأيا كان الأمر،فإن من اللازم أن تتوافر إمكانية سحب النواب فورا من جانب ناخبيهم وألا يزيد راتب النائب عن الأجر المتوسط. وهكذا يمكن «نزع احتراف» السياسة.

ولا حاجة إلى قول إن الديمقراطية الاشتراكية سوف تمثل، فى جميع الانتخابات، الآراء والأحزاب السياسية بحسب نسبة الأصوات الممنوحة لها.

والمبدأ الأساسى للديمقراطية الاشتركية هو السيطرة الاجتماعية على الاقتصاد. وتوسيع الديمقراطية المتأصل فى الاشتراكية ليس مجرد دمقرطة للآليات الصورية ولمؤسسات السلطة؛ كما أنه ليس مجرد الفتح الواسع لقارة السياسة أمام جماهير الشعب . فهو يتألف أيضا بشكل حيوى من توسيع مثير لنطاق القرارات السياسية، بعيدا عن الزمر الصناعية أو البنكية أو العسكرية أو المخابراتية السرية، وفى اتجاه قرارات علنية ومعلنة من جانب الشعب. ومثل هذه الديمقراطية مستحيلة حرفيا دون اقتصاد مشرك .

إن الديمقراطية الاشتراكية إذا هى فكرة مجتمع تجرى فيه هيكلة الديمقراطية الإيجابية التشاركية فى نظام تسيير عمالى ذاتى وتعددية سياسية، وحرية المعلومات والرقابة الديمقراطية على كل مستوى، «ونزع احتراف» السياسة. إنها تعنى مشاركة الناس فى «السياسة» النشيطة عبر التأكد من أن قراراتهم تؤثر فى الواقع على حيواتهم .



ستالين

وبطبيعة الحال، فليس ذلك هو ما يجربه الناس فى البلدان الرأسمالية «الديمقراطية» اليوم، لكنه أيضا ليس ما يجربونه فى منظمات الحركة العمالية. فالديمقراطية الاشتراكية لا تتعلق ببساطة بأهداف ديمقراطية مجردة لمجتمع قادم: إنها تتعلق بالمطالب التى نكافح من أجلها فى المجتمع الآن، وهى تتعلق بالطريقة التى ندير بها أمورنا فى الحركة العمالية والاشتراكية. والأمران مرتبطان. إن قبول يمين الحركة العمالية، والبيروقراطية، للنظام الحالى غير الديمقراطى للمجتمع، إنما يرتبط بالطريقة التى يديران بها منظماتهما.

وإذا كان يتعين النضال من أجل هدف الديمقراطية الاشتراكية بأساليب اشتراكية وديمقراطية، فإن هناك حاجة إلى شيئين :

أولا، خوض نضال ضد السيطرة البيروقراطية على الحركة العمالية والعامل الأساسى هنا هو وجود البيروقراطية النقابية من حيث هى شريحة اجتماعية محددة لها امتيازاتها الخاصة، ومصالحها المادية والسياسية الخاصة. ودمقرطة الحركة العمالية تعنى الانتخاب العلنى لجميع المسئولين، واتخاذ القرار بشكل ديمقراطى على كل مستوى، وعدم تجاوز راتب المسئول المتفرغ لأجر عامل ماهر.

ثانيا ، يجب على الاشتراكيين أن يكونوا فى طليعة المناضلين من أجل الحقوق الديمقراطية فى ظل الرأسمالية. ولا يعنى ذلك أن بوسعنا تأكيد وصون الحقوق الديمقراطية بصفة دائمة: فطالما ظلت الرأسمالية موجودة، سيكون من الممكن نزع الحقوق الديمقراطية - يشهد على ذلك إدخال عقوبة الإعدام من جديد فى الولايات المتحدة الامريكية والمادة ٢٨ فى بريطانيا. إلا أنه عن طريق الدفاع عن توسيع الحقوق الديمقراطية فى ظل الرأسمالية، عن طريق أمور مثل قانون حرية المعلومات والتمثيل النسبى، يمكننا فى آن واحد النضال من أجل الاصلاحات التى تجعل النضال من أجل الاشتراكية أسهل باتاحة مجال أوسع أمام الطبقة العاملة لتنظيم وتأكيد نفسها، وكشف نواقص «الديمقراطية» القائمة، وإظهار أن الاشتراكيين ليسوا غير مبالين بالحقوق الديمقراطية، بل إنهم خير المدافعين عنها.

الطبقة العاملة وسياسة التحرر

رأى الاشتراكيون دائما أن الطبقة العاملة هى القوة المحورية فى تحقيق التغييرالاشتراكى. ولا يرجع ذلك إلى أى سبب أدبى، أو لأنها دائما الجماعة الأكثر عرضة للاضطهاد فى المجتمع، بل يرجع إلى قوتها العددية ودورها المحورى فى عملية الانتاج.

وقد تطورت مناقشة لا مفر منها حول العلاقة المحددة لنضال الطبقة العاملة بنضال جماعات فى المجتمع - عمالية التكوين فى غالبيتها - مضطهدة بشكل خاص وأخذت تنظم نفسها ضد اضطهادها. وقد أثيرت تساؤلات إضافية حول التركيب المتغير للطبقة العاملة نفسها. ومن الحيوى أن يتصدى الاشتراكيون تصديا صحيحا لهذه التساؤلات.

وداعًا للطبقة العاملة

إن السمات الأكثر وضوحا للطابع المتغير للطبقة العاملة فى جميع البلدان الرأسمالية الصناعية تقريبا إنما تتمثل فى تراجع العمل الصناعى - اليدوى، والتأنيث المتزايد للقوة العاملة، والانقسام المتزايد للقوة العاملة بين نواة من العمال المستقرين، المشتغلين بصفة دائمة وهامش، متزايد الاتساع من العمال المشتغلين بصفة عرضية، غير مستقرة. ولا يجب لأى شىء من ذلك أن يقودنا إلى القول: «وداعا» للطبقة العاملة.

إن تراجع العمل اليدوى، والعدد المتزايد للعمال ذوى الياقات البيضاء وعمال الخدمات والتوزيع هو نتاج للطبيعة المتغيرة للإنتاج الرأسمالى ونتيجة للتغير التكنولوجى. الا أن من الخطأ من زاوية نظرية وعملية تصور أن التغير فى تركيب القوة العاملة قد أدى إلى خفض عدد العمال.

وعلى نطاق عالمى، فإن عدد العمال، بطبيعة الحال، لم يزد فحسب بصورة مثيرة فى السنوات العشرين الماضية، مما أدى إلى ظهور تركزات جديدة ضخمة للبروليتاريا فى بلدان مثل البرازيل وكوريا والصين، بل إن عدد العمال الصناعيين فى العالم الثالث قد زاد هو الآخر بصورة مثيرة. فتراجع العمل الصناعى. اليدوى، هو سمة لبعض البلدان الرأسمالية المتقدمة، وليس للعلم الرأسمالى ككل.

إن العمال ذوى الياقات البيضاء، فى الصناعة الخاصة كالبنوك والتأمين، وفى الحكم المحلى والتعليم، غالبا ما يحصلون على أجور أسوأ من أجور العمال اليدويين الصناعيين. وعلاقتهم برأس المال لا تزال علاقة يتعرضون فيها لبيع قوة وعملهم ولاستغلالهم. وهم منتمون إلى نقابات بأعداد غفيرة. وصحيح أنهم لا يتميزون غالبا بالتقاليد الكفاحية التى تتميز بها جماعات صناعية راسخة منذ زمن طويل كعمال المناجم أو المهندسين أو عمال صناعة السيارات أو عمال الموانئ. لكن السبب الرئيسى لذلك هو أن مثل تلك التقاليد لا تبنى بين عشية وضحاها.

ويمر العمال ذوو الياقات البيضاء بعملية إيجاد هذه التقاليد، والتى تحتاج إلى عقود من الخبرات المتراكمة. إلا أنه لا يزال من الصحيح أن العمال الصناعيين فى بلدان كثيرة، بسبب كل

ماذا يبقى للشيوعيين؟



من التقاليد المتراكمة والطابع القمعى لانضباط العمل، لا يزالون النواة الصلبة للقطاعات الأكثر كفاحية بين صفوف الطبقة العاملة.

وغالبا ما يؤدى العمال ذوو الياقات البيضاء أعمالا مملة وتكرارية وبلا معنى، وهم لا يتوحدون مع عملهم ولا مع ما ينتجونه. أما عمال الخدمات فهم بوجه عام أكثر عرضة للاضطهاد من حيث كل مستويات أجورهم ونظام عملهم. وهم فى بعض القطاعات لا يتمتعون بتنظيم نقابى جيد - كما هو الحال مثلا فى محال الوجبات السريعة وتجارة التجزئة. لكنهم جزء من الطبقة العاملة أيضا.

ويبين تجدد النضال النقابى الكفاحى فى كل من بريطانيا وبلدان رأسمالية كبرى أخرى فى السنوات الأخيرة أنه لا مبرر هناك لقول «وداعا» للطبقة العاملة، سواء أكان ذلك من حيث كونها فئة اجتماعية قائمة بالفعل أو من حيث كونها قوة اجتماعية وسياسية فاعلة.

على أن مستوى الانضمام إلى النقابات، والأساس الموضوعى لوحدة الطبقة العاملة يتعرضان للتهديد من جراء التطورات الأخيرة التى تسير فى اتجاه الاعتماد أكثر على العمال الذين يعملون على أساس غير دائم (وأغلبهم من النساء)، وازدياد البطالة والعمل العرضى، كما تسير فى اتجاه الخصخصة وممارسات العمل «المرنة». وهذه التطورات جزء من اتجاه الرأسماليين إلى إعادة هيكلة الإنتاج وجعل القوة العاملة أكثر «مرونة». وممارسات مثل الأجر المرتبط بالأداء والمساومة على الأجور على أساس محلى تعمق مخاطر الانقسام هذه، وتفتح الباب أمام التسريح النقابى لأقسام من القوة العاملة. وهذا يمثل تحديا للنقابات. والنضال من أجل وحدة الطبقة العاملة لا يمكن تطويره إلا ببذل محاولات خاصة لتشكيل نقابات لقطاعات جديدة من العمال، والحرص بشكل خاص على اشراك العاملات والعاملين على أساس غير دائم فى النقابات، ومكافحة البطالة وإضفاء طابع عرضى على العمالة. وبوجه عام، فان البلدان الرأسمالية المتقدمة، على الرغم من الانحدار الكبير للانضمام إلى النقابات فى بلدان كالولايات المتحدة وأسبانيا - إنما تتميز بواقع أن الطبقة العاملة لم تنحدر فيها من الناحية العددية، كما لم تتلاش منها



النقابات والأحزاب السياسية العمالية الجماهيرية.

الاستقلالية وسياسة التحرر

منذ الستينيات والعلاقة بين الحركة العمالية والمنظمات الاشتراكية وحركات تحرر الجماعات المعرضة لأشكال خاصة من الاضطهاد محفوفة بالمنازعات والمشاق. فكيف يجب على الاشتراكيين المكافحين النظر إلى تطور الحركات المستقلة للمضطهدين؟.

إن أنسب مدخل هو علاقة المضطهدين - النساء والسود والمضطهدات والمضطهدين جنسيا والمعوقين - بالرأسمالية. ومن المؤكد أن اضطهاد النساء سابق للرأسمالية ومازال هناك أخذ ورد حول ما إذا كان سابقا للمجتمع الطبقى. إلا أن هناك أشكالا أخرى للاضطهاد ترتبط ارتباطا مباشرا اكثر بتاريخ الرأسمالية: فالعنصرية الحديثة، مثلا، لا يمكن فصلها عن تاريخ الإمبريالية والعبودية الافريقية.

إلا أنه أيا كانت الأصول التاريخية المحددة لهذه الأشكال من أشكال الاضطهاد، فإن هناك شيئا واضحا: لقد اكتسبت ديناميتها الخاصة بها، ولا يمكن القضاء عليها بشكل أوتوماتيكى عن طريق القضاء على الرأسمالية. وتاريخ جميع الدول بعد الرأسمالية منذ عام ١٩١٧ يبين ذلك بوضوح.

وهكذا ففى حين أن القضاء على الرأسمالية يعتبر شرطا ضروريا لتحرر

الجماعات المضطهدة، فإنه ليس شرطا كافيا. فالقضاء على العنصرية والتحيز الجنسى والأشكال الأخرى للاضطهاد يتطلب القضاء على الرأسمالية وإقامة الديمقراطية الاشتراكية، إلا أن ذلك لن يكفل زوال كل هذه الأشكال للاضطهاد. وضمان هذا الزوال يتطلب حركات خاصة، نضالات خاصة، من جانب المضطهدين أنفسهم.

ويترتب على ذلك أن المضطهدين اضطهاد خاصا لهم ذات المصلحة التى لبقية الطبقة العاملة فى القضاء على الرأسمالية، وهذا هو الأساس الموضوعى لتحالف الطبقة العاملة مع المضطهدين - سواء أكان هؤلاء المضطهدين جزءا من الطبقة العاملة أم لا. كما يترتب على ذلك أن اكتفاء المضطهدين اضطهادا خاصا بالنضال من أجل الإطاحة بالرأسمالية على أمل أن الاشتراكية سوف تحررهم «بشكل أوتوماتيكى» إنما يتعارض مع الخبرة التاريخية. وإذا كان أساس الحركات المستقلة للمضطهدين هو حفز النضالات والحاجات الخاصة لتلك الجماعات المضطهدة، فإن ذلك يستتبع ثلاثة أمور:

أولا، إن التنظيم الذاتى المستقل للمضطهدين هو حق ديمقراطى، فى الحركة العمالية وفى المجتمع بوجه عام، وهو ليس عملا «انقساميا»، بل إنه يرسى الأساس لتعبئة سوف تخلق وحدة على مستوى أعلى.

ثانيا، إن السبيل الأنسب إلى تعبئة وإشراك المضطهدين فى النضال ضد اضطهادهم ربما يتمثل فى بناء حركات تصرف أمورها بنفسها، قادرة على تحديد أهدافها الخاصة واستراتيجيتها وتكتيكاتها الخاصة وأساليبها الخاصة فى النضال.

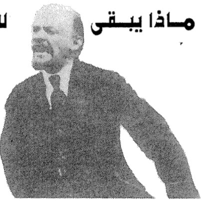
ثالثا، فى حين أن حركات النساء وحركات السود وحركات المضطهدات والمضطهدين جنسيا وحركات الأشخاص المعوقين سوف تكون مستقلة اجتماعيا وسوف تصرف أمورها بنفسها، فإنها لا يمكنها أن تكون معزولة عن التيارات السياسية العامة فى المجتمع. إن سلسلة كاملة من الأيديولوجيات السياسية المتنوعة توجد داخل هذه الحركات.

ويترتب على ذلك أن الاشتراكيين، فى الوقت الذى يناصرون فيه حركات المضطهدين، سوف يناضلون أيضا، لا محالة، من أجل منظور معاد للرأسمالية داخلها. وفى حين أن حركات التحرر، فى بريطانيا على الأقل، قد مالت إلى التحالف مع اليسار، فإن ذلك لا يعنى إنها كانت معادية للرأسمالية عن وعى أو ثورية. على العكس، إن معظم التيارات داخل الحركة العمالية، وتيارات كثيرة فى المجتمع بوجه عام، تتطور بشكل عفوى داخل حركات المضطهدين - الإصلاحية، الليبرالية، الشعبوية - بل والستالينية. ومالم يتداخل الاشتراكيون بأولوياتهم السياسية الخاصة، فسوف يكون من الممكن استيعاب هذه الحركات فى اتجاه رجعى.

وليس هناك ما يهدد الاستقلالية فى نضال الاشتراكيين داخل هذه الحركات من أجل تحالف استراتيجى مع الطبقة العاملة ومن أجل منظور معاد للرأسمالية. وهذا لا يعنى إنشاء حركة نسائية «اشتراكية» أو حركة سود «اشتراكية»، بل يعنى فقط أن المنظورات السياسية المختلفة داخل هذه الحركات سوف تناقش لا محالة - ليس فى شكل اعتماد أيديولوجيات متعارضة، بل فى شكل مقترحات متباينة من أجل عمل سياسى ملموس. إن مفهوم سياسة التحرر المعروض هنا يعنى محاولة ضفر الأهداف العامة المعادية للرأسمالية مع مطالب وحركات المضطهدين فى تحالف مشترك. لكن تحقيق ذلك، بطبيعة الحال، ليس مجرد مسألة توحيد من جانب الحركات المستقلة لعملها المعادى للرأسمالية، إنها مسألة إثبات من جانب الحركة العمالية لالتزامها العملى بأهداف سياسة التحرر.

وهناك عقبات هيكلية كبرى أمام تحقيق هذا الهدف. فالالتزام تجاه أهداف سياسة التحرر لا يعنى مجرد شن حملات حول مسائل المضطهدات والمضطهدين جنسيا أو السود أو المرأة - كالترحيلات العنصرية أو التلقيح التبرعى أو الملاحقة الجنسية أو الإجهاض - التى تبنتها الحركة العمالية واليسار بدرجة أو بأخرى. فهو

ماذا يبقى للشيوعيين؟



أيضا مسألة إتاحة المجال السياسى والحق الديمقراطى أمام الجماعات المضطهدة فى توحيد نضالاتها وأهدافها من خلال الحركة العمالية واليسار.

وهذا الهدف مستحيل دون حق التنظيم المستقل داخل الحركة العمالية ودون العمل الإيجابى الرامى إلى تحدى البيروقراطية والهيراركيات العفوية - المميزة للرأسمالية ولكن التى يعاد انتاجها داخل الحركة العمالية كلها.

وليست هناك مجموعة من الصيغ والممارسات المنفصلة عن الزمان التى تلخص «الفعل الإيجابى». فهو يعنى بوجه عام تدابير خاصة، أرقى من الممارسات العادية للحركة العمالية ولليسار، سعيا إلى ضمان ليس فقط مشاركة المضطهدين، وإنما أيضا الحق فى الإسهام على جميع المستويات، بما فى ذلك حق القيادة.

ولا شك أن بناء تحالف مستقر بين الحركة العمالية واليسار وحركات المضطهدين سوف يكون عملية طويلة ومتناقضة. فهى سوف تكون متناقضة ومحفوفة بالصعاب لأن كلا من الحركة العمالية وحركات المضطهدين تتخللها أيديولوجيات متناقضة ومتعارضة، وهى أيديولوجيات تمثل غالبا ضغط البيروقراطية النقابية والعمالية، أو - فى التحليل الأخير - ضغوطا طبقية مختلفة.

وبعبارة أخرى، فإن مساندةالاشتراكيين لسياسة التحرر ومشاركتهم فيها (بما فى ذلك المشاركة فى قيادة حركات التحرر) ليست شيئا سوف «يتحقق» مرة وإلى الأبد، إنها ممارسة دائمة وتوتر دائم. وعليها تتوقف قدرتنا على بناء التحالفات اللازمة لإلحاق الهزيمة بالنظام الرأسمالى.

الحمر والخضر

قليلون الآن هم الذين يشكون فى وجود أزمة أيكولوجية، وقد سبق لنا أن أشرنا إلى أبعادها العامة. إن التلوث من جميع الأنواع يسمم الأرض بأشكال عديدة، لكن أكبر خطر محتمل هو ارتفاع درجة حرارة جو الأرض.

ومالم تتخذ تدابير جذرية لوقف انبعاث غازات الصوبات الزراعية، خاصة ثانى أكسيد الكربون الناشئ عن احتراق الوقود المستخرج من باطن الأرض، فإن مناخ الكوكب قد يتغير بشكل مثير يقود إلى وقوع كارثة



للحضارة البشرية. ومن الصعب القول ما إذا كانت الأمور قد أصبحت بالفعل متأخرة جدا، إلا أنه لا مفر أمامنا من افتراض أن بالأمكان اتخاذ تدابير علاجية، بدلا من الاستسلام لليأس. فما هى الاستنتاجات بالنسبة للأفكار الاشتراكية عن الاقتصاد العالمى والاشتراكية؟

هل يتعين علينا تعديل برنامجنا تعديلا أساسيا، خاصة فيما يتعلق باقتراح النمو الاقتصادى؟

أولا، لا يمكن تحقيق التدابير العلاجية الحقيقية إلا عن طريق تعاون دولى واسع وتخطيط دولى. وكما يبين رد تاتشر على تقرير مؤتمر الخبراء الدوليين، فإن هذا غير محتمل إلى حد بعيد خارج نظام اشتراكى للتعاون الدولى، فالمسألة تتلخص فى أنه ما من حكومة رأسمالية تعتبر حماية الكوكب هدفا سياسيا رئيسيا لها.

ثانيا، إن التكنولوجيات البديلة جاهزة بالفعل، مثال ذلك التكنولوجيات البديلة لمحطات الطاقة (المحولات المحققة للتفاعل). لتقليل تلوث الغلاف الجوى بشكل فورى وحاسم. وما تحتاج إليه هذه التكنولوجيات هو الاستثمارفقط، وقد قدر أن هذا الاستثمار سوف يضيف فى الأجل القصير نحو ١٠ فى المائة إلى تكلفة الكهرباء. لكن حماية الأرباح هى وحدها التى تحول دون تطبيق هذه التكنولوجيا.

ثالثا، إن ملء الغلاف الجوى بغازات الصوبات الزراعية والتدمير الجزئى لطبقة الأوزون هو نتيجة لاستخدام تكنولوجيات وتقنيات لا عقلانية من الناحية الاجتماعية فى جميع الحالات (مثال ذلك «اقتصاد السيارات الكبير» الذى دعت إليه السيدة تاتشر). والتدابير الرامية إلى الاستغناء عن هذه التكنولوجيات ـ عن طريق برنامج ضخم للاستثمار فى النقل العام مثلا ـ تتطلب رقابة اجتماعية على الاقتصاد وتخطيطا اجتماعيا له.

رابعا، غالبا ما يدور تدمير البيئة حول أشكال لاعقلانية للاستهلاك ليست، فى حد ذاتها، ضرورية للحفاظ على المستويات المعيشية للعمال فى البلدان الغربية. وعلى سبيل المثال، فإن تدمير مناطق الغابات الممطرة فى أجزاء من أمريكا الوسطى هو للمساعدة على إنتاج كميات ضخمة من لحوم الأبقار لحساب ماكدونالد وبيرجر كنج. وهذا ليس محوريا بالنسبة للمستويات المعيشية للعمال الغربيين أو لمجمل السعادة البشرية!

خامسا، من الخطأ الخلط بين التصنيع والعمليات الصناعية فى حد ذاتها، من ناحية، وتلوث أو تدمير البيئة، من ناحية أخرى. فالعودة إلى عصر «قبل صناعى» هى يوتوبيا رجعية، يقترح أكثر دعاتها تطرفا، مثل إدوارد جولد سميث، رئيس تحرير مجلة «الإيكولوجيست»، عودة إلى الزراعة البدائية، والحياة الريفية والأسرة المميزة للعصر الوسيط (أى إلى الإقطاع). على أن الاشتراكية سوف تعيد بالتأكيد تعريف العادات الاستهلاكية. ففى حين أن الاشتراكيين لا يعارضون الاختيار فى مجال السلع الشخصية، فإن إنتاج طوفان هائل من السلع الاستهلاكية هو شيء لا عقلانى ولا قيمة له. والنمو السلبى ليس واردا فى المستقبل المباشر، ولو لمجرد أن البلدان المتقدمة، فى ظل الاشتراكية، سوف يكون عليها بذل جهد ضخم فى مساعدة العالم الثالث على رفع مستوياته المعيشية.

على أن المجتمع الاشتراكى، من خلال إعادة تعريف العادات الاستهلاكية، سوف يوجه بشكل تلقائى ضربة إلى مصادر كثيرة لتدمير البيئة.

وفى الأجل الطويل، هناك، على الرغم من ذلك، قصور فى النظرية الاشتراكية، بدءاً من ماركس فصاعدا. فقد افترض ماركس، ويمكن تقديم دلائل عديدة لتأييد افتراضه، أن موارد الأرض تعتبر من جميع النواحى العملية غير محدودة. واستناداً إلى تقنية أواسط القرن التاسع عشر، ربما كان هذا افتراضاً معقولا. لكن موارد الأرض، خاصة الموارد المعدنية والغابات كما نعلم محدودة.

ولا يمكن تجنب هذه المحدودية بمجرد الكلام عن عجائب التخطيط. فسوف يتعين إدخال تغييرات كبرى على التقنية الإنتاجية، كما سوف يتعين إدخال تغييرات على أنماط الاستهلاك.

وكل هذا أيضا يعنى برنامجا ضخما للبحث العلمى، أكثر إنتاجية بكثير بالنسبة للبشرية من كل الأموال المهدرة على بحوث الفضاء والأسلحة النووية.

وفى ضوء ما سلف، كيف يجب على الاشتراكيين النظر إلى العلاقة بين الاشتراكية والأيكولوجية، بين الحمر والخضر؟. إن الأيكولوجية ليست بصدد مجرد الدفاع عن «الطبيعة» أو عن فكرة مجردة ما عن البيئة، إنها بصدد الدفاع عن النوع البشرى وخاصة جماهيره الشعبية. وبطبيعة الحال، فإن العمال والفلاحين هم دائما الذين يتعرضون للنصل الحاد لانحطاط البيئة ـ سواء أكانوا عمال بولندا، أم عمال البرازيل الذين يستخرجون المطاط، أم عمال وفلاحى بوبال، أم عمال أوكرانيا وبلغاريا الذين أصيبوا من جراء الإشعاع النورى الصادر من تشرنوبيل.

إن تدمير النظام الأيكولوجى ليس نتاج نزعة تخريبية تجاه الطبيعة عسرة على التفسير. بل هو نتاج أشكال تنظيم اجتماعية وسياسية محددة، هى بوجه عام الأشكال المرتبطة بالربح وبالامتياز البيروقراطى. وهذا هو السبب فى أننا يجب أن نرفض الفكرة القائلة بأن القلق على مسائل البيئة يتجاوز انقسامات اليسار ـ اليمين: فالأيكولوجيا مسألة محورية بالنسبة للسياسة الاشتراكية لأن

ماذا يبقى للشيوعيين؟



تدمير البيئة هو هجوم محورى على الشعب العامل. ومما يتميز بأهمية رمزية أن تشيكو ميينديث، قائد عمال استخراج المطاط الذى راح ضحية الاغتيال، والمدافع عن مناطق الغابات الممطرة والهنود البرازيليين، قد انخرط فى صفوف أكبر حركة للدفاع عن البيئة فى البرازيل - حزب العمال. إن الأيكولوجيا هى مسألة طبقية: وجعلها عنصرا إيجابيا فى السياسة الاشتراكية يتطلب ما هو أكثر من «تحالف» أفلاطونى بين الحمر والخضر: إنه يعنى جعل الأيكولوجيا جزءاً من البرنامج الاشتراكى.

الروح الأممية

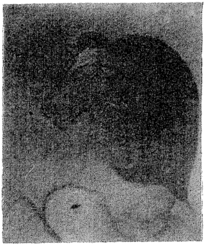
فى الستينيات، تحدث مارشال ماكلوهان عن تحول العالم إلى «قرية عالمية». والسياسة اليوم عالمية بأكثر المعانى مباشرة. وعندما يصاب ميخائيل جورباتشوف بالبرد تحدث ثورة فى أوروبا الشرقية وتحدث انتفاضة شبه ثورية فى الصين.

إن مشاهد الناس، خاصة الشباب، وهم يتبادلون التحية عند سوربرلين، لم تكن بشكل رئيسى علامة من علامات النزعة القومية الألمانية الرجعية: لقد كانت تعبيراً عفويا عن الروح الأممية بين الشباب اليوم. وقد أظهرت ذلك بشكل مثير أشياء أخرى. وليس ذلك مجرد نزعة غيرية، بل هو إحساس حى بالأممية. والسؤال هو: ما الذى يجب على اليسار عمله تجاهه؟ كيف يمكن استخدام هذه الروح الأممية من أجل أهداف اشتراكية إيجابية؟.

إن الروح الأممية الحقيقية هى تضامن النضال، تضامن النضال الذى عرفته الحرب الأهلية الأسبانية، والتضامن مع المقاومة الفيتنامية، ومع نيكاراجوا ومع نضال السود فى جنوب أفريقيا.

لكن الأزمنة الجديدة تتطلب أشكالا جديدة للتضامن. فتدويل الإنتاج يسير يدا بيد مع تدويل السياسة. والشركة المتعددة الجنسيات التى يمكنها تحويل الإنتاج من ركن من أركان «المصنع العالمى» الذى تملكه إلى ركن آخر بلمسة على مفتاح التحويل فى جهاز كمبيوتر إنما تجعل التنظيم النقابى الأممى ضرورة حيوية.

لكن الشكل المحدد للروح الأممية الذى نحتاج إليه الآن لابد من أن يستند على إدراك لسقوط السد البنية وللهجوم العالمى الجديد الذى تشنه الإمبريالية. إن المستهدفين المحددين لهذا الهجوم هم شعوب العالم الثالث وأوروبا الشرقية.



إن شعوب هاتين المنطقتين بشكل خاص هى ضحية لأزمة الديون ولهجوم التقشف الذى يستلهم الوحى من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى. وآثار هذه الأزمة وهذا الهجوم فى أمريكا اللاتينية معروفة للجميع. وفى أوروبا الشرقية، يجرى استخدام أزمة الديون كرافعة لفرض التقشف والخصخصة ورفع الأسعار - فى مقابل استثمار رأس المال. وكانت المجر وبولندا من أوائل الضحايا. وتكسب الحملة الأممية ضد الديون أرضية لها. ففى عام ١٩٨٩، خلال اجتماع مجموعة السبعة الكبار، بوش وكول وتاتشر والآخرين. فى باريس، تظاهر ٢٥٠٠٠٠ إنسان ضد الديون. ويجب بناء الحملة ضد الديون فى كل مكان من العالم.

إن أوروبا يجرى تقطيعها وإعادة تقسيمها خلف ظهور شعوبها. والمؤسسات التى يجرى استخدامها فى ذلك هى صندوق النقد الدولى والبنك الدولى وشىء يسمى نفسه «أوروبا» - الجماعة الأوروبية. ولا يجب للاشتراكيين أن تخامرهم أية أوهام تجاه واقع أن الجماعة الأوروبية ليست أكثر من النادى الرأسمالى - وهو ناد يتعذر إصلاحه - الذى كانته دائما. والتضامن مع شعوب العالم الثالث وأوروبا الشرقية يعنى المطالبة

بإنهاء الديون وبأشكال جديدة للتجارة وللمساعدة. وهو يعنى فى أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى المطالبة برفع القيود التجارية والتعريفات الجمركية التى لم يزلها الغرب بعد.

إن الروح الأممية المعاصرة تعنى إدراك - كما نبين ذلك فى القسم التالى، إن هناك نموا عالميا لنوع جديد من النضال الطبقى والتنظيم الاشتراكى - يمثله حزب العمال فى البرازيل والمنظمات الاشتراكية والنقابية الجديدة فى الاتحاد السوفيتى - يمكننا الارتباط معه والعمل على تشييده. فالروح الأممية الاشتراكية اليوم، فى عصر السياسة العالمية، يجب دمجها بشكل عملى فى بناء منظمات اشتراكية جديدة فى أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى، ومساعدة اليسار الأممى البازغ فى كثير من أجزاء العالم

الجماهير تصنع التاريخ دروس من الصين وأوروبا الشرقية

لابد لأحداث عام ١٩٨٩ أن تقوى من الناحية المنطقية فكرة أن قوة الجماهير هى التى تصنع التاريخ. إن عمال الصين وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية لم يكونوا أنصاراً لنظريات متنازعة عن الثورة، لقد تحركوا ببساطة - وأخذتهم حركتهم إلى الشارع وإلى صدام مع سلطات الدولة. والأمر كذلك فى الاتحاد السوفيتى: فالتغيير الاجتماعى الضخم يعنى التعبئة الجماهيرية للشعب لامحالة.

ولا يجب لأحد أن يتصور نظرية تآمرية شاذة ما عن ثورة عنيفة تقوم بها أقلية منضبطة، لكن أى إنسان يتصور أن التغير الاشتراكى الأساسى؛ تحويل المجتمع فى اتجاه ديمقراطى ومساواتى سوف يتمشى بالضرورة مع الشعائر البالية المسكنة لآلام البرلمانات إنما هو إنسان لا يحيا فى العالم الواقعى.

وبطبيعة الحال فإن الأحداث فى ألمانيا الشرقية والصين فى عام ١٩٨٩ لا يمكن التعامل معها كنظيرات مباشرة لما يمكن أن يحدث فى بلدان رأسمالية متقدمة كبريطانيا: لكنها تخبرنا بشىء عن التغير الاشتراكى. والفارق بين الصين وألمانيا الشرقية هو أن سلطة الدولة قد تماسكت فى الصين وردت باستخدام أساليب قمعية مضادة للثورة.

أما فى ألمانيا الشرقية، فإن جهاز الدولة قد شلته تعليمات شريكه الأكبر، الاتحاد السوفيتى، بألا يقاوم التعبئات الجماهيرية. وكانت نتيجة عجزه عن استخدام القمع هى سقوطه. والملاذ الأخيرة لأى نظام قمعى هو دائما جهازه العسكرى، استخدامه للقوة: وليس هناك مبرر للاعتقاد بأن الدول الرأسمالية المتقدمة سوف تكون مختلفة عن ألمانيا الشرقية أو الصين أو جنوب أفريقيا.

إن كل نظام اجتماعى قمعى يعتمد على جمع بين الخضوع والقسر. وفى البلدان الرأسمالية المتقدمة «الديمقراطية» يوجد تأكيد خاص على أساليب مركبة وحديثة لتحقيق الخضوع، خاصة هيمنة أيديولوجية «الديمقراطية» نفسها. والمنظرون الأورو شيوعيون، مستفيدين استخدام جرامشى، يركزون كل التركيز على عنصر بقاء «الهيمنة» الأيديولوجية الرأسمالية، ويختزلون مهام التحويل الاشتراكى (إن كانوا لايزالون مؤمنين به) فى مكافحة تلك الهيمنة.

لكن إلحاق الهزيمة بالأيديولوجية المؤيدة للرأسمالية فى المجتمع ليس بالدرجة الأولى مهمة أيديولوجية بشكل مباشر، ولو كان الأمر كذلك لا قتصرت مهمة الاشتراكى على إلقاء خطب مطولة، بدلا من بناء وتوسيع النضالات. ويبين مثال أوروبا الشرقية إن اليقينيات الأيديولوجية يمكن أن تسقط بين عشية وضحاها فى وجه النضالات الجماهيرية.

إن مفتاح مجادلة الإصلاح/الثورة، هو فكرة سلطة الدولة. ويختزل الإصلاحيون الاشتراكيون الديمقراطيون والليبراليون فكرة «السلطة» إلى شىء موزع فى المجتمع فى كتل متميزة بين «صفوات» مختلفة. لكن الاشتراكيين الكفاحيين يدركون أن السلطة فى المجتمع الرأسمالى تتركز وتعبر عن نفسها فى سلطة طبقية هيراركية، تعتبر الدولة ذروتها. أما أن هذه الدولة تملك

ماذا يبقى للشيوعيين؟



قدرة قمعية ضخمة، حتى فى بريطانيا، فهو أمر لا يمكن الشك فيه من جانب أحد شارك فى مظاهرة ضخمة أو فكر فيه ولو للحظة.

وأنصار «الطريق الثورى إلى الاشتراكية» ليسوا دعاة شكل عسكرى للنضال. فهم لا ينكرون أن حالات من حالات الدولة الرأسمالية مثل كسب أغلبية برلمانية - يمكن أن تفوز بها قوى اشتراكية وتقدمية. وكل ما يقولونه هو أنه لا مفر من مواجهة الوظيفة القمعية للدولة. والسيناريو الأنسب هو سقوط سلطة الدولة القمعية من جزاء التفسخ والمصاعب الكاسحة، كما حدث فى ألمانيا الشرقية. ففى ألمانيا الشرقية سقطت السلطة القمعية، إلا أنه ليس هناك مايضمن أن الحالة سوف تكون كذلك دائما. وفى أزمنة الفوران الثورى لايمكن للطبقة العاملة أن تتخلى عن خيار استخدام القسر ضد الطبقة الحاكمة لفرض الإرادة الديمقراطية للأغلبية.

نحو عام ٢٠٠٠ ـ آفاق الاشتراكية

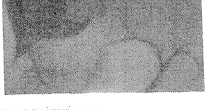
حس المنظور

نادرا ما يشعر الاشتراكيون بأنهم لا يجدون ما يمكنهم عمله: فمعظمهم منخرطون بشكل محتدم فى صخب السياسة العملية. ويبدو أن ذلك غالبا مالايؤدى إلا إلى النزر اليسير فى تحقيق انتصارات للحركة الاشتراكية.

ولذا فمن الضرورى امتلاك حس بالمنظور فيما يتعلق بموقعنا الآن وآفاق الانتصار الاشتراكى.

ومن زواية تاريخ البشرية فإننا لم نقطع شوطا طويلا على الطريق. وربما يرجع عمر الجنس البشرى إلى خمسة ملايين من السنين على الأكثر: وإذا بقيت الأرض فإن أمامنا عشرات الآلاف من ملايين السنين. إلا أنه بما أن أحداً منا لن يحيا كل ذلك الزمن، فإننا يجب أن ننظر إلى الأمور من زاوية أقصر.

لقد قال لينين إن العصر الإمبريالى - هذا القرن بوجه عام - هو «عصر الانتقال إلى الاشتراكية». لكن هذه الفكرة لم تكن تتضمن جدولا زمنيا محددا، إن الانتقال من الاقطاع إلى الرأسمالية قد احتاج إلى قرون: ومن الواضح تماماً أن الأمر سوف يحتاج إلى عشرات العقود قبل أن يتسنى إلحاق الهزيمة النهائية بالرأسمالية



والبشرية دائما تتعلم الدروس عمليا قبل أن تتعلمها نظريا. وفى القرن العشرين، تطلب الأمر تجربة الستالينية المديدة والمريرة، حتى تبدأ الحركة الاشتراكية فى استيعاب ضرورة الديمقراطية من حيث هى ركن تكوينى - وليس عرضياً - لاشتراكية قابلة للحياة.

والنظام الستالينى القديم فى أوروبا الشرقية، بكل قسوته ولا إنسانيته، آخذ فى الانهيار. ويرجع ذلك فى معظم الحالات إلى التعبئة شبه الثورية المتواصلة للشعب. ولا يجب أن ننسى أن الأحداث المحورية فى عام ١٩٨٩ ، التى عزلت النظامين فى تشيكوسلوفاكيا ورومانيا ومهدت السبيل أمام سقوطهما، قد جرت فى ألمانيا الشرقية وأنها كانت تحت قيادة اليسار.

وأيا كان الأمر، فإن سقوط النظم الستالينية هو انتصار هائل للعمال ولليسار فى كل مكان. وأولئك الذين يحنّون إلى الأيام التى كانوا يتصورون فيها أن سوربرلين والأوليجاركية الستالينية التى لا ترحم تحميهم من رياح الرأسمالية الباردة لا يدركون فى الواقع معنى الاشتراكية. ولكن السؤال لايزال قائما: من الذى سوف يجنى ثمار هذا الانتصار فى المدى الطويل؟.

كما قلنا من قبل، فإن غياب أى نموذج عملى ذى أهلية لـ « اشتراكية ديمقراطية موجودة بالفعل »قد جعل تحقيق انتصار اشتراكى فى أوروبا

الشرقية أصعب بكثير في المدى القصير. وهذا يعنى أن أوروبا الشرقية هى هدف لهجوم إمبريالى ضخم وأن المحصلة سوف تكون نتيجة لنضال طويل.

إلا أنه فى النضال الطويل من أجل الاشتركية الذى يواجهنا، هناك أسباب ضخمة للأمل، وعقبات ضخمة أمام تحقيق الاستقرار للإمبريالية، وموارد ضخمة للانتصار. وهذه الموارد تكمن فى التغيرات الاجتماعية والسياسية الجبارة التى حدثت فى السنوات العشرين الأخيرة.

إعادة التكوين الاجتماعية والسياسية : نحن الأغلبية

عندما كتب ماركس « رأس المال»، كانت الطبقة العاملة أقلية طفيفة: وهى الآن الغالبية. وعلى الأقل، فإن من المختلف عليه الآن (قياساً إلى ما كان عليه الأمر قبل عشرين سنة) ماإذا كانت الأكثرية فى العالم تتألف من عمال أم من فلاحين - والمسألة مسألة تعريف إلى حد بعيد .

وهذه المحصلة هى نتيجة عملية التصنيع الجزئى فى بعض بلدان العالم الثالث وتراجع عدد الفلاحين ونمو التحول الحضرى فى كل مكان. وقد ظهرت تركزات جديدة ضخمة للطبقة العاملة فى بلدان كالبرازيل والصين (حيث يحيا الآن ٤٥٠ مليون إنسان فى المدن) وكوريا الجنوبية وأفريقيا الجنوبية.

وتتمثل النتيجة فى النضالات النقابية والسياسية الجبارة التى انبثقت فى تلك البلدان. وهكذا ففى حين أن أوروبا لا تزال مركز الطبقة العاملة المنظمة بشكل أرسخ فى العالم، فإن هيمنتها العددية قد تلاشت : إنها أقلية طفيفة.

ومن الناحية السياسية، وهذا يجتمع مع أزمة الستالينية، فقد شهدنا انبثاقا لأنواع جديدة من التنظيم خارج الإطار الستالينى والاشتراكى الديمقراطى التقليدى ، والأكثر شهرة بين هذه الأنواع هو حزب العمال فى البرازيل الذى حصل مرشحه للرئاسة على ٣٢ مليون صوت فى عام ١٩٨٩ والمنظمات الثورية الجماهيرية فى الفلبين والجماعات النقابية المستقلة فى الاتحاد السوفيتى، ومنظمة «تضامن» فى مراحلها الأولى على الأقل.

وهذه الحركات متنوعة جدا وتتميز بخصائص مختلفة . لكنها كلها جزء من اتجاه عام نحو انبثاق حركات نضال طبقى غير ستالينية . وإعادة التكوين العالمية هذه للسياسة اليسارية ، خارج الإطار الستالينى والاشتراكى الديمقراطى، تخلق إمكانيات ضخمة لنوع جديد من السياسة الاشتراكية على المتسوى الدولى.

العمال لم يهزموا

علاوة على التطور الأيديولوجى والتطور السياسى بشكل مباشر للحركة العمالية الدولية هناك العلاقة المادية للقوى .

فأولا وقبل كل شىء يجب أن نلاحظ أنه رغم كل ما حدث منذ أواخر السبعينيات ، فإن العمال لم يهزموا بشكل حاسم فى أى بلد رئيسى - مثلما حدث فى ألمانيا فى عام ١٩٣٣ مثلا .

فالحصون التنظيمية والسياسية الرئيسية للطبقة العاملة لاتزال قائمة ، خاصة فى أوروبا الغربية . ولعل أسوأ الهزائم فى السنوات الأخيرة هو انهيار النقابية فى أسبانيا (إلا أنه حتى هناك نشهد تجدداً للنضال ولليسار الكفاحى) ، والهبوط فى عضوية النقابات فى الولايات المتحدة . إلا أنه حتى مع ذلك ، فإنه لم تحدث هزائم تاريخية مماثلة لهزيمة عام ١٩٣٣ أو حتى لهزيمة الإضراب العام البريطانى . وهذا أمر مهم للغاية بالنسبة للتطور التالى للحركة الاشتراكية .

انبثاق جبهات جديدة للنضال

كما قلنا من قبل ، فإن الحركة المضادة للرأسمالية اليوم تتميز بتنوعها، وبإضافة عشرات الحركات الجديدة وجبهات النضال الجديدة إلى الحركة الاشتراكية الكفاحية والحركة العمالية بوجه عام - ضد تدمير البيئة ، وضد التحيز الجنسى ، وضد العنصرية ، وضد جوانب محددة للإمبريالية .

وهذا الثراء ليس سببا لمصاعب تستحق الأسف ، بل هو مصدر ضخم لقوة ممكنة . فكما قلنا ، ليس بإمكان هذه

مـاذا يبـقى للشـيـوعـيين؟



الحركات الانتصار بشكل نهائى خارج بناء الاشتراكية على مستوى عالمى. والقوة الرئيسية للاشتراكية، بسبب قوتها العددية ومكانها المركزى فى الإنتاج ، هى الطبقة العاملة العالمية وحركاتها المنظمة . ولكى تتحرك الطبقة العاملة إلى الأمام ، يتعين على اليسار إيجاد تصور للاشتراكية يساعد على توحيد مختلف جبهات النضال حول مركز مشترك ـ نضال الطبقة العاملة .

* * *

إن معنى كل ما كتبناه هنا هو أن الماركسية لاتزال الآلية الفعالة الوحيدة لفهم العالم الذى نحيا فيه وللتصرف بشكل واع بناء عليه من أجل تحقيق الاشتراكية . وقد شدد استعراضنا لتاريخ القرن العشرين على الفرص الضائعة للتقدم الاشتراكى . ويترتب على ذلك أن الاشتراكيين لايجب أن يكونوا محايدين أو لا أدريين تجاه مسائل الاستراتيجية الرئيسية التى تواجه الحركة العمالية المنظمة .

إن الاشتراكية ليست حتمية ، وليست هناك أزمة لا يمكن للطبقة الرأسمالية الإفلات منها لو كان أولئك الذين تحكمهم مستعدين لدفع الثمن . والفرص الرئيسية للتحول الاشتراكى تنبثق عندما يواجه النظام الرأسمالى نفسه الأزمة وانعدام الاستقرار . لكن استثمار هذه الأزمات يتطلب الوجود المسبق لقوى اشتراكية كفاحية مستندة إلى الماركسية ـ فى بريطانيا وعلى المستوى العالمى ـ قادرة على كسب التأييد بين صفوف الطبقة العاملة . إن الطبقة العاملة والفلاحين الفقراء والعمال الزراعيين وسكان مدن الأكواخ والمضطهدين عنصريا وجنسيا ـ أى الغالبية الساحقة ـ مازال أمامهم عالم يمكنهم الفوز به . والريبية والتفسخ لن يفعلا شيئا لمساعدتهم على الفوز به ■



ماذا يبقى للشيوعيين ؟



حول انهيار النموذج السوفييتي

خليل كلفت

قد بانهيار النموذج السوفييتى فى كل مكان (حيث يبدو أن انهياره فى بقية بلدانه لم يعد سوى مسألة وقت) تكتمل دورة كبرى من دورات التاريخ الحديث تميزت بوجود هذا النموذج وبانقسام العالم، بالتالى، إلى غرب (رأسمالى) وشرق (سوفييتى) وعالم ثالث (تابع للغرب أخفقت كافة محاولاته للفكاك من إسار هذه التبعية بالاستفادة من وضع دولى تميز بالتناقض والحرب الباردة بين المعسكرين: (الغرب والشرق).

والصورة المستقبلية العامة التى يرسمها انهيار واختفاء هذا النموذج وتبنى بلدانه للنموذج الرأسمالى الغربى، هى صورة شمال اتحد بشرقه وغربه فتضاعفت قوته وتضاعف جبروته، وجنوب يتمثل فى عالم ثالث تابع متخلف تضاعف ضعفه وتضاعف انهيار مقاومته. إنها صورة تحتل صدراتها رأسمالية عالمية متحدة موحدة عاتية رمزها الموحى هو حلول ألمانيا الموحدة محل ألمانيا (الاتحادية) وألمانيا (الديمقراطية) المتنافستين السابقتين، ولا يخفى أنها صورة تحيط الثورات الاشتراكية، وحتى كل استقلال وطنى، بإطار كئيب من الشروط غير المواتية. وكل ما يبدو فى الأفق هو أن التحولات الجارية فى بلدان النموذج السوفييتى، وهى بلدان ذات مستويات متباينة فى التطور، تباين كوبا والاتحاد السوفييتى، ستضاعف ببعض هذه البلدان قوة الشمال وببعضها الآخر بؤس الجنوب.

التاريخ والأسطورة:

بديهى بطبيعة الحال أن مفتاح فهم المغزى الحقيقى لهذه التحولات الجارية فى بلدان الشرق، وبالتالى فى كل العالم، يتمثل فى فهم الطبيعة الاجتماعية للنموذج السوفييتى، هذا النموذج الاقتصادى والسياسى والأيديولوجى الذى ساد طوال العقود السابقة فى بلدان ما كان يسمى بالمنظومة الاشتراكية العالمية فى أعقاب ثورات أو نتيجة لزحف الجيش الأحمر.

غير أن الطبيعة الاجتماعية للنموذج السوفييتى ظلت، على مدى العقود التى عاش فيها هذا النموذج، عقدة مستعصية فلم ينعقد عليها أى إجماع من أى نوع، بل تمايزت وتبلورت ماركسيات متعددة متباينة انطلقت من الاختلافات حول هذه المسألة المحورية.

وهناك بوجه خاص الماركسية السوفييتية التى رأت أن هذا النموذج يساوى الاشتراكية والتطبيق الخلاق للماركسية ـ اللينينية، ونقيضها المباشر، وهو الاتجاه الذى ينتمى إليه مؤلف هذا الكتاب، وهو اتجاه حزب العمال الاشتراكى فى بريطانيا بزعامة تونى كليف، الذى رأى منذ أواخرالأربعينيات، وليس الآن، أن هذا النموذج ليس سوى النموذج الشرقى للرأسمالية الواحدة نفسها، نموذج رأسمالية الدولة البيروقراطية، كما رأى أن ثورة أكتوبر هزمت وأن «شيوعيتها» انهارت منذ أواخر العشرينيات من هذا القرن، وليس الآن.

وإذا صحت هذه النظرية الأخيرة فإن الموقف الراهن سيبدو أشبه بمشهد سوريالى: مآتم فى كل مكان على ظهر الكرة الأرضية يقيمها ـ الآن ـ الشيوعيون للشيوعية التى انهارت منذ أكثر من ستين سنة، وأفراح فى كل مكان على ظهر الكرة الأرضية يقيمها ـ الآن ـ أعداء الشيوعية لانهيار الشيوعية منذ أكثر من ستين سنة. ولسنا إزاء ذكرى حزينة أو سعيدة من أواخر العشرينيات، فالشيوعيون وأعداء الشيوعية على السواء يعتقدون أن الانهيار حدث أو يحدث الآن. ويعتقد الشيوعيون أن مؤامرة أعداء الشيوعية كانت عاملا حاسما وراء انهيار الشيوعية، رغم أنه لامانع لديهم من الحديث عن «أخطاء وسلبيات» للتجربة، جعلت نجاح المؤامرة (الأمريكية بوجه خاص) ممكنا، أما أعداء الشيوعية فيهنئون أنفسهم مرتين؛ مرة لأن الشيوعية انهارت من الداخل لأنها ضد الطبيعة البشرية، ومرة أخرى لأنها انهارت تحت ضغطهم الطويل المظفر.

ولن يصدّق الشيوعيون أبدا أن شيوعيتهم كما تحققت فى الواقع والتاريخ لم تكن سوى رأسمالية دولة بيروقراطية، كما أن أعداء الشيوعية لن يصدّقوا إلا أن الشيوعية تعنى فى الواقع البيروقراطية والامتيازات والاستبداد والشمولية حيث لايمكن الزعم أن هذه الشرور «الشيوعية» اختفت منذ أكثر من ستين سنة فهى، بالأحرى، استفحلت وتفاقمت ولم تأخذ فى التداعى والانهيار إلا الآن.

وبعيدا عن مآتم الشيوعيين من الطراز السوفييتى وأفراح أعداء الشيوعية من كل طراز، ينبغى أن نلاحظ أن هذا المشهد السوريالى ليس سوى المشهد



ستالين

الأخير من ملحمة سوريالية عاشتها البشرية قاطبة طوال عقود طويلة: ينقلب الحلم الشيوعى إلى كابوس يراه الشيوعيون فى منامهم ويقظتهم، خاصة خارج بلدان النموذج،أسطورة وردية أو الفردوس تحقق على الأرض، ولهذا يراه الرأسماليون فى كل مكان كابوساً ينبغى التخلص منه، وفى الحالين تتمثل الصياغة العقلانية لهذا الحلم الكابوس فى فكرة أن النموذج السوفيتى هو نموذج الاشتراكية، وتغدو هذه الفكرة أسطورة تستحوذ على عقل وسلوك العالم بأسره، بشعوبه وحكوماته. ولاجدال فى أن هذه الأسطورة ليست الأسطورة الوحيدة التى سيطرت على الشعوب أو الحكومات فى القرن العشرين، ويكفى أن نتذكر أساطير أخرى بدت للشعوب أو الحكومات سبل خلاص فى فترة أو أخرى فى كل أو بعض مناطق العالم كالفاشية أو تصفية الاستعمار أو التنمية. على أن هذه الأسطورة تبدو لى أشد هذه الأساطير شمولا، وأطولها أمدا، وأكثرها خصوبة، أىْ قدرة على توليد أساطير جديدة نعيش كثيرا منها الآن، فهى جديرة بالتالى بدراسات ريادية معمقة لفهم الإطار الثقافى، العقلى والأسطورى، الذى تعيش البشرية فى سياقه الآن.

ولكى نفهم عددا من تلك الأساطير المتولدة عن الأسطورة الأصلية، مثل الأسطورة القائلة أن هذه النهاية للشيوعية أو نهاية هذه الشيوعية هى النهاية لكل

ماذا يبقى للشيوعيين ؟

شيوعية وأنها بالتالى نهاية التاريخ، أو الأسطورة القائلة أن انهيار النموذج السوفييتى انقلاب فى اتجاه مجرى التاريخ الحديث، أو غيرهما من أساطير، سيكون من الملائم أن نبتعد، وإنْ قليلا، عن الأساطير لنركّز، وإنْ بسرعة، على الطبيعة الاجتماعية لهذا النموذج والتى يمثل فهمها كما سبق القول المفتاح الحقيقى لفهم مغزى وأبعاد ونتائج انهيار هذا النموذج.

الطبيعة الاجتماعية للنموذج السوفييتى:

يتوقف، إذن، مغزى وجود أو اختفاء هذا النموذج على حقيقة طبيعته؛ فهل كان ذلك النموذج اشتراكيا (كما زعم الخط السوفيتى)، أم انتقاليا بين الرأسمالية والاشتراكية فى عهد ستالين (كما زعم تروتسكى) وكذلك فى عهود خلفائه (كما زعمت الأممية الرابعة)، أم جماعيا بيروقراطيا أى مجتمعا بعد رأسمالى لكنْ استغلاليا (كما زعم شاختمان) أم رأسمالية دولة بيروقراطية (كما زعم تونى كليف)، أم اشتراكيا فى عهد ستالين انقلب رأسماليا وامبرياليا اشتراكيا فى عهود خلفائه فيما يتعلق بالاتحاد السوفيتى (كما زعمت الماوية)، أم اشتراكيا فى عهد ستالين ثم مهددا بعودة الرأسمالية من خلال التحريفية أو المراجعة (كما كان الخط الماوى قبل المؤتمر التاسع للحزب الشيوعى الصينى الذى تحدث عن الامبريالية الاشتراكية فى ١٩٦٩، ويجدر بالذكر أن كاتب هذه السطور ظل منذ أواخر الستينيات وطوال السبعينيات وحتى بداية الثمانينيات من أنصار هذا «الطريق الثالث» الذى كان له حظ من الانتشار فى الهند ومصر، والذى لايعدو أن يكون مرحلة من مراحل الفكر الماوى، الذى تتمثل نقطة ضعفه الرئيسية فيما يتعلق بهذه المسألة فى نظرى إلى عهد ستالين على أنه عهد اشتراكى، وكان من المنطقى أن أتخلى خلال الثمانينيات عن هذا الموقف غير المتماسك وأن أنتقل إلى الفكرة القائلة أن النموذج السوفييتى ليس سوى رأسمالية دولة، وإذا كانت هذه الفكرة مشتركة لدى اتجاهات وشخصيات عديدة فإنه يبدو لى أنها تصل إلى أقصى تماسكها لدى اتجاه «تونى كليف» وحزب العمال الاشتراكى البريطانى، وهو اتجاه أتفق معه فى هذه الفكرة بالذات فى حين أتحفظ على أو أختلف مع بل حتى أجهل جهلا مباشراً فى كثير من الأحوال، كثيرا من أفكاره وتوجهاته ونظرياته الأخرى، أم ماذا؟

وليس من الوارد، بطبيعة الحال، فى سياق مثل هذا التناول الموجز، أن أحاول مناقشة هذه النظريات والمذاهب، فلا مناص إذن من أن أكتفى بإشارات سريعة يمكن الارتكاز عليها، بعيدا عن أى عرض منهجى منتظم، إلى طبيعة وخصائص النموذج السوفييتى.

فكيف أمكن أن تتحول ثورة أكتوبر إلى رأسمالية دولة، وأن ينقلب الحلم إلى كابوس؟

وبطبيعة الحال، لم يكن المجتمع الذى أعقب ثورة أكتوبر فى روسيا مجتمعا اشتراكيا. وإذا كان من المنطقى أن المجتمع التالى حتى لثورة اشتراكية لاجدال فى طبيعتها حتى فى بلد رأسمالى غاية فى التطور لن ينقلب إلى مجتمع اشتراكى فى غمضة عين، فإن المجتمع التالى لثورة أكتوبر لم يكن انتقاليا وحسب، بل كان كذلك مطبوعا بطابع تخلف روسيا القيصرية، وبالتالى بطابع خصائص ثورة أكتوبر وعدد من الأوضاع والظروف العالمية والمحلية البالغة التأثير.

وكان على ذلك المجتمع الانتقالى أن يتصدى لمهامه الجبارة، الدفاعية والهجومية، الحربية والمدنية، الاقتصادية والسياسية، الديمقراطية والاشتراكية، فى سياق شروط وأوضاع وظروف موضوعية وذاتية وثيقة الصلة بخصائص كل من روسيا القيصرية وثورة أكتوبر والحركة الشيوعية العالمية فى ذلك الحين.

فرغم التطور السريع العاصف للرأسمالية فى روسيا القيصرية فى العقود السابقة لثورة أكتوبر، ورثت الثورة والمجتمع الانتقالى التخلف الاقتصادى الذى ضاعفه الدمار الناتج عن الحرب العالمية الأولى وحرب التدخل من جانب

١٤ دولة والحرب الأهلية. وكان كل هذا التخلف الاقتصادى وثيق الارتباط بطبيعة الحال بالطابع غير الحديث للتركيب الطبقى والديموجرافى. وهكذا كانت روسيا بلد القنانة والفلاحين ولم تكن بلد البروليتاريا التى كانت ضئيلة الحجم بالمعنى المطلق والنسبى. ولم يكن من شأن هذه القاعدة الاجتماعية الضيقة للثورة أن تؤمّن هذه الأخيرة اجتماعياً وكان التحالف الثورى بين العمال والفلاحين تحالف جماهير متأخرة ثقافياً وسياسياً.

وفى سياق هذا التخلف الاقتصادى والاجتماعى للبلاد والتأخر الثقافى والسياسى للجماهير، أىْ قوى الثورة جاءت ثورة أكتوبر ليس كثورة اشتراكية بلانعوت أخرى بل كثورة تنبع خصائصها وطبيعتها من كافة الشروط الموضوعية (المحلية والعالمية) والذاتية (الخاصة بقوى الثورة وقيادتها).

والحقيقة أن ثورة أكتوبر لايمكن أن تكون مجرد موضوع للبحث الأكاديمى، بل ينبغى النظر إليها أوّلا ثم إلى الثورات التالية باعتبار الدروس المستفادة من فشلها فى الحساب الأخير دروس نجاح ثورات المستقبل. إن ثورة أكتوبر ليست مجرد تاريخ للبحث الأكاديمى وليست بالأخص تاريخا مقدسا قال فيه كرادلة البلشفية كلمتهم الأخيرة. إنها، على العكس من ذلك، بحث مفتوح مادامت قضيتها قضية مستقبل وليست رمز حنين إلى ماض أسطورى.

ولم تكن ثورة أكتوبر ثورة أقوى حلقات السلسلة بل ثورة أضعف حلقات السلسلة. ولم تكن الأزمة التى فجرتها أزمة اكتمال نمو مجتمع جديد (الاشتراكية) فى رحم مجتمع قديم (الرأسمالية)، ذلك أن المجتمع القديم ذاته (الرأسمالية) كان لايزال جنينا لم يكتمل نضجه فى رحم مجتمع أقدم (الإقطاع). كما أنها لم تكن تعبيرا عن النمو الطبيعى لنضال أضداد التكوين البنيوى للمجتمع القديم بل كانت تلك الأزمة ترجع بصفة مباشرة إلى تأثير الحرب العالمية الأولى حيث خلفت الجيوش الألمانية فى سياقها فراغا هائلا فى روسيا عن طريق تدميرها اقتصاديا وعسكريا، فتفاقمت بالتالى أوضاع وأزمات جماهيرها إلى حدّ يستحيل معه العيش على المنوال نفسه. وكان ذلك التدافع المفزع من جانب طبقات المجتمع كافة ومن جانب قواه السياسية كافة لملء أو استغلال ذلك الفراغ هو المجرى الفعلى للثورة والثورة المضادة فى روسيا.



ليونيد بريجنيف

لسنا إذن إزاء اكتمال نضج مجتمع برجوازى من ناحية واكتمال نضج النضال من أجل انتصار الثورة الاشتراكية من ناحية أخرى. بل إن طبيعة الثورة ذاتها لم تحسم إلا فى معمعان معارك الثورة (أبريل ١٩١٧). ولهذا فإن مدى عمق الطابع الاشتراكى لثورة أكتوبر يغدو موضع شك، ويغدو من الواجب بحث هذه المسألة، بعيدا عن الخطب الرنانة، من أجل ثورات المستقبل.

على أن ثورة أكتوبر التى كانت تنتقم منها أوحال التخلف اقتصاديا واجتماعيا، كانت تعانى كذلك من ظرف عالمى غير موات. فالأزمة الحادة التى دفعت إلى الثورات فى أوروبا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى كانت مرتبطة بدورها بتلك الحرب. وكانت رغم نضج التكوين الاجتماعى - الاقتصادى الرأسمالى فى الغرب تعبيرا عن تأثير الحرب وليس عن نضج وعمق النضال البروليتارى فى سبيل انتصار الثورة الاشتراكية على مدى العقود السابقة لتلك الحرب. ولهذا فإن الأزمة لم تكن أزمة ثورية شاملة ولم تكن بالأخص أزمة ثورة اشتراكية. ذلك أن هذه الأزمة الأخيرة كانت تفترض من جانب نضج نمو التكوين الرأسمالى (الشرط الموضوعى الحاسم للثورة الاشتراكية) ومن الجانب الآخر نضج نمو النضال الاشتراكى (الشرط الذاتى الحاسم للثورة الاشتراكية). وهذه هى الثورة

ماذا يبقى للشيوعيين ؟



الاشتراكية التى توقعها ماركس فى بداية الأمر: فى قلاع الرأسمالية. غير أن التاريخ كان يدّخر لكامل تاريخ الحركة الشيوعية العالمية مفاجأة غير متوقعة ولم تتضح أبعادها إلا على المدى الطويل: نضج التكوين الرأسمالى بوصفه عقبة فى سبيل نضج النضال الشيوعى طالما كانت الرأسمالية تمتلك ديناميات وآليات تجعلها قادرة على حفز واستيعاب ثورات تقنية جديدة من ناحية وعلى السيطرة الإمبريالية على العالم وعلى مقدراته الاقتصادية من ناحية أخرى، وعلى احتواء النضالات والأزمات وعرقلة نموها بالقدر المطلوب لثورات اشتراكية وخلق واستغلال الأرستقراطية العمالية والشوفينية من ناحية ثالثة، كنتيجة للناحيتين الأولى والثانية. إن الشرط الموضوعى لايسير هنا يداً فى يدٍ مع شرط ذاتى مناظر، فالتناظر ذاته غير وارد، حيث يستبعد الشرط الموضوعى الشرط الذاتى فى مرحلة طويلة من التاريخ لاتزال مستمرة إلى الآن بصورة عامة، وإن كانت مقدمات نهايتها تتراكم باطراد خلال العقود الأخيرة. والحقيقة أن البلاشفة كانوا يعلمون أن ثورة أكتوبر (وقبلها ثورة ١٩٠٥) ثورة فى أضعف حلقات السلسلة، وليست ثورة فى أقوى حلقات السلسلة، فى قلاع الرأسمالية، كما تنبأ ماركس. ولكنهم كانوا يؤمنون مع ذلك بنبوءة ماركس بدليل أن أملهم الوحيد فى الانتصار الكامل للثورة فى روسيا كان يتمثل فى ثورة البروليتاريا الأوروبية، فى قلاع الرأسمالية. ولئن كانت نبوءة ماركس صحيحة فإن توقع تحققها الوشيك أو القريب كان يعنى عدم إدراكه، وعدم إدراك لينين والبلاشفة، لحقيقة أن الشرط الموضوعى للثورة فى الرأسمالية المتطورة يستبعد الشرط الذاتى طوال مرحلة تاريخية طويلة تتميز بأن تناقضات الرأسمالية لم تنم بعد إلى الحدّ الذى يفتح الباب أمام تكامل وليس تعارض الشرط الموضوعى والذاتى للثورة.

ورغم أننى أطلت فى هذه النقطة فقد يكون من المفيد أن أضيف أن ماركس ذاته لم يستبعد الثورة الاشتراكية فى بلدان متأخرة رأسماليا، وكان رأيه عن روسيا بالذات أنها يمكن أن تنتقل من المشاعة الريفية إلى الاشتراكية دون أن تمرّ حتما بكل مراحل الرأسمالية كافة التى كانت قد بدأت تنمو فى روسيا بالفعل، بشرط أن تمتلك إنجازات الرأسمالية مع تفادى ويلاتها. ومن الجلى أن هذا الشرط الذى يعتبر بمثابة قانون عن تخطى المراحل لايمكن أن يتحقق إلا بافتراض عملية ثورية عالمية أممية تشمل بلدانا متأخرة أو متخلفة وأخرى متطورة للغاية (أو على الأقل بلدين أحدهما متأخر والآخر متطور) حيث تقدم البلدان المتطورة العون المنهجى الشامل للبلدان المتخلفة فى مجال التحديث الجذرى لقواها الإنتاجية ولأسلوب حياتها. وهنا تتضح نقطة بالغة الأهمية فيما يتعلق بقضية طبيعة الثورة فهذه الطبيعة لاتتحدد بشكل إرادى داخل حدود بلد واحد مهما كان متخلفا فهى بالأحرى قضية أممية، بمعنى أن بلدا متخلفا يمكن أن يسير فى طريق ثورة اشتراكية تتجاوز شروطها الداخلية بشرط أن تكون هذه العملية ضمن عملية أوسع تشمل بلداً متطورا أو بلدانا متطورة بافتراض الإخاء الأممى والتعاون الأممى بلا حدود. والواقع أن هذا الشرط بالذات كان ينقص ثورة أكتوبر التى انتظرت سدىً وبلا جدوى نجدة الثورة البروليتارية الأوروبية، وبدلا من النجدة الأممية سيكون هناك التطويق الإمبريالى وبناء الاشتراكية فى بلد واحد، كعقيدة أو فضيلة وليس كمجرد واقع أو اضطرار أو ضرورة.

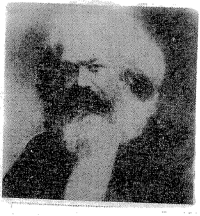
وهكذا كان على ثورة أكتوبر أن تعانى محلياً من التخلف الروسى؛ الذى كان من شأنه أن يقود إلى نشوء أزمة ثورية بتأثير حرب عالمية أو غير عالمية أو بدون حرب على الإطلاق، لكن دون أن يتأخر هذا التخلف عن فرض شروطه كافة، وأن تعانى أمميا من التقدم الأوروبى الذى كان من شأنه أن يَحوْل دون نشوء أزمة ثورية عميقة وشاملة، وأن يساعد على استيعابها حربيا ومدنيا إذا نشأت مراحل منها بتأثير الحرب. وهكذا كانت الأزمة الثورية المحلية والعالمية بالتأثير المباشر للحرب غير أنه

لم يكن بوسع مآثر الحرب أن تتجاوز خلق أو تعميق الأزمة، لا إلى إنقاذ الثورة الروسية من تخلف الأوضاع الروسية الأصلية، وبالتالى الحكم على الثورة بطبيعة محددة مهما كانت التصورات البلشفية الذاتية عنها (مادامت هذه الثورة معزولة ومحاصرة)، ولا إلى نجدتها بثورة اشتراكية أوروبية اتضح فيما بعد أن توقعها وعقد الامال عليها لم يكن لهما مبرر حقيقى.

على أن هناك شرطا ذاتيا قد يبدو أكثر رهافةً، غير أنه حاسم مع ذلك فى المسار الفعلى لتطور الثورة، وكان هذا الشرط الذاتى غائبا. فرغم أن البناء الاشتراكى ينطوى على جدل الموضوعى والذاتى الذى لايمكن التنبؤ سلفا بتفاصيله، إلا أن برنامج البناء الاشتراكى بخطوطه العريضة لكن الحاسمة ينبغى أن يكون موجودا ومستوعبا ومهضوما سلفاً على أوسع نطاق من جانب قيادة وطليعة وجماهير الثورة، وإلا فكيف يمكننا أن نتصور قيام ديمقراطية مباشرة تمارس الجماهير من خلالها مهام الحكم وتخطيط الاقتصاد ممارسة فعلية، وليس فى الكتابات الإنشائية والخطب الطنانة قبل أو بعد الثورة، وكان تعليق البرنامج الذى تضمنه كتاب الدولة والثورة للينين رمز وعنوان هذا الغياب لبرنامج البناء الاشتراكى.

وهكذا وُلِدَ المجتمع الانتقالى التالى لثورة أكتوبر محاصرا من كل جانب، وكان عليه أن يتصدى للقيام بمهامه الجبارة وأن يخوض معاركه الطاحنة، ببطولة الشعب وبحكمة القيادة، لكنْ أيضا مثقلا بقدر هائل من نقاط الضعف والشروط الموضوعية والذاتية غير المواتية.

والواقع أن ذلك المجتمع الانتقالى كان لايملك ترف الشروع فى تحقيق التحول الاشتراكى المستهدف بالشروع على الفور فى تطوير القوى المنتجة ورفع مستوى معيشة الجماهير العاملة بصورة مطردة ومتوازنة، بل كان عليه، بدلا من البناء، أن يخوض الحرب سنوات (مع الاكتفاء بتدابير شيوعية الحرب)، وكان عليه أن ينطلق فى تطوير الاقتصاد والقوى المنتجة (بعد انتصار الثورة فى الحرب الأهلية) ليس فقط من مستوى تخلف سنة ١٩١٣ أو ١٩١٤ (أى مستوى ماقبل بداية الحرب) بل مضافا إليه دمار ست أو سبع سنوات من الحروب المتنوعة المتواصلة.



ماركس

على أن الحرب الأهلية الطاحنة على مدى سنوات لم تدمر الاقتصاد وحسب، بل أنهكت الثورة والمجتمع الانتقالى بوجه عام ودمرت وأفنت الطبقة العاملة وبالأخص ومن باب أولى طليعتها البلشفية. وكان هذا يعنى أن يغرق الحزب البلشفى فى بحار من الجماهير غير البروليتارية وغير المسيّسة وغير المندمجة مع الفكر الثورى، وكان كل هذا يعنى بالتالى أن الاشتراكية المعلنة والمستهدفة ستبنى بدون اشتراكيين، بدون ماركسيين، وإنْ تضخم الحزب باعتباره حزب السلطة.

وإذا كان الطموح الهائل الكامن فى ذلك المجتمع التطور العاصف للرأسمالية (فى روسيا قبل الثورة) وبالأخص فى البرنامج البلشفى إلى تطوير جذرى للقوى المنتجة قد تلقى دفعة كبيرة من مجرد الإطاحة بالطبقات المالكة القديمة لكى ينفتح له الباب أمام تطور جبار عاصف، فإن انطلاق هذا التطور من عقاله فى ظل كل ذلك التخلف الاقتصادى والتقنى والثقافى، كان ينطوى على مشروع يعوض عن التخلف بأساليب التراكم البدائى (الاشتراكى) الوحشية التى لاحاجة إليها بطبيعة الحال عندما تكون نقطة انطلاق التحول الاشتراكى رأسمالية متطورة.

وتفشل الثورة فى إقامة مؤسسات صحيحة للديمقراطية المباشرة للطبقة العاملة وجماهير العاملين، وينشأ نظام

ماذا يبقى للشيوعيين ؟



الحزب الواحد، وتفقد السوفيتات والنقابات دنياميتها بصورة تدريجية فتنحط وتتدهور.

ورغم تحوّل الماركسية إلى مذهب للدولة، فى التعليم والإعلام والدعاية والحزب والعمل السياسى والجماهيرى والأبحاث والعلوم والآداب والفنون، فإن هؤلاء الأنصار الجدد لدين الدولة لن يعوّضوا عن دمار المناضلين البلاشفة فى الحروب حتى قبل التصفيات الستالينية، وبصورة تدريجية يتبلور مشهد عملية بناء جبارة لكن بلاشيوعيين حقيقيين، وبلا مؤسسات عمالية ديمقراطية من أى نوع.

ورغم المذهب القائل إن الاشتراكية لايمكن أن تكون إلا من صنع الجماهير، تصبح الاشتراكية وكل شىء آخر من اقتصاد أو تخطيط أو سياسة أو تنفيذ أو رقابة من صنع (ووظائف) بيروقراطية وأجهزة الدولة التى أصبح الحزب والسوفييت والنقابة فى عداد أجهزتها من الناحية الفعلية.

ويندفع المجتمع السوفييتى فى تحقيق مشروع بناء مجتمع حديث يمتلك قوى منتجة متطورة على حساب استهلاك الجماهير العاملة، وبقيادة وسلطة وامتيازات البيروقراطية وبالاعتماد على الأجهزة والأساليب البوليسية مع دور الحزب والسوفيتات والنقابات فى القمع الأيديولوجى والسيطرة على الجماهير. ومثل هذا المشروع لايمكن إلا أن يكون مشروعا رأسماليا مهما كان نوعيا (رأسمالية الدولة البيروقراطية) ومهما استند إلى ملكية الدولة أو التخطيط أو الماركسية ـ اللينينية.

وإذا كان صعود الستالينية فى أواخر العشرينيات حركة كبرى من التراكم البدائى (الاشتراكى)، والعصف ببقايا الديمقراطية فى المؤسسات كافة، وإرساء أسس النظام الشمولى، وصعود البيروقراطية إلى مركز طبقة حاكمة فى طور التكوين، فإن المجرى العام لثورة أكتوبر وللمجتمع الانتقالى المبكر، بكافة شروطه الموضوعية والذاتية غير المواتية، سهّل مهمة العصف بثورة أكتوبر باسمها وتبلور النموذج السوفييتى الذى تم فيما بعد تصديره واستيراده، والذى تمثلت خصائصه الرئيسية فى اقتصاد الدولة ملكية وإنتاجا وتوزيعا وتخطيطا وسلطة بيروقراطية الدولة، التى اتخذت أشكالا ديكتاتورية بوليسية لامثيل لها فى التاريخ الحديث، والعلاقات الاستغلالية البيروقراطية، والماركسية ـ اللينينية التى تسبح بحمد النظام الاشتراكى المزعوم القائم ولاتجرؤ على نقده، والأممية اللفظية فى السياسة الخارجية التى قامت فى واقع الأمر على المصالح السياسية والاقتصادية الاستراتيجية.

إن النموذج السوفييتى الذى لايمكننا هنا أن نتابع كافة نواحى نشأته ورسوخه ومراحله، وناهيك بتصديره واستيراده وغرسه فى بيئات أخرى ليس سوى رأسمالية دولة شمولية.

الانهيار ومغزاه:

من الجلى أن هذا النموذج ينطوى فى داخله على جرثومة انهياره الأكيد، ليس الانهيار الذى ينتظر كل «نموذج» رأسمالى وحسب، بل الانهيار المرتبط بخصوصيته النوعية، بوصفه رأسمالية دولة شاملة تحظر الاستثمار الرأسمالى الخاص.

ولعل من أبرز نقاط ضعف نظرية رأسمالية الدولة فى روسيا عند تونى كليف وكريس هارمان وغيرهما من قادة حزب العمال الاشتراكى فى بريطانيا، هذا العجز العقائدى عن استشراف هذا الانهيار. وأعتقد أن هذا العجز ينبع من الإحجام عن تحليل تناقضات رأسمالية الدولة حتى النهاية، وكأن إثبات أن الاشتراكية المزعومة فى بلدان النموذج السوفييتى لم تكن فى واقع الأمر سوى رأسمالية دولة، يقتضى التعامى عن تناقضاتها وأزماتها وعن المسار المحتمل لتطور تلك التناقضات والأزمات!

والواقع أن كل أو تقريبا كل محاولات تفسير انهيار النموذج السوفيتى تركز على فكرة «ردّة» رأسمالية راهنة (الخط السوفييتى، الأممية الرابعة، الجماعية البيروقراطية) أو قريبة العهد أى بعد ستالين والمؤتمر العشرين (الخط الماوى وكذلك «الطريق الثالث» المشار إليه سابقاً بالتبعية). ولكن هذه النظريات جميعا تواجه مآزق نظرية بالغة الصعوبة، فكيف يمكن تصديق حدوث ردة

رأسمالية عن اشتراكية عالية التطور (الخط السوفييتى) أو حتى اشتراكية عهد ستالين (الخط الصينى) أو عن اقتصاد انتقالى يفترض فيه نمو الجديد الاشتراكى على حساب القديم الرأسمالى على مدى عقود طويلة (ماندل والأممية الرابعة) أو عن تكوين اجتماعى ـ اقتصادى بعد رأسمالى جديد (شاختمان ونظرية الجماعية البيروقراطية)؟

أما نظرية رأسمالية الدولة (تونى كليف) فلا مكان فيها للحديث عن ردّة رأسمالية راهنة مع البيريسترويكا أو قريبة العهد مع المؤتمر العشرين. والردة الوحيدة الواردة عند هذا الاتجاه هى الردة الرأسمالية البيروقراطية الستالينية فى أواخر العشرينيات عن ثورة أكتوبر وعن المجتمع الانتقالى الذى ازدوجت فيه بقايا التكوينات الموروثة عن روسيا القيصرية ومحاولات البناء الاشتراكى الأولى خلال قرابة العقد بعد الثورة. وإذا كانت هناك ردة راهنة فهى فى نظر هذا الاتجاه ردة عن شكل للرأسمالية (رأسمالية الدولة) إلى شكل آخر للرأسمالية الواحدة نفسها (الرأسمالية عبر القومية). وإذا كان هذا الاتجاه يقدم بالفعل نظرية متسقة مع الطبيعة الرأسمالية البيروقراطية للنموذج السوفيتى، ويقدم بالتالى تفسيرا عاما سليما لمغزى التحولات الراهنة باعتبارها حركة، ليس إلى الأمام وليس إلى الوراء، بل فى نفس المكان من حيث التكوين الاجتماعى ـ الاقتصادى الرأسمالى الواحد المستمر، فإن مسألة ماإذا كان تفسيره للأبعاد الهائلة والمفاجئة التى اتخذها انهيار النموذج السوفييتى مقنعا وكافيا تظل مفتوحة للجدال.

لقد عاشت رأسمالية الدولة الشمولية، رغم تناقضاتها وأزماتها، عقودا طويلة. وفى هذا الزمن الطويل نسبيا أمكن لرأسمالية الدولة أن تعطى أروع ثمارها التى تتمثل فى تطوير القوى المنتجة بمعدلات نمو لاتفوقها سوى معدلات نمو اليابان، فحققت فى عقود معدودة مااحتاجت الرأسمالية فى الغرب لتحقيقه إلى مئات السنين. وفى هذا الزمن الطويل نسبيا أمكن لتناقضات وأزمات رأسمالية الدولة أن تتفاقم وتستفحل وتنضج لتعطى بدورها أروع ثمارها التى تمثلت فى كسر إطار الشمولية، وفتح الأبواب والنوافذ أمام نضال الجماهير العاملة فى سبيل حرياتها وحقوقها ومستويات معيشتها ونقاباتها وأحزابها وثوراتها.



ماوتسى تونج

فهل هناك مايدعو للعجب فى أن تعيش رأسمالية الدولة الشمولية، رغم تناقضها وأزماتها، كل هذا الزمن الطويل؟ والواقع أن التناقض الجوهرى الذى ينطوى عليه هذا التكوين الاقتصادى ـ السياسى الشمولى، والذى يحتاج إلى زمن طويل لإنضاج تفاعلاته المؤدية إلى تفتيت وتفجير هذا التكوين إلى شظايا ماثل فى صميم هذا التكوين الذى يتغلب عليه مع ذلك لزمن طويل بفضل العوامل البنيوية والظرفية المؤدية إلى تأكيد وإطالة أمد دور الدولة. فالبيروقراطية الرأسمالية لايمكن إلا أن تطمع إلى التحول إلى طبقة رأسمالية عادية تفتح أمامها أبواب الاستثمار الخاص مهما كان حجم ووزن اقتصاد الدولة والاستبداد الشمولى. وهذا عامل تفتيت لهذا التكوين على المدى البعيد. وليس صحيحا أن البيروقراطية العليا لايمكن أن تنتحر بالتخلى عن امتيازاتها الهائلة، فهى لاتتخلى عنها فى الحقيقة إلا لتضيف إليها، أو لتكسب بدلا منها، كافة مزايا التحول إلى طبقة مالكة وحاكمة بلا قيود دولوية. كما أن الجماهير العاملة المستغلة والمضطهدة أكثر مما فى أى بلد رأسمالى ليبرالى لاتملك كطبقة أو طبقات سوى الثورة ضد الإفقار والاضطهاد فى ظل الحكم الشمولى. وهذا عامل تفتيت آخر لهذه الرأسمالية الشمولية، لكنْ على المدى الطويل أيضا.

ماذا يبقى للشيوعيين ؟



فما هى عوامل التماسك البنيوية والظرفية التى تتغلب، ولزمن طويل، على عوامل تفتيت هذا التكوين الشمولى ؟

هناك، أوّلا، ذلك المشروع الهائل لتطوير القوى المنتجة والذى كان المزيد من إنجازاته وقفزاته بالمجتمع يؤكد دور ملكية وتخطيط وبيروقراطية وأشكال حكم الدولة .وطالما ظلت دينا ميــة ذلك المشروع مستمرة وأهدافه الاستراتيجية غير متحققة بصورة كاملة، كان ذلك المشروع مفخرة الدولة الشمولية ومحور عملها وأساس تماسكها .وتتمثل مصالح البيروقراطية كطبقة، أو بالأحرى كطبقة فى طور التكوين، فى نجاح هذا المشروع، ويجرى تغليب المصالح الاستراتيجية للبيروقراطية فى الاستحواذ على اقتصاد متطور بالغ التعقيد والحداثة على مصالحها المؤقتة المتمثلة فى مزايا التحول السريع إلى طبقة رأسمالية تستثمر وتستخدم العمل المأجور فى مشروعات خاصة.

على أن هذا المشروع التحديثى العملاق لم يكن محور وجود ونجاح ومستقبل البيروقراطية وحدها؛ بل كان كذلك محور واقع وأساطير حياة الجماهير العاملة التى كانت واقعة فى إسار أوهام ووعوده، والتى كان الحكام يخشون غضبها ومقاومتها لأىّ «ردّة» عن دور الدولة التى كانت تعمل على قدم وساق على تحقيقه. كما أن الشرعية التى اغتصبتها البيروقراطية، شرعية ثورة أكتوبر وديكتاتورية البروليتاريا،كانت تكرس ملكية الدولة وتخطيط الاقتصاد والأيديولوجية الماركسية - اللينينية التبريرية الملفقة، ولم يكن التحدى المباشر لتلك الشرعية مأمون العواقب. وهكذا كانت تلك الشرعية بدورها من عوامل تأكيد وتأبيد دور رأسمالية الدولة الشمولية.

على أن الوضع الدولى، بثوابته ومتغيراته، كان لايتأخر عن استفزاز وتحدى النموذج السوفييتى بأسباب متزايدة لاستمرار وتماسك دور الدولة.

ومنذ البداية، كما سبق أن رأينا، كان الغرب الرأسمالى الإمبريالى يتحدى ثورة أكتوبر، بعيدا عن آمال أو أوهام وأساطير نجدة الثورة البروليتارية العالمية، بشروط الصلح مع ألمانيا، وبالتدخل الأجنبى المسلح، ثم بالتطويق الرأسمالى العالمى بعد ذلك. وكان على الدولة الجديدة ليس فقط أن تطور القوى المنتجة بسرعة مذهلة بل أن تطور كذلك وبالسرعة نفسها قوى الدمار دفاعا عن النفس.ولم تتأخر الفاشية الهتلرية عن الهجوم. وكان من المنطقى أن تؤكد الحرب العالمية الثانية، بالدمار المفزع الذى حلّ بالاتحاد السوفييتى، دور رأسمالية الدولة من خلال ضرورات إعادة التعمير واستئناف مشروع التحديث العملاق والتحول إلى قوة عسكرية من الطراز الأول، دفاعا عن النفس أمام أخطار مفزعة تأكدت بصعود وتفوق وعدوانية إمبريالية الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك دفاعاً عن الإمبراطورية السوفييتية، وكأداة للتنافس العالمى على مناطق النفوذ. وأخذت تحديات سباق التسلح والحرب الباردة والثورات العلمية والتقنية فى الغرب تؤكد وتطيل أمد دور رأسمالية الدولة.

على أن هذه المجابهات والحروب الساخنة والباردة وأعباء الدفاع وأعباء الدولة العظمى وأعباء امتلاك وتطوير ترسانة أسلحة تعادل الترسانة الأمريكية، بالاستناد إلى اقتصاد لايتجاوز نصف الاقتصاد الأمريكى، كان لابد أن تنتهى تراكميا إلى إنهاك الاتحاد السوفييتى وإلى تفاقم تناقضاته واستفحال أزماته.

وفى عصر لم يعد ممكنا فيه حكم الشعب السوفييتى بالحديد والنار ومعسكرات العمل، خاصة فى ظل تراجع الاقتصاد ومستويات المعيشة، وفى عالم يتميز بأنه صار قرية إعلامية واحدة بإغراءات حقائق وأساطير مستويات المعيشة فى الغرب، كان لامناص من بروز تناقض بعينه. ذلك أن الاقتصاد المنظم على الأساس الجماعى يدخل فى تناقض صارخ مع مجتمع تسوده القيم الفردية بعيدا عن ادعاءات القيم الجماعية والشيوعية. وفى غياب المبادرة الجماعية (كتلك التى سادت أيام القيم والمبادرات الجماعية الشيوعية التى أطلقتها ثورة أكتوبر)والتى لاتنسجم إلا مع المبدأ الجماعى حقا، شكلا ومحتوى، فى تنظيم الاقتصاد ومع سيادة القيم الجماعية

والشيوعية، وفي غياب المبدأ الفردي في تنظيم الاقتصاد والذي من شأنه أن يصيب الطبقات المالكة بحمّى التراكم الخاص، وأن يقدم الأساس لرقابة فعالة على عملية العمل، وكذلك في غياب الإكراه الشمولي الصارم الذي يمكنه أن يملأ الفجوة بين ضرورات التراكم الجماعي البيروقراطي (الرأسمالي بالطبع) من ناحية، وغياب الحوافز والمصالح الفردية والخاصة لدى طبقات المجتمع كافة من الناحية الأخرى، غدا من المستحيل تفادي ترهل المجتمع وتدني الأداء الاقتصادي وانهيار كل مسئولية إزاء اقتصاد وموارد البلاد أو الدولة وفقدان الاتجاه العام (وكابوس القطار المندفع بأقصى سرعته بلا سائق كما رآه جورباتشوف في يقظته)، فلا مناص إذن من أن يجدّ البحث عن الاتجاه الصحيح والأداء الاقتصادي الفعال وسبل تفادي التخلف النهائي عن الغرب وتردّي وانهيار وانفجارالوضع برمته. وإذا كانت المبادرة قد جاءت في الاتحاد السوفييتي من أعلى (من جورباتشوف والبيريسترويكا والجلاسنوست) فهي لم تأت إلا في مناخ يتميز بالانفجارات المتكررة في بلدان «المنظومة»، وبعد سنوات من احتدام الصراعات الحاسمة في بولندا التضامن وليخ فاونسا)، ولم تكتسب مبادرة جورباتشوف ديناميتها المدمرة والمحررة إلا من عوامل التفتيت الاقتصادي والقومي والأيديولوجي التي كانت تختفي تحت السطح الجرانيتي اللامع، فإذا بنا أمام معارك إعادة هيكلة الاقتصاد في اتجاه الجمع بين الأشكال المتنوعة للملكية الرأسمالية، والصراعات الطاحنة بين القوميات بعد عقود طويلة من الحل اللينيني المزعوم في بلدان المنظومة، والتنصل من الاشتراكية والشيوعية والماركسية واللينينية وثورة أكتوبر والثورات اللاحقة وكل ثورة بعد عقود طويلة من الرفع المنافق عاليا لتلك الرايات الزائفة.

على أن انهيار النموذج السوفييتي لايعني انهيار بلدانه كبلدان أو شعوب أو اقتصادات. وإذا ركزنا على روسيا، يمكن القول إن إنجازاتها في مجال تحديث وتطوير قواها المنتجة (البشرية والمادية والعلمية والتقنية) تؤهلها للتغلب على الأزمة التي رافقت انهيار النموذج وللخروج منها قوة اقتصادية ضخمة (وبالأخص قادرة على اللحاق بالغرب والتنافس معه على قدم المساواة)، تتبوأ مكانتها في صدارة نظام عالمي جديد متعدد الأقطاب إلى جانب الولايات المتحدة وأوروبا الموحدة واليابان، أي كعضو أصيل في نادي الشمال الرأسمالي المتقدم.

وإذا كانت المصائر النظرية العامة لبلدان النموذج لاتخرج عن: أ: استمرار النموذج السوفييتي، ب: الثورة الليبرالية، جـ: الثورة الاشتراكية، فإن الانهيار الراهن للنموذج، وعلى أوسع نطاق، يدعو إلى التساؤل عن احتمالات المصائر الفعلية وهل من الوارد بينها إحياء هذا النموذج من جديد بعد هدوء العاصفة.

لقد رأينا كيف كان مشروع تحديث القوى المنتجة والقوة الدينامية الدافعة، قبل وبعد وإلى جانب الدوافع الأيديولوجية والظرفية، وراء قيام واستمرار ورسوخ النموذج السوفييتي في مسقط رأسه بالذات. فما هي تناقضات هذا الارتباط بين المشروع والنموذج؟ وماهي علاقة هذه التناقضات بمصائر اقتصادات ونظم بلدان النموذج؟

وقد رأينا أن مشروع التحديث كان يؤكد دوما دور نموذج رأسمالية الدولة. غير أن ضرورات السير بمشروع التحديث إلى نهايته المنطقية، إلى اللحاق الأكيد بالغرب، أخذت تتناقص مع استفحال تناقضات وأزمات النموذج وترهل النظام وتدهور الأداء الاقتصادي، مؤذنة بضرورة إرسال النموذج إلى متحف التاريخ بعد أن وصل بالتحديث إلى مستوى يسهل تحقيق قفزات كبرى انطلاقا منه بشرط التحرر من البيروقراطية الشمولية التي انقلبت إلى عائق كئيب. والحقيقة أن معدلات النمو المتفوقة لهذا النموذج لا تعكس التفوق الاشتراكي على الرأسمالية فهذا ليس واردا بالنسبة لهذا النموذج، الرأسمالي بدوره. بل إن مقارنة هذه المعدلات مع المعدلات الرأسمالية الغربية المتواضعة مقارنة مضللة وخادعة يجري الإلحاح عليها لتكريس أسطورة التفوق السوفييتي الاشتراكي المزعوم. فالرأسمالية الغربية التي شبعت تحديثا للقوى المنتجة ليست بحاجة إلى مثل هذه المعدلات في النمو ولا تنوي الدخول في سباق عليها مع

ماذا يبقى للشيوعيين ؟



أحد. والواقع أن نظامها الاجتماعي - الاقتصادي القائم على مبدأ الربح، وليس على التنمية الشاملة لمقدرات ومستويات معيشة الجماهير، يستبعد النمو بمثل هذه المعدلات التى تعنى فى نهاية المطاف أزمة فيض الإنتاج، نتيجة لأزمة نقص الطلب «الفعال»، بل أصبحت المهمة الاقتصادية الأولى لهذا النظام تتمثل فى كبح نمو القوى المنتجة ومواد الاستهلاك وليس فى إطلاقه، اللهم إلا فى حدود ومجالات بعينها، الأمر الذى يعنى أن الرأسمالية الغربية المتطورة دخلت مرحلة الركود المزمن الذى لافكاك منه. أما معدلات النمو اليابانية التى تتفوق على المعدلات السوفييتية ذاتها فتدل بصورة قاطعة على أن تفوق المعدلات لايرجع إلى تفوق رأسمالى أو تفوق اشتراكى بل يرجع على العكس من ذلك إلى ضرورات ملء فجوة التخلف الروسى واليابانى عن الغرب وينطبق الشىء نفسه على معدلات نمو الرأسمالية فى روسيا القيصرية فى العقود السابقة للثورة. وإنما يكمن المغزى الحقيقى لكل مقارنة فى مدى ملء فجوة التخلف، فى مدى اللحاق بالغرب. وفى حين تتخلف روسيا الاشتراكية المزعومة عن الغرب تخلفا مفزعا من حيث إنتاجية العمل، تتجه اليابان إلى تفوق حاسم، وإن كانت اليابان بدورها لايمكنها بطبيعة الحال أن تفلت من النتائج الكئيبة لنمو تناقضات الرأسمالية على المدى الطويل.

وبديهى أن بلدان النموذج متفاوتة من حيث التحديث ومنها بلدان لم ترتبط بالنموذج إلاعبر الارتباط بالاتحاد السوفييتى السابق أو بروسيا ضمن هذا الأخير، بمعنى تبنى أسوأ ما فى النموذج (الحكم الشمولى) دون تحديث،اعتمادا على ما سماه السوفييت ذات يوم بالتقسيم الدولى الاشتراكى للعمل، فليس أمام هذه البلدان سوى اللحاق بالعالم الثالث.

وإذا ركزنا على أكثر هذه البلدان تحديثا، لم يعد واردا استمرار أو إحياء النموذج ، ليس فقط لأن الوصول بالتحديث إلى مستوى التنافس مع الغرب على قدم المساواة أصبح يشترط التخلص من هذا النموذج، بل كذلك لأن تحول البيروقراطية إلى طبقة رأسمالية يشترط الشىء نفسه.

والحقيقة أن البيروقراطية مصابة فى الصميم بتناقض جوهرى بين المبدأ الفردى والخاص والعائلى كممثل أعلى للعلاقات الاستغلالية والمجتمع الاستغلالى من ناحية،والتنظيم الجماعى لاقتصاد الدولة من الناحية الأخرى. ولايمكن لهذه البيروقراطية أن تصبح طبقة رأسمالية، ولاحتى طبقة رأسمالية بيروقراطية ، بالمعنى الصحيح للعبارة، إلا عندما تكون العملية الرأسمالية سلسلة واحدة من الحلقات المتماسكة والمتوازنة،بحيث لا تطغى المصلحة الجماعية للطبقة فى التراكم الرأسمالى البيروقراطى الدولوى، بل توجد إلى جانبها مصالح التراكم الرأسمالى الفردى والخاص، التى لا ينبغى أبدا التقليل من شأنها والتى لا يمكن تأمينها على الإطلاق من خلال رأسمالية الدولة الشمولية التى يمكن لمنطقها دائما وكلما اقتضى الأمر أن يعصف بموظفيها «المماليك»، مهما كانوا كبارا أو قططا سمانا أو نخبة بيروقراطية عليا. إن البيروقراطى الفرد مدفوع دوما إلى تأمين سيادته للمجتمع من خلال إحلال أسس المبدأ الطبقى الفردى (الملكية الرأسمالية الخاصة وهى المحيط الطبيعى لازدهاره) محل المبدأ الطبقى الجماعى (ملكية وتخطيط الدولة وينطوى هذا المبدأ دومًا على إمكانيات العصف بالبيروقراطى الفرد) ، على أن هذا المبدأ الفردى ليس أبدا مصلحة فردية منعزلة أو مصلحة أفراد منعزلين بل مصلحة طبقية جماعية لأفراد الطبقة الذين لايمكن تأمين فرديتهم إلابجماعيتهم كطبقة ولايمكن تأمين تماسك جماعيتهم إلا بالحفاظ على مصالحهم الطبقية كأفراد.

وكانت الثورة الليبرالية الراهنة التى هى محتوى أزمة وانهيار واختفاء النموذج السوفييتى هى الحل السعيد لتناقض هذا النموذج مع المزيد من سير هذه البلدان بالتحديث إلى الأمام وكذلك لتناقضه مع مصالح البيروقراطية فى التحول إلى طبقة رأسمالية كاملة الأهلية. على أن الليبرالية الاقتصادية لن تفترض بالضرورة وفى الأحوال كافة ليبرالية فى السياسة والحكم فلا جدال إذن فى أن التحولات الجارية تكتنفها مخاوف تحول بعض هذه البلدان إلى بلدان فاشية باقتصاد رأسمالى خاص لتتجه حسب تكوينها الاجتماعى - الاقتصادى الحقيقى إلى الانضمام إلى العالم الثالث أو البقاء فى ذيل قائمة بلدان الشمال الرأسمالى.

ولم يكن من الوارد، بطبيعة الحال، أن تندلع ثورات اشتراكية بدلا من هذه الثورات الليبرالية. ذلك أن أحد مجالات نجاح النموذج السوفييتى كان يتمثل فى بلدانه كافة فى تصفية الحياة السياسية وتفريغ الأشكال الحزبية والسوفييتية والنقابية من محتواها، باستثناء محتواها التفريغى ذاته. على أن فك الارتباط بين هذه الدول من جانب والشيوعية من جانب آخر حدث تاريخى بكل معنى الكلمة، وهو يصدم غير أنه يحرّر وبالتالى يدفع إلى الاتجاه الصحيح، اتجاه ثورات اشتراكية من طراز جديد.

على أن التعبئات الجماهيرية الضخمة التى تدشنّ بها الجماهير العاملة فى هذه البلدان انتقالها من معاناة مزمنة إلى معاناة حادة مفزعة إنما هى تعبئات الثورات الجماهيرية الليبرالية، فلا مجال إذن لأوهام انقلابها فجأة إلى مقدمات ثورات اشتراكية.

نحو عالم بلا أساطير:

يتبين من الصفحات السابقة، فى ضوء حقيقة أن النموذج السوفييتى لم يكن من حيث طبيعته الاجتماعية سوى رأسمالية دولة بيروقراطية، أن المغزى الحقيقى لانهيار واختفاء هذا النموذج من بلدانه ومن العالم يتمثل فى اختفاء وتلاشى تناقض رئيسى فى صفوف الرأسمالية العالمية، بالنتيجة المنطقية الجوهرية التالية: إستعادة وحدة الرأسمالية العالمية لتكون إزاء شمال رأسمالى واحد موحد بشرقه وغربه، فى مواجهة شعوب الشمال من ناحية وشعوب الجنوب التابع (العالم الثالث) من ناحية أخرى.

وبديهى أن مغزى وجود أو اختفاء هذا التناقض لا يختلف فى جوهره، وليس فى أبعاده بالضرورة، عن مغزى وجود أو اختفاء كل تناقض رئيسى فى صفوف الرأسمالية العالمية. إنه ليس أكثر لكنه ليس أقل من ذلك أيضا.

ومن الجلى بطبيعة الحال أن التناقض الرئيسى فى صفوف الرأسمالية العالمية قد يقود إلى أزمات مدمرة كالحرب العالمية الأولى أو الثانية؛ وكانت كل منهما انفجارا لتناقض رئيسى فى صفوف الرأسمالية العالمية، بين مصالح الرأسماليات الإمبريالية الجديدة المحرومة من المستعمرات، خاصة ألمانيا فى كل من الحربين العالميتين، وبين مصالح بقية الرأسماليات الإمبريالية التى كانت قد أكملت اقتسام العالم من قبل، خاصة انجلترا وفرنسا وروسيا (فيما يسمى بالاستعمار الداخلى).

على أن استعادة الوحدة فى صفوف الرأسمالية العالمية، حربًا أو سلمًا، لا تعنى بالضرورة أن الوحدة صارت أبدية أو أنها غير قابلة للفقدان نتيجة لإعادة تكوين التناقض من جديد بين نفس المصالح الرأسمالية التى تناقضت من قبل (ألمانيا والحربان العالميتان) أو بين مصالح رأسمالية أخرى تتناقض حول محاور أخرى متوقعة أو مفاجئة (مثل نشوء النموذج السوفييتى).

وتتجلى خطورة المرحلة التى يتجه إليها العالم الآن عندما ندرك حق الإدراك أن الرأسمالية الإمبريالية العالمية حبلى بالكوارث فى الأحوال كافة، فى أحوال وجود أو احتدام أو انفجار تناقضات كبرى فى صفوفها، لكنْ أيضا فى أحوال اختفاء هذه التناقضات الكبرى واستعادة الوحدة.

ورغم الكوارث التى يمكن للتناقضات الكبرى أن تقود إليها العالم، وقد كانت الشعوب وقوداً لحربيْن عالميتيْن مدمرتين تفصل بين نهاية الأولى وبداية الثانية قرابة عشرين سنة وحسب، يمكن القول بوجه عام أن هناك إمكانية لاستغلال الثغرات التى قد تفتحها تلك التناقضات لصالح الشعوب.

أما فترات اختفاء التناقضات الكبرى، واستعادة الوحدة، فلا يمكن إلا أن تكون وبالاعلى الشعوب خاصة فى البلدان التابعة.

وإذا كان اختفاء النموذج السوفييتى ينذر بكوارث تنطوى عليها فترات استعادة الوحدة الرأسمالية العالمية، فإن وجود هذا النموذج (فى نشوئه وانتشاره ونموه واستقراره وانهياره ذاته) كان دائما فى بؤرة الكوارث التى تقود إليها فترات احتدام التناقضات الكبرى فى صفوف الرأسمالية. وكان نشوء هذا النموذج وثيق الصلة بالتأثير المباشر لتلك التناقضات وكذلك باستغلال الثغرات التى تفتحها. وإذا كان نشوء هذه الأنظمة مرتبطا مباشرة باستغلال الثغرات (الحرب العالمية الأولى وثورة أكتوبر، الحرب

ماذا يبقى للشيوعيين ؟



العالمية الثانية وأوروبا الشرقية والصين وكوريا وفيتنام) فإن الوجود المستقر للنموذج كتناقض فى صفوف الرأسمالية العالمية تداخل مع تناقض الفاشية مع بقية الرأسمالية الاستعمارية (هجوم هتلر على الاتحاد السوفييتى) واستقل بكوارثه التى اتخذت صورة الحرب الباردة والحروب الساخنة بالوكالة تنافسًا على مناطق النفوذ ولم تتخذ هذا الشكل «الرحيم» من الكوارث إلابفضل تطور القدرة العسكرية السوفييتية التى كان يمكن على الأرجح لولاها أن يتعرض الاتحاد السوفييتى للهجوم النووى الذى يبدو أن خططه كانت جاهزة.

صحيح أن تطورات ومعارك التناقض مع النموذج السوفييتى، والاتحاد السوفييتى بالذات، كانت متداخلة مع حركات التحرر الوطنى الرامية إلى الاستقلال عن الاستعمار الغربى بالاستناد إلى تأييد وعون الاتحاد السوفييتى (ومعسكره) استغلالا لتناقضه مع الغرب، وصحيح أن الغرب كان يمارس هذا التناقض من خلال الحرب الباردة والحروب المباشرة (كوريا وفيتنام) وبالوكالة، أى بالوسائل العسكرية التى لا يبررها سلوك عدوانى من جانب الاتحاد السوفييتى ومعسكره، وذلك لاعتقاده (الغرب) أن المعسكر السوفييتى معسكر شيوعى، وليس منافسا رأسماليا مثل الفاشية الألمانية أو الإيطالية أو اليابانية فى الحرب العالمية الثانية. غير أنه صحيح أيضا أنه، رغم الدور الاستثنائى الهائل لسوء التفاهم والأسطورة، كانت هناك ممارسة على النطاق العالمى لتنافس استراتيجى قائم على المصالح، وليس على أى سوء تفاهم، من جانب الاتحاد السوفييتى بالذات.

وصحيح أيضًا أن الغرب لم يهادن الاتحاد السوفييتى (وبقية بلدان النموذج) قط، بل ناصبه العداء وطوّقه وحاصره وهاجمه عسكرياً (الحرب العالمية الثانية بالذات) وتآمر ضده ووضع الخطط النووية لتدميره وشن ضده حرباً دعائية عالمية استمرت عدة عقود، وصحيح أن هذا الغرب هو الذى فرض، بخطه العدوانى، واعتقادا منه أنه يحارب الشيوعية الدولية، على الاتحاد السوفييتى المسار الذى سلكه (تطوير القدرة العسكرية التقليدية والنووية، تأييد ومساعدة حركات التحرر الوطنى الرامية إلى الاستقلال عن الغرب، الاندفاع فى هجوم دعائى معاكس على النطاق العالمى بدوره). غير أنه صحيح أيضا أن سوء التفاهم الغربى وبالتالى سلوكه العدوانى المتطرف وحربه الصليبية ضد الاتحاد السوفييتى والشيوعية السوفييتية وواقع أن الغرب هو الذى «اخترع» الاتحاد السوفييتى بالخصائص التى أجبره على اكتسابها بدلا من أن تبقى التناقضات السوفييتية مع بقية الرأسمالية العالمية فى حدود أقل حدة بما لايقاس،

صحيح أن كل هذه الأشياء لا تغيّر واقع أن تناقضا كبيرا تم خلقه وتعهُّده بالرعاية والعناية والتطوير والحرب الصليبية المتعددة الوسائل والمراحل، بالخسائر التاريخية الفادحة التى جلبها هذا الصراع غير المبرر على الغرب والشرق فى آن معا.

وإذا كان كلامى هذا يصدمنى، أنا نفسى، قبل أن يصدم غيرى، لأننى تربيت كغيرى على فكرة أن الطبقات الحاكمة تحدد سلوكها بما يتفق ويتطابق وينسجم مع مصالحها الاستراتيجية، فقد فاتنى كما فات غيرى أن نتعلم أن الطبقات الحاكمة قد يفوتها إدراك مصالحها الاستراتيجية فتنخرط فى سلوك مدمر لمصالحها وربما أيضا لبقائها أصلا. وليتذكرْ القارئ الحرب العالمية الثانية، وليتأمل مايلى: كيف حدث لعدد من الدول الرأسمالية العالية التطور، بزعامة ألمانيا بالذات، أن أصابها الغرور بقوتها الاقتصادية والحربية المتفوقة فعلا، فحسمت أن مصالحها تقتضى خوض الحرب مع الدول الأوروبية الاستعمارية الكبرى (ومع الاتحاد السوفيتى)، وفى غضون سنوات معدودة من الحرب دمرت تلك الدول والطبقات الرأسمالية العالم لكنْ أيضا نفسها، ففقدت استقلالها الذى لم تستعده كاملا إلى يومنا هذا (ألمانيا واليابان). والحقيقة أن سوء التفاهم الذى جعل تلك الدول الرأسمالية المتطورة الفاشية، عاجزة عن إدراك مصالحها ووسائل ومراحل تحقيقها وعلى ذلك النحو المدمر ليس بلا سوابق فى التاريخ ولم يكن سوء التفاهم المدمر الوحيد فى التاريخ المعاصر.

ومن ناحية أخرى، يؤدى اختفاء النموذج السوفييتى، وبالتالى انقسام العالم إلى شرق وغرب، إلى نتائج يتوقف على

فهمها واستيعابها تصوّر المستقبل القريب والبعيد للعالم بصورة موضوعية، كما هو فى الواقع، بلا أساطير، وبالتالى التعامل معه بهذه الصفة. على أن الوحدة المستعادة فى صفوف الرأسمالية العالمية ليست مستقرة بعد، فالعالم الآن فى فترة من السيولة والتفاعلات وإعادات الترتيب لاستيعاب الوحدة المستعادة مع تفادى انشقاقات من شأنها التطور فى اتجاه تناقضات كبرى جديدة تقود بدورها إلى كوارث جديدة.

ومن المنطقى بطبيعة الحال أن نتوقع فترة غير قصيرة من «توابع الزلزال السوفييتى» . ويزيد من حدة الزلزال وتوابعه واقع أن اختفاء النموذج لم يتخذ شكلا هادئاً يحلّ فيه خيار أو نموذج محل خيار أو نموذج آخر، بل شكل الأزمة والزلزال والعاصفة والانهيار بما يؤدى إلى فترة من الأوقات الصعبة وفقدان التوازن لدى بلدان النموذج، على أنه كان لامناص، فى الأحوال كافة، من السيولة والتفاعلات وإعادات الترتيب لأن التخلى المدوى عن الشيوعية من جانب بلدان النموذج جعل الغرب يفقد فجأة عدوه اللدود؛ فسقطت فجأة بالتالى أساطيره عن هذا العدو الشيوعى المزعوم، وبالأخص أسطورته عن التهديد أو الخطر أو الغزو السوفييتى، هذه الأشياء التى كانت ترغم قوى رأسمالية كبرى على الاحتماء بالمظلة الأمريكية. وسوف يعنى المزيد من استقرار التطورات السوفييتية والاطمئنان إلى هذا الاستقرار إعادات ترتيب فى أوضاع وتحالفات وسياسات القوى الرأسمالية الكبرى.

وإذا كانت التوازنات التى ظلت قائمة إلى عهد قريب قد فقدت استقرارها نتيجة للحركة الفجائية التى أصابت بعض عناصرها، أىْ نتيجة للانقلاب فى العلاقات مع بلدان النموذج السوفييتى من ناحية ونتيجة لغيابها النسبى المفاجئ عن الحلبة الدولية لفترة من ناحية أخرى فإن التنبؤ بالصورة المستقبلية الدقيقة التى ستستقر عليها العلاقات والتحالفات والتناقضات بين القوى الرأسمالية الكبرى يغدو بالغ الصعوبة. فمتى يحلّ عالم متعدد الأقطاب الرأسمالية محل هذه الفترة المؤقتة من العالم الأحادى القطب كما يقال الآن؟ وما هى هذه الأقطاب وماوزن كل قطب منها فى ضوء تراجع القوة الاقتصادية الأمريكية مع بقاء قوتها العسكرية، وتداعى الاقتصاد الروسى مع بقاء القوة العسكرية الروسية، والقوة الاقتصادية الهائلة دون قوة عسكرية لكل من اليابان وألمانيا الموحدة أو أوروبا معاهدة ماستريخت الموحدة؟ وكيف سيتعامل هذا العالم مع أزمات واضطرابات وهجرات ومجاعات وكوارث وحروب العالم الثالث، بالاضافة إلى مغامرات قواه الإقليمية الطموحة التى تنفتح شهيتها مع التطورات الجديدة؟

والأسئلة التى من هذا القبيل لا نهاية لها من الناحية العملية، غير أن تحليلنا لمغزى وجود أو اختفاء النموذج السوفييتى لايضعنا إزاء اختفاء عامل ثورى أو اشتراكى فعال فى التوازن العالمى، بل إزاء استمرار القوى الرأسمالية الكبرى نفسها التى ظلت سائدة فى العقود السابقة على الحلبة الدولية بما فى ذلك روسيا، التى كانت حقيقتها الرأسمالية تختفى تحت الاسم الاشتراكى للاتحاد السوفييتى السابق.

وإذا كان من الجلى أن عوامل انشقاقات وتناقضات جديدة فى صفوف هذه القوى ليست معدومة («الحروب» التجارية الأمريكية مع اليابان وأوروبا الغربية) فإن عوامل وحدتها ليست معدومة أيضا (علاج جراحات الانشقاق المنتهى، الأخطار الايكولوجية، اضطرابات العالم الثالث، إلخ.) .

وبعيداً عن محاولات التنبؤ وسط أجواء غائمة؛ يجمل بنا أن نلتفت إلى بعض خصائص عالم جرد الانهيار، صراعاته من أسطورة الاشتراكية السوفييتية وحررها من كثير من التناقضات الأسطورية والأساطير المتناقضة المتولدة عن تلك الأسطورة.

وبوجه خاص فإن انهيار هذا النموذج لا يقود إلى انقلاب فى اتجاه مجرى التاريخ المعاصر، اللهم إلا من وجهة نظر من يزعم أن ذلك النموذج كان اشتراكيا (الخط السوفييتى) أو انتقاليا (ماندل) . والواقع أن تأكيد أن اتجاه مجرى التاريخ المعاصر لم ينقلب ليقدم عزاء لاحد. ذلك أن القوى الرأسمالية الكبرى نفسها التى كانت تسوده طوال العقود السابقة ستظل تسوده فى المستقبل المنظور. مع إضافة ذات نتائج متمايزة ومتعارضة : إن اختفاء النموذج السوفييتى يسهم فى خلق ظروف موضوعية غير مواتية لأنه

ماذا يبقى للشيوعيين ؟



عامل وحدة داخل صفوف الرأسمالية العالمية، لكنه يسهم أيضا فى خلق ظروف ذاتية مواتية لأنه يفك الارتباط بين الماركسية وبين قوى غريبة عليها ظلت تشوّهها وتضطهد الجماهير باسمها وتضلل الشيوعيين فى كل مكان فى العالم بنظريات تدعى تطويرها استنادا إليها.

فهل مازال العالم، رغم تقلباته وانقلاباته وتكشّف حقائقه، فى عصر الإمبريالية والثورة البروليتارية؟

أعتقد أن الإجابة بالإيجاب، ولكن... بشرط فهم موضوعى، ثورى حقا، بعيداً عن النزعة الإرادية الثوروية؛ فهم لا يعتبر الثورات «الاشتراكية» طوال القرن العشرين ثورات بروليتارية كاملة الأهلية، يعنى إخفاقها وفشلها فى نهاية المطاف أن تشخيص طبيعة العصر كان خاطئا، بل ينطلق من الحدود الحقيقية لاشتراكية تلك الثورات، والشروط الموضوعية والذاتية التى تقتضيها الثورة الاشتراكية القابلة للحياة. وإذا كانت بروليتاريا البلدان الرأسمالية المتقدمة قادرة، بعد إغناء وتطوير ماركسيتها باستخلاص دروس التجارب المريرة، على إحياء واستئناف النضال الاشتراكى الثورى الأممى فإن قضية الثورة الاشتراكية والاستقلال الوطنى فى البلدان التابعة (العالم الثالث) تغدو بالضرورة قضية واحدة فى إطار ثورة اشتراكية أممية، حيث يستحيل على بلد أو أكثر من بلدان العالم الثالث القيام بالثورة الاشتراكية وتأمين البناء الاشتراكى إلا فى إطار الثورة الاشتراكية الأممية التى تشتمل على بلد أو أكثر من البلدان الرأسمالية المتطورة؛ لأن ثورات العالم الثالث عاجزة عن حماية نفسها ضد الحرب الصليبية التى ستشنها الرأسمالية العالمية الموحدة ضدها، بحكم بداهة ضعفها وتخلفها، كما أن ثوراتها عاجزة عن تحديث قواها المنتجة بلا عون بلا حدود من جانب بلدان اشتراكية متطورة.

والحقيقة أن الوضع الذى يجد الجنوب (العالم الثالث) فيه نفسه الآن، بعد عقود من محاولات الفكاك من التبعية أو تحسين شروطها باستغلال التناقضات بين المعسكرين، برهان ساطع على أن التناقض والصراع بين المعسكرين لم يكن فى الواقع سوى تناقض وصراع بين كتلتين رأسماليتين. وكانت الآفاق التى يفتحها ذلك التناقض أمام شعوب العالم الثالث آفاقا كاذبة، فالحقيقة التى تتضح الآن، بعد فوات الأوان، هى أنها لم تفتح أمام أىّ بلد أو شعب أو أمة فى العالم الثالث إمكانات لانتشار الثورة الاشتراكية والبناء الاشتراكى، ولم تساعد فى أفضل الأحوال إلا فى انتشار النموذج السوفيتى نفسه فى طبعاته الأكثر تخلفا والأكثر بعدا عن تحديث حقيقى (استنادا إلى تقسيم العمل الدولى «الاشتراكى» المزعوم). وفى نهاية المطاف، تم إعلان رأسماليات الدولة الديكتاتورية ذات الأيديولوجيات القومية والمعادية لأية ماركسية، بما فى ذلك الماركسية السوفييتية، بشرط التعاون والصداقة مع الاتحاد السوفييتى نظما اشتراكية أو ذات توجه اشتراكى، وكانت النتائج كارثة فى كل مكان.

والجنوب الآن هو مكان التخلف وزمانه ورمزه، وقد وصلت التبعية الاستعمارية بالجنوب، بعد فترات من المحاولات المخفقة للتحرّر منها، إلى نقطة مفزعة. وصل الجنوب إلى نقطة الانهيار. ولا يتمثل هذا الانهيار فى مجرد التأبيد النهائى، فى المدى المنظور، للتبعية بعد إخفاق حركة التحرر الوطنى وتراجع آفاق الثورة الاشتراكية أو حتى أوهامها الجميلة، بل هو الانهيار المباشر. فبعد أن وصل الجنوب إلى أقصى تطور ممكن فى إطار التبعية ما بعد الكولونيالية، بدأ اليوم، بل أمس، الهبوط على الجانب الآخر من التل، فى اتجاه المجاعات والحروب والحروب الأهلية والمغامرات والفوضى والهجرات، وربما لن تهدأ عواصف العالم الثالث قبل انخفاض جذرى فى سكانه يعيد توازن السكان والموارد فى ظل نظم اجتماعية - اقتصادية متخلفة، ربما لتهدأ المالتوسية فى قبرها.

ولم يستطع الشرق الأحمر، ولم يكن من شأنه ولم تكن قضيته، أن ينقذ الجنوب. أما الغرب (الشمال) فهو الذى قاد ويقود الجنوب إلى هذا المصير. وعجز الجنوب عن الإفلات منه لأنه لم يتملك ولا يمتلك دينامية ذاتية منقذة.

على أن عجز العالم الثالث عن إنقاذ النفس، اعتمادا على النفس أو بعون من آخرين، لم يكن فقط عجزا عن تحقيق تحول إشتراكى، أىْ التحول إلى نظم اشتراكية حقيقية بعيدا عن ديكتاتوريات الاشتراكية القومية الفاشلة، بل كان كذلك

عجزا عن التحول الرأسمالى، أى التحول إلى بلدان رأسمالية حقيقية ذات بنية اجتماعية اقتصادية حديثة.

وتنبع استحالة التحول الاشتراكى فى العالم الثالث من واقع أن العالم كان ولا يزال خاليا من الشرط الجوهرى لهذا التطور وهو وجود نظام اشتراكى عالمى أممى متطور أو عملية ثورية اشتراكية عالمية أممية. أما استحالة التحول الرأسمالى، فهى نابعة من واقع أن إنجازات الرأسمالية العالمية تسيطر عليها الرأسماليات الإمبريالية المتطورة وتسيطر بها على العالم الثالث ولا تسمح له بالوصول الحر إلى الإنجازات، أى بالتحول إلى رأسمالية عالية التطور، حرة ومستقلة، تنافسها على قدم المساواة.

وهكذا فإن بلدان العالم الثالث لن تتحول إلى بلدان رأسمالية بالمعنى الصحيح إلا كاستثناءات سعيدة تثبت القاعدة. أما النظرية المناقضة، نظرية «نهاية العالم الثالث» عن طريق تحوله إلى رأسمالية كالنمور أو التنانين الآسيوية (نايجيل هاريس) فتبدو نظرية خيالية إذا أدركنا حق الإدراك واقع سيطرة الشمال (الغرب) على العالم مستخدما إنجازاته التاريخية التى لا يريد أبدا الاكتفاء بتوزيعها هدايا على العالم الثالث، وكذلك العجز الكامن فى البنية الاجتماعية - الاقتصادية والثقافية للتبعية.

ومحاصرا بين هاتين الاستحالتين، ليس أمام العالم الثالث (ومعه بطبيعة الحال عالمنا العربى ومصر) سوى التدهور والمزيد من التدهور. وفى سياق هذا التدهور الاقتصادى والاجتماعى والثقافى والروحى، تنفتح أبواب الجحيم ليس فقط أمام المجاعات والحروب الطاحنة (الأهلية والخارجية) بل كذلك أمام تجارب كارثية لانهاية لها ترتدى أشكال الأصالة والأصولية والسلفية والحكم الدينى (وليس الاسلامى وحسب) ولن يكون هذا الحكم الدينى، أيا كان الدين الذى يقام باسمه، سوى لفترات قصيرة، ولن يكون إنجازه الفعلى سوى المجازر التى ستقام لأية قوى مستنيرة أو علمانية أو ديمقراطية أو شيوعية أو لمعتنقى أديان اخرى ، سماوية أو وثنية، ولن يكون كل هذا بعيدا عن مخططات الشمال أو تدخلاته أو مصالحه.

ومع انقسام العالم بصورة نقية واضحة، إلى شمال وجنوب، إمبريالية وتبعية، غنىً وفقر، واستحالة إنقاذ العالم الثالث من داخله من خطر نهاية أخرى مناقضة تماما لنهاية نايجيل هاريس التى أشرنا إليها منذ قليل، يبدو أن أىّ تفكير فى مخرج للجنوب لابد أن يتجه إلى العلاقة شمال - جنوب.

غير أن هذه العلاقة ليست علاقة تعاون متكافىء لتنقذ أو تساعد فى إنقاذ الجنوب، بل إن العلاقة إمبريالية - تبعية بين الشمال والجنوب لا تؤدى إلا إلى المزيد من تدهور الجنوب، حيث يزداد الغنى غنى والفقير فقرا، ولهذا الترابط (الاستغلال) تأثيره المباشر المتواصل على هذا التدهور.

ولا شىء يدعو إلى الاعتقاد بأن الشمال سيحرك ساكنا. صحيح أنه لا يمكن استبعاد دموع التماسيح ولا إرسال أعداد من طائرات المساعدة الإنسانية إلى مناطق المجاعات والهجرات والحروب الطاحنة، غير أن من غير الوارد على الإطلاق أن يهرع الغرب (أو الشمال) إلى إنقاذ العالم الثالث كما هرع منذ عهد قريب إلى تحرير الكويت من الاحتلال العراقى، ولن تكون أعمال كحرب الخليج الأمريكية واردة بعد استنزاف ونضوب خامات العالم الثالث والتى سيفقد هذا الأخير بدونها نصف وربما كل أهميته للغرب، حيث أن ثورته السكانية سوف تحطم، فى غياب الخامات، كل أساس اقتصادى لتبادله التجارى مع الغرب أو لاستضافته لرساميله، ولن يأتى الشمال فى هذه الحالة إلا لاغتصاب أراض تخلو من سكانها فى الجنوب*.

فهل هناك مخرج من نهاية العالم الثالث بالمعنى المناقض لمعنى نايجيل هاريس من خلال أزمة للشمال يستغلها الجنوب أو تكون لفائدته؟

من التفاؤل الساذج، بطبيعة الحال، تصوُّر ثورة اشتراكية وشيكة أو قريبة فى أوروبا أو الغرب أو الشمال، فهذه الثورة مرتبطة بصورة حاسمة بردّ اعتبار الماركسية وإغنائها بدروس التجارب القاسية وتطوير مفاهيمها عن الحزب

ماذا يبقى للشيوعيين ؟



والثورة والبناء الاشتراكى واندماجها فى حركات وثورات جماهيرية فعلية من طراز لم يسبق له مثيل فى التاريخ الحديث (ثورات أقوى لا أضعف حلقات السلسلة، ثورات جماهيرية عميقة لا ثورات أقليات اجتماعية أو سياسية، ثورات ضرورة لا ثورات مصادفة، ثورات قاعدة لا ثورات استثناء، الخ.) .

وفى الوقت الذى لاتزال مثل هذه الثورات بعيدة، وعلى الأقل غير منظورة، بدأ بالفعل منحدر تدهور الجنوب، فهذه الثورات لا تملك إذن منع أو عرقلة هذا التدهور، رغم أنه لا ينبغى استبعاد دور قد تقوم به شعوب الشمال وطبقته العاملة وحركته الشيوعية فى مجال عرقلة تدهور العالم الثالث، بافتراض وعيها بكارثته وتعاطفها معه. على أنه لاينبغى، من جهة أخرى، المبالغة فى هذا الدور الذى يستحيل أن يتجاوز فى المدى المنظور قدرات هذه الشعوب إلى حدّ إجبار حكومات الشمال على منع تدهور العالم الثالث أو حتى منع أن يتخذ هذا التدهور تلك الأبعاد الكارثية المتوقعة.

وهناك افتراض لاينبغى استبعاده تماما. إنه الزلزال الغربى. أىْ الفوضى الشاملة الناتجة عن الأزمة البنيوية الاستراتيجية للغرب، بالذات ضمن الشمال الرأسمالى، أو هذا الأخير- بشرقه الذى يعيش الآن فوضى انهياره، بأزماته الاقتصادية الطاحنة، وحروبه الأهلية، وتشريده للشعوب، وبغربه الذى لايزال متماسكا، ربما فى ظاهر الأمر وحسب.

فما هو مبرر افتراض زلزال غربى؟ وماعسى أن تكون طبيعته أو خصائصه؟ وكيف يمكنه أن يؤثر فى مصائر الجنوب؟

هل ينبغى افتراض الزلزال الغربى لأن عالما رابعا نما وينمو داخل ذلك العالم الأول رغم بريق سطحه، ولأنه ليس هناك مايمنع أن تتفاقم أزماته فتنفجر (لوس أنجلوس) ؟ أم ينبغى افتراضه لأن انهيار الشرق الرأسمالى (بلدان النموذج السوفييتى) يمكن أن يهزّ العالم كله بما فيه الغرب الرأسمالى، فيما يتحرك لاستيعاب الزلزال الشرقى وتوابعه؟ هل يتدخل وعى الشعوب الغربية، مهما كان بعيدا عن الوعى العلمى أو الشيوعى، بأن النظام الغربى يقيّد النمو الممكن لحياة هذه الشعوب، مكبّلا نمو القوى المنتجة، عاجزا عن التطبيق الإنتاجى الشامل للثورات العلمية التقنية، سالبا العلوم البحتة والتطبيقية إمكانات أى تطور جذرى عن طريق فصلها من الناحية الجوهرية عن الإنتاج، تاركا فى أجواء مدن الغرب وأريافه التى لم تعد أريافا الانطباع العام المرعب بأن النظام الغربى يهدر كافة الإمكانات التى يقدمها العصر لتقدم السوبرمان الغربى ذاته - وليس قطيع المتخلفين المنتكسين فى عوالم أخرى بعيدة - بحيث تغدو كل خطوة علمية تفتح آفاقا جبارة أمام الإنسانية السبب المباشر لخطوات إلى الوراء فى الحياة الفعلية، وباختصار: فاقدا بركوده المزمن المبرر لاستمرار أى نظام اجتماعى- اقتصادى (حيث يمثل هذا الركود المزمن بالذات ذروة التناقض بين طابع القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج، تلك القوى والعلاقات التى تظل قبل ذلك متوافقة رغم التناقضات) ؟ ثم : كيف يمكن لفوضى الزلزال الغربى أن تؤثر فى مصائر العالم الثالث؟ برفض الحداثة؟ بالعودة إلى الأصالة؟ باستغلال أزمة الغرب وتراخى قبضته على إنجازاته التاريخية بما يسمح بالتحول إلى الرأسمالية بالمعنى الذى يبشر به نايجل هاريس؟ وكيف يكون ذلك؟ وهل من المحتمل أن يضرب الزلزال الغربى ضربته قبل أن يغرق العالم الثالث تماما فى نهايته بمعنى انهياره ودماره؟

ويالها من أسئلة تردّ على أسئلة!!!...

خرافة

نهاية التاريخ:

رغم أن انفصال النظرية (الماركسية) عن تطبيقها المزعوم فى بلدان النموذج السوفييتى يمكن التوصل إليه بكل سهولة من أبسط مقارنة بين مبادىء تلك النظرية وأسس تلك الممارسة أىْ تطبيقها المزعوم، تنطلق وسائل الإعلام الغربية وكذلك أجهزة إعلام الحكام الجدد فى بلدان النموذج السوفييتى سابقا من ادعاء أن النموذج السوفييتى ليس من الناحية الجوهرية سوى الثمرة التاريخية الطبيعية للتطبيق الدقيق والأمين والصارم إلى حدّ

الجمود العقائدى للنظرية الماركسية، وبقفزة واحدة يصل الفكر الغربى البرجوازى وتوابعه فى العالم الثالث إلى فكرة مؤداها أن انهيار النموذج السوفييتى يساوى انهيار النموذج النظرى الماركسى واللينينى لبناء الاشتراكية والشيوعية، ولا تمثل نظرية نهاية التاريخ سوى صياغة مكثفة لهذه القفزة الواحدة السريعة المتسرعة.

وبطبيعة الحال، لن تعنى نهاية التاريخ شيئا إن لم تكن تعنى نهاية الصراع التاريخى بين التكوينين الاجتماعيين - الاقتصاديين الأساسيين فى التاريخ الحديث والمعاصر أىْ الرأسمالية والاشتراكية.

ومن الجلى أن نموذج الصراع التاريخى كما تفهمه نظرية نهاية التاريخ يتمثل فى الصراع بين الرأسمالية والنموذج السوفييتى. وقد بدا طوال عقود أن النموذج المذكور يمثل الاشتراكية والشيوعية والماركسية. وإذا كان «مابدا» هو الحقيقة المطلقة، إذا كان النموذج السوفييتى يساوى التجسيد الواقعى أو الثمرة الطبيعية للتطبيق الأرثوذكسى للنموذج النظرى الماركسى لبناء الاشتراكية أو الشيوعية، فلامناص من التسليم بأن نهاية التاريخ حلت بالفعل. وهذا أمر بديهى فى نظر فوكوياما الذى لاشك عنده فى هذا التطابق الجوهرى بين النظرية الماركسية والتطبيق السوفييتى.

ومن المفارقات أن الخط السوفييتى الموسكوفى، الذى يسلم بهذا التطابق الجوهرى بين النظرية الماركسية - اللينينية والتطبيق «الخلاق» فى بلدان «المنظومة» الاشتراكية، جدير بأن يقود إلى الاعتقاد بأن نهاية التاريخ حلت بالفعل لكن أنصاره يتشبثون بحل السهولة المتمثل فى الحديث الخادع عن «أخطاء وسلبيات» التطبيق بما يبرّىء النظرية من مسئولية ما حدث، والتفاؤل التاريخى العميق بنجاح آخر لتطبيق هذه النظرية، ربما كما هى دون تطوير، مع تفادى «أخطاء وسلبيات» الماضى فى التطبيق الخلاق فى المستقبل.

على أنه لم يعد من المقبول أن تواصل تجاهلنا لماركسيات متعارضة مع الماركسية السوفييتية ظلت تنظر إلى النموذج السوفييتى على أنه لايمثل الاشتراكية والشيوعية والماركسية. فليس من الوارد إذن أن ينظر الماركسيون الحقيقيون إلى الصراع بين الشرق والغرب، بين الرأسمالية والنموذج السوفييتى، بين الرأسمالية والاشتراكية كما تحققت فى الواقع، بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى، بين حلف الأطلنطى وحلف وارسو، على أنه كان صراعا ينتهى التاريخ بنهايته، فهذا الصراع لم يكن بين التكوينين الاجتماعيين الاقتصاديين المتصارعين تاريخيا فى العصر الحديث : الرأسمالية والاشتراكية.

ولايعنى هذا إنكار أن صراعًا تاريخياً دار ويدور منذ قرابة قرن ونصف قرن بين «التكوينيْن»، لا يعنى إنكار الحركة الشيوعية أو حركة الطبقة العاملة أو حركات التحرر الوطنى الشعبية، لكنه يعنى أن هذا الصراع التاريخى لم يكن يتمثل فى صراع النموذج السوفييتى وبلدانه ضد الغرب وحلفائه، بل إن كل انتصار للنموذج السوفييتى فى أى بلد (قيام النظام الستالينى فى روسيا على سبيل المثال) كان يعنى بالتحديد هزيمة الاشتراكية والشيوعية والماركسية لصالح طبقة استغلالية جديدة صاعدة ترفع مع ذلك رايات الطبقة العاملة والثورة والاشتراكية والشيوعية والماركسية - اللينينية. وإذا كانت الثورات «الاشتراكية» ومحاولات السنوات الأولى كافة لبناء الاشتراكية تجسد ذروة الصراع بين «التكوينين» فإن تبنّى النموذج السوفيتى أو تطور الأحداث بحيث تؤدى إلى قيام هذا النموذج كان يعنى الجزر والانحسار والهزيمة. والحقيقة أن النضالات والثورات والمحاولات التى تنتمى إلى الصراع بين «التكوينيْن» لم تتجسد فى مجتمعات اشتراكية بل فقط فى مجتمعات انتقالية فى الفترات الأولى التالية للثورات سرعان ماكان يجرى تصفيتها فى كل مكان، تلك التصفية التى تجسدت فى التبلور النظرى والعملى للنموذج السوفييتى الستالينى فى الاتحاد السوفيتى ثم فى تطبيقه من الناحية

ماذا يبقى للشيوعيين ؟



الجوهرية، حتى رغم الصراعات الفكرية الصاخبة فى بعض الأحوال، فى التجارب اللاحقة. ورغم ما ظلّ يبدو على السطح عقوداً طويلة، لم يتخذ الصراع بين «التكوينيْن» صورة صراع بين معسكرين، اشتراكى ورأسمالى، بل قام فى واقع الأمر معسكران، شرقى وغربى، ينتميان إلى تكوين اجتماعى - اقتصادى واحد هو التكوين الرأسمالى واحتدمت بينهما تناقضات المصلحة وسوء التفاهم، كما سبق أن رأينا.

وإذا كان الصراع بين «التكوينيْن» لم يتخذ شكل الصراع بين بلدان رأسمالية وبلدان اشتراكية، وإذا كان هذا يعنى أن هذا الصراع التاريخى فشلت فيه الاشتراكية والشيوعية والماركسية، رغم نجاحاتها ونضالاتها وثوراتها، فى تأسيس مجتمع اشتراكى، فليس هناك بالمقابل ما يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا الصراع التاريخى قد انتهى. والقول بأن هذا الصراع سوف يتواصل فى المستقبل كما ظل قائماً فى الماضى، لايساوى أكثر من القول بأن المجتمع الرأسمالى ينطوى بحكم طبيعته الطبقية الاستغلالية على ضرورة نضال الطبقة العاملة، ليس فقط دفاعيا فى إطار المجتمع الرأسمالى ذاته بل هجوميًا فى سبيل انتصار الثورة الاشتراكية لبناء الاشتراكية والشيوعية. كما أن الإخفاقات والهزائم المتكررة للماركسية وللنضال الشيوعى لاتعنى أن هذا الفشل الطويل يساوى العجز الدائم فى المستقبل أيضا عن تطوير النظرية باستيعاب الدروس؛ بما يقود إلى قيام أحزاب وحركات وثورات شيوعية من طراز جديد بما ينقل الصراع التاريخى بين «التكوينيْن» إلى مستوى تاريخى أعلى.

فقط عند استنتاج مثل هذا العجز المستقبلى الدائم، أو عند ادّعاء أن المجتمعات التى انهارت كانت اشتراكية أو شيوعية، يمكن الحديث، دون تأنيب ضمير، عن نهاية التاريخ، لكن لا المجتمعات التى انهارت كانت اشتراكية ولا من الملائم الحديث عن عجز مستديم. إن مجرد الإيمان بوجود المجتمع الرأسمالى، بخصائصه التى أصبحت مفهومة بفضل النقد الماركسى لهذا المجتمع، يساوى الإيمان بأن الصراع قائم وإن كان فى بداياته، رغم التاريخ الطويل من النضالات والثورات والحركات والنجاحات والإنجازات والانحسارات والإخفاقات والهزائم والانهيارات، وبأنه سيتطور بالضرورة، لأن من خصائص المجتمع الرأسمالى أنه ينطوى فى داخله على طبقتين أساسيتين متعارضتين تعارضًا جوهرياً، وبالتالى على تكوينين اجتماعيين - اقتصاديين متعارضين جوهرياً.

وعندما يحقق النضال ضد المجتمع الرأسمالى نقيضه أىْ المجتمع الاشتراكى، سيكون من الممكن الحديث عن أن الصراع التاريخى بين «التكوينيْن» تحقق فانتهى بذلك. ويمكن لمن يحلو له أن يتحدث عن نهاية التاريخ بوصفها التحقق الفعلى للتاريخ. كما يمكن لمن شاء أن يعتبر نهاية التاريخ بداية التاريخ الحقيقى للإنسان باعتبار أن ماسمّى دائما بالتاريخ ليس فى الحقيقة سوى ما قبل تاريخ الإنسان (كارل ماركس). ■

هامش

* جرى تدخل تحالف دولى بقيادة الولايات المتحدة بغطاء من الأمم المتحدة، ووصف بأنه تدخل إنسانى لإنقاذ الصومال من المجاعة والحرب الأهلية، على أن مثل هذا التدخل مشكوك فيه من أكثر من ناحية:

١ - غموض الأهداف الاستراتيجية الأمريكية.

٢ - لايمكن تصور تدخلات مماثلة فى أماكن أخرى من العالم الثالث فى حالة تزامن المجاعات والحروب الأهلية على نطاق واسع

٣ - الشمال الإمبريالى قد يملك تلطيف هذه المجاعات فى المدى القريب غير أنه لا يملك قطعا (ولا يريد أصلا) إيقاف هذه الشعوب على أقدامها بحيث تنتقل إلى نظام اجتماعى - اقتصادى حديث ومتطور يمكنه وحده منع مثل هذه الكوارث. وقد عبرت حتى صحافتنا «القومية» عن مثل هذه الشكوك والمخاوف والتحفظات (ملاحظة فى ١٠ ديسمبر ١٩٩٢).

الفصول والغايات

لمن يعود سولچنتسين لقيصر أم للكنيسة ؟

لمن يعود



سولجنتسين

لقيصر أم للكنيسة؟

في عام ١٩٧٤م فتحت صحيفة البرافدا نيران مدفعيتها الثقيلة على صدر سولجنتسين فاتهمته بالخيانة والثورة المضادة والعمالة والعمل على عودة النظام الرأسمالي إلى آخر هذه الاتهامات الممجوجة. وأشارت وسائل الإعلام السوفيتية أنه لم يعد شخصا مرغوبا فيه فاضطر إلى مغادرة البلاد والسفر إلى الولايات المتحدة حيث استقر بها نحو عشرين عاماً. ومنذ أشهر قليلة قرر سولجنتسين العودة إلى روسيا، وما إن هبطت الطائرة على أرض الوطن الغالي حتى انحنى يقبل ترابه. وهكذا تحققت نبوءة هذا الأديب الكبير الذي رأى في النظام الشيوعي كل مظاهر السوء والشر المستطير فقد رأى بعيني رأسه هذا النظام ينهار وكأنه بيت من الرمال.

وجدير بالذكر أن الغرب الذي قام بتكريم سولجنتسين وعبر عن بالغ تقديره له لا يقره على نزعاته الدينية والسلفية وعلى تعصبه الشديد للكنيسة االروسية الأرثوذكسية. ومعنى ذلك أن بعض المتعاطفين معه يتهمونه بضيق الأفق ويتحفظون على كثير من آرائه الرجعية والمحافظة.

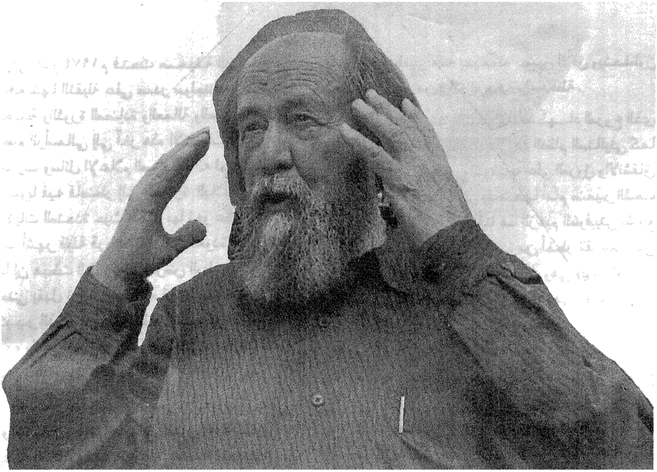
ويتناول هذا البحث الاضطهاد المروع الذي تعرض له هذا الكاتب على يد النظام الستاليني كما يوضح تشجيع خروتشوف له على المروق والانشقاق على الستالينية حتى يفضحها أمام ضمير الشعب الروسي فلا غرو إذا رأينا هذا الزعيم السوفييتي يشجع سولجنتسين على نشر واحدة من أخطر القصص التي سطرها في حياته على الإطلاق وهي «يوم واحد في حياة إيڤان دينيسوفتش (١٩٦٢)»، وهي رواية يعتبرها دارسو الأدب السوفييتي نقطة تحول في كل تاريخه، ودلالة على الانفراج الذي عرفه الاتحاد السوفيتي في عهد خروتشوف. ولكن من المؤسف أن هذا الانفراج لم يدم طويلا فسرعان ما تعرض سولجنتسين من جديد لصنوف العذاب والاضطهاد في العهود التالية لخروتشوف. وفيما يلي جانبا من قصة هذا المنشق الديني على الشيوعية.

فـ **عـائلة مـتـمـردة شـديدة المراس:**

سـولجنتـسين اسم نادر لا يحظى بالشـيـوع بين الروس يرى البـعض أنه مـشتق من فعل Solgat ومعناه يكذب باللغة الروسية، الأمر الذى قد يوحى بأنه كنية عن الانتماء إلى عائلة من الكذابين. ولكن باحثا لغويا من مدينة فورونيز فى المنطقة نفسها التى تنحدر منها العائلة آل على نفسه أن يستقصى جذور هذا الاسم النادر فتوصل إلى أنه مشتق من Solad وهو الملث أو الشعير المخمر الذى يحتمل أن بعض أفـراد العـائلة كـانوا يقـومـون بصناعـته فى أواخـر القرن السابع عـشر وأوائل القرن الثامن عشر، كما توصل إلى أن هذا الاسم يسـتـخـدم فى تلك المنطقـة للدلالة على شدة المراس.

ولد ألكسندر إيزايفتش سولجنتسين فى ١١ ديسـمبـر عـام ١٩١٨ إبان الحـرب الأهلية بين البلاشفة والروس البيض من أنصار النظام القديم، وسط مذابح بشرية مروعة، وفوضى ضاربة أطنابها ودماء تسيل على كل جانب فى منتجع صغير للاستشفاء اسمه كيسلوفودسك ومعناه «الماء المر» لم يزد تعـداد سكانه آنذاك على عشرين ألف نسمة. وهو منتجع يقع فى جبال القوقاز ويشتهر بطقسه البديع ومياهه المعدنية. وجباله الجميلة الخالية من الأشـجـار التى أحـبـهـا مـيـخـائيل ليرمـونتوف (١٨١٤ - ١٨٤١) فصورها بحدب فى روايته النفسية «بطل زماننا».

سـولجنتسين



ق ويبدو أن التمرد الذى يجرى فى دماء عائلة سولجنتسين شىء متأصل فيها تناقلته الأسرة جيلا بعد جيل. واتسم أجداده لأبيه الذين عاشوا فى منطقة فورونيز بالقوقاز بنزعتهم إلى الاستقلال. وأظهر أحد أجداده الأوائل - واسمه فيليب سولجنتسين - ميلا إلى التمرد عام ١٦٩٨م فى عهد عاهل روسيا القيصر بطرس الأكبر الذى نفاه إلى فورونيز بتهمة الاستيلاء على أرض يملكها بالقرب من موسكو وزراعتها دون تصريح منه، مما أثار حفيظة هذا القيصر عليه، فشن هجوماً عاتياً على القرية التى يسكنها فيليب وعشيرته ويحرقها حتى يرغمهم على الجلاء عنها. ولكن هذا لم يخمد جذوة التمرد فى نفوس عائلة سولجنتسين. فقد تكرر الشىء نفسه بعد انقضاء نحو مائة عام على تمردها الأول، فقامت حكومة القيصر بنفى جد آخر بسبب اشتراكه فى حركة عصيان أخرى.

ويذكر لنا مؤلفنا فى كتاباته كيف ثار هذا الجد على بعض أصحاب الأراضى أو المسئولين فى فورونيز مما أدى هذه المرة فى المنطقة الشمالية الشرقية من القوقاز حيث حصل هذا الثائر وأسرته على كل ما يبغون من مزارع ومراع. ولكن أصل الأسرة غير القوقازى جعل القوقازيين وهم فرسان مقاتلون أشداء من أتباع القيصر ينظرون إليه وإلى عشيرته كغرباء ويعاملونهم بشىء من الزراية

من ستالين إلى خروتشوف

رمسيس عوض

والاستعلاء لأنهم مجرد فلاحين حتى ولو كانوا ميسوري الحال.

كان جد أديبنا الكبير لأبيه فلاحا اسمه سيميون يفلح الأرض التى يمتلكها بمعاونة ولديه الأكبر سنا اللذين انجبهما من زوجته الأولى وهما كونستانتين وفاسيلى. أما شقيقهما الثالث ويدعى إيزاكى (والد أديب روسيا العظيم) فقد أعرض عن الفلاحة والزراعة. وأيضا أنجب سيميون من زوجته الأولى ابنتين اسمهما افدوكيا وأنستاسيا. ومن زوجته الثانية أنجب ذلك الرجل ولدا يدعى إليا وبنتا تدعى ماريا. وكان فارق السن بين أولاده كبيرا فعلى سبيل المثال كان عمر كونستانتين أكبر أبنائه من زوجته الأولى يربو على العشرين عند ولادة إيزاكى (أى إسحق) أصغر أبنائه منها. وبسبب اسمه الشبيه بأسماء اليهود قابل إيزاكى فى حياته شيئا من العنت فقد ظن البعض خطأ أنه يهودى. فى حين يبدو أن السبب فى هذه التسمية اليهودية يرجع بكل بساطة إلى ولادة الطفل فى اليوم نفسه الذى تكرسه الكنيسة الروسية الأرثوذكسية لذكرى إسحق بن إبراهيم.

وبخلاف كل أخوته استطاع إيزاكى أن ينال قسطاً موفوراً من التعليم، ففى حين اقتصر تعليمهم على مدرسة الأبرشية كما اقتصر عملهم على مساعدة والدهم فى فلاحة الأرض نجد أن إيزاكى يلتحق بالمدرسة الثانوية ليواصل تعليمه فى معهد بياتيجورسك. واعترض والده على ذلك لأنه لم ير داعيا لأن يتميز ابنه إيزاكى عن سائر أخوته. ورفض الأب رفضا باتا - لمدة عام كامل - أن ينفق درهمًا واحداً على تعليمه، ولكنه اضطر فى نهاية الأمر أن يرضخ ويستسلم أمام عناده وإصراره. وفى عام ١٩١١م عاد الأب إلى الاعتراض مرة أخرى على رغبته وهو فى العشرين من عمره فى الالتحاق بجامعة خاركوف. غير أن اعتراضه ذهب أدراج الرياح. ولكن إيزاكى لم يستمر فى الدراسة بهذه الجامعة الإقليمية عندما أدرك ضعف مستواها العلمى. وفى عام ١٩١٢ استطاع إيزاكى أن يفرض إرادته ويسحق كل اعتراض يثيره والده فالتحق بالكلية الفيلولوجية بجامعة موسكو حيث راقت له دراسة أدب ليوتولستوى وتمكن بفضل جده واجتهاده أن يصيب قدراً كبيراً من العلم والثقافة أبعده عن جذوره الريفية وقربه من طبقة المثقفين من أهل المدن. غير أن هذا لم يجعله ينسى أصوله الريفية بحال من الأحوال. وفى كتابه «أغسطس ١٩١٤» - الذى يتضمن جانبا من سيرة حياته - يذكر ألكسندر سولجنتسين أن والده كان يعود إلى القرية فى فترات إجازاته الدراسية للعمل فى فلاحة الأرض مع بقية أفراد العائلة. ولكن مواصلته التعليم انتهت به إلى الابتعاد شيئا فشيئا عن أصوله الريفية، مما حدا بأهل قريته إلى مداعبته وتذكيره بأنه لم يعد واحداً منهم، فهو يرتدى ملابس سكان المدينة كما أنه يذهب مذهب المثقفين الشعبيين Populists الذين يعلون من شأن عامة الناس ويبرزون ما لهم من فضل على الطبقة المثقفة. برغم أن أفكار الشعبيين ومبادئ الأديب المعروف ليوتولستوى كانت آنذاك تعتبر موضة قديمة فقد تركت فى نفس إيزاكى وابنه ألكسندر من بعده أعمق الأثر.

يتيم منذ ولادته:

حين اندلعت الحرب بين روسيا وألمانيا فى أول أغسطس ١٩١٤ لم يكن هناك ما يضطر والد ألكسندر سولجنتسين إلى الاشتراك فيها فقد كان حينذاك معفى من التجنيد بوصفه طالبًا. ومما يزيد الأمر غرابة أن دعوة تولستوى إلى السلام والتآخى بين البشر التى أعجب بها إيزاكى لم تحل دون انخراطه فى هذه الحرب. ويروى لنا الأديب الكبير فى كتابه «أغسطس ١٩١٤» شيئا عن انخراط والده فيها. غير أن الأوراق الرسمية والسجلات المتعلقة بهذه الحرب لا تذكر لنا طبيعة الدور الذى لعبه إيزاكى فيها. فكل ما نعرفه فى هذا الشأن أن الحرب انتهت بمنحه ثلاث ميداليات تشاء سخرية الأقدار فيما بعد أن تطلب زوجته بعد وفاته إلى ولدها الطفل ألكسندر أن يساعدها على دفنها وإخفائها عن العيون حتى لا يظن أنصار النظام الشيوعى الجديد أن إيزاكى كان يتمتع بأى وضع مميز فى النظام القيصرى القديم. فيمعنون فى اضطهادها وإنزال المزيد من الخسف بها. أظهر إيزاكى تعاطفاً واضحاً نحو الجنود الذين كانوا تحت إمرته واستطاع أن يجعلهم يحبونه ويختارونه نائبا عنهم فى المجلس القومى الروسى الذى أنشئ حديثا فى بتروجراد. ولكن شعبيته مع الجنود لم تق زوجته سوء معاملة النظام الجديد لها وارتيابه فيها، لا لشىء سوى أنها تنتمى إلى عائلة كانت قبل الثورة البلشفية عريضة الثراء تملك المزارع والضياع ويعمل على خدمتها عشرون خادما وخادمة: عشرة منهم يقومون بخدمة الأسرة داخل الفيلا الفخمة التى تقيم فيها والعشرة الآخرون يتولون خدمتها من الخارج. فضلا عن عشرات الموظفين والمحاسبين والكتبة والعمال والميكانيكيين الخ الذين يديرون شئون المزارع. والضياع. وليس أدل على ثراء تلك العائلة من أنها كانت تملك سيارة رولز رويس هى واحدة من تسع سيارات فقط من هذا الطراز موجود فى جميع أرجاء روسيا قاطبة. ولم يرث زاخار شچرباك رب العائلة كل هذا الجاه العريض عن ذويه بل صنعه وهو الفلاح الأوكرانى الفقير بجهده وعرقه.

تعرف إيزاكى فى موسكو على شريكة حياته تايسيا زاخاروفنا فى أثناء إجازة قصيرة أخذها من الجيش ليقضيها

هناك حيث كانت تدرس العلوم الزراعية فى أكاديمية جولتسين. قابلها إيزاكى فى احتفالات الطلبة فوقع فى غرامها من أول نظرة. وتم زواجه منها أثناء تجنيده فى أغسطس ١٩١٧. ولكن سرعان ما ترك زوجته ليعود إلى جبهة القتال كى يذود عن شرف الوطن. هذا الشعور الوطنى الملتهب أصبح جزءا من تراث العائلة، الأمر الذى ترك أعمق الأثر فى تكوين أديبنا الكبير حتى بعد مرور عشرين سنة ولكن دون أدنى أية مقدمات ترك إيزاكى الخدمة العسكرية فجأة ليلتحق بزوجته التى كانت قد غادرت موسكو لتعيش مع أسرتها فى منتجع كيسلوفودسك بمنطقة القوقاز حيث عاشت تايسيا مع أخيها الأكبر رومان المتزوج من قريبتها إيريفا فى بحبوحة ويسار. وفى هذا المنتجع تعرف إيزاكى على حميه زاخار وحماته إيفدوكيا اللذين لم يكن قد رآهما من قبل واللذين اضطرتهما ظروف الثورة والحرب الأهلية إلى البقاء فى ذلك المنتجع والاحتماء فيه. وأيضا عاشت فى كيسلوفودسك ماريا أخت تايسيا الكبرى المتزوجة من رجل ثرى من أصحاب المزارع والضياع اسمه أفانسى كابوشين الذى استضاف زاخار وزوجته ليعيشا معه تحت سقف بيته.

ويبدو أن حياة الدعة فى ذلك المنتجع لم ترق فى عينى إيزاكى الذى اعتاد - شأن كل عائلة سولجنتسين - حياة البساطة والخشونة. كما يبدو أيضا أن خلافاته مع توجهات عائلة زوجته السياسية بدأت تظهر. فقد كانت عائلة تايسيا زوجته تكره النظام الشيوعى الجديد الذى صادر ممتلكاتها فى حين يبدو أن إيزاكى أظهر تعاطفا معه. وفجأة قرر إيزاكى أن يترك المنتجع الصغير وأن يأخذ زوجته الحامل ليعود بها إلى مزرعة والده البسيطة فى سابليا. ولم يمض على وصوله إلى سابليا غير بضعة أسابيع حتى أصيب فى حادث أودى بحياته على نحو مأساوى عنيف فى ١٥ يونية ١٩١٨ قبل أن يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاما بأربعة أيام وقبل ولادة ابنه بستة أشهر. ولا شك أنه من المفجع أن نعلم أن عشرة إيزاكى لزوجته لم تستمر أكثر من ثلاثة أشهر. وهكذا ولد ألكسندر يتيم الأب، الأمر الذى حز فى نفسه وترك فيها أبلغ الأثر.

ولا تزال تفاصيل الحادث غامضة. ففى الثامن من يونية ١٩١٨ خرج إيزاكى للصيد مع صديق له. ويبدو أنه إيزاكى فى لحظة إهمال ترك بندقيته إلى جانب العربة التى يجرها الحصان (الكارتة) والتى كانت تقله. وفجأة تحرك الحصان فى هياج شديد إذ يبدو أن ذبابة لدغته. فانطلقت رصاصة طائشة من البندقية لتصيب إيزاكى فى الصدر والبطن. وبسرعة تم نقله إلى أقرب مستشفى حيث أجريت له عملية جراحية باءت بالفشل. وتلوثت جروحه مما أفضى إلى وفاته فى غضون أسبوع واحد من دخوله المستشفى. وهكذا ترملت تايسيا الزوجة الشابة فى ريعان الشباب، ومات والد ألكسندر فى فترة عصيبة من أحرج الفترات فى التاريخ الروسى على الإطلاق، وهى فترة الصراع الدموى بين أنصار الثورة البلشفية وأعدائها. ومن حسن حظ تايسيا أنها استطاعت عقب الحادث أن تستدعى أخاها رومان فى مدينة كيسلو فودسك على عجل فجاءها تصحبه زوجته إيرينا (وهى فى الوقت نفسه قريبة حميمة لها) ليقفا بجوارها فى محنتها. وكانت إيرينا نعم العون والصديق فقد كرست حياتها لتربية الطفل اليتيم الأب ألكسندر سولجنتسين. الأمر الذى ترك فى هذا الأديب الروسى الكبير - كما أسلفنا - أثرا لا ينمحى على مر الأيام.

عائلة ثرية ولكنها متدينة:

بسبب ثراء أسرتها الغابر عاشت تايسيا عيشة كلها معاناة وضيق وكرب فأصبحت وذووها لا يغادرون المنزل خوفا من هجوم الثوار عليهم. ولا يكفون عن الصلاة ورسم الصليب حتى يقيهم الله شر ما فى الغيب. ولكن هذا لم يحل دون وقوع البلاء. فذات ليلة هاجمت عصابة من المسلحين البيت لتلقى القبض على رومان وتأخذه رهينة. وهو أمر ينطوى على المفارقة لأن رومان بالذات دون بقية أفراد عائلته كان أكثرهم تحررا وليبرالية وعطفا على النظام الجديد. فضلا عن شدة إعجابه بأفكار كل من ليوتولستوى وماكسيم جوركى وشدة مقته للنظام القيصرى القديم. وزج به المهاجمون فى زنزانة. ولولا إقدام زوجته إيرينا وجسارتها وتقديمها الرشوة لبعض رجال الحكم الجديد لتم بالفعل تنفيذ حكم الإعدام فيه. وعندما استولى البلاشفة على مدينة كيسلو فودسك لم يكتفوا بمصادرة أملاك عائلة تايسيا بل تعمدوا إذلالها. وأسقط فى يد الأرملة الشابة فلم تعرف أين تذهب. فهى ترى النظام الجديد ينكل بعائلتها من ناحية كما أنها من ناحية أخرى لا تستطيع - وهى فى آخر أيام حملها - أن تلتجئ إلى عائلة زوجها التى تحيا حياة خشنة لا عهد لها بها. ولم يكن موقف عائلة سولجنتسين من الثورة البلشفية بمثل ما كان عليه موقف عائلة تايسيا من الوضوح. فلا هى بثراء عائلة تايسيا بحيث تحمل المقت والموجدة للنظام الجديد. ولا هى بالمعدمة بحيث تقف مع الثورة البلشفية وتتحمس لها. بل إنها كانت فى واقع الأمر مرتاحة أو مستورة الحال. وأغلب الظن أن موقفها من النظام الجديد كان يتأرجح بين الرفض والقبول. وخاصة لأن القوقازيين الموالين للنظام القديم كانوا كما أسلفنا يعاملونها بعجرفة واستعلاء. والجدير بالذكر أن انتشار الأوبئة عقب اندلاع الثورة البلشفية كان سببا فى وفاة عدد كبير من عائلة ألكسندر سولجنتسين مثل

جده لأبيه سيميون وزوجته الثانية مارفا ومثل عمه فاسيلى وعمته أنستاسيا.

كانت عائلة تايسيا تستمسك بالدين إلى أبعد الحدود فقد اشتهر أبوها زاخار وأمها إيفدوكيا بشدة التقوى والورع والإيمان المطلق بتقاليد الكنيسة الأرثوذكسية. كما كانت إيرينا شديدة الإيمان بالدين منذ نعومة أظفارها. غير أن موقف تايسيا والدة أديبنا من الدين كان مختلفا. ففى موسكو حيث تلقت تايسيا تعليمها اتجه المثقفون الروس إلى نبذ الدين والزراية برجال الكنيسة. وسايرت والدة سولجنتسين هذه الموضة الفكرية المناهضة للدين فى صدر شبابها. غير أن الأهوال التى شاهدتها فى أثناء الحرب الأهلية وتنكيل النظام الجديد بها سرعان ما جعلها ترتد إلى حظيرة الدين. ففى منتجع كيسلوفودسك وجدت نفسها وقد حاصرتها القوات البلشفية من كل جانب. وفى عام ١٩٢٠ تعرضت عائلتها للهلاك جوعا، الأمر الذى اضطرها إلى بيع أثاث بيتها حتى تشترى به مأكلها. وفى شتاء ١٩٢١ نفدت نقود تايسيا تماما فاستطاعت بعد لأى أن تجد وظيفة سكرتيرة بعد أن تعلمت الاختزال والآلة الكاتبة فى ظروف أشد ما تكون صعوبة وقسوة.

ولعل الطفل ألكسندر كان الوحيد الذى لا يدرى طبيعة الأهوال المحيقة به. ومن ثم نراه لا يزال يذكر إلى يومنا الراهن تلك الأيقونة المعلقة فى ركن حجرته التى أدخلت فى نفسه السكينة والطمأنينة والهدوء وهى تطل عليه بوجهها القدسى المشرق. وعندما يبدأ النعاس فى مغالبته كان الطفل يشعر بالأيقونة المتدلية وكأنها ملاك حارس يحلق فوق سريره ويحميه من كل الشرور. ولم يكن هذا الطفل بطبيعة الحال يدرى ما تتعرض له أمه من خسف واضطهاد دون أى سبب واضح غير ثراء أهلها وذويها مما دفعها إلى مغادرة منتجع كيسلو فودسك والاستقرار فى مدينة كبيرة أوسع وأرحب هى مدينة روستوف ـ على الدون حتى تتوه فى زحامها. كانت روستوف ـ على ـ الدون آنذاك مدينة صناعية مشهورة بإنتاج التبغ وصناعة الورق والجلود ويبلغ تعداد سكانها ربع مليون نسمة. كما كانت مرفأ ومركزا ثقافيا وتعليميا فقد اشتملت جامعة روستوف فى ذاك الوقت على أقسام الطبيعة والتربية والعلوم الاجتماعية والفيزياء والرياضيات. وشهدت هذه المدينة إبان الحرب الأهلية قتالا داميا وأحداثا عنيفة بين الروس الحمر والروس البيض يضعها الأديبان الكبيران إسحق بابل فى كتابه «الفرسان الحمر» وميخائيل شولوخوف فى روايته «الدون الهادئ». وفى عام ١٩٢٠ تمكنت فرقة الفرسان الحمر بقيادة سيمين بودنى أن تستولى على هذه المدينة وتنتزعها من قبضة الجيش الأبيض. ومن المؤسف أن والدة أديبنا لم تنجح فى أن تتوارى عن الأنظار لتتجنب الخسف والاضطهاد فقد ظل عنت السلطة الحاكمة الجديدة يلاحقها حتى فى ذلك المرفأ الكبير، فرفضت إعطاءها مسكنا رخيصا من مساكن الدولة، الأمر الذى اضطرها إلى استئجار منزل شديد التواضع من القطاع الخاص بأعلى الأسعار عاشت فيه نحو اثنى عشر عاما فى الفترة من ١٩٢٤ حتى ١٩٣٦. ولأن عملها كسكرتيرة فى هذه المدينة لم يكن يدر عليها ما يكفيها من دخل فقد اضطرت إلى إنهاك بدنها فى مواصلة العمل خارج البيت وداخله حتى تتمكن من الوفاء بالحد الأدنى من متطلبات الحياة. ويجدر بنا فى هذا المقام أن نؤكد أهمية مدينة روستوف التجارية فى الفترة السابقة على الثورة البلشفية فقد كانت ميناء لتصدير الفائض من المنتجات الزراعية فى روسيا الجنوبية واستيراد البضائع وجذب الاستثمارات من بلاد أوروبا الغربية الغنية. ولكنها استطاعت عقب انتهاء الحرب الأهلية بين الروس الحمر والروس البيض أن تحتفظ بشىء من سالف نشاطها وأن تعود إلى حالتها الطبيعية. فلا غرو أن تعلق بها قلب الطفل ألكسندر وأحب فيها جوها الليبرالى المتفتح الذى اختلطت فيه جنسيات متعددة قوقازية ويهودية ويونانية وأرمنية. وتميزت روستوف عن غيرها من المدن الروسية بتلقائيتها واستقلالها وتنافسها التجارى وجنوح أهلها إلى اغتنام مباهج الحياة. ولهذه الأسباب جميعا قاومت هذه المدينة بشدة استيلاء البلاشفة عليها لدرجة أن الروس أطلقوا عليها اسم ـ مدينة الحرس الأبيض.

ويذكر لنا ألكسندر سولجنتسين أنه فى طفولته لم يجد له أبا فى العائلة فاستبدل به جده لأمه زاخار الذى يرى أنه ورث عنه ذلك الفيض الهائل من الطاقة. فضلا عن أنه تأثر للهجته الأوكرانية التى لازمت أديبنا حتى يومنا الراهن. وتعلق ألكسندر أيضا بجدته لأمه التى وصفها بأنها امرأة لها قلب مفعم بالطيبة والحنان النادرين. أما إيرينا خالته فقد أرضعته عشقه الباكر للكنيسة الروسية الأرثوذكسية وبينت له معنى وجمال طقوسها وتقاليد هذه الكنيسة العريقة التى استمرت موصولة عبر الزمن كما بينت له أهمية الدور الذى لعبته فى صياغة التاريخ الروسى كله؛ وهو تاريخ لا يمكن بحال من الأحوال فصله عن تاريخ روسيا القومى. غير أن الطفل وجد نفسه نهبا مقسما يقف حائرا بين أمه التى تزور عن الماضى وتسعى جاهدة لدفنه وحرص زوجة خاله إيرين البالغ على إحيائه وتأكيد روعته. فقد كانت تايسيا أيام الدراسة فى موسكو متحررة فى أفكارها الدينية ولكن الأهوال التى مرت بها فى فترة الحرب الأهلية ردتها إلى حظيرة الإيمان.

سولجنتسين بين الثقافتين الغربية والروسية:

والذى لا شك فيه أن مصرع والده قبل ولادته ساعده على النضج الباكر والاعتماد على النفس واكتساب شخصية مستقلة وبمجرد أن أصبح الطفل يافعا بدأ يعين أمه المنهوكة فى قضاء حاجاتها والوقوف فى طوابير طويلة من أجل الحصول على الخبز، وبعض السلع الأخرى. ويرجع تمرده على كافة أنواع السلطة ومقتها سواء كانت سلطة الآباء أو المعلمين أو السجانين أو اتحاد الكتاب إلى استقلال شخصيته. ولعل السلطة الوحيدة التى رضخ لها هى سلطة الله سبحانه وتعالى.

لقد كان بإمكان أمه الشابة أن تتزوج مرة ثانية واحدا من الرجال الكثيرين الذين جاءوا يخطبون ودها. ولكنها رفضتهم جميعا بزعم أن مثل هذا الزواج سوف يكون عائقا أمام تربية ابنها ألكسندر تربية سليمة. قال سولجنتسين فى سنى نضجه إن أمه أخطأت عندما رفضت الزواج مرة أخرى وإنها بالغت فى مخاوفها من مثل هذا الزواج دون مبرر، فالرأى عنده أن الطفل لا يضيره أن يعامله زوج أمه بشىء من الحسم والحزم. وبالرغم من أن الأم طلبت من طفلها أن يساعدها فى إخفاء الميداليات الثلاث التى حصل عليها أبوه إبان الحرب الروسية الألمانية حتى لا تتنبه الثورة البلشفية إلى أصولها العائلية الاجتماعية المتميزة، فإنها لم تمل من أن تكرر على مسامع وحيدها قصصا عن شجاعة والده وبطولته، الأمر الذى سوف يجعل الابن يقتدى بأبيه ويحذو حذوه فى الحرب العالمية الثانية.

لم يكن ألكسندر فى يفاعته منطويا على نفسه عازفا عن الناس فقد شارك أقرانه اللعب والمرح. ولكنه بمجرد انتهائه من اللعب كان يعيش فى عزلة كاملة ينصرف فيها انصرافا تاما إلى القراءة والإطلاع يساعده على هذا أن خالته إيرينا تملك مكتبة كبيرة طالع فيها أعمال بوشكين وجوجول وتولستوى ودوستيوفسكى وتورجنيف إلى جانب معظم الكلاسيكيات الروسية. وهو ما سوف نتناوله بالتفصيل فيما بعد. يقول سولجنتسين إنه قرأ الحرب والسلام وهو فى العاشرة من عمره. وأصبح تولستوى فى نظره المثل الأعلى بين الكتاب الروس. وفى تلك الفترة من حياته قدمت إليه إيرينا نسخة من مجموعة «الأمثال الروسية» التى وضعها فلاديمير داهل والتى حازت إعجابه الشديد. وعبر أديبنا عن إعجابه الشديد أيضا بطائفة كبيرة من كتاب الغرب على رأسهم شكسبير وشيلر وديكنز إلى جانب جاك لندن الذى ذاع صيته بين الروس قبل الثورة البلشفية وبعدها. فلا غرو أن أحب سولجنتسين إيرينا زوجة خاله أكثر مما أحب خاله نفسه فقد أرضعته الحب والحنان، ولأنها لم تنجب اتخذته ابنا لها وشجعته على الاطلاع وروت له غرائب القصص والحكايات وأزكت خياله وأشعلت وطنيته وحببته فى الماضى الذى أجهزت عليه الثورة الشيوعية. وهكذا اختزن الصبى فى مخيلته صورا مجيدة ناصعة للماضى ظلت غائرة فى أعماقه نحو نصف قرن من الزمان لتظهر بعده فى أعماله الأدبية العظيمة.

تفوق دراسى مبكر:

سكين من يد غريمه فجرح نفسه وسال دمه وسقط مغشيا عليه فارتطمت جبهته بشدة على الأرض، مما ترك جرحا غائرا فيها مازالت آثاره باقية إلى يومنا الراهن. والغريب أنه كثيرا ما سقط مغشيا عليه لأتفه الأسباب. فعندما التحق بالجيش كان لابد من تطعيمه. غير أنه غاب عن الوعى بمجرد إدخال اللقاح فى جسمه. ولم تحل أيام تلمذته من الشقاوة التى كادت تعرضه للطرد من المدرسة لولا إلحاف زملائه فى رجاء المدرس أن يعفو عنه. فقد أخفى فى أحد الأيام سجل الفصل وراء دولاب حتى لا تكتشف المدرسة النقاط السوداء العديدة الموضوعة أمام اسمه بسبب كثرة هروبه.

والجدير بالذكر أنه بالرغم من كل ما حققه ألكسندر سولجنتسين من ثراء فى حياته اللاحقة فإن الصعاب والجوع كان الشىء الوحيد فى طفولته الذى لايزال حيا فى ذاكرته. فعندما سأله صحفى فرنسى عن ذكرياته فى أيام الطفولة رد بقوله: «لا شىء غير الصعاب. فأنا فى حياتى لم أعرف حتى سن الأربعين أى شىء سوى الإملاق الممتزج بالكرامة وعزة النفس... منذ نهاية عام ١٩١٨ هو عام مولدى حتى عام ١٩٤١». ولم يكن الشخص الوحيد الذى عانى من الجوع بطبيعة الحال. فقد أدت سياسة ستالين الخاصة بالتصنيع وبإنشاء المزارع الجماعية إلى انتشار المجاعة فى أرجاء البلاد، فضلا عن النقص الشديد فى الملابس الذى جعل المواطن الروسى يقف فى طوابير لا تنتهى وينتظر أحيانا ستة أشهر حتى يتمكن من الحصول على حذاء يلبسه. ودفعه إحساسه الباكر الأليم باليتم والخجل الشديد من جذوره الطبقية الميسورة الحال إلى الطموح الجامح والرغبة العارمة فى التفوق على أقرانه. كان فى طفولته يحلم بأن يصبح جنرالا أو قسا أوكاتبا .وأظهر اهتماما وتفوقا متساويا بالفنون والعلوم معا. ولا سبيل إلى إنكار الدور المهم الذى لعبته والدته فى تعليمه. فقد كانت ترشده وتشرح له دروسه وتراقب بإعجاب تقدمه الدراسى، مما حفزه على التفوق فى جميع المواد باستثناء الرسم الذى كان ضعيفا فيه. ولكن هذا لم يمنعه من شحذ طاقاته واستخدام إرادته حتى استطاع فى النهاية ان يتغلب على هذا الضعف.

وفى المدرسة توثقت عرى الصداقة بينه وبين ثلاثة من أقرانه التلاميذ المتفوقين هم نيكولاى فيرنفتش وكيريل سيمونيان وليديا إزهرتس الذين لعبوا فيما بعد دورا بارزا فى حياته. كان كيريل سيمونيان وهو من أصل أرمنى يتمتع بالموهبة الموسيقية وينزع إلى التصوف ويسعى إلى الاتصال بالعالم الآخر، الأمر الذى كان سببا فى اندهاش صديقه ألكسندر وانبهاره. وكذلك نشأ نيكولاى يتيما مثله فقد مات أبوه الموظف فى الحكومة القيصرية أثناء الحرب الأهلية. وكان ارتباط ألكسندر بنيكولاى أقوى من ارتباطه بصديقيه الآخرين. وبعكس شخصية كيريل العاطفية غير المستقرة اتسمت شخصية نيكولاى بالتصميم والواقعية والاستقلال وبقدر من الانطوائية. أما الصديقة الثالثة فهى فتاة يهودية تتصف بالذكاء والحساسية والهدوء ومن طبعها أن تمد يد العون إلى كل من يحتاج إليها.

كان حب الأدب يجمع بين هؤلاء الأصدقاء جميعا، فضلا عن أنه ربطهم بإنستاسيا جرونو مدرسة الأدب بالمدرسة. يقول كيريل فى هذا الشأن - وهو قول يؤكده لنا سولجنتسين نفسه: «كنا نكتب المقالات عن شكسبير وبيرون وبوشكين ونرجع إلى كم هائل من الكتب والمراجع غير المقررة يحاول كل واحد منا أن يتفوق على الآخرين. وبالتدريج أصبح من الواضح أن المتفوقين منا فى هذا المضمار هم ليديا إزهرتس وأنا. كنا فى بادئ الأمر نكتب شعرا رديئا للغاية نقلد فيه تماما من سبقونا فى عالم القريض ولم نتوقف عن كتابته إلا حين اقترحت علينا إنستاسيا سيرجيفنا أن نحاول أن نشترك معا فى تأليف رواية. وفى الوقت نفسه أخذنا نصور مجلة نهائية نشرنا فيها قصائد تتضمن عبارات موجزة بليغة ساخرة من أنفسنا، وحتى من المدرسين الذين علقوا عليها بقولهم إنها قصائد تخلو من البديهة الحاضرة أو إنها تنطوى على بديهة حاضرة ولكن الكياسة تنقصها الخ... وعندما وصلنا إلى الفصلين التاسع والعاشر أضفنا إلى هذا ولهنا بالمسرح. فقمنا بتنظيم ناد للدراما وعمل بروفات مسرحيات من تأليف أوستروفسكى وتشيكوف وروستاند. ويجدر بالذكر فى هذا الصدد أنه فى نهاية الثلاثينيات أمرت السلطات السوفيتيه المخرج المسرحى المعروف يورى زافادسكى بمغادرة موسكو والإقامة فى روستوف - على الدون فأنشأ هناك مدرسة مسرحية للهواة التحق بها مؤلفنا فى وقت فراغه. وشهد له زافادسكى أنه كوميدى موهوب غير أن انشغاله بدراسة العلوم صرفه عن هواياته المسرحية. كان سولجنتسين يعانى من التهاب مزمن فى الحنجرة ولكن هذا لم يقلل أبدا من اهتمامه بالمسرح. وكذلك ظهر شغفه بالمسرح فى كثرة إشاراته له فى كتاباته. فضلا عن أنه ألف بعض المسرحيات مثل «فتاة الهوى والبرىء» التى قبل مسرح سوفر يمفيل فى موسكو تمثيلها فى نهاية عام ١٩٦٢ غير أن السلطات حظرت فيما بعد تمثيلها.

وظل سولجنتسين يحتفظ لمدرسته إنستاسيا بالود ويدين لها بالفضل فى أنها غرست فيه حب الأدب حتى بعد أن ذاع صيته. ولم يكن حب كيريل للأدب يقل عن حب سولجنتسين له. بل إن سولجنتسين شعر بأن صديقه كيريل لابد وأن يصبح يوما ما كاتبا مرموقا. حتى إنستاسيا نفسها توسمت فيه موهبة أدبية تفوق موهبة سولجنتسين. ولكن اليأس فت فى عضد كيريل فتوقف عن الكفاح والاستمرار فى طريق الكتابة الشاق واكتفى بمهنه الطب التى درسها. وانصرفت ليديا إلى دراسة الأدب بطريقة أكاديمية فتخصصت فى الأدب الألمانى وسطرت بعض الكتابات النقدية الأكاديمية. أما نيكولاى فيتكيفتش فاهتم بالسياسة والفلسفة أكثر من اهتمامه بالأدب. وقبل أن نتناول بدايات سولجنتسين الأدبية والعقائدية، يجدر بنا أن نتناول بعض التجارب فى صباه التى وضعته وجها لوجه أمام جهاز المخابرات السوفيتية الذى لم يتنبه آنذاك إلى بشاعة ممارساته ووحشيته.

وجها لوجه أمام بشاعة المخابرات:

فى أوائل الثلاثينيات بدأت الوشائج التى تربط الصبى ألكسندر بخالته إيرينا وزوجها رومان تضعف بشكل واضح بسبب سوء حالتهما المالية وتدهورها. واضطرارهما إلى الانتقال من منزلهما المريح فى بيسك إلى شقة متواضعة، فضلا عن اضطرار رومان إلى العمل كسائق. لم يكن من الممكن والحال هكذا أن ينزل الصبى فى إجازاته ضيفا عليهما. ولهذا صحبته أمه لزيارة أختها ماريا التى عاش زاخار أبوها وأمها فى بيتها. وكانت تعترى زاخار (جد الصبى لأمه) سورة من الغضب العارم بسبب مصادرة الثورة البلشفية لأملاكه. وكان على يقين لا يتزعزع رغم مرور اثنى عشر عاما على هذه الثورة من أنها سوف تنتهى إلى زوال وأن روسيا سوف تعود إلى حالتها الطبيعية. ورأى الصبى مقدار ما يعانى منه جده من ضيق وكرب فسعى إلى التخفيف عنه دون أن يتعاطف مع أفكاره فقد بدأ يتأثر عن طريق المدرسة بالأيدولوجية الشيوعية التى تدفع الملكية الخاصة وتعتبرها أصل الشرور. وبسبب ما تعرض له الجد من ضغط نفسى رهيب نتيجة ضياع ماله وممتلكاته الشاسعة نراه يهذى فيقول إنه أصبح شديد القلق على مصير هذه الضياع والممتلكات وأن ابنه رومان لا يصلح لإدارتها. ومن ثم فإنه ينوى تسليمها إلى حفيده ألكسندر سولجنتسين.

وأراد الصبى أن يهون على جده ما هو فيه من كرب فقال له: «لا تقلق بشأن هذا يا جدى. وأنا لا أريد ضيعتك على أية حال. ولو أنها جاءتنى لرفضتها من حيث المبدأ».

وذات يوم خرج الجد الطاعن فى السن ليتسلل خلسة إلى الكنيسة وجاء نفر من رجال المخابرات إلى باب البيت وأخذوا يدقون عليه بأكفهم ويركلونه بأرجلهم من أجل الاستمرار فى استجواب زاخار عن الذهب الذى يتاجر فيه ويخفيه عن السلطات. وعندما لم يجدوه فى المنزل توجهوا إلى ابنته تايسيا وهددوها بالسجن إذا وجدوا فى حوزتها أى ذهب. وقاموا بتفتيشها دون أن يعثروا على أى شىء بطبيعة الحال: وأجبروها على التوقيع على بيان مفاده أنها لا تخفى فى حوزتها أى ذهب بعد أن سلمتهم خاتم الزوجية وطلبوا منها أن تحضر لهم أيضا خاتم الزواج الخاص بزوجها المتوفى فأحضرته لهم. وحين عاد الجد إلى البيت وجد رجال المخابرات ينتظرونه فأخذوا يستجوبونه بدوره عن الذهب الذى يخفيه فلم يعرهم أدنى التفات بل انتحى من الحجرة ركنا قصيا وركع أمام أيقونة وأخذ يصلى. فأوقفوه على قدميه وبدءوا فى تفتيشه فلما لم يجدوا معه أى ذهب خرجوا وهم يلعنونه ويتوعدونه بالويل والثبور وعظائم الأمور. وكذلك لم تسلم عائلة سولجنتسين لأبيه من الأذى رغم أصولها الاجتماعية العصامية المتواضعة. ولم يمض وقت طويل حتى قامت السلطات بنفى عميه كونستانتين وإليا للعمل فى معسكرات العمل فى سيبيريا بتهمة انتمائهما إلى طبقة المزارعين الروس المعادين للثورة المعروفين باسم الكولاك.

وفى فبراير ١٩٣١ توفت زوجة زاخار (جدة ألكسندر لأمه) فأقامت ابنتها تايسيا قداسا تذكاريا على روحها فى كاتدرائية روستوف دون أن تأبه بمراقبة رجال المخابرات المترددين على الكنائس ودور العبادة. ولحسن حظ تايسيا أن أحدا لم يبلغ عنها. ولكن أحد التلاميذ الحاضرين من أقران ألكسندر أبلغ عنه فاستدعاه ناظر المدرسة ووجه إليه اللوم بسبب اشتراكه فى شعائر لاتتفق مع كونه عضوا فى تنظيم «الرواد الشبان». وفى العام التالى ١٩٣٢ مات زاخار نفسه فى ظروف غامضة. ويبدو أن صدمة وفاة زوجته وملاحقة رجال المخابرات له أدت إلى إصابته بالخلل فى أخريات حياته. فقد علق كالشحاذين صليبا خشبيا كبيرا حول رقبته وتوجه إلى العاملين بإدارة المخابرات فى بلدة أرمافير ليقول لهم: «إنكم سرقتم كل مالى وممتلكاتى. ولهذا تستطيعون الآن وضعى والاحتفاظ بى فى السجن».

وفى مارس ١٩٣٢ خاض ألكسندر سولجنتسين بنفسه أول تجربة مباشرة مع وحشية رجال المخابرات، لم يتنبه فى يفاعته إلى بشاعة مدلولها بسبب قلة خبرته من ناحية وتفاؤله آنذاك بمستقبل المجتمع الشيوعى من ناحية أخرى. فقد ذهب كعادته ليزور عائلة فلاديمير فدروفسكى ـ وهو مهندس طاعن فى السن تزوج ابنة ناظرة المدرسة التى تعلمت فيها أمه تايسيا وأصبحت صديقة حميمة لها. وفى بادئ الأمر رحبت الثورة بهذا المهندس ثم ما لبثت أن قلبت له ظهر المجن مع انتهاء فترة الحرية التى صاحبت تنفيذ السياسة الاقتصادية الجديدة NEP وهى السياسة التى سمحت للنظام الشيوعى بالتعاون مع الخبراء غير الشيوعيين. وما إن دخل الغلام ألكسندر سولجنتسين بيت المهندس فدروفسكى حتى هاله ما رأى: الأوراق مبعثرة على الأرض والكتب متناثرة وأدراج المكاتب والدواليب مفرغة من محتوياتها. وساعدته هذه التجربة فيما بعد على تصوير منظر اقتحام منزل وإلقاء القبض على من فيه فى الصفحات الأولى من كتابه «أرخبيل الجولاج». وإلى جانب ذلك عرف ألكسندر فى يفاعته ما يحدث داخل زنزانات السجون من مصدر آخر. ففى أثناء أوبته من المدرسة تعين عليه المرور بشارع ضيق يقع فيه الباب الخلفى لأحد سجون إدارة المخابرات حيث شاهد النسوة الحزينات وهن ينتظرن فى صمت فى طابور من أجل تسليم بعض اللفائف التى تحوى الطعام لذويهن من المسجونين أو المعتقلين. والجدير بالذكر فى هذا الصدد أن كاتبنا كان فى صباه يحمل للمهندسين الذين خالط بعضهم وعرفهم عن كثب حبا شديدا واحتراما فائقا، كما كان يثق بهم ثقة عمياء فحين طالع آنذاك فى صحيفة الأزفستيا عن محاكمة عدد كبير من المهندسين بتهمة القيام بأعمال التخريب أحس بالفطرة أنها افتراء ولم يصدق أن المهندسين الذين عرفهم فى صباه عن طريق العائلة يمكن أن يكونوا مجرمين وخارجين على القانون، الأمر الذى يدل على قدرته منذ الصبا على الوصول إلى آراء وأحكام مستقلة.

إرهاصات أدبية :

كان سولجنتسين فى يفاعته يحلم بأن يصبح ممثلا يجلجل صوته فوق خشبة المسرح. وكما أسلفنا اقتنع زافادسكى آنذاك بموهبته الكوميدية. ولكنه وجد أن حباله الصوتية ضعيفة لا تصلح للإلقاء المسرحى وترك ولعه الباكر بالمسرح أثرا ملحوظا فيه، فألف أربع مسرحيات وسيناريو لفيلمين فضلا عن حبه لحفظ النصوص. ونحن نراه فى أوج عظمته فى موسكو لا يحب شيئا مثل قراءة أعماله بحيوية دافقة أمام جمع خاص من المعجبين والأصدقاء. وعندما أصدرت السلطات السوفيتية أمرا بنفيه إلى الغرب عام ١٩٧٤ سجل بصوته نص قصيدته السردية الطويلة بعنوان «ليال بروسية».

وقد ظهر ميله للكتابة فى التاسعة من عمره ولم يكف بعد ذلك عن مواصلة التأليف. كتب سولجنتسين أول قصة له بعنوان «القراصنة» عام ١٩٢٨، ثم أعقبها عام ١٩٢٩ بقصة أخرى بعنوان «السهم الأزرق» وقصة من الخيال العلمى. وفى تلك الفترة سطر أول صحيفة أدبية فى حياته بعنوان «القرن العشرون» نشر فيها قصة طويلة مسلسلة بعنوان «القرصان الأخير». ولكن هذه الصحيفة ما لبثت أن توقفت عن الصدور حتى شهر يناير ١٩٣٢ عندما أصدر صحيفة أخرى بعنوان «الجازيت الأدبى» استمر صدورها لمدة عامين ونشر فيها مسرحية كوميدية فى فصلين بعنوان «المأدبة» إلى جانب مغامرة من الخيال العلمى بعنوان «أشعة». وفى عام ١٩٣٤ كتب قصة أخرى بعنوان «ميخائيل سيدجوف» تدور أحداثها حول أحد الممثلين. ونظم فى الوقت نفسه عددا كبيرا من القصائد والأشعار جمعها فى مجلد واحد أسماه «أشعار ١٩٣٢ ـ ١٩٣٦» ثم أطلق عليه اسما آخر هو «أشعار مرحلة الشباب» الذى يضم بين دفتيه مجموعة من النكات والأقوال الموجزة البليغة الذكية وبعض القصائد ذات الطابع الشخصى والحميم للغاية. فضلا عن أنه جمع عددا من قصصه الباكرة بعنوان «التراجيديا ذات الأثر العميق».

كان رومان ـ خال ألكسندر سولجنتسين ـ يمجد الأديب الكبير ماكسيم جوركى ويعتبره أعظم شأنا وموهبة من ليو تولستوى نفسه. وفى أواخر العشرينيات أعلن جوركى رأيا لقى رواجا شعبيا كبيرا مفاده أن بمقدور كل إنسان أن يصبح أديبا لو وجد الفرصة والتشجيع المناسبين، الأمر الذى جعل رسائل الأدباء الناشئين والهواة تنهمر عليه. ونحو عام ١٩٣٢ أرسل الغلام ألكسندر إلى خاله رومان وزوجته إيرينا خطابا مطولا عن الرحلة التى قام بها مع تنظيم «الرواد الشبان» إلى شاطئ البحر الأسود وعن مشاهداته وانطباعاته هناك. فحاز هذا الخطاب إعجابهما فبعثا إلى ماكسيم جوركى ليقول رأيه فيه. وجاءهما رد مشجع من سكرتير جوركى فحواه أن الخطاب ينم عن الموهبة. وفى خريف ١٩٣٧ كتب «مذكرات راكب دراجة» يصف فيها رحلة دامت شهرا قام بها مع ستة من أصدقائه فى منطقة القوقاز. ومن الطريف كيف حصل الغلام ألكسندر على دراجته. ففى عام ١٩٣٦ رشحه ناظر مدرسته للحصول على إحدى جوائز التفوق الدراسى. وأبلغ الإدارة التعليمية بشأن هذا الترشيح. غير أن اسمه سقط من قائمة المرشحين للجوائز التى أعدتها الجهات التعليمية المسئولة، الأمر الذى أثار حنق ناظر المدرسة وسخطه، فأرسل إليها يحتج على تجاهل مرشحه. وأرادت الإدارة التعليمية تدارك هذا الخطأ فأرسلت إلى محلات بيع الدراجات فى المنطقة التى يسكن فيها الغلام تأمرها بصرف دراجة بصفة استثنائية له. ولما كانت هذه المحلات تعانى من النقص الشديد فى الدراجات وغيرها من السلع فقد تعين عليه انتظار دوره لفترة طويلة حتى تصل شحنة جديدة من الدراجات. وأبلغه أحد معارفه فى محل بيع الدراجات أن الشحنة الجديدة وصلت لتوها. فاتفق الغلام مع اثنين من أصدقائه الشبان أن يبيتوا ليلتهم أمام المحل ليكونوا أول الداخلين إليه فى الصباح على رأس الطابور الطويل المنتظر. وهكذا حصل الغلام على هذه الهدية النادرة التى تجول بها عام ١٩٣٧ مع أصدقائه فى منطقة جبال القوقاز بالقرب من تبليسى.

وتدل لنا «مذكرات راكب دراجة» أنه فى صدر شبابه قبل الأيديولوجية الشيوعية على علاتها وأنه آمن بها إيمانا تاما. وتتضمن هذه المذكرات قدرا واضحا من الدعابة والمواقف الفكرية التى تعرض لها هو وأصحابه وهم فى الطريق إلى زيارة مسقط رأس ستالين فى جورى بجورجيا مثل إصابة إطار دراجته بالثقوب أثناء انهمار المطر عليهم. وتدل المذكرات كذلك على تمتعه بالقدرة على الكتابة على نحو عاطفى غنائى وعلى سعة اطلاعه فهو يذكر لقرائه الأماكن التى سبق أن زارها كبار الأدباء الروس: بوشكين وليرمنتوف وليوتولستوى فى تلك المنطقة. ونعرف من «مذكرات راكب دراجة» أنه يحب زيارة المقابر لأنها تعلمه الصدق مع النفس وتعريه من كل زيف. ويشرح لنا أسباب كتابة هذه المذكرات فيقول لنا إنه فى فترة الإعداد لامتحانات الرياضيات وانكبابه على دراستها كان الضيق والسأم يعتريانه ويفسدان عليه مزاجه، فلم يجد ما يعينه على التغلب عليهما غير كتابة تلك المذكرات. وعندما أقدم سولجنتسين فى يفاعته على كتابة أول رواية طويلة شعر بعجزه الكامل عن الانتهاء منها. وبجهد جهيد لم يتمكن من أن يسطر غير عبارة واحدة منها ثم توقف القلم بعدها تماما. وهاله ما هو فيه من عجز فقرر بينه وبين نفسه ألا يسمح لنفسه أبدا فى المستقبل أن يبدأ بكتابة شيء دون أن يكمله حتى لو كان القارئ الوحيد لنفسه. وفى ١٨ نوفمبر ١٩٣٦ عندما كان فى الثامنة عشرة من عمره قرر أن يكتب رواية كبيرة عن الثورة الروسية وهى فكرة أكثر تواضعا وواقعية من طموحه الطفولى الباكر لفهم القرن العشرين واستكناه معناه. واضطرته كتابة هذه الرواية إلى البحث فى بطون الكتب حول أهم المعارك العسكرية التى دارت بين الروس والألمان فى الحرب العالمية الأولى، وسر اندحار الروس فيها. وتوصل الغلام إلى معركة حاسمة هى معركة تاننبرج فيما كان يسمى ببروسيا الشرقية (ألمانيا الآن) التى شاهدت انهزام واحد من أشرف

الجنود الروس وأشجعهم وأكثرهم وطنية لا لعيب فيه ولكن بسبب فساد رؤسائه وعدم كفاءة الجيش الروسى من ناحية وفساد البلاط القيصرى من ناحية أخرى. وفى ١٩٣٧ ألحت عليه فكرة تأليف ملحمة روائية كبيرة من منظور شيوعى تدور حوادثها حول الثورة البلشفية على غرار رواية تولستوى المعروفة «الحرب والسلام». وفى حياته الأدبية اللاحقة استقى سولجنتسين من مسودات هذه الرواية الباكرة مناظر ومواد ضمنها كتابة عن سيرة حياته المعروف باسم «أغسطس ١٩١٤». وبفضل تفوقه فى المدارس أمكنه الالتحاق بالجامعة دون أن يتعين عليه اجتياز أى من امتحانات القبول التى كانت الجامعة تعقدها فى العادة للطلبة الجدد. وأخفى الفتى عن المسئولين فى الجامعة حقيقة أصل والده الاجتماعى فهو يقول فى هذا الشأن: «لم يكن بمقدورى أن أخبر أى واحد أن أبى كان ضابطا فى الجيش القيصرى الروسى لأن هذه يعتبر عارا.

بدايات أيديولوجية:

انصرف سولجنتسين إلى دراسة الرياضيات والفيزياء فى مرحلة الدراسة بالجامعة رغم شدة حبه للأدب. وتحسنت ظروف أمه فى الحمل فى أخريات أيامها ولكن كثرة العمل والإجهاد أصابها بمرض السل. غير أن مرضها لم يحل دون سعيها إلى بذل المزيد من الجهد. فكانت تترك فراشها رغم ارتفاع درجة حرارتها وتخرج من البيت سعيا وراء الرزق من أجل أن توفر لابنها شيئا من الأمان والراحة. وكثيرا ما كان الخلاف يدب بينهما بسبب نشاطه المتزايد فى منظمة الشباب الشيوعية المعروفة باسم (الكومسومول). فلا غرو فقد كان سولجنتسين فى شبابه يدين بالمبادئ الشيوعية. وحالت ظروف الجامعة الاقليمية فى روستوف دون دراسة الأدب الذى لم يكن جزءا من مناهجها فقد اشتهرت هذه الجامعة بدراسة بناء السفن والهندسة والكيمياء والفيزياء والجيولوجيا والعلوم القبطية. وكانت كلية المعلمين فى روستوف هى المكان الوحيد الذى يقوم بتدريس الأدب بهدف تخريج مدرسين يضطلعون بتدريسه فى المدارس. يقول كاتبنا فى هذا الشأن إنه لم يكن لديه أية رغبة فى أن يصبح مدرسا للأدب لتلاميذ المدارس وأنه وجد أن تدريس الرياضيات والعلوم بوجه عام أسهل عليه بكثير من تدريس الأدب. وفى الجامعة أظهر تفوقا علميا واضحا. وحين بلغ السابعة عشرة من عمره انتقل من منظمة «الرواد الشبان» إلى منظمة الكومسومول حيث انكب على دراسة الماركسية اللينينية، التى فتن بها لفترة من الزمان. وهكذا أصبح سليل الجاه والثراء الذى نشأ وترعرع فى جو شديد التدين يناصب البلشفية العداء، واحدا من أشد المتحمسين للشيوعية. ويبدو أن حماسه للشيوعية فى تلك الفترة الباكرة من حياته بلغ حدا جعله يتجاهل ما يحدث حوله من بشاعات ومظالم مثل القبض على فلاديمير فيدور فسكى صديق العائلة. ولم تكن الجامعة آنذاك بمنجى من أعمال القمع والاضطهاد التى تعرض لها كثير من الأساتذة على يد الحزب الشيوعى والطلبة الشيوعيين مثل البروفيسور مودخاى - بولتوفسكوى عالم الرياضيات المعروف الذى أشار إليه سولجنتسين فى «الدائرة الأولى» باسم جوريابينوف شاخوفسكوى المعروف باستعلائه وتجاهله لتعاليم الحزب. يروى مؤلفنا عن هذا العالم أنه بينما كان يقوم بتدريس نظريات نيوتن الأثيرة إلى قلبه، وصلته ورقة تقول له: «إن ماركس كتب أن نيوتن يؤمن بالمذهب المادى فى حين أنك تقول عنه إنه مثالى فرد بقوله: «كل ما يمكننى قوله إن ماركس كان مخطئا. فنيوتن - شأنه فى ذلك شأن العلماء العظام - كان يؤمن بوجود الله». وفى مرة أخرى أخبره طلبته أنهم قرءوا هجوما عليه فى مجلة الحائط فأجابهم بقوله: «لقد تعلمت من مربيتى إلا أقرأ ما يكتب على الجدران».

حتى سولجنتسين نفسه رغم انخراطه فى المنظمات الشيوعية ونشاطه الملحوظ فيها لم يكن بحال من الأحوال فى مأمن من الجور والخسف. فقد ألقى رجال الأمن القبض عليه أثناء وقوفه فى طابور فى انتظار الحصول على الخبز بزعم أنه واحد من مجموعة من المخربين الذين يسعون إلى إشاعة الذعر فى نفوس الناس. ولكن سرعان ما أطلق سراحة. بل إن رموز النظام الجديد وأبرز شخصياته لم تسلم من الأذى وخاصة فى مرحلة المزارع الجماعية والتصنيع فى عهد ستالين. ففى عام ١٩٣٤ اغتيل كيروف أحد كبار المسئولين فى الحزب الشيوعى بإيعاز من ستالين. وفى عام ١٩٣٥ قدم المسئولان الشيوعيان الكبيران كاميتيف وزينوفييف للمحاكمة. وشاهد عام ١٩٣٦ محاكمة الرعيل الأول من البلاشفة وعام ١٩٣٧ محاكمة بتياكوف وراديك وعام ١٩٣٨ محاكمة ريكوف وبوخارين وجميعهم من زعماء الحركة الشيوعية. وعندما يستعرض سولجنتسين شريط حياته الماضية نراه يفزع لمقدار ما كان لديه من أثرة وأنانية فى صدر شبابه وتجاهله المشين لكل مظاهر الظلم والخسف التى رآها من حوله. كان - على حد قوله - يعيش وسط الطاعون دون أن يدرك ذلك. ورغم هذا فهناك فى كتابه «الدائرة الأولى» دلائل تشير إلى أنه منذ مطلع حياته لم يكن يصدق كل ما يقال عن جوزيف ستالين من عبارات التعظيم والتمجيد. وفى خريف عام ١٩٣٨ أعطته إدارة البوليس السرى المعروف بـ NkVD فرصة الالتحاق بها. ولكنه لم يقبل هذا على نفسه وأبى أن يتحول إلى عميل

للبوليس السرى رغم ما يجلبه عليه ذلك من التمتع بامتيازات مادية واجتماعية قد يحسده كثيرون عليها. كان سولجنتسين حتى فى شبابه متقشفا بطبعه يأخذ نفسه بالخشونة والشدة ويبتعد عن مخالطة الجنس اللطيف كما يحلو لمعظم الشباب أن يفعل ويكرس كل وقته للقراءة والاطلاع على ماركس وهيجل وإنجلز ولينين. ويفضل بصيرته النافذة ونضجه الباكر ومطالعاته الكثيرة استطاع الفتى أن يكتشف قبل غيره انتهازية ستالين السياسية التى لا تعرف الرحمة وطبيعته الدكتاتورية الغاشمة. فضلا عن زرايته بمنظره الغليظ الجلف وضعفه اللغوى الواضح فى كل ما يكتب. ولم يجرؤ الفتى بطبيعة الحال على البوح لأحد بهذه الأفكارباستثناء ثلاثة من أصدقائه الذين يشاركونه الرأى نفسه وهم نيكولاى فيرنفتش وكيريل سيمونيان وليديا إزهرتس. ولكن زرايتهم جميعا بستالين لم تحل دون شدة إعجابهم بلينين الذى رأوا فى العودة إلى مبادئه السبيل إلى تطهير البلاد من فساد ستالين ومظالمه. وهو ما نادى به خروتشوف بعد مرور عشرين سنة على أقل تقدير.

ظروف زواج الطالب سولجنتسين:

فى صيف عام ١٩٣٩ عندما كان سولجنتسين وصاحباه نيكولاى وكيريل فى آخر عام دراسى فى جامعة روستوف الإقليمية اقترح أديبنا عليهما الالتحاق كطلبة من الخارج فى معهد موسكو للفلسفة والآداب والتاريخ. وهو أعلى معهد لدراسة العلوم الإنسانية فى جميع أنحاء البلاد. وبالفعل تقدم الأصدقاء الثلاثة - الذين كانوا يسمون أنفسهم الفرسان الثلاثة - بطلبات التحاق فطلب سولجنتسين دراسة الأدب ونيكولاى الفلسفة واختار كيريل دراسة الأدب المقارن. ويقتضى نظام الدراسة من الخارج أن يقوم المعهد بإرسال المقررات والمناهج الدراسية بالبريد ثم يرسل إليه بالبريد أيضا بعض الأسئلة للإجابة عنها. ولكن المعهد اشترط على الطالب من الخارج الحضور إلى موسكو مرتين فى السنة (مرة فى عطلة الشتاء ومرة أخرى فى عطلة الصيف) من أجل الانتظام فى حضور دورة للمحاضرات وأداء امتحان فى مقررات ستة الأشهر السابقة (وهى الامتحانات نفسها التى يؤديها طالب المعهد النظامى) يحصل بعده الطالب على دبلوم مساو للشهادة التى يمنحها المعهد لطلبته النظاميين.

كان سولجنتسين فى العشرين من عمره عندما حضر مع أعز أصدقائه نيكولاى إلى موسكو كى يسجلا اسميهما للدراسة من الخارج وأرادا أن ينتهزا هذه الفرصة لزيارة بعض المناطق المجاورة والاستمتاع بالمناظر الطبيعية الخلابة التى تزخر بها هذه المناطق، فاشتريا مركبا قديما سار بهما فى مياه نهر الفولجا ليتوقفا على ضفاف النهر الكبير كلما عن لهما ذلك. وبحلول الليل كانا يبيتان على كومة من القش فى قاع المركب. ونسيا فى غمار شبابهما المتوقد لسعة البرودة فى الفجر فكانا يجدان متعة بالغة فى أن يقفزا عاريين للسباحة فى ماء النهر ويتسابقا فى لججه أو يتصارعا على الشط حتى يجف بدناهما من البلل ويدب الدفء فى أطرافهما الباردة. وكانا يعولان فى شراء الأطعمة على بعض القرى أثناء مرورهما بها. ولكن خاب أملهما عندما وجداها خالية تماما من الطعام. فاكتفيا بشراء كمية من التفاح المتوفر بسعر زهيد. وبمجرد انتهاء الرحلة استرد الشابان ثمن القارب تقريبا ببيعه. واستبد الشوق بسولجنتسين للعودة إلى روستوف حيث ترك حبيبته ناتاليا ريشتكوفسكايا التى زاملته فى الدراسة والتى تعرف إليها عن طريق صديقه الحميم نيكولاى (الذى كان أيضا يكن مشاعر الحب لها) خلال عام ١٩٣٦ وهو العام الأول من دخولهما جامعة روستوف. تميزت ناتاليا بموهبتها الموسيقية التى ورثتها عن والديها وأجادت العزف على البيانو. واستطاع سولجنتسين أن ينفرد بحبها وخاصة بعد أن توثقت صلاتهما وتكرر اشتراكهما فى الرقص وحضور الحفلات والمسرح والسينما. ولم تكن ناتاليا الفتاة الوحيدة التى أولاها اهتمامه فى تلك الفترة من حياته، فقد كان يميل أيضا إلى فتاة أخرى معروفة باسم «الغجرية الصغيرة». ورغم أنه فى النهاية فضل ناتاليا عليها فقد شعر عند فشل زواجه منها أنه يجدر به أن يختار «الغجرية الصغيرة» شريكة لحياته.

وفى ٢ يولية من صيف ١٩٣٨ تقدم سولجنتسين إلى خطبة ناتاليا التى أحبها برومانسية شديدة. ولكن يبدو أن المفاجأة أربكتها فأظهرت شيئا من الإحجام والتردد رغم أنها كانت تبادله الحب، الأمر الذى كان سببا فى أن يعترى الفتور علاقتهما. غير أن هذا الفتور سرعان ما انتهى إلى زوال. وساعد على إعادة المياه إلى مجاريها أن الظروف التى نشأ فيها سولجنتسين تشبه إلى حد كبير الظروف التى نشأت فيها ناتاليا. فكلاهما عرف اليتم منذ نعومة أظفارهما. وكلاهما عمل والده فى الجيش. فقد كان ألكسى أبوها - وهو من أصل قوقازى - يعمل ضابطا فى الحرب العالمية الأولى غير أنه حارب فى صفوف البيض خلال الحرب الأهلية. وحين رأى الجيش الأبيض يندحر أمام الجيش الأحمر لاذ بالفرار مع غيره من المقاتلين المتطوعين خارج البلاد، تاركا وراءه ابنته ناتاليا التى لم يتجاوز عمرها آنذاك عشرة أشهر كما ترك زوجته وأخواته البنات الثلاث.

راقت ناتاليا فى عين سولجنتسين بسبب موهبتها الموسيقية وجمال جسدها

وحسن هندامها وسلوكها المهذب الرقيق على المستويين الشخصى والاجتماعى. وفى ٢٧ أبريل ١٩٤٠ تزوج سولجنتسين منها فى هدوء تام ودون أدنى ضجيج، وهما فى الواحد والعشرين من عمرهما. لم يتعجل العروسان الزواج بسبب ضيق ذات اليد وعجزهما عن استئجار مسكن مستقل. كان مؤلفنا لا يرغب فى إنجاب الأطفال لإدراكه أنه سوف يقف عائقا فى سبيل تحقيق طموحه، الأمر الذى كان فيما بعد سببا فى إثارة الخلاف بينهما. وتعترف ناتاليا بشدة قلقه على انصرام الوقت فقد كان يؤرقه ضياعه دون أن يستثمره فى الدرس والتحصيل. ولهذا كان يتصرف ويرتب مواعيده معها بطريقة تدعو للغرابة. ففى فترة خطوبتهما فى شتاء ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ تعمد أن يضرب مواعيد اللقاء بها فى تمام العاشرة مساء بعد أن تكون المكتبة قد أغلقت أبوابها. فإذا حضرت ناتاليا إليه خمس دقائق مبكرا رفض أن يغادر المكتبة معها إلا بعد انتهاء موعد المكتبة متعللا بأنه لا تزال أمامه خمس دقائق للاستزادة والاطلاع. وحين كان يرافقها إلى المسرح أو حفل موسيقى اعتاد أثناء وقوفهما على محطة الترولى باس أن يطلب إليها أن تختبره فى بعض المعلومات التى استقاها من المكتبة ودونها على كروت. وتزوج العروسان فى صمت دون أية مراسم أو احتفالات، أو حتى دون أن يخبرا أحدا به. واكتفيا بتسجيل زواجهما فى مكتب مدنى. وحدثت حادثة اعتبرها سولجنتسين ـ كما يبدو فى روايته لها فيما بعد ـ نذير سوء. فعندما غمست ناتاليا الريشة فى المحبرة (دواية الحبر) كى توقع على سجل الزواج المدنى طارت الريشة من يدها فى الهواء لتستقر على جبهته فتلطخه ببقعة حبر كبيرة.

عاش الزوجان بمعزل عن أحدهما الآخر بسبب عجزهما عن تدبير بيت للزوجية. ومن الواضح أن سولجنتسين لم يكن لديه متسع من الوقت يقضيه مع ناتاليا حتى بعد زواجه منها بسبب انشغاله باستكمال دراسته وأداء الامتحانات فيها. ولكن هذا على أية حال لم يمنعهما من قضاء شهر العسل فى موسكو من أن يتقابلا لمشاهدة معالم العاصمة والتنزه فى حدائقها، هى تعيش مع خالتها وهو فى بيت الطلبة. وبوجه عام كانت حياتهما الزوجية فى تلك الفترة سعيدة إلى أن حدث ما يعكر صفوها. فقد أصيبت ناتاليا بنزلة برد شديدة كانت نتيجتها أن الغدد فى رقبتها تضخمت بطريقة مؤلمة. فتدخلت طبيبة قريبة لها لدى أحد أصدقائها الجراحين ليجرى لها عملية جراحية فى بيتها بعيدا عن قذارة المستشفيات الحكومية وإهمالها. وهو أمر كان محظورا حظرا باتا.

وفى موسكو لم يتأثر سولجنتسين بأحد مثلما تأثر بأحد أقرباء زوجته هو الناقد والمؤرخ السينمائى المعروف فالنتين تيركن الذى اقترح على العروسين أن يقضيا شهر العسل فى منتجع تاروسا الريفى الجميل. واستطاع العروسان العثور على شاليه متواضع للغاية فى أطراف غابة وبعيدا عن سائر الشاليهات الفخمة يتناسب مع دخلهما المحدود كطلبة فى المعاهد والجامعات. وهال الشاب أن يرى بعينيه حياة الدعة والبذخ التى يحياها أهل القمة فى ذلك المنتجع الهادئ فهم يأكلون كل ما لذ وطاب ويحتسون أفخر أنواع الشراب بصورة تتناقض على نحو صارخ مع الفقر العام المنتشر فى كل مكان ومع القرية القاحلة المجدبة التى سبق أن زارها مع صديقه نيكولاى فلم يجدا فيها من الخضراوات ما يسد الرمق سوى بعض النباتات الشيطانية. ويصور لنا مؤلفنا ما رآه فى حياة الدعة والرغد فى تاروسا بعد مرور سنوات عديدة فى بعض أعماله اللاحقة مثل أول مسرحية منشورة له بعنوان «شمعة فى مهب الريح» ثم فى قصيدته «الطريق». وفى هذا المنتجع لم يسمح لهما ضيق ذات اليد بارتياد محلات السوبرماركت الفاخرة، فدخلهما الضئيل يكفيهما بالكاد لشراء الضرورات من بقالة القرية الفارغة من السلع والعامرة بالذباب. ولكن فكر سولجنتسين على أية حال كان فى الأساس مشغولا بالاستعداد مقدما لتحصيل المنهج الذى تقدم لدراسته من الخارج. وكان يقرأ لزوجته أحيانا قصائد من شعر ياسنين وصفحات من رواية تولستوى «الحرب والسلام». وفى تلك الفترة اهتم بدراسة التاريخ وخاصة الإصلاحات الجوهرية التى أدخلها بطرس الأعظم فى روسيا من أجل تحديثها. وهى إصلاحات أثارت مقته وكراهيته رغم أنه كان من المفترض، باعتباره آنذاك ماركسيا ملحدا أن يتحمس لها كإصلاحات حديثة تقدمية. ويبدو فى التحليل الأخير أن الأثر العميق الذى تركته خالته إيرينا بأفكارها القديمة ومعتقداتها التقليدية يفوق أثر النظام البلشفى فيه، فقد عجز هذا النظام عن اقتلاع عشقه لروسيا القديمة وتقاليدها المتوارثة. بما فى ذلك تقاليد الكنيسة الروسية القديمة التى أرضعته إيرينا حبها العارم.

وفى شهر العسل كانت العروس تصحو من نومها لتجد مكان زوجها فى الفراش خاليا وأنه انصرف عنها لينكب على قراءة نسخة مليئة بالحواشى والتفسيرات من كتاب كارل ماركس المعروف «رأس المال». ولم تبلغ العروس أهلها بزواجها إلا فى أثناء وجودها فى منتجع تاروسا. أما العريس فقد سبقها بإبلاغ الخبر إلى أمه تايسيا أثناء وجوده فى موسكو. ونقلت تايسيا بدورها هذا الخبر إلى خالته إيرينا وماريا اللتين لم يغفرا له قط زواجه المدنى خارج الكنيسة

ورفضا الاعتراف بشرعيته. وساعد هذا بطبيعة الحال على تعميق إحساسه بالغربة عن أهله وذويه. وهال خالتيه أيضا أن زواجه تم سرا. ولعل هذا يفسر لنا لماذا أشارت إيرينا فى الحديث الذى أجرته معها مجلة شترن فى عام ١٩٧١ إلى ناتاليا على أنها عشيقته وليست زوجته. وكانت فجيعة صديقه نيكولاى كبيرة عندما علم بالخبر فقد كان يأمل فى إقناع ناتاليا بالزواج منه. غير أن هذا لم يؤثر فى علاقته بسولجنتسين. ودون أن تجأر بالشكوى تحكى لنا ناتاليا انصراف زوجها شبه الكامل عنها فى الفترة الأولى من زواجهما وانشغاله بالمطالعة والقراءة. وتذكر لنا أنهما استطاعا فيما بعد أن يستأجرا حجرة مريحة قريبة من مسكن حماته وحماتها، الأمر الذى سهل عليهما تلبية دعوة أمه وأمها لتناول الوجبات فى بيتهما. واتفقت حماته على أن يتناولا الغداء كل أيام الأسبوع فى تمام الساعة الثالثة. وكانت تتضايق من تأخر زوج ابنتها باستمرار فى تناول الغداء فى الوقت المحدد رغم كثرة تنبيهها له. فضلا عن أنه كان ينشغل عن تناول الطعام بإخراج البطاقات التى يسجل عليها المعلومات حتى تقوم زوجته باختباره فيها. وما إن يفرغ من الغداء حتى يكون قد هرول إلى المكتبة ليستمر فى المذاكرة بعد عودته منها حتى الثانية صباحا دون أن يرحم نفسه من الصداع الذى يصيب رأسه بسبب شدة الإجهاد.

وأخيرا تحسنت أحوال سولجنتسين المالية بحصوله على إحدى منح ستالين الدراسية بسبب تفوقه الدراسى من ناحية ونشاطه السياسى والاجتماعى فى منظمة الشباب (الكومسومول) من ناحية أخرى. وتتلخص أبرز إنجازاته الطلابية فى تلك المرحلة فى إصدار مجلة حائط بشكل مشوق للغاية وبصفة دورية مرة كل أسبوع بدلا من مرة كل ستة أشهر. واستطاع أن يحقنها بدم جديد بعد أن أصابها الموات فامتلأت صفحاتها على يديه بالفكاهة الطلية والأخبار الجامعية الطازجة والهجوم الساخر على بعض الأساتذة والطلبة معا. وفى هذا يتضح أنه كان بإمكانه لو أراد الصعود إلى قمة الهرم الاجتماعى يساعده فى ذلك دون شك تخصصه فى الرياضيات والفيزياء وهى من التخصصات التى كانت الثورة البلشفية تحتضنها. غير أن مثاليته التى ترفض الانتهازية وهرطقته السياسية ضد ستالين وإيمانه الراسخ بضرورة عودة النظام البلشفى. إلى المبادئ اللينينية الحقة حال دون هذا. أضف إلى ذلك ميله الشديد للكتابة الأدبية. ولعلنا نذكر فى هذا الصدد أن الزواج لم يشغله قط عن مواصلة الكتابة فسطر فى كراسات بحثا بعنوان «ملاحظات حول المادية الجدلية والفن» بالإضافة إلى عدد من المجموعات القصصية مثل «الغجرية الصغيرة» (١٩٣٨) و«عاملة فيكولايفسكى» (١٩٣٩) و«نقاط على النهر» (١٩٤٠) و«مهمة بالخارج» (١٩٤١) بجانب ديوانه «أشعار الشباب» التى سبق لنا أن أشرنا إليه.

سولجنتسين فى جبهة القتال :

بعد أن أكمل سولجنتسين دراسة الرياضيات والفيزياء بجامعة روستوف فى يونية ١٩٤١ ألح على زوجته أن يشدا الرحال إلى موسكو بحجة أن روستوف هى أسوأ مكان لتعلم اللغة الروسية. وأنه لولا الجهد المضنى الذى بذله فى تعلمها فى روستوف لظل جاهلا بأسرارها ولا يعرف كيف يكتب بها. أضف إلى هذا أنه أراد السفر إلى موسكو بسبب رغبته فى اجتياز امتحان العام الثانى من منهج الدراسة من الخارج الذى يعقد هناك. ولكن حظه العاثر شاء أن يصل إليها فى ٢٣ يونية عام ١٩٤١، وهو اليوم نفسه الذى أعلنت فيه ألمانيا الحرب على روسيا فدبت الفوضى فى أرجائها وألغيت الامتحانات وفتح باب التطوع للخدمة العسكرية. وأراد سولجنتسين التطوع لكن البيروقراطية العسكرية السوفيتية أصرت على ضرورة عودته إلى روستوف للتطوع هناك. غير أن إدارة التجنيد فى روستوف قررت إعفاءه من الخدمة العسكرية بعد إجراء الكشف الطبى عليه فقد اكتشف الأطباء وجود عيب بسيط فى فخذه لم يكن ملحوظا كان أحد الأسباب فى إصابته فيما بعد بمرض السرطان. وأبلغته إدارة التجنيد أنه يتعين عليه الانتظار فى بيته لحين وصول ردها عليه. وطال انتظاره دون أن يصله الرد المرتقب فغمره إحساس عارم بالإحباط بعد أن علم أن الجيش قبل تجنيد كل زملائه فى الدراسة ليحظوا بشرف الذود عن البلاد ضد البربرية النازية. وصدرت التعليمات بالاستفادة من جهود سولجنتسين فى قطاع التعليم فتم تعيينه فى سبتمبر ١٩٤١ مدرسا للرياضيات والفلك فى مدرسة إحدى القرى فى مستعمرة موروزوفسك القوقازية وهى المدرسة نفسها التى عينت فيها زوجته ناتاليا لتدريس الكيمياء ومبادئ الداروينية. وتعرف سولجنتسين فى تلك القرية على مهندس اسمه برونيفتسكى كانت سلطات الأمن قد ألقت القبض عليه فى الثلاثينيات وأودعته معسكر اعتقال فى ظروف لا حد لقسوتها. وكما سبق أن ذكرنا كان أديبنا حتى ذلك الوقت يرى مظاهر التنكيل والخسف والاضطهاد فلا يعيرها التفاتا لإيمانه حينذاك بقدرة النظام الشيوعى على تصحيح مساره فى نهاية الأمر ولقلة خبرته وتجربته فى الحياة. فضلا عن أنانية الشباب التى تمنعه فى كثير من الأحيان عن التوقف أمام بؤس الآخرين وشقائهم. ولكنه شيئا فشيئا بدأت عيناه تتفتحان لبشاعة النظام الستالينى بفضل قصص البؤس التى

رواها له المهندس برونيفتسكى. وفى تلك الفترة من حياة سولجنتسين اكتسحت جيوش هتلر الأراضى الروسية فلم تجد السلطات السوفيتية مناصا من تجنيد كل احتياطها. ومن ثم قبلت تجنيده وهو فى الثالثة والعشرين من عمره وأرسلته ليقاتل أعداء البلاد من الألمان. ولم يدر مؤلفنا آنذاك أنه لن يعود من الخدمة العسكرية إلا بعد مرور خمس عشرة سنة بالكمال والتمام بسبب ما تعرض له من سجن واعتقال.

بدأت حياة سولجنتسين العسكرية كمهزلة وانتهت كمأساة، فقد كان حلم حياته أن يكون فى مقدمة الجيش وإذا بالجيش يضعه فى المؤخرة. فضلا عن أنه وجد نفسه بين مجندين تقدم بهم العمر واعتلت صحتهم. ومما زاد الطينة بلة أنه عين بإدارة النقل والمركبات (على بعد نحو مائة وخمسين ميلا من الشمال الغربى لستالينجراد) دون أن تكون لديه أدنى خبرة أو معرفة بالخيول: كيف يروضها أو مجرد كيف يركبها. ودون أن يدرى أثار حفيظة رئيسه جاويش عليه لا لشىء إلا لأنه رآه يدخل الثكنات لأول مرة وفى يده حقيبة لحفظ الأوراق. فتعمد هذا الجاويش إذلاله بأن طلب إليه أن يقتاد الخيول إلى المراعى لإطعامها. فأسقط فى يده وبات من الواضح أنه لو فعل هذا لركضت الخيل جميعا ولاذت بالهرب. ولهذا أخذ سولجنتسين يستعطف الجاويش كى يعطيه أى عمل آخر فقبل وأسند إليه أمرا بتنظيفها، وهو الأمر الذى تمرس به واكتسب فيه بمرور الأيام خبرة ودراية كبيرة. وسجل مؤلفنا هذه التجربة فيما بعد فى عمله الأدبى «الدائرة الأولى». وتعلم ركوب الخيل. كانت حياته العسكرية سهلة لينة تخلو من التدريبات الشاقة ومسئولية الحفاظ على الأسلحة والعناية بها. غير أن إحساسه بالمرارة لوضعه فى مؤخرة الجيش ظل يلازمه، الأمر الذى جعله يكتب إلى زوجته شاكيا بقوله: «إذا قيض للمرء أن يعيش فى روسيا فى ١٩٤١ إلى ١٩٤٣ لما استطاع أن يصبح كاتبا روسيا عظيما إذا لم يكن مكانه على الجبهة فى المقدمة» ولهذا ظل ستة أشهر يلحف فى رجاء رؤسائه أن ينقلوه إلى المقدمة ولكن رجاءه ذهب أدراج الرياح. وابتسم له الحظ فجأة فى مارس ١٩٤٢ حين جاءه قوميسار جديد درس الرياضيات فى جامعة روستوف نفسها فاستمع إلى شكواه باهتمام وأراد أن يعطيه فرصة أوسع للتعرف على الرئاسات الأكبر فى القيادة العليا بستالنجراد. فعهد إليه بمهمة حمل طرد صغير لتوصيله إليها. ثم تصادف قبل رحيله أن قابله ضابط دبابات جريح لم يتمكن بسبب الفوضى والارتباك اللذين حلا بوحدته فى تبليغ رؤسائه بالقيادة العسكرية فى ستالنجراد بمكان وجوده فطلب هذا الضابط إليه أن يحمل رسالة أخرى إليهم يخبرهم فيها بمكانه وأنه يتماثل للشفاء، الأمر الذى جعلهم يفرحون ويتهللون. وأراد أديبنا اغتنام فرصة قربه من قيادات الجيش ليجرب حظه فى أمر قبوله بسلاح المدفعية، رغبة منه فى الاقتداء بوالده واقتناعا منه بأنه السلاح المناسب له بحكم تخصصه فى الرياضيات. وتجرأ سولجنتسين ودخل إلى الضباط الكبار فى مكاتبهم وعبر لهم عن رغبته فى الالتحاق بسلاح المدفعية وشرح لهم أنه متخرج فى الجامعة. ولم يغضب هؤلاء الضباط منه كما كان يتوقع بل أنصتوا إلى مطلبه باهتمام واستجابوا له على الفور، ووافقوا على إرساله للتدريب على البطاريات فى مركز تدريب تابع لسلاح المدفعية. غير أن رحلته إلى مركز التدريب كانت تحفها المخاطر والأهوال. فقد بدا للعيان أن القوات النازية دحرت القوات السوفيتية وأنها لم تكتف فى ربيع ١٩٤٢ بالتوغل نحو ألف ميل فى الأراضى الروسية بل تقدمت نحو ستالينجراد. وفى الطريق إلى مركز التدريب رأى سولجنتسين آلاف المشردين واللاجئين والجنود المتقهقرين. وحتى عندما استطاعت القوات السوفيتية المندحرة أن توقف من تقهقرها خسر الشعب الروسى ملايين الضحايا. فقد أدى حصار لننجراد وحده إلى هلاك مليون مواطن روسى وتضورهم جوعا. وفى عام ١٩٦٢ ضمن مشاهداته هذه فى قصة قصيرة نشرها بعنوان «حادثة فى محطة كريشتوفسكا». التى تدور حوادثها فى ١٩٤١. ولا تعالج هذه القصة موضوع الحرب بقدر ما تعالج المظالم الستالينية التى سبق أن وضع أصبعه عليها فى أيام السلم. فلما جاءت الحرب ضد النازية ترسخ اقتناعه بفساد النظام الستالينى الذى أظهر عدم كفاءة عسكرية يندى لها الجبين وخاصة من جانب ستالين نفسه وقواده الذين يتمتعون بحظوته. وهى عدم كفاءة تمتد أسبابها إلى حركة التطهير الكبرى التى أجراها ستالين فى الجيش الأحمر فى الفترة من ١٩٣٧ إلى ١٩٣٩ لتستمر وتستفحل بظهور عبادة ستالين أو ما اصطلح على تسميته بمبدأ عبادة الفرد. يقول المؤلف فى قصته «كريشتوفسكا» ساخرا من ستالين واندحار قواته: «إنه لأمر مشين وإهانة للوالد والمعلم العليم بكل شىء والقادر على كل شىء الساهر فى موقعه دوما والذى يسبق الأحداث فيرى كل شىء قبل وقوعه ويتخذ بالتأكيد كل الإجراءات اللازمة فى الوقت المناسب والذى لن يسمح بمثل هذا أن يحدث أبدا».

وانتظم سولجنتسين فى حضور دورة تدريب المدفعية التى نظمتها أكاديمية لننجراد العسكرية فى سيميونوف. واستطاع بسهولة أن يستوعب الجانب الفنى فى الدراسة القائم على الرياضيات

ولكنه تبين أن هذه الدورة لم تكن أصلا مخصصة لأمثاله المبتدئين الذين لم يسبق لهم أن تلقوا أية تدريبات عسكرية فى حياتهم على الإطلاق بل للضباط المدربين برتبة نقيب أو ملازم. واكتشف المسئولون عن الدورة هذا النقص المعيب فيه فأرسلوه إلى مدرسة أخرى تتناسب مع قدراته حيث ساعدته معرفته بالرياضيات فى دراسة منهج أدخلته المدرسة ضمن برامجها هو اكتشاف مواقع بطاريات العدو عن طريق تسجيل وتحليل موجاتها الصوتية. ولم يرق له نظام الجيش الصارم القائم على سياسة القهر دون مبرر، فانصرف فى وقت فراغه إلى القراءة والكتابة. وكان يحمل دائما فى يده حقيبة صغيرة (حافظة أوراق) قديمة ومتهرئة ملأها بالكتب كان منظرها وحده سببا فى إثارة حنق رئيسه عليه، فأمره بإخفاء الكتب عن ناظره ووصف انكبابه عليها بأنه نوع من الصبيانية التى تطلق العنان لأهوائها. وفى عام ١٩٤٢ عجز عن الاتصال بزوجته ناتاليا بسبب كثرة انتقالها تحت وطأة الحرب من مكان إلى مكان. وعندما تمكن فى النهاية من الاتصال بها لم يخطر بباله أن يسألها عن شىء سوى أوراقه ومخطوطاته وكراساته التى سطر فيها أولى تجاربه الأدبية، مما يدل على أنه لم ينس قط شغفه بالقراءة والكتابة.

وفى نهاية أكتوبر عام ١٩٤٢ وبعد انقضاء أكثر من ثلاثة أشهر تخرج فى مركز تدريب المدفعية ليحصل على رتبة ملازم ثان. وتم تعيينه نائبا لقائد وحدة البطاريات فى موقع صغير للغاية فى روسيا الوسطى لا يزيد عن ثلاثة بيوت تتوسط حقلا منبسطا. وبالرغم من كل ما رآه حوله من انهيار شامل، وحتى عندما كانت ستالنجراد على وشك الوقوع فى أيدى الألمان، فإن إيمانه لم يتزعزع بقدرة بلاده على النصر فى نهاية المطاف. وانتظر بصبر فارغ أن يشارك فى معركة الدفاع عن شرف البلاد وكرامتها فى ساحة الوغى. ولكن انتظاره طال بلا طائل. فلم يجد غير الكتابة يسرى بها عن نفسه المحزونة. وكتب آنذاك قصة بعنوان «الملازم الثانى» استمد مادتها من تجاربه. وفى عام ١٩٤٣ بدأت غمة الاحتلال النازى تنقشع. ولكن ظروفه الشخصية السيئة شهدت تدهورا فى صحة والدته تحت اشتداد وطأة السل عليها بشكل ينذر بالخطر إلى جانب العذاب الذى قاست منه فى حياتها اليومية. فقد دمرت قوات الاحتلال تدميرا كاملا بيتها المتواضع للغاية فى مدينة روستوف بما فيها من متاع قليل. وتعين عليها وهى المصدورة أن تحمل جرادل الماء إلى حجرتها الخالية من الماء والكهرباء فى أحد الأدوار العليا.

وتدل قصيدته «الطريق» على رقة إحساسه نحو بلاده التى رآها جميلة فى حزنها وفاتنة فى محنتها واستسلامها لصروف الزمان. ورغم أن الحرب باعدت ردحا من الزمان بينه وبين أعز أصدقائه نيكولاى فيتكوفتش الذى اكتشف سولجنتسين بمحض المصادفة أنه يعمل فى إحدى وحدات الجيش القريبة من وحدته فأخذ كل منهما يزور الآخر فى وحدته ويتجاذبان أطراف الحديث مثلما كانا يفعلان فى الماضى. وأيقن الصديقان أكثر من أى وقت مضى من تطابق نظرتهما إلى كل ما يحيط بهما من أمور، فضلا عن اشتراكهما فى المشارب والطباع. وفى «الطريق» يصف سولجنتسين العلاقة بينهما بأنهما «فوله وانقسمت نصفين». ورغم ذلك فقد كان بينهما فارق واحد هو أن نيكولاى استسلم لضغوط أمه عليه وقبل الانضمام إلى الحزب الشيوعى فى حين رفض سولجنتسين الانضمام إليه. وانتهت المناقشات وتبادل الآراء بينهما إلى سطر بيان سياسى أطلقا عليه «القرار رقم ١» مكتوب من وجهة نظر ماركسية ويحتوى على تحليل للظروف السياسة وبرنامج عمل من أجل تغيير ما فسد فيها. وفيما بعد وصف سولجنتسين هذا البيان بأنه «وثيقة لينينية». وهو يقول لنا فى هذا الشأن:

خطونا، كولا (نيكولاى) وأنا، خطوات واسعة إلى الأمام. والذى فعلناه هو فى جوهره تأسيس نوع من الحزب السياسى الجديد. قمنا بكتابة وثيقة أسميناها القرار رقم ١ بدأناها بمقدمة وصفية وصفنا فيها النظام السوفيتى بأنه يتسم بكل خصائص النظام الاجتماعى القائم على الاستغلال فى حياتنا. ثم وصفنا أثر هذا النظام على الاقتصاد... كيف أنه خنق التطور الاقتصادى كما خنق الأدب والثقافة وكل شىء فى حياتنا اليومية. وقلنا إنه ينبغى علينا محاربته وأنه يستحيل علينا أن نضطلع بكل هذه المهام دون تكوين تنظيم. تلك كانت أهم نقطة توصلنا إليها وهى أن تكوين تنظيم أمر جوهرى تماما. ومعنى هذا أننا كنا فى واقع الأمر ننادى بخلق حزب جديد».

وبطبيعة الحال كان مجرد التصريح بهذه الأفكار نوعا من الانتحار. ومن ثم اقتضت الحكمة منهما الاحتفاظ بها سرا بينهما. ولكنهما تعاهدا بأن يحتفظ كل منهما بنسخة من هذا البيان فى مكان آمن لا يغيب عن بصره. فوضع نيكولاى نسخته فى مقبض الكمامة الواقية من الغازات السامة فى حين وضع سولجنتسين نسخته فى الحافظة التى تحوى الخريطة التى يسترشد بها فى تحركاته. ولم يمنعه سخطه على النظام الستالينى من أن يستمتع بحياته العسكرية الجديدة التى وفرت له قدرا كبيرا من الحرية والاستقلال بعكس ما كان يشعر به من ضيق وإذلال عقب تجنيده مباشرة.

وفى تلك الفترة بدأ فى تدخين السجائر فكتب إلى زوجته يقول إن التدخين أصبح يساعده على الكتابة كما أنه استمتع بشرب كميات الفودكا التى كان الجيش يصرفها له مجانا. وظل الصديقان يتزاوران فى فترات الاسترخاء ولكن زياراتهما توقفت باشتراكهما الفعلى فى القتال. وعندما التقى الصديقان لآخر مرة فى ٩ يولية ١٩٤٣ أمضى نيكولاى الليلة بطولها فى الخندق الذى تخندق فيه سولجنتسين وذلك قبل يومين فقط من اشتراك وحدتيهما فى معركة تعرف بمعركة أوريل التى كانت نقطة تحول فى مجرى الحرب بين الروس والألمان. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يذوق فيها كاتبنا طعم القتال الحقيقى. وبعد قتال عنيف مع العدو دام ثلاثة أسابيع استطاع سولجنتسين فى ٥ أغسطس ١٩٤٣ أن يدخل مع وحدته ظافرا بلدة أوريل. ولم يمض على انتصاره أكثر من عشرة أيام حتى منحته السلطات السوفيتية وسام الحرب الوطنية من الدرجة الثانية وتمت ترقيته من ملازم ثان إلى ملازم أول.

والجدير بالذكر فى هذا الصدد أن ستالين أثناء محنة الحرب ضد القوات النازية الغازية لم يلجأ إلى الماركسية اللينينية يستنهض بها حمية الروس القومية وعزتهم الوطنية بل سعى ما وسعه السعى إلى إذكاء روح الوطنية الغائرة فى أعماقهم والذى توارثوه عن الآباء والأجداد منذ عهد القيصرية فى القرون الوسطى عندما خاضوا حربا مقدسة لرد أعدائهم من التتار وقبائل التيوتون على أعقابهم. ورغم إدراك سولجنتسين لما تنطوى عليه سياسة ستالين من خديعة ولؤم ورغبة فى استغلال شعبه فقد استجاب عن طيب خاطر لهذا الجانب التقليدى المحافظ فى دعاية ستالين للحرب.

وعندما تقدم سولجنتسين على رأس وحدته إلى مدينة ستاروداب الصغيرة الواقعة غرب أوريل وجد مكتبة المدينة فى حالة يرثى لها بسبب الاحتلال الألمانى فقد تناثرت أوراقها وتبعثرت كتبها على الأرض فاقترح على قائد وحدته أن يقوم بانتقاء عشرات الكتب ليقرأها الجنود الروس فى فترات الهدوء التى يتوقف فيها القتال. ولم يكن هدفه من ذلك تثقيف هؤلاء الجنود فحسب بل كان يرغب فى الأساس فى أن يضمن يقظتهم على مدار الأربعة والعشرين ساعة. كانت الوحدة موزعة على مواقع كثيرة متباعدة يربطها سويتش (لوحة تحويلات) عبر أسلاك التليفونات. ومن ثم أمكن بث قراءات من الأدب الروسى عن طريق عامل السويتش يسمعها كل أفراد الوحدة فى مواقعهم. ونجحت هذه التجربة الإذاعية الأدبية نجاحا عظيما دله على مدى الحب العميق الذى حمله الجنود لرواية تولستوى المعروفة «الحرب والسلام». فقد أحبوا فى هذه الرواية دقتها وأمانتها وقدرتها على تصوير الواقع وعلى نقل طعم المعارك الحقيقية إلى الجنود على جبهة القتال، فضلا عن إعجابهم بسخرية الرواية من خيلاء الضباط وزهوهم الزائف. واكتشف سولجنتسين أيضا إقبال الجنود على قصيدة الشاعر ألكسندر تفاردوفسكى الهجائية الساخرة المعروفة بعنوان «فاسيلى تيوركين» التى بلغ إعجاب سولجنتسين بها حدا جعله يكتب إلى زوجته: «شاءت المصادفات مؤخرا أن أقرأ أول كتاب صادق (بالمعنى الذى أفهمه) عن الحرب وهو بعنوان فاسيلى تيوركين الذى ألفه تفاردوفسكى. فلو أنك قرأت القصيدة بعناية فإنك قمينة بأن تجدى فيها أشياء كثيرة لم يعالجها أحد من قبل. وبوجه عام فإن تفاردوفسكى واحد من أحسن الشعراء الروس إن لم يكن أحسنهم جميعا. وسوف أرسل إليه فى يوم من الأيام خطابا أعبر فيه عن تقديرى».

وبحلول عام ١٩٤٤ توقف الألمان عن القتال وتخندقوا بالقرب من مدينة صغيرة اسمها زلوبين فاغتنمت القوات الروسية هذه الفرصة لاستجماع قواها تمهيدا لتقدمها ومطاردة القوات النازية حتى عقر دارها داخل الأراضى الألمانية نفسها وانتهز سولجنتسين فرصة توقف القتال فى زلوبين لينصرف إلى كتابة اليوميات وبعض القصص مثل «الملازم» و«فى مدينة م» و«الخطاب رقم ٢٥٤» و«حكاية امرأة» و«البستان» وبالرغم من أنه استفاد من تجارب الحرب فقد ضاق بها وبقصف المدافع وفرقعة السلاح التى كانت تحول بينه وبين الكتابة. وكثيرا ما عبر عن قلقه حول مصير مخطوطاته القصصية. ولم يهدأ له بال أو يشعر بالاطمئنان إلا حين أكدت له زوجته أنها تحتفظ بكل مخطوطاته فى أمان. وأراد أن يطمئن أيضا على مستوى كتاباته فأرسل فى عام ١٩٤١ ثلاثا من قصصه الباكرة هى «مهمة بالخارج» و«نقاط على النهر» و«عائلة نيكولايفسكى». إلى اثنين من الكتاب الروس المعروفين اللذين يحمل لهما الإعجاب هما الروائى كونستانتين فيدين والكاتب الروائى والمسرحى بوريس لافرينيف. ولكنه لم يتلق منهما ردا بسبب ظروف الحرب التى حالت دون اتصالهما به. وكان لا يزال على اتصال بليديا إزهرتس صديقته وزميلته فى الدراسة فى روستوف والتى كانت آنذاك تواصل دراستها العليا فى الأدب الألمانى بجامعة موسكو. وعرضت عليه ليديا أن تحاول الاتصال مرة أخرى بالأديبين الكبيرين لتسألهما عن رأيهما فى أحدث إنتاجه وتذكرهما فى الوقت نفسه بإنتاجه القديم الذى سبق أن أرسله إليهما. وكان أخشى ما يخشاه سولجنتسين أن يصل إليه الرد بخلو كتاباته من الموهبة لأنه اعتبر هذا بمثابة حكم بالإعدام عليه. وفى مارس ١٩٤٤

استطاع مؤلفنا أن يقنع قائد وحدته المتمركزة فى زلوبين بإعطائه إجازة لمدة عشرة أيام يزور فيها صديقه كيريل وصديقته ليديا وزوجته ناتاليا. وعندما التقى بصديقه القديم أخذا يتبادلان الآراء فى شئون البلاد. وبالرغم من تشاؤم نظرة كيريل السياسية وأن مقته للنظام الستالينى لم يكن يقل عن مقت صديقه له، فإنه لم يبد أدنى اهتمام بالقرار رقم ١ الذى سطره سولجنتسين بالتعاون مع صديقه نيكولاى والذى ينادى بضرورة إجراء التغييرات الجوهرية فى النظام السياسى للاتحاد السوفيتى. وأخيرا تلقت ليديا ردا من الأديب لافرينيف يصنف قصص سولجنتسين بأنها لطيفة وتروق له. وأخبرها لافرينيف أنه أرسلها بتوصية للنشر فى مجلة «الحلم» الأدبية. وعندما علم مؤلفنا هذا داخله شعور بالاغتباط المتحفظ فقد كان ينتظر من لافرينيف بدلا من رأيه المبتسر أن يوافيه برأى مفصل فى مستوى كتاباته. وفى خلال إجازته شاءت الظروف أن يفشل فى الالتقاء بزوجته كما كان يأمل. ولهذا التجأ إلى حيلة تمكنها عن طريق تزويدها ببعض الأوراق الرسمية المزورة التى تحمل خاتم الجيش من الالتحاق بوحدته نفسها. ولم يكن هذا بالأمر الغريب أو غير المألوف. فقد فعل قائد هذه الوحدة وبعض أفرادها الشىء نفسه بل إن بعض الجنود الذين تعرفوا إلى بعض النساء دعونهن للحاق بهم فى الوحدة. ففى بعض الأحيان كانت الوحدات تستعين بالنساء فى أعمال التمريض والمراسلة.

وفى ١٧ يناير عام ١٩٤٤ لفظت تايسيا والدة مؤلفنا أنفاسها الأخيرة فأصابه غم شديد واعتبر أنه مسئول عن موتها لأنه تركها تعانى من شظف العيش إلى جانب اشتداد وطأة المرض عليها. فقد كان يرسل إليها جانبا ضئيلا من راتبه من الجيش ويرسل الجانب الأكبر إلى زوجته. ولم يعلم بوفاة والدته إلا بعد مرور بضعة أشهر على دفنها. فقد أرسل إليها كالمعتاد مبلغا من المال ولكن خطابه ارتد إليه وقد كتب عليه: لم يسلم إلى صاحبة الخطاب لوفاتها. ولأن الهدوء دام بعض الوقت على جبهة القتال. فقد استطاع أفراد الوحدة أن يحولوا خنادقهم إلى أماكن مريحة نسبيا. وكان يأمل أن تستمر زوجته فى العيش معه بعد أن تم تعيينها فى الفصيل الحسابى المنوط به فحص وتحليل الموجات الصوتية لبطاريات الأعداء لتحديد مواقعها ومسافاتها. وفى أوقات الفراغ علم مؤلفنا زوجته استخدام المسدس كما كان يقرأ لها بعضا من كتاباته أو «قصة حياة ما تفى كوز يمياكن» لماكسيم جوركى الذى اعتبره آنذاك أعظم كاتب دون منازع. غير أن الحياة المدنية التى عاشتها زوجته بعيدا عن المعارك وجبهة القتال جعلت من العسير عليها أن تتحمل مشاق الحياة العسكرية وصعابها وخشونة الطعام الذى يتناوله الجنود وفظاظة اللغة التى يستخدمونها. ووجدت ناتاليا النظام العسكرى مقيتا فأبت أن تعامل زوجها بالاحترام الرسمى نفسه الذى تعامل به زملاءه من الضباط. فقد أبت الوقوف أمامه (انتباه) كلما مر عليها أثناء عملها ورأت أن هذا وضع مضحك فى حين رأى زوجها أن عدم خضوعها للأوامر العسكرية يهدم النظام فى الوحدة بأسرها.

وانتهت تجربة سولجنتسين للعيش فى الوحدة نفسها مع زوجته بالفشل. ومما ساعده على هذا الفشل انصرافه التام إلى أداء واجباته العسكرية وإلى الكتابة عن الجبهة كلما استطاع إلى ذلك سبيلا، الأمر الذى زاد من ضيق زوجته بالحياة العسكرية الجافة. ولاحظ قائد الوحدة برمها فتعلل بأسباب وجيهة للاستغناء عن خدماتها، ومن بين هذه الأسباب قرب انضمام الوحدة إلى لواء يرأسه ضابط من النوع الذى لا يوافق على وجود السيدات فى صفوف الجنود. وعادت ناتاليا إلى جامعة روستوف لتعمل بصفة مؤقتة فى وظيفة مساعد معمل. ويبدو أن بعد زوجها عنها لفترات طويلة أبرز شقة الخلاف بين الزوجين فقد قالت له أثناء وجودها معه على الجبهة قبل أن تغادرها لتعود إلى روستوف إنها لا تستطيع أن تتصور حياتها معه دون أن ينجبا أطفالا، الأمر الذى جعله يكتب إليها فى سبتمبر ١٩٤٤ خطابا يقول فيه إن باستطاعة كل إنسان تقريبا أن ينجب أطفالا ولكن ربما ليس هناك إنسان غيره يستطيع إن يصيغ الأحداث التى تلت ثورة أكتوبر ١٩١٧ فى عمل أدبى. ثم يتحفظ فيضيف أن جسامة هذه المهمة قد تحتاج إلى معونة شخص آخر يساعده على إتمامها. ويدل هذا الخطاب على شدة إيمانه آنذاك باللينينية. فهو يقول فى هذا الصدد: «ما عساى أن أفعل من أجل المذهب اللينينى؟ وكيف يمكننى ترتيب حياتى لهذه الغاية؟.

وفى يونية عام ١٩٤٤ تمت ترقية سولجنتسين إلى رتبة نقيب. وتعمد مؤلفنا أن يجوب المدن والبلدان الصغيرة فى أوقات الهدوء بهدف استقصاء مشاعر بنى جلدته نحو جيش الاحتلال وفى تجواله اكتشف العجب العجاب، اكتشف أن جيش الاحتلال فى مدينة ستاروداب التى سبق أن أخذ بعض الكتب من مكتبتها يتكون من الجنود المجريين وليس من الألمان وأن هؤلاء المجريين استطاعوا فى فترة بقائهم فى المدينة أن يكتسبوا شعبية هائلة بين نسائها، اللائى ذرفن الدمع سخينا وهن يودعنهم عند رحيلهم عنها أكثر مما ذرفن الدمع على أزواجهن وهم فى طريقهم إلى ميدان القتال.

ومن الأمور التى استوقفت نظره ذلك الموقف الرسمى من الروس الذين

يتعاونون مع أعدائهم الألمان. صحيح أنه تفهم موقف الاشمئزاز من غدرهم وخيانتهم. غير أن نظرته الفاحصة المتعمقة لم تكتف بمجرد ردود الفعل الرسمية نحو هؤلاء البؤساء مثل استنكار أفعالهم وإنزال أشد العقاب بهم. ففى أحد الأيام دعاه بعض المسئولين فى الجيش لحضور إعدام اثنين من المتعاونين مع الأعداء وسط جمع من الجنود والضباط والممرضات والنساء والبنات اللائى جئن خصيصا من القرى المجاورة من أجل هذه المناسبة. وهاله أن الحاضرين بعد انتهاء عملية الإعدام يتحينون هذه الفرصة للتعبير عن ابتهاجهم والإفراط فى المأكل والشراب والرقص وكأنهم يشتركون فى إقامة الاحتفالات. وفى الهزيع الأخير من الليل نصحه أحد زملائه أن يجد لنفسه امرأة يضاجعها. ولكن نفسه الحساسة عافت أن يفعل ذلك وفضل أن يئوب إلى خندقه يخلو فيه إلى نفسه. واكتشف سولجنتسين أن بعض المواطنين الروس الذين يحاربون فى صفوف أعدائهم من الألمان كانوا تحت قيادة جنرال روسى اسمه الجنرال فلاسوف، وهو الأمر الذى أشار إليه مؤلفنا فيما بعد فى قصيدته «الطريق». فقد وقع فى يده وهو فى انتظار دخول معركة أوريل إعلان عليه صورة هذا الجنرال يقول إنه تم فى عام ١٩٤٢ تكوين لجنة هدفها الاستعانة بالألمان للإطاحة بستالين وإقامة دولة روسية غير شيوعية. والأخطر من هذا أنه اكتشف فى معركة أوريل وجود بعض الروس الذين يحاربون مع الألمان ضد بنى جلدتهم بضراوة تفوق شراسة الجنود الألمان أنفسهم ليس حبا فى النازية ولكن كراهية فى النظام الشيوعى. وبالرغم من اشمئزاز كاتبنا من خيانة هؤلاء المتعاونين مع الروس فإنه اشمأز كذلك من أسلوب معاملة السلطات السوفيتية لهم دون أدنى رحمة أو هوادة.

فذات يوم سمع أثناء سيره فى الطريق صوت رجل فى ملابس المجندين الألمان يستعطفه بلغة روسية لا ريب فيها قائلا له: «سيدى النقيب..... سيدى النقيب». والتفت سولجنتسين إليه فوجد نصفه الأعلى عاريا والدم يغطى كل وجهه وصدره وكتفيه وظهره وأحد رجال الأمن فوق جواد يهوى بالسوط على جسده وفى اللحظة نفسها يدفع حصانه إلى (دهسه).

وفى نهاية عام ١٩٤٤ تمكن سولجنتسين وجنوده من دخول بولندا تمهيدا لغزو الأراضى الألمانية نفسها. وفى تلك الفترة وصله عن طريق صديقته ليديا رأى الأديب لافرينيف فى مستوى أعماله القديم منها والحديث. قال لافرينيف إن القصص القديمة التى سبق إرسالها إليه فى عام ١٩٤١ تدل على «مهارته الأولية فى صياغة أفكاره وملاحظاته فى قالب أدبى». ثم قال عن أعماله الحديثة إنها تدل على أن المؤلف بلغ مرحلة النضج وأنه خطا بفنه خطوات واسعة إلى الأمام. ولهذا يمكن أن نتوقع منه إنتاجا أدبيا جديرا بأن يسمى أدبا. وأضاف قائلا: «لا يخامرنى أدنى شك فى استعداد المؤلف للعمل الأدبى. وأعتقد أنه عندما يسود الهدوء بعد أن تضع الحرب أوزارها وعندما يتمكن المؤلف من تكريس وقته تماما للعمل الذى من الواضح أنه يحبه فإنه سوف يتمكن أيضا من بلوغ النجاح». ورغم ما ينطوى عليه هذا الكلام من تشجيع فقد اعتبره سولجنتسين كلاما غامضا لأنه يتحدث عنه كأديب واعد يرجى من قلمه الخير وليس كأديب أنجز بالفعل عملا له قيمته. وعلى أية حال رفضت مجلة «العلم» حينذاك نشر قصصه رغم توصية لافرينيف بنشرها. ولعل هذا يرجع إلى أن نوعية القصص التى يكتبها لا تتمشى مع السياسة الدعائية التقليدية للدولة السوفيتية. ففى قصة «النقيب» نرى أن مجرد ضابط احتياط ينجح فى إنقاذ ضابط محترف برتبة نقيب من براثن الموت، مما قد يثير حنق الدوائر الأدبية الرسمية عليه. كما أن قصته «فى مدينة م» تدل على سعى المؤلف جاهدا إلى فهم نوازع الروس الذين يقبلون على أنفسهم التعاون مع الأعداء، بدلا من الاكتفاء بتصويرهم على النهج التقليدى بأنهم طغمة من الخونة الذين يستأهلون العقاب. وربما كان هذا سببا فى إحجام الأديب المعروف فيدين عن التعليق على قصصه.

وتدل الخطابات التى أرسلها سولجنتسين حينذاك إلى زوجته على اتساع هوة الخلاف بينهما. ففى أحد هذه الخطابات كتب إليها يقول: «فى ربيع عام ١٩٤٤ رأيت مدى ما ينطوى عليه حبك من تفكير دائم فى الذات ومدى امتلائك بالتحيزات حول موضوع الحياة العائلية... فأنت تتصورين مستقبلنا على أنه الحياة معا بلا عوائق أو شوائب وامتلاء المنزل بالأثاث وشقة مريحة وزيارات منتظمة من الضيوف والذهاب إلى المسارح فى المساء. وأغلب الظن أن شيئا من كل هذا لن يحدث. فقد نعيش حياة غير مستقرة ننتقل فيها من مكان إلى مكان. وسوف نمتلك أشياء لنتخلص منها باليسر نفسه الذى حصلنا به عليها. ورغم هذا فقد كان سولجنتسين حتى ذلك الوقت لا يزال يحب زوجته.

وفى تلك الفترة أيضا كان سولجنتسين يحس بروحه تذوب فى روح نيكولاى فيتكفتش رغم استشعاره مؤخرا أن شيئا من التغير بدأ يطرأ على موقف صديقه الرافض لستالين. والساخر منه، فقد ذهب إلى القول إنه من الجائز أن ستالين ليس بالسوء الذى يظنانه به. وظلت العلاقة بينهما وطيدة واستمرا فى تبادل الرسائل غير مبالين بالرقابة العسكرية التى كانت تحجزها دون أن

يدريا. غير أنهما لاحظا أن خطابات كل منهما للآخر لم تعد تصل إليهما بالكثرة نفسها التى كانت تصل بها فيما مضى. وشاءت المصادفات أن يتعرف سولجنتسين بنقيب بحرى اسمه ليونيد فلاسوف ظن من انتقاده لما وصل إليه المجتمع السوفيتى من تدهور وفساد أنه يعترض على سياسة ستالين ونظام حكمه. ولكنه فوجئ بخطاب منه يبرئ ستالين من كل ما يشوب المجتمع السوفيتى من عيوب ومثالب إذ قال فيه: «لقد فكرت فى هذا الأمر كثيرا ووصلت إلى اقتناع بأن ستالين رجل عظيم وأنه لم يرتكب خطأ فى أى شىء. إنه الشمس التى تضىء حياتنا».

وفى أثناء زحف الجيش السوفيتى صوب برلين خاض مؤلفنا لأول مرة فى حياته تجربة جديدة تتلخص فى أن الكل أصبح واحدا. فقد ذابت الوحدة الصغيرة التى تأتمر بأمره فى كيان عسكرى كبير، أى فى جيش عرموم كثير العدد والعدة يتحرك مهاجما ومناورا ليكتسح كل شىء فى طريقه. ولم تتنبه قيادة الجيش السوفيتى الزاحف نحو برلين إلى بعض الأخطار المحدقة به والتى تتمثل فى وجود بعض جنود الأعداء خلف خطوط القتال وفى ليلة ٢٦ يناير ١٩٤٥ فوجئ سولجنتسين ورجاله يساقون إلى مركز الأعداء يحيطون بهم ويعزلونهم عن بقية جيشهم المتقدم. وعندما أبلغ سولجنتسين القيادة العسكرية العليا بهذا الأمر رفضت أن تصدقه إلا بعد أن انقطعت وسائل الاتصال التى تربطها بوحداتها المختلفة. وعندئذ تعرض سولجنتسين لوابل من رصاص البنادق. الأمر الذى اضطره إلى الاحتماء بغابة قريبة. ويتضمن عملاه الأدبيان «الليالى البروسية»، و«أغسطس ١٩١٤» إشارات لهذه التجربة. وتصف «الليالى البروسية» عمليات النهب والسلب المحمومة التى قام بها الجيش السوفيتى بتشجيع من قيادته العسكرية والسياسية.

ويعترف لنا سولجنتسين بنفسه باشتراكه فى هذه العمليات أثناء وجوده فى بولندا ولكن بصورة أرقى من أسلوب بقية الضباط والجنود فى السلب والنهب. ففى بولندا قام مؤلفنا بالاستيلاء على مجموعة من الكتب الروسية النادرة التى يرجع كثير منها إلى فترة الثورة وإلى العشرينيات التى أصبح تداولها محظورا فى الاتحاد السوفيتى. واستطاع أن يخبئ هذه الكتب النادرة فى حافظة المدفع أى فى غلافه. ونحن نراه يعترف أيضا فى «الليالى البروسية» بارتكاب حادث سطو آخر. فقد دخل مكتب بريد ألمانى ليجد مجموعة من الأوراق والأقلام والدبابيس الفاخرة التى لم يستطع مقاومة إغرائها فاستولى عليها لنفسه. فلاغرو إذا رأينا كاتبنا يعالج فى أدبه هذا الجانب السيئ والمدمر من الحرب.

القبض على سولجنتسين :

فى ٩ فبراير من عام ١٩٤٥ حدث لسولجنتسين ما لم يكن فى الحسبان، فقد أبلغته القيادة العسكرية بضرورة التوجه فورا لمقابلة القائد العام الجنرال ترافكين. وعندما دخل مكتبه وجد مجموعة من الضباط ينتظرون فى أحد أركان الحجرة. وأمره ترافكين أن يخطو إلى الأمام ويسلمه مسدسه. فقام بخلعه من القايش وسلمه إلى الجنرال ترافكين الذى أخذه منه ولفه ببطء ووضعه فى درج المكتب ثم التفت إلى سولجنتسين ليقول له بصوت خفيض: «حسنا. يجب عليك الانصراف الآن». وتوهم سولجنتسين أنه وقع عليه الاختيار لإرساله فى مهمة خاصة. وهنا تقدم إليه اثنان من الضباط العاملين فى قلم مكافحة التجسس وقالا له: «أنت مقبوض عليك، فسألهما سولجنتسين بصوت واه ضعيف: «أنا؟ لماذا؟» وبدلا من الرد عليه قاما بنزع الشارة العسكرية من كتفه والنجمة من فوق الكاب الذى يلبسه وانتزعا حافظة الخريطة من يده وأمره القائد بالانصراف من الحجرة وسط حراسة مشددة. ولكن الجنرال ترافكين طلب إليه الرجوع فعاد ليسأله الجنرال بطريقة لها مغزاها إذا كان له صديق فى الجبهة الأوكرانية. فتدخل ضابطا المخابرات ونهرا الجنرال وقالا له إن ما فعله يعتبر مخالفة للوائح والتعليمات. وفهم سولجنتسين من سؤال الجنرال أنه يلمح إلى صديقه نيكولاى وفى بطء نهض الجنرال الجالس إلى مكتبه ليأخذ يد مؤلفنا ويهزها بحرارة مبالغ فيها قائلا له: «أتمنى لك السعادة أيها النقيب». وهزته تحية الجنرال الحارة باليد له من الأعماق لدرجة أنه وصفها فيما بعد بأنها أشجع عمل شاهده فى فترة الحرب على الإطلاق. فالقبض عليه كان معناه أنه أصبح فى نظر الدولة السوفيتية عدوا للطبقة الكادحة. وفى أثناء اقتياده إلى مركز القيادة تساقطت بعض القنابل بالقرب منه غير أنه كان مشغولا بأتفه الأمور وأصغرها مثل ضياع هيبته أمام جنوده عندما يرون الشارة العسكرية وقد انتزعت منه. وأمر رجال المخابرات الجاويش إليا سولومين بإحضار حقيبة ملابس رئيسه الضابط سولجنتسين الذى كان قد اصطفاه فى يوم ما ليكون فى استقبال زوجته ناتاليا عند وصولها إلى الوحدة ليرافقها إلى مقرها. ولكن سولومين الذى كانت تربطه بسولجنتسين علاقة طيبة تعمد ألا يحضر الكتب الممنوعة المخبأة فى غلاف المدفع. كما أنه أغفل أن يحضر لهم أوراقه الخاصة ومن بينها بعض خطابات زوجته إليه، فقد احتفظ بها ليقوم بتسليمها إليها فيما بعد. وعندما أوصله الحراس فى سيارة إلى مركز القيادة قاموا بتفتيشه وتفتيش حقيبته ثم ردوها إليه. ولكن أحدهم آثر الاحتفاظ فى جيبه بحافظة سجائر كان مؤلفنا قد استولى عليها من الألمان. وبعد تقييد يديه بالأغلال دفعوا به إلى السيارة

التى انطلقت على الطريق الأسفلتى فى الريف الألمانى. وداعبه خياله فتصور أنهم سوف يأخذونه إلى حضرة ستالين نفسه وأنه سوف يغتنم هذه الفرصة ليقول له رأيه بصراحة فى نظامه الفاسد ويشرح له برنامجه للإصلاح. ولكنه أفاق إلى الحقيقة المرة عندما أدرك أن السيارة التى ضلت الطريق لا تنطلق به فى اتجاه روسيا بل تتوغل فى الاتجاه المضاد فى الأراضى الألمانية، ورأى الجنود الألمان فى ظلام الليل أضواء السيارة فأطلقوا نيرانهم وقذائفهم عليها. وخشى الحراس على حياتهم فتوقفوا عن السير وغادروا السيارة. واحتار سولجنتسين هل ينبههم إلى خطئهم أم يتركهم على عماهم. وأخيرا قرر تنبيههم فسلموه خريطة المكان ليدلهم على الطريق الصحيح. وأراد رجل المخابرات أن يتلطف معه فأعاد إليه حافظة السجائر التى أخذها منه ودعاه إلى التدخين. وهكذا اضطرته مفارقات الحياة أن يدلهم إلى الطريق المؤدى إلى السجن الذى سوف يودعونه فيه. وعند وصوله إلى مركز قيادة الجيش السادس والأربعين فى مدينة أوستررود البروسية الصغيرة تم للمرة الثانية تفتيش ملابسه وحقيبته، كما تمت للمرة الثانية مصادرة حافظة سجائره. ثم اقتيد إلى زنزانة تحت الأرض يرقد على كومة من القش فوق أرضيتها المصنوعة من الأسمنت المسلح ثلاثة سجناء آخرين. وفى الصباح تعرض سولجنتسين للإذلال عندما حضر إلى السجناء رقيب أول ليأمرهم بالصعود إلى الفناء ليقضوا فيه حاجتهم فى وقت واحد تحت مرأى الحراس الذين يحملون المدافع الرشاشة. وفى ذلك اليوم نفسه اصطف أديبنا مع سبعة سجناء آخرين كانوا من المجندين الروس الذين شاء حظهم العاثر أن يقعوا فى أسر القوات الألمانية لفترات طويلة قد تصل إلى أعوام، الأمر الذى جعل السلطات السوفيتية تنظر إليهم بعين الريبة وتشك فى ولائهم لها. ومن ثم تقوم لأسباب أمنية باستدعائهم إلى روسيا تحسبا لأى عدم ولاء وطنى قد يظهرونه: واصطف بجوار سولجنتسين سجين ثامن مدنى جنسيته ألمانية. وعز على أديبنا أن يمتهن شرفه العسكرى إلى حد المساواة بينه وبين العدو، فأصر أن يقوم السجين الألمانى بحمل حقيبة ففعل وظل هذا السجين الألمانى يحمل هذه الحقيبة حتى سقط من الإعياء فتناوب حملها السجناء السبعة الآخرون الذين كانوا مجرد أنفار. وقطع السجناء الطريق مشيا على الأقدام لمدة يومين فى جو قارص شديد الرطوبة ينهمر فيه الثليج فيجمد أطرافهم. ولفتت بزة سولجنتسين العسكرية بأزرارها الذهبية اللافتة أنظار بعض سائقى المركبات على الطريق فظنوا أنه أحد الخونة المتعاونين مع العدو من أتباع الجنرال فلاسوف فصاحوا فيه وسخروا منه ووجهوا سيلا من الإهانات إليه، فابتسم فى وجوههم فعلا صياحهم وزادت إهاناتهم له. وفى بلدة برودنتيس أودع الحراس سجناءهم الزنزانات حيث مكث مؤلفنا فى إحداها ثلاثة أيام. وهناك سمع لأول مرة فى حياته ما يتعرض له السجناء من تنكيل وتعذيب واستجواب. وبعد انقضاء هذه الأيام الثلاثة خرج سولجنتسين من زنزانته تحت حراسة نقيب وجاويشين حمل كل منهما إلى جانب أسلحته الأوتوماتيكية حقيبتين مثقلتين بغنائمهم وأسلاب استولى عليها بعض رؤسائهم من الضباط الذين طلبوا منهم توصيلها إلى موسكو سالمة. وفهم سولجنتسين من كلام حراسه أنهم يتجهون شطر موسكو. وقطع أديبنا المرحلة الأولى من رحلته إلى موسكو فى قطار بضائع تمتلئ عرباته بحشد من النساء والفتيات اللاتى حامت شكوك السلطات السوفيتية حول ولائهن لها لا لشىء إلا لأن قدرهن شاء لهن أن يعشن فى ظل الاحتلال الألمانى. وعند وصول قطار البضاعة إلى الحدود الروسية قامت السلطات المحلية بحجزهن تمهيدا لاستجوابهن. ولكنها سمحت له بمواصلة رحلته التى استمرت أربعة أيام فى قطار سريع ومريح بعض الشىء يتجه إلى موسكو. وبدأ نوع من الألفة يربط بينه وبين حراسه الذين وفروا على سجينهم الحرج، فتظاهروا بأنه ليس مقبوضا عليه. وقدم إليه الضابط الفودكا وسمح له بالمشى فى طرقات القطار تحت حراسه حارس واحد فقط. ويصور لنا سولجنتسين فى قصيدته «الطريق» رحلة عودته من ألمانيا إلى موسكو التى شبهها بعودة الشاعر وليم كوتشليكر صديق بوشكين إلى روسيا فى عهد القيصرية فى ظروف مماثلة.

لم تثر ثائرة سولجنتسين من جراء معاملة السلطات السوفيتية السيئة له بل قبلها واستسلم لها. ولا غرو فقد كان رغم شكوكه فى ستالين لا يزال مؤمنا بالنظام السوفيتى وفيا له ويرى أنه يمكن تغييره بالوسائل السلمية والديموقراطية. وخطر له أن يبلغ زوجته ناتاليا بما حدث له.. فهداه تفكيره إلى التقرب إلى فتاة جميلة من ركاب القطار استجابت لكلامه معها على الفور. ولاحظ الحارس هذا الاستلطاف فابتعد عنهما حتى يخلو لهما الجو ولا يحرجهما فاغتنم سولجنتسين هذه الفرصة السانحة ومال إلى الفتاة وهمس إليها أنه سجين تحت الحراسة وكرر أمامها عنوان زوجته وطلب منها أن تحفظه. ولكن الفتاة ابتعدت على الفور وأشاحت بوجهها عنه. وظن الحارس أن أديبنا عرض عليها عرضا يخدش الحياء فازورت عنه. وحين وصل القطار الذى يستقلونه إلى موسكو اتضح له أن حراسه أسقط فى أيديهم وأنهم يحتاجون إلى إرشاده إذ لم يسبق لهم قط زيارة موسكو. وللمرة الثانية لعب سولجنتسين دور

المرشد لحراسه ودلهم على الطريق إلى سجن لوبيانكا المعروف الذى وصل إليه فى ٢٠ فبراير ١٩٤٥. ويسجل سولجنتسين هذه التجربة فى الصفحات الأخيرة من كتابه «الدائرة الأولى».

سجون ومعسكرات عمل فى حياته:

سجن لوبيانكا:

عندما وصل سولجنتسين إلى سجن لوبيانكا الشهير زج به السجانون فى زنزانة يتدلى من سقفها ضوء باهر لا يتناسب مطلقا مع ضيقها الذى لم يسمح له بمجرد تمديد رجليه. واقتحم عليه الزنزانة رجل يلبس معطفا رماديا سأله عن اسمه وطلب إليه أن يخلع ملابسه ويضعها على الأرض. وعندما صار سولجنتسين عاريا كما ولدته أمه اقترب منه الرجل وطلب منه أن يفتح فمه ويقول (آه) وأن يرفع لسانه إلى سقف حلقه. وأدخل الرجل أصابعه فى فمه المفتوح وتحسس خديه. ثم أنزل جفنى السجين السفليين وحملق إليهما دافعا برأسه إلى الوراء، فاستقر الضوء الساطع على فتحتى أنفه. وبعد أن تحسس بأصابعه أذنيه أمره أن يبسط يده ويرفع ذراعيه ليتأكد من أنه لا يخفى شيئا تحت إبطه. كل هذا فعله الرجل فى صمت مطبق وبوجه جامد خال من التعبير. ثم طلب إلى السجين أن يمسك بقضيبه ويقلب غرلته ويحركها ذات اليمين وذات الشمال وأن يفتح رجليه كالبرجل بقدر ما يستطيع بغية فحص ما بينهما فحصا دقيقا. ثم عاد وطلب منه الانحناء وأن يبعد بيديه كل ردف عن الآخر حتى يتمعن فيما بينهما. وأخيرا طلب منه أن يقف ويجلس القرفصاء مرارا وتكرارا حتى يطمئن إلى دقة فحصه لجسد السجين. وأشار إليه - رغم أن أسنانه كانت تصطك من شدة البرد - أن يجلس وهو عار على مقعد قصير بدون مسند. وبعد ذلك اتجه الرجل ذو المعطف الرمادى إلى كومة الملابس الملقاة على الأرض ففحصهما فى الضوء قطعة قطعة... سرواله... فانلته... جواربه قبل أن يقذف بها عند قدميه ويطلب إليه ارتداءها. ثم التقط حذاء السجين ذا الرقبة الطويلة وهزه باحتقار ليسقط منه بعض أجزاء قلم رصاص صغير كان يأمل فى إخفائه. وأمسك بمطواة نزع بها كعب الحذاء وقام بفحص سترته بعناية شديدة بعد أن خلع بطانتها، كما أخرج حشو معطفه ليرى ما عسى أن يكون بداخله. واستغرق هذا التفتيش ساعة كاملة تمزقت فيها ثياب سولجنتسين وحذاؤه وتحولت إلى خرق وأسمال. وزاد الطينة بلة أن تطايرت أزرار بنطلونه مما جعله عاجزا عن رفعه. فلما شكا إلى الحارس أشار إليه باقتضاب شديد أن يستخدم قطعة من الدوبار ليمنع البنطلون من أن يتدلى. وتصور «الدائرة الأولى» وقع هذا النوع من التفتيش عليه، فقد أصابه بنوع من العجز عن الكلام أو المناقشة إذ كان يتوقع أن يتبادل الرأى مع المحقق ويقارعه الحجة بالحجة. وأدرك سولجنتسين بالغريزة أن مثل هذا النوع من التفتيش ليس له سوى هدف واحد هو تحطيم إرادة السجين. وفى هذا الصدد كتب مؤلفنا فى وقت آخر يقول: «وهكذا تتلاشى بسرعة عادة الإنسان الحر فى التفكير فى عواقب أى شىء قبل الإتيان به»، كما أن مثل هذه الإجراءات كفيلة بأن «تهنهن السجين وتجعله فى حالة من الذهول والحذر وتحرمه من التعقل وسلامة الإدراك ومن إرادة المقاومة».

ثم دخل عليه للمرة الثانية سجان آخر وطلب إليه أن يخلع ملابسه وأن يجلس على المقعد ودون أن ينبس ببنت شفة امتدت يده إلى رأسه ليحلق كل شعره فيها ويجعلها صلعاء تماما، وكذلك أزال الشعر تحت إبطيه وفى مواضع أخرى. وبعد الحلاق جاءه الطبيب ليطلب منه أيضا خلع ملابسه ويسأله إذا كان يعانى من أية أمراض تناسلية أو البرص أو غيره من الأمراض. وبعد الطبيب جاءه سجان آخر ليرافقه إلى الحمام ليأخذ دشا. واكتشف بعد خروجه منه أن الحراس أخذوا ثيابه لتعقيمها ثم أعادوها إليه بعد مضى بعض الوقت رطبة مكرمشة تلسع من شدة حرارتها. ثم اصطحبوه عبر ممرات ودهاليز كثيرة إلى غرفة التصوير حيث أخذوا له صورا فوتوغرافية للوجه وبالجنب كما أخذوا بصماته فى بطاقة قبل أن يعيدوه إلى زنزانته. وفى كل مرة يخرج منها أو يدخل إليها يسأله السجان عن اسمه واسم أبيه وجده وتاريخ ومكان ميلاده. وحاول الخلود للنوم فى زنزانته ولكن الحارس أيقظه وطلب إليه ارتداء ملابسه ليرافقه عبر ممرات ودهاليز وسلالم وأفنية إلى حجرة كبيرة احتوت على غير العادة بنكا خشبيا طويلا مثبتا فى الحائط يمكن النوم عليه. وفيها فوجئ السجين بسجانه يعطيه مرتبة وملاءة وبطانية ومخدة وكيس مخدة حتى ينام. ولكن لم يكد يغمض له جفن حتى دخل عليه السجان فى عنف ليخبره أن التعليمات تقتضى منه أن ينام بشرط أن يخرج ذراعيه من تحت البطانية. ورغم بساطة هذا الشرط فقد كان كفيلا بأن يطير النوم من عينيه. وظل يتقلب طوال الليل فى فراشه رغم شدة إنهاكه. ولم يذق النوم إلا على نحو متقطع للغاية. ولم يدر بخلده أنهم كانوا بذلك يعدونه للمثول أمام المحقق الذى استمر التحقيق معه أربعة أيام بلياليها أمكن من خلالها حرمانه من النوم بحيلة غاية فى البساطة. فتعليمات السجن تقتضى من السجين ألا ينام بعد الساعة السادسة صباحا. ولهذا كان التحقيق معه يستمر طوال الليل حتى مطلع الفجر بحيث لا يستطيع النوم حسب المواقيت التى تحددها لوائح السجن. وكان التحقيق يتم

معه فى غرفة واسعة عالية السقف معلق على أحد جدرانها صورة ضخمة لستالين على يد محقق اسمه آى. آى. إيزيبوف الذى بدأ بتلاوة الاتهامات ضده والقوانين التى يحاكم بموجبها، الأمر الذى يوحى بتوفر أقصى درجات العدالة. وتتلخص هذه الاتهامات فى أمرين أولهما التشهير بالاتحاد السوفيتى وثانيهما وهو الأخطر التآمر لقلب نظام الحكم. واعتمد المحقق فى اتهاماته على نسخ المراسلات التى تبادلها سولجنتسين مع نيكولاى وكيريل وليديا وزوجته ناتاليا فى الفترة من إبريل ١٩٤٤ حتى فبراير ١٩٤٥ وواجهه المحقق بنسخة من القرار رقم ١ الذى كان يخفيه فى حافظة خريطته. فرد عليه سولجنتسين بأن التهمة التى يحاول إلصاقها به غير صحيحة. فهو وزوجته وأصدقاؤه الثلاثة يؤمنون بوطنهم وبالنظام السوفيتى وأنهم لا يهدفون إلى الإطاحة به بل مجرد إدخال بعض التعديلات والإصلاحات عليه وذلك بالعودة إلى الأسس اللينينية السليمة. والغريب أن أديبنا ظل حتى تلك اللحظة يعتقد أن النظام السوفيتى فى جوهره يسعى إلى إقامة العدل بين الناس، ولكن ثقته فى هذا النظام بدأت تتزعزع عندما أدرك أن مظالم النظام ليست فردية ولكنها جماعية. فبعد أن قام المحقق بحبسه انفراديا لمدة أربعة أيام أمر بإيداعه فى زنزانة عامة، وجد فيها ثلاثة مسجونين فى مثل حالته تماما فتهلل لمرآهم وأحس بوشائج القربى تربطه بهم. يقول مؤلفنا فى هذا الصدد فى «أرخبيل الكولاج» إن السجين عندما يقابل فى سجنه زملاء له يشاركونه المصير نفسه يلازمه شعور مدى الحياة بأنهم أصبحوا أفرادا فى عائلته، وأحس سولجنتسين بوشائج القربى تربطه أكثر وأكثر بواحد من النزلاء الثلاثة وهو رجل مسن اسمه أناتولى إليتش فاستنكو، كان بلشفيا قديما قبض عليه فى ظل النظام القيصرى عام ١٩٠٤، ولعب دورا فى إشعال ثورة ١٩٠٥ الأمر الذى أدى إلى الحكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة ثمانية أعوام وبالنفى أيضا. غير أنه استطاع الهرب خارج روسيا إلى كندا والولايات المتحدة ليعود أخيرا إلى بلاده بعد قيام ثورة أكتوبر ١٩١٧. وزاد اهتمام سولجنتسين بهذا الرجل عندما أدرك أنه كان يعرف لينين معرفة شخصية. ودهش أديبنا كثيرا عندما ألح على فاستنكو أن يروى له حكايات ونوادر عن لينين العظيم فوجده غير مكترث تماما بهذا الموضوع، الأمر الذى اعتبره مؤلفنا انتهاكا للمقدسات، فقد كان لينين لا يزال فى نظره الرجل العظيم الذى أسس الدولة السوفيتية. فضلا عن أنه تضايق من أن اسم زميله النزيل وهو إليتش هو الاسم نفسه الذى كان محبو لينين ينادونه به، وأن زميليه السجينين الآخرين كانا يناديان فاستنكو به فى سياق أبعد ما يكون عن الهيبة والكرامة مثل قولهما له: «إليتش، الدور عليك فى حمل جردل التبول للخارج». وعرف سولجنتسين من فاستنكو أن سبب القبض عليه فى عهد ستالين يرجع إلى أنهم وجدوا فى حوزته مسدسا قديما. وأظهر فاستنكو سخطه عندما لاحظ أن أديبنا يكن التبجيل والإجلال للينين فى حين أنه يحتقر خلفه ستالين موحيا بذلك أن كلا الرجلين سواء. ونصحه فاستنكو بوصفه متخصصا فى الرياضيات أن يطبق مذهب ديكارت فى الشك فى كل مقولة يسمعها أو يقرؤها، كما نصحه بالامتناع عن قراءة روايات وأعمال مكسيم جوركى باستثناء عمل واحد غير معروف له بعنوان «أفكار فى غير وقتها»، يتضمن هرطقة وشكا فى البلاشفة كان جوركى قد نشره كسلسلة من المقالات فى جريدة الحياة الجديدة الصادرة فى تروجراد وذلك فى الفترة من مايو ١٩١٧ حتى يولية ١٩١٨. ولكن الاتحاد السوفيتى حظر إعادة نشرها.

وأظهر سولجنتسين درجة أقل من الاهتمام بمحام أوروبى فى منتصف العمر من أستونيا اسمه سوسى، تلقى تعليمه فى جامعة بتروجراد ويتقن إلى جانب لغته الأم وهى الأستونية ثلاث لغات يتحدثها بطلاقة هى الروسية والألمانية والإنجليزية. وتحين سولجنتسين فسحة التريض لمدة عشرين دقيقة المعطاة للمساجين ليتعرف على آراء هذا المحامى الأوروبى ومواقفه السياسية، فأعجبه تحمسه الشديد لبلده أستونيا وحديثه الطلى دون انقطاع عن روعة نظام حكمها الديموقراطى، وهو نظام استمد البرلمان الأستونى دستوره من أرقى الدساتير الأوروبية وأرفعها شأنا. ورغم أن مؤلفنا لم يقتنع بهذا الكلام عن الديموقراطية فور سماعه له، فقد غار فى وجدانه واستقر فيه ليجد فى نفسه صدى له فيما بعد.

واكتشف سولجنتسين أن إدارة السجن دست عليهم فى الزنزانة نفسها سجينا ثالثا اسمه كرامارنكو لتستقى منه أخبار بقية الزملاء وردود فعلهم تجاه جلسات التحقيق معهم بهدف تدمير روحهم المعنوية. وشعر أديبنا بالنفور من هذا الرجل منذ اللحظة الأولى التى رآه فيها. وأدرك من التجربة أنه ليس هناك زنزانة فى سجون الاتحاد السوفيتى تخلو من وجود مخبر أو جاسوس ينقل أخبار المسجونين إلى المسئولين.

ثم انضم إلى الزنزانة نزيل خامس أطلق عليه سولجنتسين فى «أرخبيل الكولاج» اسم ليونيد زد، وهو مهندس وابن فلاح كان فى يفاعته يسير حافى القدمين ولكنه استطاع بفضل التغييرات التى أدخلتها الثورة البلشفية على نظام التعليم الروسى أن يتبوأ أعلى المناصب ويتمتع بأعلى الدخول. ولم يتحمل هذا الرجل صدمة السجن فانهار وأصبح دائب النحيب والبكاء. وفى حزنه البالغ كان

يذكر النعمة التى ولت عنه، ويتحدث بزهو وفخر عن غزواته الجنسية الماضية. وأحصى الفتيات اللائى فض بكارتهن فوجد أن عددهن يصل إلى مائتين وتسعين. ويبدو أن انفلات لسانه كان السبب فى بلواه. فضلا عن تفاقم المشاكل على رأسه عندما أثار حنق البوليس السرى عليه برفضه أن يعطى المدعى العام مواد البناء بالمجان ليبنى بها الفيلا الخاصة به.

وفى سجن لو بيانكا كانت القيود المفروضة على السجناء كثيرة كما كان الطعام الذى يوزع عليهم قليلا لا يسمن أو يغنى من جوع. ومع هذا كانت هناك ميزة حيث إن المكتبة ذخرت بالكتب المحظورة التى لم تلتفت إدارة السجن إلى وجودها، الأمر الذى يدل على أن باب النجار مخلع. فقد كانت سلطات الأمن حريصة كل الحرص على حظر مثل هذه الكتب. وساعد هذا الإهمال مؤلفنا على قراءة أعمال كثير من المنشقين أمثال زامياتن وملينياك وبانتيليمون وورومانوف إلى جانب أعمال ميريز كوفسكى الكاملة ومؤلفات دوس باسوس التى قرأها لأول مرة أثناء وجوده فى لوبيانكا. وأمكن له أن يشغل وقته بالقراءة مستفيدا من حرص إدارة السجن على توفير كتاب واحد لكل نزيل بصفة دورية (بصرف النظر عن عنوانه أو مضمونه) ومن ثم كان لدى النزلاء فى زنزانة واحدة باستمرار ما يقرءونه.

ثم وصل نزيل سادس اسمه يورى واى وهو ضابط روسى سقط أسيرا فى أيدى الألمان لمدة سنتين. وشرح يورى لزملائه المسجونين السبب فى سوء المعاملة التى يتلقاها الأسرى الروس بالذات على أيدى الألمان دون بقية الأسرى من الجنسيات الأخرى. فقد رفض ستالين الاعتراف بمعاهدة الهاج الخاصة بمعاملة أسرى الحرب كما رفض الاعتراف بمنظمة الصليب الأحمر الدولية، لرغبته فى أن يكون حرا فى معاملة أسرى الحرب فى بلاده على النحو الذى يشاء دون أن يتقيد بأية مواثيق دولية. وبسبب ما لاقاه يورى من معاملة سيئة على أيدى الألمان تحول من مواطن سوفيتى يحب بلاده ويذود عنها إلى عدو لدود للنظام البلشفى وعمل للأعداء الألمان فقد تطوع فى صفوف جيش الجنرال فلاسوف من أجل تحرير روسيا من قبضة الشيوعيين. وساهم يورى فى تنظيم وإدارة مدرسة للتجسس على بنى جلدته. ولكن المخابرات السوفيتية استدرجته حتى وقع فى فخاخها، فقد وعدته بالعفو عنه لو أنه أمدها بالمعلومات اللازمة عن هذه المدرسة. وبعد تردد شديد قبل يورى هذا العرض وعبر الحدود إلى بلاده وأخبر إدارة مكافحة التجسس الروسية بكل ما يعرف، ليكتشف غفلته وأن المخابرات السوفيتية خدعته وغررت به ليقع فى قبضتها. ورغم استنكار سولجنتسين وتقززه من خيانة يورى فقد أعجبته شخصيته الواضحة الصريحة. ولم تطل مدة بقاء يورى فى الزنزانة أكثر من ثلاثة أسابيع قضاها أديبنا فى النقاش معه وتبادل الرأى، وكثيرا ما احتدم الخلاف بينهما، فالرأى عند يورى أن البلاشفة الرواد ليسوا بالبطولة أو النبل الذى يحلو لسولجنتسين أن يصورهم به. فهم من طينة ستالين نفسها. وعندما امتدح مؤلفنا الثورة البلشفية نظر إليه يورى بإشفاق شديد. ولما كال أديبنا المديح لمكسيم جوركى قال يورى إن جوركى ليس سوى أكذوبة ومخلوق مضحك ممل اخترع نفسه مثلما اخترع شخصيات رواياته وأضاف أن ليوتولستوى هو الأديب الحق الذى يتربع فوق عرش الأدب الروسى.

ثم غادر يورى الزنزانة، ليأخذ مكانه سجين آخر يبدو الشحوب والبراءة على وجهه ويرتدى بذلة زرقاء رخيصة، وطاقية زرقاء فوق رأسه. وسأل السجناء النزيل الجديد عن سبب القبض عليه فأجاب أنه كان يكتب بيانا إلى الشعب الروسى. واعتراهم الذهول عندما أجاب على سؤالهم عن السبب الذى حدا به إلى كتابة هذا البيان، فقد أسر إليهم فى حياء إنه الامبراطور ميخائيل رومانوف. فصعق سولجنتسين من هول المفاجأة.

ثم انضم إلى سجن لوبيانكا رجل اسمه فكتور ألكسفيتش بيلوف كان السائق الخصوصى لخروتشوف فى الفترة مابين ١٩٣٥ و١٩٣٨ وللمارشال بليوكر وبعض الشخصيات البارزة الأخرى. ووصف هذا السائق لنزلاء السجن البذخ الذى عاشه قادة الكرملين فى حياتهم الخاصة واستمتاعهم بنعيم الدنيا وأطايبها. وروى لهم قصته المفرطة الغرابة التى تدعو إلى الضحك بقدر ما تدعو إلى الرثاء. كان بيلوف يعيش تحت سقف واحد مع أمه العجوز. وفى يوم من الأيام زاره فى بيته رجل وقور ذو لحية بيضاء. وبعد أن رسم إشارة الصليب أمام الأيقونة المعلقة فى البيت قال إن فكتور رجل مبارك وأن القدر يخبئ له مستقبلا باهرا فسوف يطرأ على نظام الحكم السوفيتى تغير جوهرى. وتنبأ الزائر لهذا السائق بأن يصبح امبراطورا على البلاد. ومن ثم فيتعين عليه أن يهيئ نفسه لهذا الحدث الكبير. ولعبت هذه النبوءة برأس فيكتور وتعجل فيما يبدو تحقيقها فكتب فى خريف ١٩٤٣ بيانا بهذا الشأن اطلع عليه أربعة من زملائه العاملين فى قطاع صناعة البترول فى موسكو. وفى العام التالى كتب بيانا مماثلا عرضه على عشرة عمال وفتاتين من زملائه. فأخفى زملاؤه الرجال سره ولكن الفتاتين سارعتا إلى إفشائه إلى رجال البوليس السرى، الأمر الذى أدى إلى الزج به فى سجن لوبيانكا. ورأى سولجنتسين فى مثل هذه الحكايات التى لا تنتهى والتى

يرويها السجناء عن أنفسهم وعن زملائهم معينا لا ينضب. كما رأى أنها تنطوى على أهمية بالغة بما فى ذلك الحكايات الموغلة فى الخيال. بل إنه اعتقد أن مثل هذه الحكايات الموغلة فى الخيال تفوق فى دلالتها الحكايات التى تتسم بالواقعية. وهكذا أصبحت الزنزانة المدرسة الحقيقية التى تعلم فيها كثيرا عن الحياة فى بلاده.

ورغم انقضاء فترة طويلة على التحقيق الأول مع سولجنتسين أعاد المحقق النقيب إيزيبوف فتح ملفه مدعيا أنه بعد أن فرغ من إثبات تهمة التشهير بالوطن على المتهم وفقا للمادة ٥٨ فقرة ١٠ من القانون السوفييتى، فسوف يقوم بإثبات التهمة الأخرى عليه وهى تهمة تكوين تنظيم معاد للدولة طبقا للفقرة ١١ من هذا القانون التى اعتمد فى إثباتها على الرسائل التى تبادلها سولجنتسين مع زوجته ناتاليا وأصدقائه الثلاثة نيكولاى وكيريل وليديا. وقرأ المحقق بعض العبارات الواردة فى هذه الرسائل رغم ما قد تنطوى عليه من هزل واضح بطريقة تجعلها تتحمل شتى المعارف والتأويلات، مثل الإشارة إلى «عقد مؤتمر الاثنين الكبار، والحرب بعد توقف الحرب» والحاجة إلى تكوين «تنظيم جديد» وفتش المحقق فى الأوراق فوجد نسخا من مخطوطات القصص التى ألفها أديبنا أثناء وجوده على الجبهة، وهى القصص التى أحجمت الصحف عن نشرها لخروجها على التقاليد الأدبية السوفييتية المألوفة التى تركز على الإنجازات والبطولات فى ظل النظام البلشفى، وعثر المحقق فى حوزته أيضا على مجموعة كبيرة من الصور الصغيرة للغاية فى حجم طابع البريد كانت قد أعجبت مؤلفنا فاستولى عليها لنفسه أثناء وجوده فى ألمانيا. وترك المحقق كل الصور واستبقى منها اثنتين فقط هما صورتا القيصر وتروتسكى، ليستند إليهما فى توجيه هذا السؤال للمتهم: «قل لى يا سولجنتسين. لماذا كنت تحمل صورة القيصر نيكولا الثانى وصورة تروتسكى فى حقيبتك؟»، وطلب منه المحقق أن يعود بذاكرته إلى عام ١٩٤٠ ليخبره بالموضوعات التى دار حديثه عنها مع زملائه أيام الدراسة فى الجامعة. وتظاهر سولجنتسين بالنسيان فاعترت المحقق ثورة غضب عارمة وأخذ يهدده بالويل والثبور وعظائم الأمور. وأراد مؤلفنا أن يتخلص من زنقته، فادعى أن أحاديثهم كانت تدور حول موضوعات غاية فى التفاهة مثل الطقس والألعاب الرياضية. واعترض المحقق على أسلوبه المتهرب من الإجابة. فاستبدت الحيرة به. ما عساه أن يقول للمحقق وهو لا يدرى إذا كان زملاؤه وزوجته قد تم القبض عليهم أم لا. وألمح المحقق أنه سوف يواجهه بهم. واعتبر مؤلفنا أن كيريل أكثر أصدقائه تعرضا للمخاطر بسبب هروب والده من البلاد بطريقة غير مشروعة. فضلا عن أن كيريل فى أحاديثه مع أصدقائه كان أكثرهم صراحة فى انتقاد النظام السوفيتى رغم أنه كان أشدهم تخفظا فى رسائله المكتوبة. واستبد بسولجنتسين قلق أكبر خشية أن يكون المحقق قد اكتشف فى حوزته تلك اليوميات والمذكرات التى كتبها والتى تتضمن وصفا دقيقا للحياة العسكرية فى جبهة القتال وتسجيلا مفصلا ودقيقا لكل ما سمعه من الجنود والضباط عن البؤس والشقاء اللذين عانى منهما الشعب الروسى أيام الحروب والمجاعات وإنشاء المزارع الجماعية. وبلغت اليوميات والمذكرات من الدقة حدا فائقا لدرجة أنها كانت لا تسجل الواقعة وتاريخ حدوثها فحسب بل اسم الراوى لها كذلك. وخشى مؤلفنا أن تقع اليوميات والمذكرات فى يد المحقق فتكون سببا فى توريط الذين باحوا بهذه الوقائع له. ويبدو أن المحقق اكتفى بما لديه من رسائل لإثبات التهمة الموجهة ضده بتكوين تنظيم معاد للنظام. ومن ثم لم يشأ أن يتجشم عناء قراءة المذكرات التى كتبها بالقلم الرصاص بشكل غير واضح وبخط منمنم صغير. ويخبرنا سولجنتسين فى «أرخبيل الكولاج» إن هذا المحقق نفسه قام أثناء التحقيق معه برفع سماعة التليفون ليعتذر لزوجته عن تأخيره بسبب انشغاله بعمل مهم ثم ليخبر عشيقته أنه سيكون عندها فى غضون ساعة. واتضح لمؤلفنا إن الانكار لن يجدى فتيلا، فهداه تفكيره إلى محاولة تصوير الرسائل المتبادلة على أنها مجرد لغو تلاميذ وعبث صبية. ولكن هذا الموقف المتهرب باء بالفشل وانتهى به إلى أن يفضى للمحقق بما أراده من معلومات، ومن بينها أن سولجنتسين وزملاءه كانوا يعترضون على سياسة فرض رسوم دراسية على التعليم العالى. وبرر مؤلفنا هذا الاعتراض بقوله إن مثل هذه السياسة من شأنها أن تبتعد بنظام التعليم السوفيتى عن المثل العليا الشيوعية المؤمنة بمبدأ المساواة بين البشر. ويجدر بنا أن نذكر فى هذا المقام أن كثيرا من الطلبة الأبرياء تعرضوا للسجن فى معسكرات الاعتقال لمجرد جأرهم بالشكوى من فرض رسوم على التعليم العالى. وسأله المحقق إذا كان أيضا يعترض على تخفيض الأجر الذى يتقاضاه العامل عن الإنتاج بالقطعة، فرد بقوله إن هذا الخفض لا يحقق العدالة للعمال. ولكنه عاد إلى تبرير مواقفه بقوله إنها ترجع إلى صغر سنه وعدم خبرته والتفكير المتمركز فى الذات وعدم فهم نوايا الحزب فهما كافيا. ولكن هذا لم يشفع أو يشفع له ولم يمنع المحقق من أن يسجل فى تقريره أنه «حاول تكوين تنظيم غير مشروع... وقام منذ ١٩٤٠ فصاعدا بدعاية منظمة لمناهضة النظام السوفييتى... ووضع خططا تفصيلية تهدف إلى استخدام القوة لتغيير سياسة

الحزب والدولة، فضلا عن أنه لطخ بسوء قصد سمعة ستالين. وفى هذه الجولة مع المحقق لم يتمكن مؤلفنا بأسلوب إجابته من إحراز أى شىء ذى بال اللهم إلا مكسب محدود للغاية يتمثل فى نجاحه فى إبعاد زوجته ناتاليا وصديقه كيريل وصديقته ليديا عن دائرة الاتهام. وفى الشهر الرابع من دخوله سجن لوبيانكا قامت إدارة السجن بإلقاء جميع يومياته ومذكراته فى الفرن لتلتهمها النيران، مما سبب له كربا شديدا لفقدانه الأساس الذى كان يزمع أن يبنى عليه قصته عن الحرب على نحو ما فعل تولستوى فى «الحرب والسلام». وعندما طلب منه المسئولون عن السجن التوقيع على ورقة تؤكد قيامهم بإحراق هذه اليوميات والمذكرات لأنه ليست لها أية علاقة بموضوع الاتهام تنفس شيئا من الصعداء وزال عنه شىء من كربه.

وفى أول مايو ١٩٤٥ لاحظ سولجنتسين أن سجن لوبيانكا يسوده هدوء غير عادى. فضلا عن اختفاء المحققين من ممراته وأروقته، ولا غرو فقد وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها. وكان يوم ٩ مايو فى العام نفسه يوما مشهودا فى موسكو خرج فيه الملايين ليهللوا ويرقصوا فى الميدان الأحمر ابتهاجا بانتصارهم النهائى على أعدائهم الألمان. ومن وراء قضبان زنزانته. رأى مؤلفنا الألعاب النارية المنطلقة فى سماء موسكو فشارك فى الفرحة التى غمرت القلوب. وفى ذلك اليوم المشهود تخفف السجن العتيد على غير العادة من بعض قيوده كما أن إدارته صرفت وجبة مضاعفة للنزلاء.

ثم مرت بضعة أيام استدعى سولجنتسين بعدها لمقابلة المقدم كوتوف المنوط به الإشراف على حسن سير العدالة ولاستكمال التحقيق معه دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن القضية. فتناول كوتوف الملف الخاص بها وأخذ يتصفح محتوياته لمدة ربع ساعة يحاول فيها أن يلم بأطراف الموضوع. وتطلع سولجنتسين إليه فأدرك أنه لا خير يرتجى منه وأن شهاب الدين أسوأ من أخيه. ولكن هذا لم يمنعه من الاحتجاج بعدم صحة الاتهام الموجه ضده والخاص بتكوين تنظيم مناهض للدولة السوفيتية. مفنداً إياه بقوله إن اثنين لا يكفيان لتكوين تنظيم. واستمع إليه كوتوف فى صمت ثم تنهد ليقول: «ماذا عسانا أن نقول؟ إن الشخص الواحد لا يخرج عن كونه فردا، ولكن الشخصين فى عداد الجماعة».

ولم يمض وقت طويل حتى استدعاه النقيب إيزيبوف وهو المحقق نفسه الذى أجرى التحقيق معه عند دخوله السجن ليطلب منه أن يقرأ ما سبق أن أدلى به من شهادة قبل التوقيع عليها تنفيذا للمادة ٢٠٦ من القانون. ودفع إليه بالملف الخاص به فوقعت عيناه على الحقوق التى يكفلها القانون السوفيتى له ولأمثاله من المتهمين ومنها حق المتهم فى الاعتراض على سير التحقيق معه وفى تسجيل هذا الاعتراض. وعن له أن يحاول ممارسة حقه بأن يرفض التوقيع على صحة الاتهامات الموجهة ضده وبالذات الاتهام الخاص بتكوين تنظيم مناهض للدولة. ولم يهتز المحقق أو يتحرك له ساكن بل ببساطة قال له إنه يتعين فى هذه الحالة أن يبدأ التحقيق معه من جديد، وهدد باحتجازه فى المكان الذى يودع فيه المتعاونون مع الأعداء. وخشى سولجنتسين من مغبة إغضاب المحقق فقام وهو صاغر بالتوقيع على صحة الاتهامات الموجهة ضده.

سجن بيوتركى :

فى نهاية يونية ١٩٤٥ ثم نقل سولجنتسين من سجن لوبيانكا الشهير إلى سجن عادى فى موسكو اسمه بيوتركى حيث وجد نفسه وسط عدد كبير من الفلاحين والعمال الروس الذين رحلتهم القوات النازية إلى ألمانيا للعمل هناك، أو من الروس الذين حاربوا بقيادة الجنرال فلاسوف فى صفوف الألمان للإطاحة بالنظام الشيوعى. ولعل أديبنا تذكر الأيام الأولى من إلقاء القبض عليه حين استهزأ به بنو جلدته واعتبروه واحدا من الخونة من أتباع الجنرال فلاسوف. ومن ثم شعر أكثر من أى وقت مضى برغبة ملحة فى أن يحاول فهم نفسية هؤلاء الذين ارتضوا لأنفسهم أو اضطرتهم ظروفهم التعسة (وهو ما عجز ستالين عن التمييز بينهما) للتعاون مع الأعداء. لقد خفى عليه أن ستالين كان يرى أن مجرد احتكاك أى مواطن روسى بالعالم الخارجى - سواء أكان عالم الأعداء من الألمان أو عالم الحلفاء من الأمريكان والإنجليز والفرنسيين - سبب كاف للشك فيه. فهذا الاحتكاك قمين بأن يجعل مثل هذا المواطن يقارن بين الأحوال فى بلاده والأحوال فى البلاد الأوربية. وفى سجن بيوتركى نبهته حكايات المساجين إلى هذا البعد الخافى عليه فى السياسة الستالينية. وهنا تذكر يورى واى زميله القديم فى سجن لوبيانكا الذى أنحى عليه باللائمة عندما سمعه يعبر عن شدة اشمئزازه من مسلك الروس المتعاونين مع الألمان. وشعر سولجنتسين بأن زميله معه شىء من الحق ومن ثم أصبح أكثر فهما وعطفا على هؤلاء البؤساء الذين اضطرتهم ظروفهم إلى الخيانة.

والشىء الآخر الذى استرعى انتباهه فى سجن بيوتركى هو الوضع المأساوى الذى وجد آلاف المهاجرين الروس أنفسهم فيه عندما تركوا بلادهم بسبب مقتهم للبلشفية للعمل فى البلاد الأوربية المختلفة، فقد شاء حظ بعضهم العاثر أن يسقطوا فى يد القوات السوفيتية الزاحفة على أوربا أو أن يسلمهم الغرب لقمة سائغة للحكومة السوفيتية ابتغاء لمرضاة ستالين. وبادرت السلطات السوفيتية

بتقديمهم إلى المحاكمة والزج بهم فى السجون حيث اكتشف سولجنتسين عن طريق الاختلاط بكثيرين منهم أن حبهم لبلادهم التى تركوها ليعودوا إليها عنوة واقتدارا أمر لا يرقى إليه الشك.

وفى يوم ٢٢ يونية ١٩٤٥ ترامت إلى أسماعه أنغام الموسيقى الصادحة احتفالا بمرور أربعة أعوام على بدء الحرب التى خرج منها الاتحاد السوفيتى ظافرا. وانتشرت شائعات بين النزلاء أن يوم الأفراج عنهم قريب. وبالفعل أعلنت الحكومة السوفيتية يوم ٧ يولية ١٩٤٥ عفوها عن المسجونين. ولكن هذا العفو كان قاصرا على المجرمين والهاربين من الخدمة العسكرية وحفنة من السجناء السياسيين الذين صدرت ضدهم أحكام تقل عن ثلاثة أعوام، وهو شرط لم ينطبق على حالة سولجنتسين. وفى يوم ٢٧ يولية ١٩٤٥ استدعته إدارة السجن مع زميل له من الزنزانة. فظن زملاؤهما أن ساعة الإفراج عنهما وشيكة فتهللوا وفرحوا لزميليهما. وسبق الزميلان مع نحو عشرين سجينا آخر إلى زنزانة فسيحة واسعة ظلوا فيها ثلاث ساعات استدعتهم إدارة السجن واحدا بعد الآخر. ولما جاء دور سولجنتسين وجد نفسه فى الغرفة المستخدمة لاستقبال المساجين الجدد أمام ضابط برتبة رائد يجلس إلى منضدة صغيرة ويقلب فى برم شديد ملفه ويبلغه دون أدنى اكتراث وفى عجلة شديدة أنه صدر ضده حكم بالسجن لمدة ثمانية أعوام. فلم يفهم أديبنا فى بادئ الأمر كيف صدر الحكم ومن أصدره ضده دون أن يمثل أمام أية محكمة أو هيئة قضائية. وعندما طلب الرائد منه التوقيع بالعلم قال سولجنتسين له: «كلا، لابد أن أقرأ الحكم بنفسى». فأجاب الرائد بقوله: «هل تظن حقيقة أنى أخدعك». ولكنه أضاف أن فى إمكانه الاطلاع على الحكم إذا شاء. وألقى مؤلفنا نظرة على الورقة المقدمة إليه فوجدها عبارة عن استمارة خالية من بعض البيانات مثل اسم المتهم وتاريخ ومكان ولادته ومكتوب عليها أنه تم سماع أقوال المتهم وثبت عليه تهمة القيام بدعاية مناهضة للدولة السوفيتية ومحاولة تكوين تنظيم للإطاحة بها. ومن ثم صدر الحكم عليه بثمانية أعوام يقضيها فى معسكرات عمل إصلاحية. ولم يجد سولجنتسين ما يقوله غير «ولكن هذا فظيع. ثمانية أعوام. لماذا؟»، ولكن الرائد كان فى عجلة من أمره ويريد الانتهاء من الإجراءات فطلب إليه التوقيع فلم يجد مناصا من أن يوقع. غير أنه قال: «فى هذه الحالة اسمح لى الآن أن أكتب طلبا بالاستئناف. فهذا الحكم غير عادل». فأومأ الرائد برأسه ليقول له: «يمكنك أن تفعل هذا عندما يحين الوقت».... ولكن هذا الوقت لم يحن قط.

كان من المفترض أن يتم الاستئناف عن طريق ما يعرف بالهيئة الخاصة التى باشرت عملها فى سرية تامة وبتوجيه مباشر من المخابرات وستالين نفسه. ولكن وجودها كان نظريا. فحيث إن هذه الهيئة لم يكن لها وجود فى مواد القانون فقد تعذر على المتهم المثول فى حضرتها أو توكيل محام للدفاع عنه أمامها. وهكذا لم تعد وهذه الهيئة أن تكون إجراءا إداريا بحتا. وكان من حقها أن تقوم بمحاكمة «الأشخاص الخطرين من الناحية الاجتماعية دون الالتجاء إلى المحاكم بناء على تقارير البوليس السرى، الأمر الذى مكنها من محاكمة المتهمين غيابيا. وكانت الأحكام التى تصدرها الهيئة الخاصة أقسى بكثير من الأحكام التى تصدرها المحاكم والجهات القضائية التى لا تتجاوز مدة أحكامها عادة خمس سنوات تنتهى بالإفراج عن المتهم فى حين تراوحت أحكام الهيئة الخاصة من خمسة أعوام إلى خمسة وعشرين عاما. واستند جهاز المخابرات السوفيتى المعروف بـ GPU (فى الثلاثينيات) على هذه الهيئة الخاصة فى إصدار أحكام بالجملة أثناء حملات التطهير على كل من اشتبه فيه النظام الستالينى. وفى عام ١٩٦٥ بعد إلغاء الهيئة الخاصة اعترفت صحيفة القضاء السوفيتى أن هذه الهيئة كانت فى العادة تنظر فى القضايا التى لا تتوفر فيها الأدلة الكافية ومن ثم يصعب على القضاء السوفيتى أن ينظر فيها.

ثم تم نقل سولجنتسين إلى كنيسة سجن بيوتركى. (تحولت هذه الكنيسة إلى سجن مؤقت لا يمكث فيه النزلاء غير بضعة أيام). وحزن مؤلفنا لفراق المسجونين الذين عاش بينهم لفترات طويلة تربطهم روح المودة ووشائج الألفة. وفى سجن الكنيسة لم تربطه عرى الصداقة بغير اثنين من مثقفى موسكو هما بوريس جاميروف الذى سبق أن تعرف إليه فى سجن بيوتركى والذى دارت بينهما مناقشات عديدة حامية الوطيس فى السياسة والأدب. اشترك جاميروف فى معارك الحرب العالمية الثانية ضد الألمان وأصيب فى رئته، مما جعل السلطات السوفيتية تعفيه من الخدمة العسكرية، فالتحق بقسم الأحياء فى جامعة موسكو وبدأ يستهويه إقراض الشعر واشترك مع الطلبة بنشاط ملحوظ فى الندوات والحلقات. وكان ذلك السبب المباشر فى القبض عليه. وفى المناقشات التى احتدمت بينهما دهش سولجنتسين من أن جاميروف يعبر بحرقة عن إيمانه بالله ويقرع مؤلفنا لزرايته بالدين. وتعجب سولجنتسين كيف يمكن لجاميروف الذى ولد بعد الثورة عام ١٩٢٣ أن يحتفظ بالإيمان بالمسيحية فى حين أنه هو نفسه الذى ولد وتعمد بالمسيحية فى وقت كان الدين المسيحى يسود البلاد من أقصاها إلى أدناها ينبذ الدين ويصرح بكفره وإلحاده.

أما صديق سولجنتسين الآخر في سجنه الجديد فهو جورجي إنجال الذي كان يتمتع بموهبة أدبية جلية وتلميذا للروائي والناقد الشكلي يوري تينيانوف الذي تعرض للخسف وتنكيل النظام السوفيتي به. وفي جنازة تينيانوف عام ١٩٤٣ وقف التلميذ إنجال بجوار قبر أستاذه ليتحدث بصراحة ودون موارية عما تعرض له الفقيد من جور واضطهاد، الأمر الذي أغضب السلطات السوفيتية منه. فألقت القبض عليه وأصدرت ضده حكما بالسجن لمدة ثمانية أعوام. وفي المناقشات الدائرة انضم إنجال إلى جاميروف للهجوم على معبود سولجنتسين الأديب المعروف تولستوي الذي أنحى عليه باللائمة لموقفه الرافض للكنيسة. وكان لهجومهما وقع شديد على سولجنتسين لدرجة أنه بدأ يعيد النظر في أفكاره ومعتقداته السابقة. ولفت إنجال وجاميروف نظره إلى روعة شعر باسترناك الذي لم يقرأ له أديبنا سوى النزر اليسير.

وفي سجن بيوتركي أخذت ظروف سولجنتسين تتحسن بعض الشيء. فقد سمحت له إدارة السجن بتلقي الطرود واللفائف التي تحوي الأطعمة والملابس من الخارج، الأمر الذي أتاح أمامه فرصة الاتصال بالعالم الخارجي وأن يبلغ أهله بمكانه وبأنه لا يزال حيا يرزق. فقد كانت زوجته ناتاليا بعد أن انقطعت أخباره تظن أنه لقي حتفه في الحرب، الأمر الذي جعلها ترسل خطابا إلى الجاويش سولومين تستفسر فيه عن مصير زوجها. ولم يقم سولومين بالرد عليها مباشرة ولكنه أرسل خطابا إلى والدتها في الأسبوع الثاني من شهر أبريل ١٩٤٥ مفاده أن سولجنتسين حي يرزق دون أن يروي أي شيء مما حدث له. وفي الوقت نفسه انقطعت أخبار نيكولاي الذي توقف عن إرسال الخطابات إلى أهله وإلى ناتاليا.

ثم بعث الجاويش سولومين برسالة أخرى أقل حذرا وحرصا من رسالته الأولى مفادها أن سولجنتسين في وضع لا يسمح له بالكتابة وأن من المصلحة عدم الاستفسار عنه. وعندما سألت إدارة السجن مؤلفنا عن اسم وعنوان الشخص الذي سيتولى إرسال الطرود واللفائف إليه ذكر اسم وعنوان فيرونيكا خالة زوجته حيث إنها كانت تعيش في موسكو. واتصلت الخالة بزوجته (بنت أختها) في روستوف لتخبرها أنها قامت بتسليم لفافة إلى زوجها. وبهذا تأكدت ناتاليا للمرة الأولى منذ انقضاء ستة أشهر على القبض عليه أنه نزيل أحد السجون في موسكو. ولم يكن باستطاعتها ان تسافر على الفور إلى موسكو لارتباطها بالعمل في معامل جامعة روستوف. غير أنه كان من حسن حظها أن الأستاذ المشرف على دراساتها العليا في قسم الكيمياء الطبيعية بهذه الجامعة عرض عليها أن تواصل دراساتها العليا في جامعة موسكو. فرحبت ناتاليا بهذا العرض الذي سيمكنها من أن تعيش على مقربة من زوجها السجين، الذي احتفظت بأمر القبض عليه سرا لا تبوح به حتى لا تتعرض بدورها إلى المضايقات أو الاضطهاد. وفي موسكو عجزت في بادئ الأمر عن الالتحاق بالجامعة. غير أن أحد الأساتذة واسمه البروفيسور كوبوزيف وافق فيما بعد على قبول الإشراف عليها. وعادت ناتاليا إلى روستوف لإنهاء الاجراءات الخاصة بانتقالها إلى موسكو. وفي تلك الأثناء حدث شيء لم يكن في حسبانها. فقد تم نقل زوجها من سجن بيوتركي إلى سجن آخر في موسكو اسمه كراسنايا بريسنيا تمهيدا لإرساله إلى أحد معسكرات العمل.

سجن كراسنايا بريسنيا :

كان سجن كراسنايا بريسنيا بمثابة القلب في شبكة السجون الكثيرة المنتشرة في طول الاتحاد السوفيتي وعرضه.

ويكاد كل سجين سوفيتي أن يكون قد مر عليه لأنه لا سبيل إلى الوصول إلى معظم السجون السوفيتية الأخرى إلا عن طريقه. وفي هذا السجن الجديد شعر سولجنتسين بالوحشة والأسى لوجوده وسط جماعة من عتاة القتلة والسفاحين والمجرمين الذين يلجأون إلى أساليب البلطجة لفرض سيطرتهم على بقية النزلاء، في حين كان جميع النزلاء في سجن بيوتركي من أصحاب الفكر الذين فقدوا حريتهم بسبب مواقفهم السياسية المعارضة. حتى حراس السجن الجديد كانوا يشاركون المساجين ممتلكاتهم القليلة عنوة واقتدارا. وحين وصل جميع المسجونين في سيارة مقفلة إلى سجنهم الجديد ترامت إلى أسماعهم أصوات صادرة من نوافذ الزنزانات تحذرهم من أن السجناء المتعاونين مع إدارة السجن والمناط بهم أمر تفتيشهم سوف يستولون على كل ما يمتلكون من تبغ وشاي وسكر. ولهذا نصحهم أصحاب هذه الأصوات الصادرة من قاع الزنزانات بقذف كل هذه الأشياء من خلال نوافذها ليحتفظوا لهم بها في الحفظ والصون ثم يعيدونها إليهم بعد الانتهاء من إجراءات التفتيش. ولكنه اتضح للنزلاء الجدد أنها مجرد خدعة يلجأ اليها المسجونون القدامى للاستيلاء على ممتلكات النزلاء الجدد.

كانت إدارة السجن تأبى أن تسمي أي سجين سياسي بالرفيق عند مخاطبته كما كانت تحظر عليه أن يخاطب الآخرين بهذا اللقب فاستعمال كلمة رفيق عند مخاطبة أي شخص معناه وجود وشائج تربط بينه وبين النظام السوفيتي. ولهذا كان الحراس والضباط يسمون السجين السياسي بالسيد أو المواطن للدلالة على غربته عن المجتمع، كما كانت إدارة السجن تشجع المجرمين العاديين على التطاول على السجناء السياسيين ورميهم

بالفاشية لأنها ترى أن السرقة والقتل أهون شأنا من الخروج على النظام السياسى.

وعندما دخل سولجنتسين وزميله السجين السياسى فالنتين زنزانتهما وجدا أنها شديدة الصغر وتزدحم بالمجرمين. واقتضت الأعراف السائدة بين نزلاء السجن أن ينام أقدمهم فى أعلى الأسِرَة المثبتة بالجدران بالقرب من النافذة، فى حين ينام النزلاء الحديثون على الأسِرة السفلى. وهكذا دواليك بحيث ينام النزلاء الأكثر حداثة فى أسِرَة تقع فوق أرضية الغرفة مباشرة. فإذا وفد عليهم سجناء جدد تعين عليهم افتراش الأرضية حتى تخلو لهم أماكن على الأسِرَة السفلى ثم العليا كل بحسب ترتيب أقدميته. وأجال سولجنتسين وفالنتين بصرهما فى الغرفة فوجدا أن هناك مكانين خاليين تحت سريرين سفليين بعيدين عن جردل البراز والتبول الذى تفوح منه الروائح الكريهة. وبصعوبة استطاعا أن يحشرا نفسيهما تحت هذين السريرين. وما أن فعلا هذا حتى أعطى أحد النزلاء من مكانه العالى المتميز بالقرب من النافذة إشارة إلى أتباعه للهجوم عليهما. وبسرعة خاطفة وفى لمح البرق هجم ستة من الأشاوس المفتولى العضلات عليهما مغتنمين فرصة انحشارهما تحت الأسرة واستولوا على صرتيهما المليئتين بالطعام. وعز عليهما أن يفقدا كل ما لديهما من طعام فى غمضة عين ودون أدنى مقاومة. فكمشا جسميهما حتى استطاعا الخروج زحفا من تحت الأسرة. وألقى سولجنتسين نظرة على اللصوص فوجدهم فتية أشداء يرأسهم مجرم قوى مشوه الوجه من كثرة العراك والمشاجرات فأدرك مغبة بذل أية محاولة من جانبه لاستعادة ممتلكاته. فقال اللصوص حفاظا على ماء وجهه إن العدل يقتضى أن ينام هو وزميله على الأسرة مقابل الطعام الذى فقداه. وما أن اقترح سولجنتسين هذا حتى شعر بالخزى لاستسلامه للبلطجة والتجائه إلى مثل هذه المساومة الرخيصة. ومما زاده شعورا بالخجل من نفسه أن زعيم العصابة وافق على اقتراحه وأرغم اثنين من النزلاء السياسيين على التنازل عن سريريهما له ولزميله وعلى افتراش الأرض بدلا منهما.

وفى سجنه الجديد تعلم سولجنتسين دروسا جديدة تختلف عما سبق أن تعلمه فى السجون السابقة. فعندما ألقى القبض عليه فى ألمانيا ظن أن أسوأ شىء يمكن أن يحدث هو أن ينام أربعة مساجين فى زنزانة ضيقة شديدة البرودة تحت الأرض أو أن يسير الإنسان لمدة يومين متتاليين يلسعه الريح القارس والمطر البارد. وفى سجن لوبيانكا اكتشف عذاب الحبس الانفرادى والعذاب النفسى والعقلى الناجم عن إجراءات التحقيق. وفى سجن بيوتركى عرف الأمل الكاذب الخداع فى قرب الإفراج عنه ليكتشف أنه صدر ضده حكم بالحبس لمدة ثمانية أعوام، وأنه ينام فى زنزانة واحدة مع مائتى سجين آخرين. أما سجن كراسنايا بريسنيا فقد عرف فيه الصقيع والريح الذى تجمد برودته أطراف الإنسان، الأمر الذى مهده للنفى فى جو سيبريا القارس. وعرف سولجنتسين أن زوجته وصديقيه كيريل وليديا بخير فغمره فرح عظيم. وشعر بالخجل من نفسه لما أظهر من فظاظة نحو زوجته. وحتى لا يكون مصدرا لتعاستها عرض عليها حرية الطلاق منه والزواج من رجل آخر.

وفى سجن كراسنايا بريسنيا كان من المستحيل على سولجنتسين ان يحصل على الهدوء الذى يحلم به فقد كان هذا السجن بمثابة معبر يمور بحركة السجناء الغادين والرائحين. وبالنظر إلى قصر الفترة التى يقضيها النزلاء فيه (فقد كانوا غالبا لا يمكثون هناك أكثر من يومين) لم يكن هناك متسع من الوقت كى يتعرف النزلاء إلى زملائهم كما كان الحديث بينهم سريعا وخاطفا. ولكنه على أية حال اتسم بالصدق والصراحة المتناهية وهم يروون مآسى حياتهم. وكان بينهم سجين مخضرم متقدم فى السن متخصص فى الانشاءات، التف حوله بقية السجناء ليعطيهم خلاصة تجاربه فى السجون السوفيتية فنصحهم بعدم تصديق أى مخلوق فى السجن فالكل بسبب الأثرة والأنانية على استعداد أن يدوس على أعناق الآخرين. كما نصحهم ما أمكنهم ذلك تجنب العمل فى معسكرات العمل لأنه كثيرا ما يفضى إلى الموت بسبب الإجهاد وسوء التغذية. ورغم هذا قرر سولجنتسين أن يتطوع فى حمل خشب الأشجار من نهر موسكو. وهو عمل مجهد وشاق - حتى يهرب من جو زنزانته الخانق ويستنشق نسمة هواء متجددة ويهرب من الرائحة النتنة ودرجة حرارة الصيف العالية.

معسكر (أورشليم الجديدة):

شاءت المصادفة أن تقع عينا فيرونيكا خالة زوجته ناتاليا عليه أثناء عمله فى حمل الأخشاب فأسرعت بالكتابة إلى ابنة أختها كى تطمئنها عليه. ولكنها بالغت فى وصف حالته الصحية والمعنوية الجيدة حتى تبدد أى قلق قد يساورها عليه. وفى خطابها إلى زوجته لم تستطع أن تشير إلى اسم زوجها سولجنتسين صراحة خشية أن يقع فى يد الرقيب. ومن ثم تحايلت على هذا بأن أشارت إليه باستخدام أقرب اسم مؤنث له حتى لا يكتشف الرقيب عمن تتحدث. وفيما بعد ضمن مؤلفنا هذه الحادثة فى «الدائرة الأولى» بعد أن أدخل عليها بعض التغييرات الطفيفة. وفى الوقت نفسه تلقت ناتاليا رسالة أخرى من زوجها بعث بها من السجن. (كانت ناتاليا فى ذلك الوقت قد اجتازت بنجاح امتحانات

الكيمياء الصيفية فى روستوف وتستعد للسفر إلى موسكو حتى تكون بالقرب من زوجها. (ولم يكن هذا بالأمر السهل فقد تعين عليها إقناع السلطات بالموافقة على تغيير محل اقامتها وإعطائها تصريحا بالإقامة فى موسكو). ثم جاءها خطاب آخر من فيرونيكا خالتها تخبرها فيه بطريقة ملتوية عن نقل زوجها إلى معسكر عمل جديد أسمته للتعمية أورشليم الجديدة. وأضافت إلى ذلك قولها إن ناتاليا امرأة محظوظة لأنها تستطيع السفر كل يوم أحد من موسكو إلى أورشليم الجديدة ذات المناظر الجميلة الخلابة الواقعة فى قلب الريف والتى تسمى «سويسرا الروسية».

فى يوم ١٤ أغسطس ١٩٤٥ قامت عربتا لورى بنقل سولجنتسين مع ستين سجينا سياسيا إلى هذا المعسكر الجديد الواقع فى منطقة زيفنفجورود فوجدوا الشوارع والطرق تزدان بالأعلام فعرفوا أن اليابان استسلمت أخيرا وأن الحرب العالمية الثانية انتهت تماما. وكان المارة يتفرجون على السجناء القابعين فى اللوريات المكشوفة فيصرخون فى وجوههم قائلين «الفاشيون وصلوا». وعند وصول أديبنا إلى المعسكر بدا له مريحا على غير حقيقته. وراقت له المناظر الطبيعية الخلابة والهواء الطلق. ومن خلال الأسلاك الشائكة رأى التلال الجميلة وخضرة الريف الروسى الممتدة.

كانت الزنزانة التى زج فيها سولجنتسين تحتوى على أربعة أسرة متراصة الواحد فوق الآخر مكونة من أسياخ أو قضبان حديدية غير ثابتة عليها ألواح خشبية عارية تماما حتى من مرتبة من القش. وحاول مؤلفنا ـ كما طلب إليه ـ أن ينام على سريره بحذائه وكامل ملابسه. فلم تغمض له عين لأن أدنى حركة من جانب أى من زملائه النائمين كانت كفيلة بأن تهز سريره هزاً يوقظه من نومه. وفى الفجر فى الساعة الرابعة والربع قبل أن يأخذ أديبنا أى قسط من النوم قام الحراس بإيقاظه مع غيره من المساجين ثم ساقوهم فى الظلام إلى المقصف ليتسلموا تعيينهم من الطعام المقزز الذى تعافه النفس. وبدأ نور النهار فى البزوغ فى السادسة صباحا. وجاء دور توزيع الأعمال على المساجين فتذكر نصيحة زميلهم المخضرم بأن يتجنب كل منهم قدر استطاعته أداء ما يسمى بالواجبات العامة فى معسكرات العمل لأنها ـ كما أسلفنا ـ مضنية إلى حد الموت. ومن ثم دخل على المسئول عن توزيع العمال وهو يرتدى بزته العسكرية، الأمر الذى ترك فى نفس هذا المسئول أثرا طيبا جعله يعهد إليه بمهمة الإشراف على العمل بالاشتراك مع زميل له اسمه أكيموف. ولكن لسوء حظ سولجنتسين وصلت إلى المعسكر أثناء الوردية التى أشرف عليها مجموعة جديدة من السجناء تتكون من عتاة اللصوص والمجرمين الذين رفضوا الانصياع لأوامره ورفضوا القيام بأى عمل واكتفوا بأن تمددوا على الحشائش. وعندما حاول مؤلفنا أن يحفزهم للعمل ضحكوا منه ساخرين. لقد سبق أن تعلم فى سجن كرانسيا بريسنيا النتائج الوخيمة الناجمة عن الاحتكاك بمثل هؤلاء المجرمين. وكان موعد انتهاء الوردية قد اقترب فتركهم وشأنهم. أما زميله أكيموف فكان أسوأ حظا فعندما فعل هؤلاء البلطجية معه الشىء نفسه ذهب ليشكو إلى رئيسه الذى أمره على ضرورة إرغامهم على العمل عن طريق استخدام الشدة معهم، مما أدى إلى ثورتهم عليه وضربه بقضيب من حديد ضربة أفضت إلى تهتك كليته، الأمر الذى اقتضى نقله على الفور إلى المستشفى ليختفى من المعسكر إلى الأبد.

كان فى ذلك المعسكر للعمل مصنع لإنتاج الطوب يقع بالقرب من منجم لاستخراج الطفلة اللازمة لتصنيعه. ويتلخص عمل المساجين فى رفع الطفلة بالجاروف من المنجم إلى عربات نقل صغيرة تتحرك على قضبان عبر وديان صغيرة ليقوم ونش برفعها ثم دفعها إلى المصنع. ولاحظ أديبنا أن مساعده وهو رجل من موسكو اسمه بارينوف يتستر على تكاسل عماله وتراخيهم دون أن يبدو عليه أنه يفعل ذلك. ونظرا لأن هذا الرجل كان مخضرما فى الموقع ويعرف كل كبيرة وصغيرة عن طبيعة العمل فيه فقد استطاع بهدوء ومكر أن يستذل أديبنا ذلا بلا حدود وذلك بسؤاله عن بعض الجوانب الفنية فى العمل التى يجهلها سولجنتسين مستهدفا إحراجه والسخرية منه أمام الجميع. فعلى سبيل المثال سأله عما عساه أن يفعل عندما يتعطل الونش أو جرى أى شىء لعربات النقل. فإذا عن لسولجنتسين أن يفتى برأى فى هذا الشأن بادر الرجل بتسفيه هذا الرأى أمام الملأ معتمدا فى ذلك على خبرته الطويلة بالموقع والعمل فيه. وكانت هناك رئيسة على سولجنتسين اسمها أولجا ماترونينا أعدمت السلطات السوفيتية زوجها الشيوعى فى الثلاثينيات وحكمت عليها دون سبب واضح بالحبس لمدة ثمانية أعوام. غير أن هذا الحبس لم يقلل قط من تحمسها المتأجج للنظام وولائها الشديد له. وطلبت هذه المرأة من سولجنتسين أن يقوم بإرغام العمال على مضاعفة الإنتاج فأسقط فى يده فهو عاجز تماما عن السيطرة على مرءوسيه ومساعده بارينوف كما أنه يعرف أن العمال مكدودون ويوشكون أن يتضوروا جوعا. وبطبيعة الحال عجز سولجنتسين عن تحقيق ما طلبته منه ماترونينا. فحضرت بنفسها لتهزأ به. ومن عدم كفاءته أمام العمال وأمام مساعده بارينوف الذى أثلج صدره هذا الاستهزاء برئيسه. وأمرت ماترونينا بتنحية مؤلفنا عن وظيفته وتحويله إلى مجرد عامل عادى يستخرج الطفلة وتعيين مرءوسه بارينوف مكانه.

وإمعانا فى إذلاله التفتت إلى بارينوف لتقول له: «اعطه عتلة ولا تجعل نظرك يغيب عنه أبدا وتأكد من أنه يملأ ست عربات فى كل وردية. واجعله يتصبب عرقا».

وشعر سولجنتسين بالتعاسة والاكتئاب وعدم القدرة على التركيز. ورغم أنه كتب إلى زوجته ناتاليا يطلب إليها أن ترسل له ورقا وأقلاما وحبرا وبعض الكتب لتحسين مستواه فى اللغة الإنجليزية والتغلب على حالة الاكتئاب التى أصابته فقد أخفق فى ذلك. كما أن زحام المعسكر وضوضاءه منعاه من كتابة أى شىء خلاق. أما زميلاه إنجال وجاميروف فكانا أسعد حالا فقد استطاعا التغلب على مشاكل المعسكر بالانصراف إلى الكتابة والتأليف ونظم الأشعار. وبلغت أحوال المساجين فى مصنع الطوب درجة من السوء تمزق نياط القلوب. فقد رأى مؤلفنا بعض عمال المصنع الجياع يأكلون صلصال البحر (وهو نوع من الطفلة لا ينفع جسم الإنسان أو يضره) حتى يتوهموا أنهم شبعوا وأن بطونهم الخاوية قد امتلأت.

معسكر بوابة كالوجا :

فى ٩ سبتمبر ١٩٤٥ نقل سولجنتسين من معسكر أورشليم الجديدة إلى سجن بوابة كالوجا فى موسكو بعد صدور الأوامر بإخلاء هذا المعسكر من أجل استيعاب فريق من أسرى الحرب الألمان. وكان مؤلفنا محظوظا هذه المرة فهو لم ينقل إلى مناطق نائية مثل الأورال وسيبيريا وآسيا الصغرى شأن كثيرين من زملائه، بل إلى موسكو حيث التحق بمعسكر اسمه بوابة كالوجا تحت إدارة نقيب اسمه نفزين. وفى المقابلة التى أجراها هذا النقيب مع المساجين لتوزيعهم على الأعمال المختلفة قرر سولجنتسين بينه وبين نفسه ألا يرجع مرة أخرى إلى الخدمة العامة، أى ألا يكون عاملا من عمال السخرة: واستطاع مؤلفنا أثناء المقابلة التى أجريت معه أن يكسب ثقة قائد المعسكر الذى عينه فى وظيفة متميزة للغاية استحدثها خصيصا من أجله، وهى وظيفة مشرف إنتاج، مما جعله فى مركز أعلى من القيادات العمالية الأخرى بل أعلى حتى من السجناء المتعاونين مع السلطة وأصحاب الحظوة لديها. وبسبب تميزه الوظيفى أصبح لأول مرة منذ القبض عليه يعيش فى راحة ورفاهية أكثر من أى وقت مضى. فهو الآن ينام فى حجرة مخصصة لستة أشخاص فقط هما لواءان وطبيب ومهندس وفلاح كان رئيسا لأحد المجالس السوفيتية، كما أنه الآن يحصل على حصته من الطعام بيسر وليس بحاجة إلى الاصطفاف مرتين فى اليوم من أجل الحصول عليها. وكان مسلك أحد هذين اللواءين - وهو اللواء طيار ألكسندر بليابيف - ملفتا للأنظار. فقد اتسمت كل تصرفاته بالشموخ والعظمة تساعده على ذلك قامته الطويلة ووسامته غير العادية. ورغم أن سولجنتسين كان رئيسه فى العمل فإن مرءوسه أصر أن يظهر نحوه الاحترام اللائق ويلقبه باللواء. ولم يجد أديبنا غضاضة فى أن يفعل هذا وإن وجد فيه غرابة شديدة. فهو أول سجين يقابله فى معسكرات العمل يحتفظ بلقبه العسكرى. واستطاع هذا السجين بتعاليه أن ينأى عن كل المحيطين به ويشعرهم أنه ليس واحدا منهم بل فوقهم جميعا. وأحب هذا اللواء أن يذهب إلى المقصف لتسلم تعيينه من الطعام. وهو فخور بأنه لا يعرف الطريق إلى بابه. وكانت زوجته تأتى إلى باب المعسكر كل يوم بانتظام فى تمام الساعة الواحدة بعد الظهر حاملة معها وجبة طازجة ساخنة يتناولها فى حجرته أمام زملائه مع قطعة الخبز التى يصرفها المعسكر يحملها إليه زميله الفلاح فيقوم اللواء بتقطيع جوانبها واستبعادها حتى يضمن ألا يدخل فمه شىء قد تكون أصابع الآخرين قد لمسته. ودخل هذا اللواء السجن بتهمة الفساد والاختلاس وهى التهمة نفسها الموجهة ضد اللواء الثانى بافيل زينوفييف. كانت زوجة زينوفييف وابنته تحضران له الطعام كل يوم كذلك. غير أنه من الواضح أنه لم يكن على قدر زميله بليابيف نفسه من اليسار. وكان الزميل الثالث الدكتور برافدين طبيب أعصاب فى نحو السبعين من عمره حكم عليه بالسجن لمدة ثمانية أعوام مثل سولجنتسين وبتهمته نفسها وهى القيام بدعاية مناهضة للدولة. وكان الزميل الرابع المهندس أوراتشيفسكى الذى يتميز بإخلاصه الشديد للعمل. وكذلك الفلاح بروخروف - موضع مقت اللواءين وكراهيتهما. وكان اللواء بليابيف على وجه الخصوص يمعن فى إذلال الفلاح الذى اضطر إلى تحمل معاملته السيئة بسبب عدم كفاية الطعام الذى يصرفه له المعسكر مما جعله يأخذ حساء هذا اللواء وعصيدته. ويرجع السبب فى الزج بهذا الفلاح إلى السجن إلى اتهامه بالمحسوبية فقد كان يصرف كوبونات تموين زائدة إلى أهل قريته الجياع مكافأة لهم لإعادة انتخابه رئيسا لمجلس القرية السوفييتى.

ولكن تعيين سولجنتسين فى وظيفة مشرف على العمال فى هذا السجن الجديد لم يدم طويلا بعد أن تم استبعاد ضابط المعسكر المتعاطف معه النقيب نيفيرين بتهمة الاختلاس وسرقة مواد البناء واستبداله بالنقيب ميرونوف الذى رأى فى أديبنا سذاجة ورخاوة وجنوحا إلى التساهل مع السجناء، الأمر الذى أدى إلى انخفاض معدلات الإنتاج. ونتيجة لهذا تحول سولجنتسين مرة أخرى إلى سجين عادى من سجناء السخرة. ولكن تعيينه فى فرقة الطلاء أعفاه من العمل

المعنى الشاق. كما أنه لم يفقد امتيازه فى النوم فى إحدى الغرف المخصصة للمتعاونين مع إدارة السجن. ولعله من المفيد أن نذكر فى هذا الصدد أنه قبيل نقل سولجنتسين إلى معسكر بوابة كالوجا تمكنت زوجته ناتاليا من الانتهاء من الإجراءات المعقدة الخاصة بالحصول على تصاريح الإقامة فى موسكو ومقابلة زوجها الذى فوجئت بنقله من معسكر أورشليم الجديدة إلى سجن كالوجا حيث تمكنت من زيارته بحضور واحد من الحراس. فوجدت أن تغيرا طرأ عليه. فقد أصبح أكثر حساسية لآلام الآخرين عن ذى قبل. وعبر لها عن شديد أسفه بل وخجله من نفسه لأنه كتب إليها فى ألمانيا بعض العبارات التى تنم عن القسوة. وتصور روايته «الدائرة الأولى» هذا التغير الذى طرأ عليه. وعندما التقى الرجل بزوجته كرر لها استعداده للموافقة على طلاقها منه إذا كانت ترغب فى ذلك. ورغم أن الشك بدأ يساورها فى رغبته من الخلاص منها فقد أكدت له إخلاصها كما أكدت استعدادها الكامل للانتظار لمدة ثمانية أعوام حتى يخرج من السجن. ورغم الصعاب التى أحاطت به فإن الأمل فى حصوله على عفو لم يفارقه آنذاك أبدا. فكان يصعد إلى قمة العمارة التى يقوم المساجين ببنائها ويسرح ببصره إلى عالم الحرية والانطلاق خارج الأسوار، فيحيا - دون طائل - أمله فى العفو من جديد. غير أن الكيل فاض به فى نهاية الأمر فالتمس من المسئولين نفيه فى أية بقعة فى الاتحاد السوفيتى مدى الحياة دون أن يدرى أن الحكم الصادر ضده يتضمن حكما بالسجن والنفى معا. ولحسن حظه تحسنت ظروفه بعد نقل الجنرال بلياييف الذى كان يشغل وظيفة مساعد مشرف إنتاج فى سجن بوابة كالوجا إلى سجن بيوتركى فقد حل محل الجنرال المنقول.

وأسعدته كثيرا هذه الترقية إلى صفوف المتعاونين مع إدارة السجن، فخلع ملابس السجن ليزهو فى بزته العسكرية، مظهرا حرصه البالغ على استرضاء القائمين بأمر المعسكر.

ثم بدأ أحد المسئولين عن إدارة السجن واسمه سينين يتردد على غرفته ليتحدث إلى نزلائها عن الأدب وأحدث الأفلام التى شاهدها. وفى إحدى زياراته أشار هذا المسئول إليه بالخروج من الغرفة ليخرج فى أثره بعد دقائق معدودات. وطلب إليه سينين التوجه لمقابلة ضابط الأمن فى مكتبه فغاص قلبه فى جنباته وتوقع شرا مستطيرا. ودخل سولجنتسين غرفة ضابط الأمن فوجدها مريحة وتحتوى على أثاث وثير وسمع صوت الموسيقى الكلاسيكية تنبعث من مذياع. فشعر بنبض الحياة المتدفق خارج أسوار السجن. واعترته دهشة، عندما رأى ضابط الأمن يعامله بأدب شديد ورقة بالغة ويسأله عن أحواله فى السجن. هل هو مرتاح أم أن هناك ما يضايقه. وهل زادته حياة السجن مرارة وحقدا على النظام السوفيتى. ثم سأله إذا كان لا يزال يؤمن بهذا النظام مثلما كان يؤمن به فى صدر شبابه. وحاول أديبنا أن يتجنب استثارة غضبه فقال له إنه لا يزال يؤمن بالاشتراكية والنظام السوفيتى. فطلب إليه ضابط الأمن ألا يبخل عليه بالتعاون معه مادامـا يشتركان فى الإيمان والأيديولوجية والأهداف نفسها. وأضاف أن سولجنتسين هو الشخص النموذجى الذى يمكنه الاطمئنان إليه والاعتماد عليه فى نقل كل ما يدور بين السجناء إليه. وأسقط فى يد أديبنا وحاول أن يتنصل من هذه المهمة باعتبار أنه غير كفء لها ويحاوره ويداوره لمدة أسبوعين. فبدأ رجل الأمن يستخدم معه لغة تنطوى على التهديد. وأخيرا قال له إنه سمع عنه أنه يناصب المجرمين العاديين العداء ويقف لهم

بالمرصاد وأنه لا يحب أن يراهم يسيطرون على مقدرات المواطنين الأبرياء يعملون فيهم قتلا وسلبا واغتصابا. وطلب منه أن يقوم بالتبليغ عما يدور بينهم من أحاديث وعن أية محاولة قد يبذلونها أو يفكرون فيها للهرب من السجن، فلم يجد غضاضة فى الموافقة على ذلك. ولكن المشكلة التى واجهته أنه كان ينأى بنفسه عن مخالطة هؤلاء المجرمين. وبالتالى فإنه لم يكن يعرف الكثير عنهم. وفى لمح البصر اقتنص ضابط الأمن هذه الموافقة من جانبه وطلب منه التوقيع على تعهد بتبليغ إدارة السجن بأية محاولة يبذلها السجناء للهرب. وتردد سولجنتسين فى بادئ الأمر فى التوقيع بحجة أن التعهد لا ينص على السجناء المجرمين فقط. ولكنه عاد ووافق على التوقيع عندما طمأنه رجل الأمن بأن المجرمين وحدهم هم المقصودون فى هذا التعهد. ثم أخرج له تعهدا آخر طلب منه التوقيع عليه مفاده أنه يتعهد بالمحافظة على سر التعهد الأول وعدم إفشائه لأحد. وحتى يكتمل إذلال سولجنتسين الذى شعر أنه انحدر إلى أسفل سافلين اختار له ضابط الأمن اسما جاسوسيا مستعارا هو فيتروف يوقع به على الأوراق. وهكذا تحول أديبنا الكبير فى مطلع حياته إلى مخبر أو جاسوس يعمل لحساب إدارة السجن. لقد كان فى إمكانه أن يخفى هذا العمل الشائن عن الناس ولكنه اعترف به فى شجاعة بعد مضى نحو ثلاثين عاما على الإتيان به رغم أن هذا الاعتراف يساعد كثيرا على تمكين أعدائه منه. وكان سولجنتسين أمينا مع نفسه عندما اعترف لنا أيضا أن تدهوره المعنوى لا يرجع إلى إدارة السجن بقدر ما يرجع إلى طبيعته الطموحة التى تتأجج رغبة فى الوصول إلى القمة. وفى أن يصبح واحدا من هيئة السجن الحاكمة، فضلا عن أن نفوره

الشديد من أن يكون مجرد سجين عامل يكدح وينصب حفزه إلى استرضاء السلطة المسئولة عن إدارة السجن.

وبسبب فشله فى مهمة التخابر والتجسس على المساجين كلفته إدارة المعسكر بأداء الواجبات العامة المضنية غير أن اشتراكه فى أنشطة المعسكر الثقافية والتعليمية أتاح له فرص القراءة والتمثيل ومخالطة النساء المهتمات بالفنون بطريقة طبيعية. وفى يوم من الأيام نسى نفسه وهو يمثل دوره فى مسرحية أثيرة إلى قلبه بعنوان «الويل لصاحب الدعابة الذكية»، للكاتب جريبيوديدوف فارتفع صوته قائلا: «من هم آباء الوطن؟ أليسوا هم الذين يقومون بتكديس المغانم والأسلاب؟ »وما أن سمع المسئول عن السجن هذا حتى انتهره وأمره بالنزول من فوق خشبة المسرح. وساعده تخفيض رتبته وتحويله إلى الخدمة العامة بسبب فشله فى التبليغ عن زملائه على التعرف على مراكز السلطة والنفوذ الحقيقى فى المعسكر وعلى أساليب استغلال الأقوياء للضعفاء فيه. واتضح له أن المرأة السجينة أكثر تعرضا للضغط والاستغلال من الرجل فهى مطمع لشهوات رؤسائها الجنسية.

وترامى إلى سمعه أن بعض المعسكرات تضم فرقا مسرحية كاملة من الممثلين والممثلات والراقصات المحترفين والمحترفات وأن إدارة السجون تعفيهم من أداء أى عمل حتى يتفرغوا تفرغًا كاملا للتمثيل. فانبهر لهذا وأخذ يحلم بالانضمام إلى إحدى هذه الفرق. وسرت شائعة بين المساجين أن وزارة الداخلية السوفيتية فى الثلاثينات كانت تحتضن المواهب التمثيلية وتسعى إلى اجتذابها من السجون السوفييتية كافة تمامًا مثلما كان أصحاب الأراضى فى روسيا فى القرن التاسع عشر يتنافسون فى اجتذاب الموهوبين فى التمثيل بين رقيق الأرض من مختلف المناطق فى البلاد، لتكوين فرقة مسرحية يزهون بها. وبقدر ما كان النشاط المسرحى يخفف من كربه بقدر مّا كان يزيد أحيانا من هذا الكرب. فقد كان قائد المعسكر يؤوب إلي المعسكر في حالة سكر، بين وفى ساعة متأخرة من الليل ليطلب إلي الفرقة المسرحية أن تقدم إليه أحد عروضها. فيضطر أعضاؤها البائسون إلى الاستيقاظ من عز النوم ليمثلوا فى مسرح خال من النظارة باستثناء القائد السكير وبضعة من الحراس.

وفى معسكر بوابة كالوجا أمضى مؤلفنا تسعة أشهر بغيضة وصفها بأنها فترة من الفشل الرومى وصلت فيها حالته إلى الحضيض. وفى يوم ١٨ يولية ١٩٤٦ فوجىء سولجنتسين باستدعاءه على عجل إلى حجرة الحارس ومعه كل ممتلكاته. واستبدت به الحيرة والقلق لهذا الاستدعاء المفاجىء فلم يعرف إذا كان نذير شئوم أو بشير خير. وتم تبليغه بصدور أمر بنقله إلى سجن بيوتركى الذى سبق أن دخله ثم عرف أنه سوف ينقل إليه كسجين ذى مهمة خاصة دون أن يتبين طبيعة هذه المهمة الخاصة.

مراكز أبحاث داخل أسوار السجون:

نسى سولجنتسين أنه فى يوم من الأيام ملأ استمارة وزعت على المساجين بهدف حصر كفاءاتهم العلمية والاستفادة من تخصصاتهم المختلفة. وزعم مؤلفنا فى هذه الاستمارة أنه عالم من علماء الذرة أملاً فى أن تحسن الدولة معاملته وتلحقه بمعهد أبحاث تابع لأحد السجون. ولم يدر بخلده أن المسئولين فى وزارة الداخلية سوف يقبلون زعمه على عواهنه دون فحص أو تمحيص، واستغرقت إجراءات إعادته إلى سجن بيوتركى نحو أحد عشر ساعة فى التفتيش وحمامات البخار وحمامات الماء والأسئلة الروتينية عن اسمه ومكان وتاريخ ولادته .. إلخ: وعندما دخل الغرفة وجد نفسه فى زنزانة شديدة الحرارة والعفن (بسبب وجود خزان البراز فيها) لاتسع أكثر من عشرين شخصاً فانحشر فيها مع ما يقرب من ثمانين رجلا. وجد سولجنتسين نفسه وسط حشد كبير من العلماء والباحثين فى التخصصات كافة، فى الفيزياء والكيمياء والرياضيات والهندسة والتصميمات.. خامره شعور بأنه دعى ليس له مكان بين هؤلاء العلماء. وسرعان ما اقترب منه رجل وقور عرف نفسه بأنه البروفيسور تيموفييف - رسوفسكى رئيس الجمعية العلمية للزنزانة رقم ٧٥ وطلب منه رئيس الجمعية أن يلقى محاضرة على أعضائها الذين يجتمعون كل صباح تحت النافذة من ناحية اليسار بعد توزيع حصة الخبز عليهم، وأسقط فى يده فهو مجرد خريج من الجامعة درس الرياضيات والفيزياء ولاعهد له بالدراسات العليا. ولكن الحيلة أسعفته فقد كان قد انتهى من قراءة ترجمة لتقرير أعدته الحكومة الأمريكية بشأن الآثار المترتبة على انفجار أول قنبلة ذرية، فتبادر إلى ذهنه أن يلقى محاضرة فى هذا الموضوع ووافق البرفيسور تيموفييف على اقتراحه ورغم أنه اتضح له عند إلقاء المحاضرة أن تيموفييف كان يعرف عن الموضوع الذى يتحدث فيه أكثر مما يعرف هو شخصيا فقد استقبل المجتمعون محاضرته بالاستحسان بوجهٍ عام. الأمر الذى أدى إلى قبوله عضوا فى جمعيتهم، وأتاح له انضمامه إلى هذه الجمعية فرصة الاشتراك مع أعضائها فى لعب الشطرنج والقراءة الممتعة وحضور الحفلات الموسيقية والمحاضرات والندوات. ورغم العلاقات الطيبة الودية التى كانت تربطه بأعضاء الجمعية فقد احتدم الخلاف بينه وبين قس أرثوذكسى

من أعضائها حول المذهب الماركسي الذى كان حتى ذلك الوقت لا يزال مؤمنا به . ورغم أن حماسه للماركسية لم يعد بالدرجة نفسها من القوة والحرارة السابقة فإنه دافع عنها بشيء من الحماس ضد هجوم هذا القس الضارى عليها . وبعثت حيوية المناقشات التى دارت بين أعضاء الجمعية فى مؤلفنا الرغبة فى تلاوة الشعر وإقراضه فتلا عليهم بعض قصائد ياسنين الأثيرة إلى قلبه . كما ألف مجموعة من القصائد عن حياة السجون مثل «أول طرد تسلمته» و «إلى زوجتى» و «إلى ولدى».

عندما أدركت السلطات السوفيتية مدى ما أصاب التقنية السوفيتية من تأخر وانهيار نتيجة الزج بالخبراء والعلماء والمهندسين فى غياهب السجون فكرت فى الثلاثينيات فى الاستفادة من تخصصات المساجين المتنوعة عن طريق إنشاء مراكز للبحث العلمى داخل أسوار السجون ويعتبر معهد الأبحاث الذى أقامه البروفيسور ليونيد رامزين من أول هذه المعاهد وأفضلها . وعين البروفيسور رامزين الذى كان يتعاون تعاونا وثيقا مع أجهزة وزارة الداخلية رئيسا لمعهد دراسة الكهرباء الحرارية ضم إليه نخبة من السجناء الخبراء . واستطاع رامزين أن يتوصل فى مجال الكهرباء الحرارية إلى اختراع اعترفت بأهميته الدوائرالعلمية والعالمية ، الأمر الذى دفع الدولة السوفيتية إلى العفو عنه ومنحه جائزة . وفى مجال الهندسة استطاع المساجين المهندسون أن يدخلوا سلسلة من التطويرات على قاطرات السكة الحديد وفى صناعة المدافع والدبابات . ولكن أعظم منجزاتهم على الإطلاق يتمثل فى الدور الكبير الذى لعبوه فى تطوير صناعة الطائرات فى فترة محاكمات التطهير بين عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ عندما ألقى القبض على عدد كبير جداً من مهندسى الطيران ومصممى الطائرات وعلى رأسهم المهندس النابغة أندريه توموليف الذى اتهمته السلطات السوفيتية ببيع بعض تصميمات الطائرات للأعداء ، الألمان . ونجم عن هذه السياسة الباغية أن انهارت صناعة الطائرات فى الاتحاد السوفيتى فلم يجد المسئولون مناصا من إقامة مصانع الطائرات ومعاهد أبحاثها داخل إسوار السجون ومعسكرات العمل وإسناد الإشراف عليها إلى المتخصصين من بين المسجونين واستدعى المسئولون المهندس توبلوف وطلبوا منه أن يعد كشفاً بأسماء مهندسى الطيران الذين يعرفهم وأن يرأس فريقا بحثياً منهم . وتمكن هذا الفريق من العلماء من تطوير صناعة الطائرات خاصة الطائرات العسكرية قبل نشوب الحرب العالمية الثانية . وفى صيف عام ١٩٤١ تم إطلاق سراح توبولوف ومن بعده عدد آخر من المهندسين بسبب الخدمات الجليلة التى قدموها لصناعة الطائرات . وفى نهاية الحرب تم نهائيا إغلاق معهد أبحاث الطائرات الذى يعملون فيه بالقرب من موسكو.

ولكن هذا لم يكن معناه بحالٍ من الأحوال نهاية إنشاء مراكز الأبحاث داخل السجون السوفيتية فبعد انتهاء الحرب أقام السوفيت - على بعد نحو مائة وستين ميلا من الشمال الشرقى لموسكو معهداً يعرف باسم «بولشيفو» لتطوير تكنولوجيا الصواريخ . وفى سبتمبر ١٩٤٦ عين سولجنتسين فى ذلك القسم من المعهد الذى تخصص فى إنتاج محركات الطائرات النفاثة حيث مكث هناك خمسة أشهر . وأبلغه المسئولون أن يستعد للانتقال إلى معهد آخر سوف يفتح قريباً فى زاجورسك . وبطبيعة الحال راقت له هذه الحياة الجديدة فى معاهد السجون فقد تحسنت ظروفه المعيشية تحسناً ملحوظاً فأصبح الآن يتمتع بقدر أكبر من الراحة ونوع أفضل من الطعام . وفى زاجورسك تم تعيينه أميناً للمكتبة ، وهناك تعرف إلى ضابط بحرى برتبة نقيب استطاع عن طريق النصب والادعاء أن يقنع إدارة السجون بأنه مخترع عظيم حتى تنقله من عمله المضنى فى أداء الواجبات العامة إلى حياة فيها شيء من الراحة والدعة. فكان هذا الدعى يقترح القيام بأبحاث علمية تنتهى دائمًا بالإخفاق والفشل بغية تفادى - بقدر الإمكان - العودة إلى أداء الواجبات المضنية ومن بين مشروعاته العلمية الفاشلة استحداث اختراع من شأنه تحويل أشعة الرادار عن مسارها . وكان سولجنتسين مكلفا بأن يعمل له الحسابات الرياضية اللازمة لاختراعه الوهمى . ورغم هذا فإن مثل هذا الأسلوب الذى اتبعته السلطات السوفيتية مع المساجين العلميين حفز الكثير منهم على إظهار مواهبه طمعاً فى أن ينجو بنفسه من مشقة العمل المضنى فى معسكرات العمل.

وكذلك استفاد الاحتلال السوفيتى من احتلاله لألمانيا الشرقية فنقل منها مصانع بأكملها إلى الأراضى السوفيتية . وعن طريق تقليد الصناعات الألمانية عرف السوفيت لأول مرة صناعة الساعات الدقيقة وساعات الحائط والكاميرات الحساسة ، وأحدث صيحة فى صنع أجهزة التسجيل والراديو إلخ ...

فضلا عن أنهم نقلوا إلى بلدهم مالا يقل عن ستة الاف ألمانى مع عائلاتهم إلى روسيا لإنتاج الصواريخ والعمل فى مجال تكنولوجيا الفضاء . وحتى تستفيد السلطات السوفيتية من أسرى الحرب من المهندسين إلى أقصى حد ممكن وزعت عليهم استبيانات عن تخصصاتهم الدقيقة والوظائف التى كانوا يحتلونها قبل وقوعهم فى الأسر . وعهد إلى سولجنتسين بترجمة هذه الاستبيانات وتقييمها . ولكن يبدو أن هذه الفكرة لم يكتب لها النجاح لأن أسرى الحرب الألمان تعمدوا تضليل السوفيت وإخفاء المعلومات الصحيحة عنهم.

ولعل أهم حدث فى حياة سولجنتسين فى فترة بقائه القصيرة فى زاجورسك اكتشافه على رفوف المكتبة ، وجود المعجم الذى وضعه فلاديمير داهل فى أربعة أجزاء فى القرن التاسع عشر (والذى كانت خالته إيرينا أهدته نسخة منه فى طفولته) . والمدهش أن هذا المعجم الحجة فى اللغة الروسية من وضع رجل ينحدر من أصل دانيماركى نذر حياته لتنقية اللغة الروسية من أية روافد عليها سواء أكانت لاتينية أو فرنسية أو ألمانية . ومن ثم توفر على دراسة الفولكلور الروسى والأمثال الروسية التى تجرى على ألسنة الناس . ومن فرط إعجاب مؤلفنا بهذا المعجم قرر أن يطالع صفحة أو صفحتين منه كل يوم ، ثم يقوم باستظهار ما فيه من تعبيرات وألفاظ غير مألوفة كنوع من ممارسة الرياضة الأدبية ولم يكن يهمه حفظ الكلمات فى حد ذاته بل سعى إلى استيعاب روح اللغة الروسية والانغماس فيها . وذهب إلى حد نقل بعض أجزاء هذا المعجم فى كراسات كاملة سماها «مختارات من داهل» .

وبعد زاجورسك أعيد سولجنتسين فى أوائل يولية ١٩٤٧ إلى سجن بيوتركى الذى انتقل منه وأعيد إليه أربع مرات ، ليمكث فيه آخر مرة فترة وجيزة قبل نقله فى ٩ يولية من العام نفسه إلى سجن مارفينو فى ضواحى موسكو الشمالية حيث أودع فى «السجن الخاص رقم ١٦» كان مارفينو قبل تحويله إلى سجن، ديرا قديما للنسك والعبادة (صوره سولجنتسين تحت اسم مارفينو فى روايته «الدائرة الأولى») ولاشك أن مؤلفنا كان محظوظا فى ذلك السجن الجديد ، فهو أكثر راحة من أى سجن آخر عرفه حتى الآن وأتيحت له فرصة التجول بحرية فيه والرقاد على حشائشه والسماع بوضوح لمحطة ال بى.بى.سى. البريطانية لأن التشويش على المحطات الإذاعية لم يكن معروفًا حينذاك وفوق هذا كله احتفظ مؤلفنا فى سجنه الجديد بوظيفة أمين المكتبة .

واستغرق إعداد معهد سجن مارفينو المعامل اللازمة للأبحاث فيه نحو ستة أشهر . وأحضر السوفيت كل معداته وأثاثه خصيصا من ألمانيا واضطلع سولجنتسين بمهمة فرز مجموعة الكتب والمجلات الفنية المنشورة باللغات الروسية والإنجليزية والألمانية المتصلة بعمل هذا المعهد ، وتولى تصنيفها إلى جانب القيام بترجمة بعض منها ، واضطلع المعهد فى بدايته بمشروع بحثى يهدف إلى اختراع جهاز لاسلكى متحرك يمكن لرجال الشرطة استخدامه وفى أرجائه التقى مؤلفنا برجلين تركا أثراً لا يمحى فيه وأصبحا من أعز أصدقائه وهما ديمترى بانين وليف كوبليف . يقول المهندس بانين أنه أحب سولجنتسين من أول مقابلة معه حتى قبل أن يتبادلا الحديث معا فقد أحب فيه وجهه الواضح الصريح وعينيه الزرقاوين الجريئتين . ولم ينس بانين قط أول عبارة تفوه بها مؤلفنا أمامه إذا قال له : فى أثناء هبوطى الدرج ماذا كان يمكننى أن أرى فى ظلام الصالة غير وجه أيقونة تحمل صورة مخلصنا يسوع المسيح . وتصور رواية «الدائرة الأولى» شخصية بانين بقامته المديدة ووجهه الوسيم الذى يشبه فارسا من القرون الوسطى بانين الذى يكبرسولجنتسين بست سنوات ـ قطاعات الحرب الأهلية فى طفولته ، فلا غرو أنه كره النظام البلشفى من سويداء قلبه . ومما زاد من كراهيته له مارآه من اضطهاد منظم للمهندسين فى أوائل الثلاثينيات ، ويبدو أن واحداً من زملائه المهندسين وشى به لدى السلطات الأمر الذى أدى إلى الحكم عليه عام ١٩٤٠ بالحبس لمدة خمسة أعوام فى معسكر للعمل ثم صدر حكم آخر ضده عام ١٩٤٣ يقضى باستمرار حبسه عشرة أعوام أخرى بتهمة نشر الدعاية الانهزامية .

كان بانين قد أمضى فى معسكرات العمل فى القطب الشمالى سبعة أعوام قبل أن يلتقى بسولجنتسين ورغم الأهوال التى مر بها فى هذه المعسكرات فإنه استطاع أن يتحملها ويخرج منه سليم الجسد والعقل معا .

أما السجين الآخر ليف كوبليف (الذى رسمه مؤلفنا فى شخصية ليف روبين فى «الدائرة الأولى») فكان على النقيض من بانين فهو عضو فى الحزب الشيوعى يؤمن بالماركسية إيمانا شديدا ويؤازر النظام مؤازرة كاملة . ومع ذلك فقد ألقى القبض عليه فى جبهة القتال نفسها وفى الظروف و بالتهم نفسها التى قبض فيها على سولجنتسين ولم يفت السجن فى عضده بل زاده تحمسا للنظام الشيوعى وولاء له وتفاؤلا بالمستقبل واقتناعًا بأن سلسلة الاعتقالات ومحاكم التطهير التى تحدث أمام عينيه لاتعدو أن تكون سحابة صيف عما قريب تنقشع. عرف بانين وكوبليف بعضهما البعض فى سجن بيوتركى حيث تقابلا لأول مرة وهناك استطاع كوبليف ـ رغم التباين الواضح فى آرائهما ـ أن ينتزع حب بانين له ، وأن يلمس شغاف قلبه بكرمه ونبل أخلاقه فعندما تسلم كوبليف من أهله طرداً يحتوى على شىء نادر هو رغيف من الخبز الأبيض كسره هذا الرجل نصفين واحتفظ لنفسه بالنصف وأعطى لبانين النصف الآخر . فلا غرو إذا رأيناه يلح على قائد سجن مارفينو أن يستدعى كوبليف من سجن بيوتركى للاستفادة به فى المعهد رغم أنه ليست له أية صلة بالجوانب الفنية أو التقنية اللازمة للعمل فيه ، فهو بحكم تخصصه مؤرخ أدبى وفقيه لغوى يتقن عدة لغات من بينها اللغة الألمانية ، وفى فترة التحاقه بالجيش السوفيتى تولى كوبليف مهمة القيام بدعاية مناهضة للنازية خلف خطوط الجيش الألمانى من أجل تحطيم معنوياته

ويرجع السبب فى القبض عليه إلى اعتراضه على السياسة القاسية التى انتهجتها القوات السوفيتية فى الأراضى الألمانية المحتلة ومقاومة أعمال الإرهاب والنهب والسلب التى تمارسها هذه القوات، الأمر الذى جعل بنى جلدته يتهمونه باللين والرخاوة مع العدو. وفى بادئ الأمر لم يصدق سولجنتسين أن ظروف هذا الرجل تصل فى تشابهها مع ظروفه إلى حد التطابق ، فظن أن كوبليف مدسوس عليه لمراقبته والتبليغ عنه. غير أن الشك الذى ملأ قلبه سرعان ما تبدد وساعد مقت الرجلين المشترك لأعمال العنف والنهب فى الأراضى الألمانية المحتلة على أيدى الجنود السوفيت على تقوية روابط الود والصداقة بينهما واستمع مؤلفنا للحكايات التى رواها كوبليف له عن هذه الأعمال البغيضة فى قصيدته السردية «ليال بروسية»، وتوثقت علاقة الرجلين أكثر وأكثر بسبب شغفهما المشترك بقراءة الصحف والإنتاج الأدبى. كان كوبليف محاضرا شابا فى معهد موسكو للفلسفة والأدب والتاريخ فى الفترة نفسها التى كان سولجنتسين طالبا بالمراسلة فيه. وعندما اكتشف كوبليف فى مارفينو حماس مؤلفنا لمعجم داهل وتاريخ اللغة الروسية ساعد المكتبة على اقتناء مجموعة كاملة من هذا المعجم ، وعندما أنتقل سولجنتسين إلى آسيا الوسطى حرص على أن يأخذ معه الجزء الثانى من هذا المعجم فى حين احتفظ صديقه كوبليف بالأجزاء الثلاثة الأخرى ، وعندما اجتمع شمل هذين الصديقين فى الخمسينيات سلمها كوبليف إلى سولجنتسين حتى يحتفظ بالمجموعة كاملة. وزاد من قرب هذين الصديقين والتصاقهما إيمان كليهما بالحزب الشيوعى والماركسية اللينينية واعتقادهما أن القبض عليهما لا يرجع إلى فساد النظام البلشفى بل إلى فساد بعض أجهزته والقائمين عليها . ولم يكف كوبليف أن يحلم بقرب موعد العفو عنه فى حين أن سولجنتسين الذى اتسم بواقعية أكثر من مثل هذه الأحلام . أما بانين الذى فاق مؤلفنا فى نظرته الواقعية فقد بلغ حد التشاؤم المطبق وآمن أن النظام السوفيتى لن يسمح لهم بالخروج حتى يخفى أسرار معسكرات العمل وما يدور فيها عن العالم الخارجى . كتب سولجنتسين إلى زوجته ناتاليا يقول : «كلما بدءوا يتحدثون عن العفو العام ترتسم على وجهى ابتسامة ملتوية وأبتعد عنهم».

وهكذا وجد سولجنتسين نفسه منجذبا نحو مجالين مغناطيسيين متعارضين كل التعارض . فصديقه كوبليف يرضى فيه الرغبة فى التصديق والإيمان بسلامة النظام البلشفى فى حين كان صديقه بانين يستحثه للشك فى سلامته مستخدما فى سبيل ذلك منهجا عقلانيا باردا فى الاستقصاء والتحليل والاستدلال وبات من الواضح أن خبرة بانين فى السجون ومعسكرات العمل خبرة نادرة ليس لها نظير فقد عرف سجون الشرق الأقصى والشمال القطبى والأورال وروسيا الأوروبية . وهناك نقطة أخرى راقت له فى بانين هى حرصه البالغ على الوصول باللغة الروسية إلى أقصى درجة من النقاوة بالسعى إلى استبعاد كل ما يشوبها من ألفاظ أجنبية وافدة عليها من اللغات الأخرى ومعنى هذا أن بانين آمن بالسلافية فى مجال اللغة الروسية حتى المنتهى وصولا بها إلى أعلى درجة من الوضوح والدقة فى التعبير وهو شيء قريب مما جذب مؤلفنا إلى التوفر على دراسة معجم داهل وإلى اهتمامات صديقه كوبليف الفيلولوجية ، ورغم أن مؤلفنا يتهكم على نظريات بانين فى اللغة ويعارضها فى روايته «الدائرة الأولى» فإنه يفعل ذلك بشيء من العطف وعلى أية حال لم يكن بانين متخصصا فى اللغة الروسية مثلما كان كوبليف متخصصاً فيها، وتناوب سولجنتسين وكوبليف فى تلاوة الشعر ومنه بعض قصائد ماياكوفسكى و ياسنين التى ألقاها أديبنا على نحو مؤثر . وتنبه بانين منذ البداية إلى ما فى طبيعة سولجنتسين من تناقض فهو منذ طفولته يتسم بالرغبة التلقائية فى مشاركة الناس احتفالاتهم ومخالطة الرجال فى ضحكاتهم المتعالية وصخبهم الشديد، ولكنه فى الوقت نفسه ينزع إلى الزهد والتقشف وقهر النفس، يقول بانين عن مؤلفنا إنه حين يترك نفسه على سجيتها كان يفيض بالحيوية المتدفقة ويطلق النكات الطلية غير أن إحساسه بالدعابة كان يتلاشى عندما يتغلب عليه ذلك الجانب البيوريتانى فى طبيعته «فيحزن على أنه يضيع وقته فيما لا يجدى أو يفيد ، وكان يتوق فى كثير من الأحيان إلى الانفراد التام بنفسه ويكره أن يقطع عليه أحد خلوته»، وكان من عادة الأصدقاء الثلاثة سولجنتسين وبانين وكوبليف ـ الذين سموا أنفسهم الفرسان الثلاثة ـ أن يتناوب اثنان منهما للحيلولة دون أن يقتحم أحد خلوة زميلهما الثالث .

وفى مارفينو استعاد سولجنتسين رغبته فى الكتابة الخلاقة وإعادة التفكير فى وضع الرواية التى كان فى صدر حياته يحلم بتأليفها عن قصة الثورة البلشفية . ولكن ثقته الباكرة بنفسه وفى عظمة هذه الثورة بدأت تزايله ، فأصبح الآن أكثر شكا فى قدراته الأدبية وفى روعة الثورة البلشفية والتجأ إلى كوبليف للوقوف على المزيد من المعلومات عن هذه الثورة لأنه عرفها عن كثب وخبر أحداثها . وليس أدل على أنه بدأ يشك فى عظمة الثورة من أنه طلب إلى صديقه كوبليف أن يروى له الحقائق كاملة دون نقص أو زيادة بلا مبالغة أو تزويق، حتى صورة لينين الناصعة بدأت تهتز أمامه فهو الآن يتساءل : هل صحيح أن ستالين

وحده هو المسئول عن كل ما حدث من أخطاء؟! وهل صحيح أنه لو قيض للينين أن يعيش لما حدثت المجاعات والمزارع الجماعية ولما أبيدت طبقة الكولاك؟ واختلف سولجنتسين مع كوبليف فى نظرته إلى ستالين فقد لاحظ مولفنا أن صديقه يحمل إعجابا عظيما به لأسباب استعمارية محضة، فاحترامه لستالين رجع إلى أنه الحاكم القوى الذى استطاع أن يعيد إلى روسيا سالف عظمتها واتساعها. ورفض سولجنتسين أن يقر زميله على هذه النعرة القومية والزهو الاستعمارى ومن جهة أخرى بدأت الشكوك تراود مؤلفنا فى سلامة فكرة الحتمية التاريخية وهى إحدى ركائز التفكير الماركسى بالرغم من هذا كله فأنه لم يخطر على بال مؤلفنا أن يرفض المذهب الشيوعى أو الفكر الشيوعى برمته ولهذا نراه يقف فى صف كوبليف ضد صديقهما الثالث بانين الذى رفض الفكر الماركسى والثورة البلشفية من أساسهما.

وأراد سولجنتسين أن يجد مخرجًا لمحنته الناجمة عن شكوكه فى الشيوعية فالتجأ إلى فلاسفة الشرق وحكمائه مثل لاوتسى الفيلسوف التاوى الصينى (الذى سبقت دعوته إلى السماحة ومقابلة الشر بالخير دعوة المسيحية لها) يلتمس لديهم الحكمة والحجى ولهذا فقد كان يصطحب معه باستمرار بعيدا عن أنظار زملائه كتابا يتضمن بعض مأثورات هؤلاء الحكماء وتعاليمهم، وذهب سولجنتسين إلى أن الماركسية فشلت فى أن تشد من أزر ستالين فى مقاومة الغزو الألمانى. فقد اضطر إلى التخلى عن الدعاية البلشفية والتجأ إلى الشعور الوطنى الغائر فى نفوس الروس وليس إلى المبادئ الماركسية ودعوتها المزعومة إلى الدولية الزائفة فضلا عن أنه بدأ يتشكك فى الدور السيئ الذى لعبه اليهود والأجانب من غير الروس فى السياسة التى انتهجها الحزب الشيوعى يقول كوبليف إن سولجنتسين آمن أن كل التروتسكيين فى العشرينيات والثلاثينيات كانوا من اليهود فى حين أن أنصار بوخارين كانوا من الروس. وعلى أية حال بلغ إعجاب مولفنا بكل من صديقيه مبلغا جعله يكتب إلى زوجته قائلا: «إنه من الطبيعى أن يترك من كانوا فى مثل عقليتهما وتعليمهما وخبرتهما أثرا عميقا فى شاب لا يعدو بوجه عام أن يكون ريفيا ذا خبرة ضئيلة بالحياة. ويعترف بجميلهما عليه فيقول إنه تعلم على يديهما أكثر مما تعلم فى جامعه روستوف واعتبر سولجنتسين السجون والمعسكرات مدرسته الحقيقية وأسعده أن يعيش بين هؤلاء المساجين المتعلمين لأنه ناقش معهم أخطر الموضوعات بصراحة وحرية تامة مثل، محاكم التطهير والمزارع الجماعية، فى حين أنه لو كان يعيش خارج الأسوار لما تجرأ أن يعالجها بمثل هذه الحرية والصراحة.

كانت القيود المفروضة على معهد السجن فى مارفينو أقل بكثير من القيود المفروضة على غيره من السجون فنزلاؤه من ذويهم يمرون بعد مرورهم على رقيب السجن فضلا عن القرب الشديد لهذا السجن من مدينة موسكو حيث انتقلت ناتاليا لاستكمال دراستها العليا فى الكيمياء. وشعر مؤلفنا بالإحباط لعدم قدرته على رؤية زوجته بعد وصوله مباشرة إلى سجن مارفينو فى يولية ١٩٤٧. وحيث أن السلطات السوفيتية كانت ترغب فى الاحتفاظ بمكان ونشاط هذا السجن سرا فإنها لم تسمح للسجناء بمقابلة ذويهم فيه. بل كانت تسمح لهم بهذه المقابلات فى سجن آخر فى موسكو اسمه سجن باجانكا بعد أن يخلعوا ملابس السجن ليرتدوا الملابس المدنية وهو ماتصوره لنا روايته «الدائرة الأولى» ورغم أنه كان محظورا على السجناء أن يدلوا بأية معلومات عن مكان هذا السجن الجديد فإن زوجات المساجين ومن بينهن ناتاليا كن على علم بمكانه ومن ثم نراها ترافق افجينيا زوجة بانين التى تعرفت إليها أثناء وجودهما معا فى غرفة الانتظار إلى حديقة مجاورةٌ للسجن على أمل أن ترى كل من الزوجتين زوجها وهو يمشى أو يتريض أو يلعب الكرة الطائرة فى ملعب السجن. وكان أول لقاء بين سولجنتسين وزوجته يفيض عذوبة ورقة ومضى عام كامل قبل أن تسمح السلطات لناتاليا أن ترى زوجها للمرة الثانية.

فى أول لقاء مع زوجها فى صيف ١٩٤٧ كانت ناتاليا تستكمل رسالة الدكتوراه فى الكيمياء التى حصلت بفضلها بعد مرور عام تقريبا على هذه الدرجة العلمية. ولكن هذا النصر الأكاديمى لم يمنعها من إشباع هوايتها الأصلية للموسيقى والعزف على البيانو بوجه خاص. وبالرغم من ازورار مؤلفنا السابق عن الموسيقى فقد بدأ فى مارفينو يستهويه سماعها عبر الأثير إلى الحد الذى جعله من وراء الأسوار يلح على زوجته كى تخفف بعض الشىء من اهتمامها بالكيمياء وتزيد اهتمامها بالموسيقى التى نصحها باحترافها وفى تلك الفترة من حياتهما شعر الزوجان - رغم بعدهما عن بعض من الناحية الجسدية - أنهما أشد مايكونان قربا والتصاقا فلا غرو إذا رأينا سولجنتسين قبل مقابلته الثانية مع زوجته فى يونية ١٩٤٨ (أى قبل مناقشتها رسالة الدكتوراه بثلاثة أيام فقط) يستعد لهذا اللقاء كعاشق ولهان يتحرق شوقا للقاء حبيبته ويحرص على تصفيف شعره وتلميع حذائه. وفى لقائهما الثانى عام ١٩٤٨ ذكر مؤلفنا لزوجته إنه فوجئ بوصول صديقهما القديم نيكولاى فيتكفتش الذى ألقى القبض عليه فى ابريل ١٩٤٥

(عقب القبض على سولجنتسين) وصدر ضده حكم من محكمة عسكرية بالسجن لمدة عشر أعوام وبات من الواضح رغم كل ما يجمعهما من تمرد مشترك على النظام السوفيتي أن طريقهما لم يعد واحدا. ففي حين ظل مؤلفنا مشغولا بقضايا الاشتراكية والماركسية والدور الذي لعبه كل من لينين وستالين أصبح نيكولاى فيتكفتش رغم مقته للستالينية ومظاهر الحياة السوفييتية لايطمع في شيء سوى أن يعيش حياته الخاصة في هدوء وسكينة بعيدا عن خضم السياسة وتقلباتها.

ولاحظ مولفنا أن شعار نيكولاى في الحياة أصبح (نحن نعيش الحياة مرة واحدة فلماذا لانعيشها وليذهب كل شيء آخر إلى الجحيم) ولاحظ أيضا أن رغبته في الحياة الهادئة جعلته يميل إلى شخصية كوبليف ولاتروق له شخصية بانين المثالية التي تتسم بالتمرد والرفض اللذين يجران في أعقابهما أوخم العواقب وعلى العكس من ذلك شعر مؤلفنا أن ميله السابق لشخصية كوبليف قد تغير عن ذي قبل فقد صار الآن يميل إلى شخصية بانين التي أخذت دينا ميكيتها وقدرتها على الصمود والتحدي في مجالات الفكر والسياسة تروق له. ويحدثنا أديبنا عن هذا التغير الحيوي الذي طرأ عليه بقوله:

«من ناحيتي لم أكن قط قادرا على الابتعاد عن السياسة أو التخلي عن معتقداتي. صحيح أنني تعودت الدفاع عن الماركسية في الأيام الأولى من سجني ولكنه اتضح لي عجزي عن ذلك فقد أثيرت ضدي محاجات قوية للغاية كما جاءتني اعتراضات من أناس يتمتعون بالخبرة العميقة، الأمر الذي جعل الدفاع عن الماركسية أمرا مستحيلا وكانوا يهزمونني في كل مرة أقارعهم الحجة بالحجة. وهكذا بدأت بالتدريج أبتعد عن الماركسية وكنت في سجني الأخير أعبر عن تشككي فيها في حين أن الواقع أنني لم أعد أؤمن بها أصلا. وعلى أية حال شعرت بالارتياح لاتخاذي هذا الموقف: اتركوني وشأني فلست أؤمن بشيء كما أنني لا أعرف أي شيء وأثناء وجودي في سجني الأخير أخذت أتخلى تدريجيا عن تشككي كما أنني في حقيقة الأمر بدأت بالتدريج في العودة إلى المفاهيم الأصلية التي تكونت لدي في طفولتي. ومن خلال قراءة ديستوفسكي بدأت بالفعل أتحرك ببطء وثبات في المقام الأول نحو موقف يتسم بالمثالية كما يسمونها... أي نحو الإيمان بسيادة الروح على المادة، وهو موقف وطني وديني في المقام الثاني. وبمعنى آخر عدت بالتدريج وفي بطء إلى آرائي السالفة كافة وأفكاري الباكرة.

وإذا كانت جذوة علاقة سولجنتسين بصديقه القديم نيكولاى خمدت بحيث لم تترك أية بصمات واضحة على روايته «الدائرة الأولى» فقد نشأت علاقة جديدة شديدة الدفء بينه وبين رسام أودعته السلطات سجن مارفينو إسمه سيرجي إيفاشوف موساتوف حتى يرسم صورة كل شهر لتزدان بها جدران السجن.

ويرجع السبب في الحكم عليه لمدة خمسة وعشرين عاما إلى أن السلطات ضبطته متلبسا باستماع قراءات من رواية مناهضة للنظام السوفييتي ألفها دانييل أندرييف، وتدل «الدائرة الأولى» ، على أن الطابع الديني .. للوحات هذا الصديق الفنان راق له رغم عدم ارتباطه لافراطه في العاطفية وجنوحه إلى الرومانسية. وكذلك توثقت علاقة مؤلفنا بالمهندس نيكولاى سيميونوف (واسمه بروتابوف في الرواية المشار إليها) الذي كان واحدا من المسئولين عن إقامة محطة دانيبير الشهيرة للطاقة الهيدروليكية في عهد ستالين. ورغم أن ولاء هذا المهندس للنظام الستاليني أمر لا يرقى إليه شك، وأنه رفض رفضا باتا أن يتعاون مع الألمان عندما وقع في أسرهم، فقد اتهمه السوفييت عند عودته إلى بلده بالخيانة وإفشاء الأسرار للعدو. وصدر عليه حكم بالسجن لمدة عشرة أعوام. والجدير بالذكر في هذا الصدد أن سولجنتسين لم يجد في تلك الفترة من حياته غضاضة في الاحتفاظ بالعلاقات الطيبة مع الذين يختلفون معه من الناحية السياسية ويؤيدون النظام السوفييتي المقيت . فقد بدأ يهتم بالنواحي السياسية. كما أنه سعى إلى توثيق صلاته بسجين آخر وهو رجل بسيط اسمه سبيريدون الذي تولى مهمة قطع الأخشاب من أجل تدفئة المساجين. فهو من ناحية يرى في مثل هذه العلاقة سبيله إلى اكتساب الحكمة على أيدي العاديين والبسطاء من البشر، وهو من ناحية أخرى يتعلم عن طريقه اللغة الروسية النقية الأصيلة كما يستخدمها البسطاء في حياتهم اليومية، وهو ما نراه بجلاء في بعض صفحات روايته «الدائرة الأولى» التي تصور سيرة حياة سبيريدون من خلال استخدام هذه الحيلة الأدبية نفسها في روايته «يوم في حياة دينيسوفتش».

وفي سجن مارفينو أكمل سولجنتسين قراءة «الحرب والسلام» لتولستوي التي عاب عليها أسلوبها الذي عفا عليه الزمن. ولحسن حظه أن امتلأت مكتبة السجن بالكتب ودواوين الشعر التي قرأها بنهم شديد ومن بينها أعمال داروين وتورجنيف وألكسي تولستوي وتيوتشيف وفيت ومايكوف وبولونسكي وبلوك وإلف وبتروف وأناتول فرانس وفيودور ديستوفسكي الذي اكتشف روعته عندما أعاد قراءته . وفي تلك الفترة من حياته توفر على نظم كثير من القصائد بتشجيع من صديقه كوبليف الذي يقول: إنه قرأ وناقش معه قصائد لبوشكين وجميلوف وباسترناك وسيمونوف . ولكن مؤلفنا تأثر

تأثيرا خاصا وعميقا بثلاثة شعراء هم نيكولا نكراسوف والكسندرتفاردوفسكى وياسنين. وأيضا استمتع هذان الصديقان بالاستماع عبر الأثير إلى نفر كبير من الموسيقيين الرومانسيين أمثال شوبان وجلنكا وماسورجسكى وتشايكوفسكى وبيتهوفن الذين فضلهم على الكلاسيكيين من مؤلفى الموسيقى. وانغمس مؤلفنا فى مشاهدة الأفلام التى يعرضها السجن على نزلائه. ويبدو أن تجربة السجن جعلته مفرطا فى حساسيته لآلام الآخرين وعذابهم. فهو يقول فى هذا الصدد: «السنون تجرى نعم تجرى. ولكن إذا تحسن قلب الإنسان نتيجة ما يقاسيه من عناء وشقاء ويتطهر بهما فإن هذه السجون لم تضع هباء منثورا».

وبعد عيد ميلاده الثلاثين بفترة وجيزة سمحت له السلطات السوفيتية أن يقابل زوجته فى ١٩ ديسمبر ١٩٤٨ فشرحت له القيود الثقيلة الجديدة التى بدأت إدارة السجن فى فرضها حتى تضمن سرية التجارب التى يجريها الباحثون فى المعامل التابعة لها. وطلبت الجامعة من الباحثين فيها ومن بينهم ناتاليا أن يملأوا استمارة عن أهلهم وذويهم ولو أن ناتاليا ذكرت الحقيقة أو اسم زوجها لقامت الجامعة بطردها. لهذا فكرت فى السفر إلى مدينة أخرى بعيدا عن موسكو لتدون فى الاستمارة أنها غير متزوجة وشرحت ناتاليا لزوجها أبعاد هذه المحنة الجديدة التى تعيشها فتفهم موقفها وتعاطف معها وأعاد طرح فكرة الطلاق التى سبق أن رفضتها وقالت له ناتاليا إنه سوف يكون مجرد إجراء شكلى لن يؤثر بحال من الأحوال على عواطفهما أو علاقتهما ورغم هذا فقد اجتاحه ألم ممض وقتامة مظلمة أصابته فى الصميم، وهو ما تصوره لنا رواية «الدائرة الأولى»، وخروجا من ورطتها كتبت ناتاليا فى الاستمارة أنها زوجة سابقة و تقدمت بطلب للطلاق من سولجنتسين. واستمرت علاقتهما رغم ذلك كالسمن على العسل ويتبادلان العواطف الدافقة كالعادة وسره أن يسمع زوجته تشترك فى العزف فى حفل موسيقى فى الراديو تصادف إذاعته فى ذكرى مرور تسعة أعوام على زواجهما (فى ٢٦ ابريل ١٩٤٨) ودق قلبه من فرط فرحته وانفعاله. وبعد مرور ما يقرب من شهر استطاعت ناتاليا أن تقابل زوجها مرة أخرى فى ٢٩ مايو ١٩٤٨.

وفى الفترة التى سارت فيها ناتاليا فى إجراءات الطلاق من زوجها تغير الإشراف على سجن مارفينو وأسند إلى الكولونيل أنتون فاسيليف الذى نجد بعض جوانبه وسماته متمثلة فى شخصية ياكونوف فى «الدائرة الأولى»، وانصرفت جهود السجناء إلى اختراع تليفون متنقل يستخدمه ستالين وكبار معاونيه ولهذا كان فاسيليف مدير السجن مسئولا مسئولية مباشرة عن المضى قدما بهذا الاختراع أمام بريا رئيس المخابرات السوفيتية. وبعد فترة من السماحة والحرية أصبحت إجراءات الأمن فى سجن مارفينو أكثر تشددا عن ذى قبل وارتفعت ساعات عمل المساجين من ثمان ساعات إلى اثنتى عشرة ساعة، كما انخفضت ساعات التمرينات والترويض اليومية. وأعيد تنظيم العمل فعهد إلى بانين بوضع التصميمات الخاصة باختراع التليفون المتنقل كما عهد إلى سولجنتسين وكوبليف (الذين تركا عملهما كأمينين للمكتبة) بعمل دراسة إحصائية للخصائص الصوتية فى اللغة الروسية. وتولى كوبليف الجانب اللغوى والصوتى من هذه الدراسة فى حين اضطلع سولجنتسين بجانبها الإحصائى وحتى يتمكنا من إجراء أبحاثهما على الوجه الأكمل كانت أمينة المكتبة التى عينت حديثا بدلا منهما تحصل لهما على ما يشاءان من كتب ومراجع ونصوص أدبية من مكتبة لينين وأكاديمية العلوم، مما أعطاهما فرصة لقراءة الكثير من الأعمال الأدبية لأدباء مثل فكتور نكراسوف وكازاليفتش وبانوفا وبابايفسكى إلى جانب سيمونوف وفيرتا وسوفرونوف، وأثلج صدر مدير السجن فاسيليف أن مؤلفنا وزميليه استطاعوا أن يحققوا تقدما ملموسا فى أبحاثهم فأمر بنقلهم إلى معمل لدراسة توزيع الأصوات. وفى هذا العمل استطاع الصديقان سولجنتسين وكوبليف الانتحاء جانبا فى ركن هادئ حيث تمكنا بسبب استخدامهما المستتر للسماعات بحكم عملهما أن يستمعا إلى محطة الإذاعة البريطانية الموجهة باللغة الروسية من خلال مذياع مثبت مؤشره على هذه المحطة بصفة دائمة دون أن يلفتا أنظار الآخرين إليهما. كما أنهما كانا أحيانا يستمعان إلى الموسيقى الكلاسيكية أضف إلى ذلك أن إدارة السجن عينت بعض النسوة لمراقبة المساجين، وكن معظمهن يعاملن المساجين معاملة رسمية تماما غير أن البعض منهن لم يجدن غضاضة فى التودد إليهم وتبادل العواطف معهم. وأظهر كوبليف عاطفة متأججة نحو زوجة أحد الضباط أهملها زوجها كما أن سولجنتسين وقع فى غرام رومانسى مع حارسة أخرى يطلق عليها اسم سيموكا فى «الدائرة الأولى»، غير أنه أوقف علاقته بها قبل أن تتطور كما أن إدارة السجن جندت بعض المساجين للتبليغ عن زملائهم ومن بين الذين جندتهم لهذا الغرض دارس للرياضيات اسمه هرتزنبرج لعب دور العميل المزدوج فخسر ثقة إدارة السجن وثقة زملائه فيه غير أن علاقة سولجنتسين به لم تنقطع رغم علمه بطبيعة الدور التجسسى الذى يقوم به وبعد الإفراج عنهما استمرت الصداقة بين الرجلين حتى أوائل الستينيات وأصبح هرتزنبرج واحدا من

مـصـادر مـؤلفنا عن حـيـاة السـجـون والمعـتـقلات السـوفـيـتـيـة فى «أرخـبـيل الكولاج» فـضـلا عن أنه ضمن نشاط هذا المخبر فى التجسس فى «الدائرة الأولى».

وفى عام ١٩٤٩ بدأ النظام الستالينى فى اتخاذ المزيد من الإجراءات المتشددة مع نزلاء السجون وتضييق الخناق عليهم للقضاء على كل ما قد يعترض سبيله من عـوائق بعـد أن فـرغ من القـضـاء على أعدائه الألمان وفى تلك الفـتـرة دس أحـد زمـلاء ناتاليا لها لدى مسئولى الأمن فى جامعة موسكو فأصدرت قرارا بالتخلص منـهـا الأمـر الذى اضطرهـا إلى السـعى للحصول على وظيفة محاضر فى جامعة ريازان القريبة نسبيا من موسكو وراودتها فكرة احـتـراف الموسـيـقى وأرسل إليـهـا زوجها يشجعها على هذا غير أنها فضلت أن تستمر فى الاشتغال بتدريس الكيمياء وفى تلك المرحلة اجـتـاح سـولجـنتـسين احساس بالذنب نحـوها وأنه المسئول عن كل ما تتعرض له من متاعب ورغم أنه كان يشجعها على طلب الطلاق منه فقد كـان يذوب شـوقـا إلى أن يعـيش حـيـاتـه الأسرية تحت سقف واحد فقد كتب إليها آنذاك خطابا يقول فيـه : «يغمرنى لأول مرة بعد مرور كل هذه الأعوام الإحساس الرائع بأن الحـيـاة العـائليـة تنتظرنى فى مكان مـا خـارج الأسـوار ولا يمكن لـهـذه الحياة العـائلية أن تقوم لها قـائمة بدونك والبـيـت ليس له وجـود بدون أن تكونى ربته فهو موجود حيثما نعيش».

ورغم أن بانين اسـتـطاع أن يتـوصـل إلى نتائج إيجابية بشأن اختراع التليفون المتنقل فإنه احتفظ بها سرا لنفسه وأقدم على إحـراق التـصـمـيـمـات حـتـى يمنع السلطات السوفـيـتـيـة من الانـتـفـاع بـهـا، مـضـحـيًا بذلك بفـرص الإفـراج عنه. ويصور سولجنتسين موقف بانين الرافض للتعاون مع السلطة والمحتقر لها ولكل ما يمكن أن تثيب المساجين وتكافئهم به فى «الدائرة الأولى» وأعـجـب مـؤلفنا بـهـذا الموقف الشجاع واحتذى به فلم يعد يهمه أن ترضى عنه إدارة الســجـن أو تزور. وتحول سولجنتسين إلى سجين مشـاغـب يتـعـمـد بالإصرار على المطالبـة بحـقـه إحـراج هذه الادارة فـعلى سـبـيل المثـال تقـضى لوائح السـجن بصـرف خـمـسـة جرامـات من الدقيق يومـيـا تضـاف إلى حـسـابه وجـأر مـؤلفنا بالشكوى من أن حساءه يخلو من الدقيق فاضطرت إدارة السجن إلى تنفيذ اللوائح والاستجابة إليه. ورسم لـه الفنان إيفـاشـوف ـ مـوسـاتـوف داخل أسوار سجن مارفينو بورتريها بالقلم تميز بأن عينيه تشعان بنظرات التحدى.

وفى تلك الفترة من حياته أيقن مؤلفنا أن الحكم عليـه بالنفى بعـد إنهـائه مـدة السجن لن يتـغـيـر أو يـخـفـف ، فـاسـتـسلم لقدره ومصيره ونفض عن نفسه الأوهام ومن بينهـا الوهم الزائف بأن له زوجـة تخلص له وحياة عائلية تنتظره ، فـعاد من جديد يؤكد لها ضرورة أن تعمل على الطلاق منه وبعد انتقالها للعمل فى جامعة ريازان قابلت ناتاليا زوجها لأول مرة فى مـارس ١٩٥٠ وكانت ناتاليا من ناحيتها تخـفى عن المسـئـولين أنهـا مـتـزوجـة وتتـحـاشى إرسال الخطابات إلى زوجـهـا حتى تتـجنب ما قد يجر عليهـا ذلك من مشاكل وانشغلت بعملها الجديد فى تدريس الكيـمـيـاء بالجـامـعـة وكـذلك انشـغلت بالاشـتـراك فى إقامـة بعض الحـفـلات الموسيقـيـة وسار عملها المهنى على ما يرام فعينت رئيسا لقسم الكيمياء بالجامعة. وتجددت متاعب سولجنتسين التى انتهت بطرده فى ربيع ١٩٥٠ حين قام خبـراء سجن مـارفينو ومن بينهم سولجنتسين باختبار نتائج التجارب التى أجراها مدير السجن الكولونيل فـاسيليف على بعض الخطوط التليفونيـة التى اسـتـحـدثها فقد وجدوا أنها ضعيفة ولا تنقل الصوت بقوة ولم يسكت سـولجنتـسين على هذا العـيب الفنى وأمعن فى الحط من شأن صاحبها العلمى أمام الملأ .. وعبثا حاول صديقه كوبليف أن يرده إلى صوابه وينبهه إلى طيشه ونزقه ولكن مؤلفنا استرسل فى إهانة مدير السجن ظنا منه أنه يأمن من أى عقاب أو أذى بسبب كفاءته فى العمل المشهود لها واعتقاده بشدة حاجة أبحاث المعـهـد إليه، غـيـر أن الأمـر صدر بنقله من القسم الذى يعمل فيه إلى قسم آخر. وكان يمكن لهذه المتاعب أن تنتهى عند هذا الحد لو أنه رضى القيام بعمله الجديد فى الشفرة دون اعتراض أو ضجيج فقد تصادف أن زار السجن آنذاك أحد أساتذة سولجنتسين القدامى فى جامعة روستوف لتـقـيـيم الأبحـاث والتـجـارب التى تجـرى فـيـه، ولما علم الأسـتـاذ بوجـود تلمـيـذه استدعاه للدردشة وتبسط معه فى الحديث الأمر الذى شجع سولجنتسين على رفض القيام بالعمل الجديد المسند إليه والمطالبة بالعـودة إلى عـمله القـديم الذى قـال إنه برع فيه ولا يمكن الاستغناء عنه وفوجئ مـؤلفنا وبـانين مع المخـبـر برتزر هرتزنبرج باستـدعـائهم على عـجل إلى مكتب الأمن حـيـث تم نقلهم إلى سـجن بيـوتركى قـبل ترحـيـلهم فى ٢٤ يونيـة ١٩٥٠ إلى جـهـة غـيـر معلومـة كل مـا عرفه سولجنتسين أنهم كانوا يتحركون به فى عربة مقفولة تتجه نحو الشرق.

وليس من شك أن الفترة التى أمضاها مؤلفنا فى سجن مارفينو وهى قرابة ثلاثة أعوام كـانت أكـثـر فـتـرات سجنه راحـة وامتيازا والأهم من هذا أنها ساعدته على البـقـاء على قـيد الحـيـاة، فمن المؤكد أن عـذاب السـجـون الأخـرى كـان كـفـيـلا بالإجهاز عليه.

الطريق إلى كازاخستان وذاكرة من حديد :

قـامت السلطات السـوفـيـتـيـة بنقل المساجين ومن بينهم سولجنتسين وبانين

بالقطار فى عربة مغلقة لا تختلف فى مظهرها الخارجى عن أية عربة عفش حتى لا يعرف الأهالى من بداخلها وكانت هذه العربات مقسمة إلى مقصورات أو دواوين تطل على ممرات القطارات ويقوم الحراس بتكديس المسجونين فيها ويرصونهم كعلب السردين على نحو غير أدمى ، وفى الطريق إلى سجن كيوتشيف المؤقت تضور بعض المساجين جوعا ومات بعضهم الآخر مختنقا وفى زمهرير الشتاء مات البعض من البرد وانتشر العفن فى المقصورات لأن المساجين كانوا يتبولون ويتبرزون بداخلها ولم تكن حصتهم اليومية من الماء تكفى لرى ظمأهم وخاصة لأن طعامهم اليومى كان من السمك المملح، الأمر الذى زاد من عطشهم. وبلغ تعسف الحراس مبلغا جعلهم لا يسمحون لهم بالتبول أكثر من مرة فى اليوم، مما أدى إلى عدم تحكم البعض فى أنفسم، ولكن مؤلفنا وزميله بانين كانا أكثر حظا من زملائهما، فقد كانت مقصورتهما أقل تكدسا من غيرها وسمح لهما بزيارة دورة المياه مرتين يوميا مرة فى الصباح ومرة فى المساء، كما أن الحراس فتحوا نوافذ عربتهم حتى يدخلها الهواء النقى ولاحظ سولجنتسين أن المساجين الذين صدرت ضدهم أحكام بالسجن المؤبد ينتقدون النظام السوفيتى بجرأه وضراوة مذهلة، فهؤلاء المساكين خسروا كل شىء ولم يعد لديهم شىء يبكون عليه.

كان بين هؤلاء المساجين عدد كبير من الأوكرانيين المطالبين بالاستقلال فى طريقهم إلى المنفى فى سيبريا كما كان بينهم عدد كبير من سكان أستونيا ولتوانيا ولاتفيا وهى البلاد الصغيرة التى ابتلعها الاتحاد السوفيتى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وضمها عنوة واقتداراً إليه، وشعر سولجنتسين بالعطف عليهم لأن بنى جلدته السوفيت حرموهم ظلما وعدوانا من حياتهم الوديعة المنتظمة الهادئة ليس بجرم ارتكبوه ولكن موقع بلادهم الجغرافى حال دون أطماع السوفيت فى الوصول إلى البحر، ورأى مؤلفنا أن مشكلة أوكرانيا أكثر المشاكل صعوبة وتعقيداً وإلحاحاً على نحو مباشر، ولا غرو أن يوليها كل هذا الاهتمام فنصف دمائه تنحدر من أصل أوكرانى . وهو يقول فى هذا الشأن فى المجلد الثالث من «أرخبيل الكولاج» : «إن روسيا وأوكرانيا تسريان فى دمى وقلبى وفكرى.» ولهذا كان على استعداد أن يسلم على مضض بأن من حق أوكرانيا أن تنسلخ عن الاتحاد السوفيتى وتكون دولة مستقلة إذا شاءت ذلك، غير أن الأمل كان دوما يحدوه فى أنه حتى إذا حدث هذا فسوف تعود أوكرانيا طواعية وباختيارها إلى الاتحاد مع روسيا فى كيان واحد.

وفى أغسطس ١٩٥٠ بعد أن أمضى سولجنتسين شهرا فى كيوبشيف تم نقله مع بانين وعدد من المسجونين إلى شرق أومسك وهو المكان نفسه الذى سبق أن نفى فيه الكاتب الروسى الكبير فيودور ديستوفسكى قبل قرن من الزمان فى يناير ١٨٥٠ ليقضى هناك مدة عقوبته ، ولكن شتان الفرق بين معاملة النظام القيصرى لديستوفسكى ومعاملة النظام السوفيتى لسولجنتسين . فقد وجد ديستوفسكى بعض السيدات فى انتظاره ليعملن على راحته ويقدمن إليه الهدايا ويوصين حراسه خيراً به فيستجيبون لتوصيته فى حين أن حراس سولجنتسين وزملائه هددوهم بالضرب بالرصاص إذا حاولوا الاتصال بالأهالى. بينما كان عدد المسجونين السياسيين أيام ديستوفسكى لا يتجاوز ثلاثة فى المائة أصبحت الغالبية العظمى من المساجين أيام سولجنتسين من السياسيين بحيث لا يتجاوز عدد اللصوص بينهم أصابع اليد! ولكن سجن أومسك لم يتغير منذ أيام ديستوفسكى فهو السجن الرهيب ذاته الذى أقامته القيصرة كاترين العظمى بقبابه وزنزاناته المخيفة تحت الأرض. ومن أومسك تم نقل مؤلفنا وزملائه إلى بافلودار ثم عبر صحراء خازاخستان فى آسيا الوسطى حيث بنى ستالين عام ١٩٤٨ مجمع سجون يعرف باسم أكيباستوز أودع فيه فى أوقات الذروة ستين ألف سجين. ولقصد التمويه أو التخفيف أطلق المسئولون على بعض هذه السجون أسماء شاعرية تخفى طبيعتها فسجن أكيباستوز على سبيل المثال كان يعرف باسم «معسكر المراعى» والغريب فى الأمر أن يتولى المساجين استكمال مجمع السجون بأيديهم ويساهمون فى تطويرها وفقا لأفكار ستالين وخططه.

ولا شك أنها مفارقة أن يبنى هؤلاء المساجين الحواجز والأسوار وأبراج المراقبة والأسلاك الشائكة التى تمنعهم من التفكير فى الهرب، وعهدت إدارة المجمع إلى سولجنتسين وجماعة الأوكرانيين بمهمة البناء نظرا لمهارة الكثيرين منهم فى مثل هذا العمل ونظم مؤلفنا قصيدة بعنوان «البناء» تحدث فيها عن عمله فى تطويع الحجارة ليبنى بها السجون فى سيبريا أى فى إقامة نظام الكولاج أو معسكرات العمل والجديد فى «معسكر المراعى» أن السجناء لم يعودوا يعرفون بأسمائهم بل ينادى عليهم بأرقامهم التى حيكت على ملابس السجن، ويعطينا كاتبنا وصفاً تفصيليا لهذا الإجراء غير الأدمى فى الجزء الثالث من «أرخبيل الكولاج» وفى هذه الفترة من حياته تحول إلى إنسان مؤمن بالقسمة والنصيب واستسلم لقدره وإدرك أن تفكيره السابق فى قدرته على تغيير مسار حياته ليس سوى ضرب من السخف يرقى إلى مرتبة الكفر. وساعده

الاستسلام لمصيره على أن يجد فى عمله كبنّاء - الذى دام لمدة عام تقريبا فى سجن أكيباستوز - لذة وسعادة وأن ينعم بهدوء البال الذى حرص عليه حرصا بالغا آنذاك لأنه مكنه أثناء رحلته الطويلة إلى هذا السجن أن ينظم جانباً كبيراً من قصيدته «الطريق» التى تتضمن سيرة حياته وهو يقول فى هذا الصدد: «أحيانا كانت أبيات الشعر والأخيلة تلح بشدة وتزدحم فى رأسى أثناء أدائى للعمل والحراس يصرخون من حولى ممسكين بمدافعهم الرشاشة لدرجة أنى شعرت بنفسى وأنا أطير فى الهواء وأتخطى الطابور مندفعًا إلى مبنى المعسكر لأجد ركنا أكتب فيه. فى تلك اللحظات شعرت بالحرية والسعادة معًا ». والغريب أنه يستخدم هنا لفظ «أكتب» مما يتعارض مع قوله فى موضع آخر أنه كان يستظهر أشعاره، ولعله استخدم كلا الأسلوبين معا ففى معسكر أكيباستوز التجأ شاعرنا إلى حفظ أبياته بأسلوب لطيف فقد قام بجمع أعواد الكبريت المكسورة وعمل منها صفين كل صف منهما من عشرة أعواد يضعها جميعاً على جافظة سجائره ويمثل الصف الأول العشرات فى حين يمثل الصف الثانى الوحدات وكان بعد أن يحفظ فى سريرته كل بيت من تأليفه يحرك عوداً فى خانة الوحدات فإذا تم له استظهار عشرة أبيات يقوم بتحريك عود فى صف العشرات وهكذا دواليك وبعد أن يحفظ القصيدة بأكملها يقوم باستظهارها مرة كل شهر حتى يتأكد من سلامة حفظه لها. وكان من حسن حظه أن سجن أكيباستوز يسمح لسجنائه باستخدام القلم والورق ولكنه يطالبهم بعرض ما يكتبونه على إدارة السجن ولهذا كان سولجنتسين يكتفى بكتابة مالا يزيد عن عشرين بيتا فى قصاصة ورق صغيرة ثم يقوم بعد استظهارها بحرقها فى موقد السجن لكن هذه الطريقة كانت محفوفة بالمخاطر ففى إحدى المرات ضبط الحارس معه ورقة مكتوبة فادعى مؤلفنا أنها محاولة من جانبه لأن يتذكر عن طريق الكتابة أغنية عن تقدم الجيش السوفيتى داخل ألمانيا الشرقية وساعده على هذه الفرية خلو الورقة من أية ألفاظ تورطه. وفى مرة أخرى زعم أن الورقة المضبوطة معه (والتى سطر فيها ستين بيتا من مسرحيته الشعرية «عيد المنتصرين») جزء من مسرحية ينوى تقديمها على خشبة مسرح السجن فقام الحارس بتمزيقها وأرجعها له وعندما ضبط معه جزءاً من الفصل التاسع من مسرحية «الليالى البروسية» ادعى أنها جزء من قصيدة تفاردوفسكى «فاسيلى تيوركن» ذات الطابع الوطنى التى كان الجنود السوفيت على جبهة القتال يتغنون بها.

وقبل ذلك لا حظ مؤلفنا عندما كان فى سجن كيوبشيف المؤقت أن المساجين الكاثوليك من لتوانيا يصنعون لأنفسهم حبات المسابح التى يتلون عليها صلواتهم من عجينة الخبز الطرى المطلى بألوان مختلفة يجففونها على حافة النافذة، فذهب إليهم وزعم أنه مثلهم يريد الصلاة على مسبحة تحتوى مائة حبة ورجاهم أن يصنعوا له مسبحة بهذا العدد من الحبات بحيث يضعون بعد كل تسع حبات مستديرة حبة عاشرة مكعبة وبحيث تكون الحبة الخمسين والحبة المائة لهما ملمس خاص يتميزان به وتعاطف هؤلاء اللتوانيون مع نزعته نحو التدين وتضافروا لعمل المسبحة التى يريدها وكان يحمل هذه المسبحة فى كل مكان يذهب إليه تحت قفاز من القماش يلبسه ويستعين بها فى عد الابيات التى ينظمها وفى استظهارها وفى بعض الأحيان عثر الحراس على هذه المسبحة فلم يعلقوا عليها أية أهمية ظنا منهم أنه يستخدمها للصلاة وذات مرة خرج ليستظهر قصيدته «البناء» من ورقة مكتوبة ففوجئ باستدعاء قومندان السجن له فعجل بكرمشة الورقة وإلقائها على الأرض ولم ينم طيلة الليل خوفا من أن يكون الحراس قد عثروا عليها، وابتهل إلى الله كى يستر عليه ويصون سره وفى الصباح الباكر تسلل للبحث عن الورقة الملقاة وسط ريح عاتية قدمت بالحصى والرمل فى وجهه فلم يجدها وحانت منه التفاتة فوجد الورقة على مقربة من نفس المكان الذى ألقاها فيه فحمد الله كثيرا. ويدلنا هذا على أن سولجنتسين كان يتمتع بذاكرة حديدية يندر أن نجد لها نظيرا كما يدلنا على أنه وجد فى الله مأمنا وملاذا عند المحن والشدائد.

وفى سجن إكيباستوز قابل سولجنتسين عددا من الشعراء من بينهم أناتولى سيلين الذى يدين بالمذهب المعمدانى ويتمتع بمقدرة مذهلة على حفظ الشعر، فضلا عن أنه أثار إعجاب مؤلفنا بشخصيته الوديعة المتواضعة والشديدة التدين. نظم سيلين قصائد دينية طويلة أعجبت مؤلفنا إلى الحد الذى جعله فيما بعد يذكر بعضا من أبياتها فى «أرخبيل الكولاج» وفى شعره عبر سيلين على قدرة الألم على تطهير الإنسان من الأوشاب وقدرة الحب على الرقى به إلى درجة الكمال.

وحدث تغير ملموس فى أحوال سجن إكيباستوز عندما حلت فيه قافلة من الشبان الأشداء المؤمنين بقوميتهم الأوكرانية جاءت بهم السلطات إلى إكيباستوز بسبب عصيانهم وإحراق سجنهم السابق فى ديوبوفكا، غير أنهم لم يرعوا فى سجنهم الجديد واستمروا فى شق عصا الطاعة ولم يقف هؤلاء الأوكرانيون مكتوفى الأيدى أمام نشاط الجواسيس الذين بثتهم إدارة السجن وسطهم بل قاموا بتعقبهم والاعتداء على حياتهم واحدا تلو الآخر فى وضح النهار وأمام عينى القومندان واستطاعوا

التخلص من خمسة وأربعين مخبرا في المعسكر في مدة لا تتجاوز ثمانية أعوام. وعجزت إدارة السجن عن السيطرة عليهم فرفضوا الامتثال لأوامرها حتى تقوم بتحسين أحوالهم وبالاستجابة إلى مطالبهم ومن بينها تقليل مقدار وساعات العمل وزيادة حصة الخبز المنصرفة لهم إلى أقصى حد ممكن، فشلت كل وسائل الإدارة في الضغط عليهم وإرهابهم، الأمر الذي شجعهم على المطالبة بمزيد من الحقوق ومنها إخراج خزانات البراز من داخل زنزانتهم والسماح لهم بكتابة اثنى عشر خطابا في السنة بدلا من خطابين فقط! وقرر السجناء الأوكرانيون الإضراب عن الطعام. ولكن الإدارة بادرت بمهاجمتهم في ٦ يناير ١٩٥٢ واستطاعت أن تفاجئهم وتأخذهم على غرة وتسوقهم خارج الزنزانات وتعزلهم عن بعضهم البعض حتى تمكنت في نهاية الأمر من السيطرة عليهم تماما وتشفيا فيهم أودعتهم في الزنزانات التي فر إليها الجواسيس هربا بجلدهم فقاما هؤلاء الجواسيس بالفتك بهم دون أن يستطيع زملاؤهم الأوكرانيون أن يخفوا لنجدتهم فضلا عن أن إدارة السجن استطاعت عزل القوميين الأوكرانيين وعددهم نحو ألفي سجين عن بقية المساجين وعددهم نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة سجين، وكانت مستشفى السجن في الجزء الذي تم فيه عزل الأوكرانيين عن بقية السجناء.

الألم طريقه إلى الله:

لكن انتصار المسجونين على إدارة السجن كان مؤقتا ففي ٢٢ يناير ١٩٥٢ تجمع بعضهم وقاموا بشن هجوم على زنزانات السجناء المخبرين في عششهم التي أودعوا فيها بقصد الانتقام منهم، ولكن قضبان الزنزانات حالت بينهم وبين ما يريدون فتوجهوا إلى المخبز وأحضروا منه برميلا من الزيت وملأوا بعض الجرادل بالزيت ورشوه في الزنزانات تمهيداً لإشعال النار فيها وقبل أن يتمكنوا من ذلك بادر الحراس بإطلاق النار عليهم من أبراج المراقبة، فقتلوا إثنى عشر سجينا. الأمر الذي أثار حفيظة زملائهم فقرر جميع المساجين الإضراب عن الطعام والعمل. ولم يفهم سولجنتسين وزميله بانين الوضع على حقيقته فلم يلتزما بهذا القرار بدافع الجبن والخوف ولكنهم لاما نفسيهما بعد ذلك على هذا التقاعس، واعتصم المسجونون في عششهم لا يغادرونها ويرفضون الطعام المقدم إليهم وأحست إدارة السجن أنها لم تعد قادرة على السيطرة فاضطرت إلى إبلاغ القيادة العليا وهو ما كانت تتحاشاه فجاء النائب العام في كاخازستان بنفسه وحاول استرضاءهم حتى يضع حدا لتمردهم وبات من الواضح أن إدارة السجن تستسلم لهم يقول مؤلفنا في هذا الشأن في الجزء الثالث من «أرخبيل الكولاج»: طلبت إدارة المعسكر... من السجناء أن يتناولوا طعامهم ووعدتهم بقبول شكاواهم وفحصها وإزالة أسباب الصراع القائم بين الإدارة والسجناء وتشاور زعماء السجناء مع زملائهم فأبدى الكثير منهم استعداده لإنهاء الإضراب ولكن بانين وقف بينهم خطيبا مفوها واستطاع إقناعهم بضرورة مواصلة الإضراب للضغط على الإدارة الأمر الذي أثار إعجاب سولجنتسن به ولكن هذا الاقتناع بضرورة الاستمرار في الإضراب سرعان ما تبدد، فلم يمض غيريوم واحد على خطبة بانين حتى خرج نزلاء العشة رقم ٩ الذين عاشوا طوال فترة الإضراب التي دامت أربعة أيام مع جثث زملائهم من ضحايا الإضراب في الزنازين نفسها متوجهين إلى المطعم لتسلم حصصهم من الطعام وبذلك تفتت تضامن السجناء على صخرة الجوع والهزال واعتبر سولجنتسين ماحدث هزيمة للسجناء رغم حصولهم على بعض المكاسب المؤقتة مثل متأخراتهم من حصص الطعام والسماح لهم بالتجول في أرجاء المعسكر وعقد المسئولون اجتماعا حضره المسجونون برغم الاستماع إلى شكواهم فتهيب معظم الحاضرين من مجابهة الإدارة وعجزوا عن التعبير الصريح عما يشعرون به حتى سولجنتسين نفسه قرر أن يغلف كلماته بغلاف من الحرص والحيطة وهكذا فشل السجناء في استثمار ما لديهم من نواحي القوة ولم يمض وقت طويل حتى كشرت إدارة السجن عن أنيابها وقلبت للمسجونين ظهر المجن، فقبضت على زعمائهم وقامت باستجوابهم وعزل المساجين عن بعضهم البعض ولم يسلم بانين من انتقامهم فتم نقله إلى سجن سباسك بعد مرور أسابيع قليلة.

وفي اليوم التالي على استجوابه دخل سولجنتسين مستشفى السجن فقد لاحظ وجود ورم في فخذه الأيمن عند التقائه بالبطن وتجاهله في بادىء الأمر غير أنه أخذ ينمو تدريجيا حتى أصبح في حجم الليمونة وبنمو هذا الورم اشتد عليه المرض وخاصة أثناء الإضراب عن الطعام. وبعد فحصه قرر الأطباء أنه مصاب بالسرطان ونصحوا بإجراء عملية له فورا. وعند وصوله إلى المستشفى لاحظ أن بعض السجناء ماتوا من تعذيب الحراس وضربهم المبرح لهم، ومرت عدة أيام قبل أن يقوم سجين/ جراح بإجراء العملية له على مدى نصف ساعة تقريبا في يوم ١٢ فبراير ١٩٥٢ بعد أن تم تخديره تخدير موضعيا. وبحرمانه من الامتيازات في سجنه الجديد شعر سولجنتسين بأنه أكثر قوة من الناحية الروحية وأكثر قدرة على تحمل الألم النفسي عن ذي قبل، وكان هذا مواكبا لتوجهه إلى حظيرة الدين لقد سبق له في إحدى رسائله إلى ناتاليا أن حدثها عن إيمانه بالقدر والمصير وربما كان هذا الإيمان بالدين، غير أن الطريق الذي

تعين عليه أن يسلكه كان طويلا قبل أن يصل إلى اقتناع بالإيمان بالله.

وكان للحادثة التالية تأثير واضح على تفكيره واقترابه من الله ففي أثناء رحلة الشفاء من عملية السرطان التي أجريت له زاره طبيب اسمه الدكتور بوريس كورنفيلد جلس بجواره وروى له قصة تحوله من اليهودية إلى المسيحية وامتدح في حماس شديد ما في المسيحية من قيم روحانية رفيعة، واعترف لمؤلفنا الذي كان يشك في أنه مخبر يتعاون مع إدارة السجن بأنه يؤمن أن مامن عقاب ينزل بأي إنسان إلا وسببه جريمة ارتكبها في وقت أواخر من حياته وفي بادئ الأمر لم يأخذ سولجنتسين هذا الكلام مأخذ الجد حتى جاء يوم سمع فيه جلبة شديدة ورأى الدكتور بوريس كورنفيلد منقولا إلى المستشفى بعد أن ضربه عامل محارة على أم رأسه بالمطرقة وأجريت له عملية جراحية، ولكنه لفظ أنفاسه الأخيرة فتذكر مؤلفنا كلماته المشئومة قبل وفاته ويبدو أن سولجنتسين اهتدى إلى الله في الفترة التي أجريت له عملية السرطان بالمستشفى ففيها توصل إلى «الايمان بمشيئة الله ورحمته»، وأن هذا الإيمان يزيل كل مخاوفه وقلقه مما قد يحدث له. وفي تلك الفترة عاد إليه يقينه القديم وهو طفل بوجود الله وأدرك أن إلحاده الماركسي إن هو إلا نتيجة السفسطة واللغو اللذين تعلمهما من الكتب فلا غرو إذا رأيناه في ختام الجزء الرابع من الفصل الأول في «أرخبيل الكولاج» ينظم قصيدة دينية تنتهي بالأبيات التالية:

الأن وقد عاد إلى الكأس

أنهل من ماء الحياة

ياإلهي القادر على كل شئ أنا أؤمن بك!

فأنت موجود في الوقت الذي أنكرتك فيه

وبعد أن ذابله تأثير الماركسية فيه بدأ يؤمن بأفضلية جميع الأديان وتفوقها على الأيديولوجية لأن الأديان في رأيه تقاوم الشر داخل الإنسان في حين تقضي فقط على الذين يحملون بداخلهم جراثيم الشر وقت حدوثه، ولكنها في الوقت ذاته ترث الشر نفسه بدرجة أعظم. ويبدأ سولجنتسين يشعر بالامتنان للسجن وما لقيه فيه من ألم وعذاب علماه نقاط الضعف فيه كما علماه أن يعرف نفسه بنفسه.

وبعد أن استأصل الأطباء الورم أرسلوه للتحليل فاكتشفوا أنه من النوع الخبيث ولكن من حسن حظه أنه توقف عن النمو، الأمر الذي جعلهم يرون أنه ليس هناك أي سبب للانزعاج واستبعدته إدارة السجن من عمله كبناء كنوع من العقاب فيما يبدو وتمنى لو أنه تعلم النجارة في السجن ولكنهم ألحقوه بالمسبك ليعمل في صهر المعادن وكان هذا أشق وأقسى عمل قيض له أن يقوم به خلال فترات سجنه الطويلة.

وفي أوائل عام ١٩٥٢ أدخل المسئولون بعض الاصلاحات على نظام السجون والمعسكرات ومنها تحويل كل سجن ومعسكر إلى وحدة اقتصادية قائمة بذاتها وأصبح من حق المساجين العاملين أن يتقاضوا أجورا عن عملهم حسب إنتاجهم بحيث لاتتجاوز ٤٥٪ من قيمة هذا الإنتاج في حين تتولى الدولة تحصيل النسبة الباقية وهي ٥٥٪ من قيمة هذا الإنتاج، غير أن السجناء لم يحصلوا على كل حقهم في النسبة المقررة لهم بل كانت السلطات تخصم منها نحو ٧٠٪ لدفع نفقات الصيانة والحراسة والأمن والطعام والملبس إلخ، فلا يتبقى للسجناء في نهاية المطاف إلا ما يقرب من ١٣٪ فقط من مستحقاتهم. وكانت إدارة السجن تحتفظ بنصف هذه النسبة لتسلمه إلى السجين عند خروجه وتصرف له النصف الآخر في شكل كوبونات لشراء أشياء إضافية من الكانتين مثل الحلوى واللبن والبسكويت.

وفي تلك الفترة من حياة مؤلفنا في سجن إكيباستوز لم تنقطع صلة زوجته ناتاليا به فقد داومت على إرسال الطرود إليه والتي احتوت على الطعام وعلى الكتب التي توفر على قراءتها بنهم شديد فضلا عن أنها أرسلت إليه بالأقلام والورق والكراسات. ومن الكتب التي أرسلتها إليه أعمال ألكسي تولستوي وأستروفسكي وبلوك. وفي إكيباستوز قرأ كاتبنا أيضا كثيراً من الشعر إلى جانب أعمال هرزن وجونشاروف وتشيكوف وسوليتكوف - ششدرين وولكي كوليتز. وعبر سولجنتسين لزوجته عن امتنانه العميق لما ترسله إليه من أشياء، خاصة ذلك النوع الممتاز من التبغ الذي وجد متعة بالغة في تدخينه. ولاحظ مؤلفنا أن زوجته كادت أن تتوقف عن الكتابة إليه تماما ويبدو أن الوحدة والوحشة التي عاشت فيها لسنوات طوال كانتا فوق طاقتها. فأحبت زميلا لها له ولدان من زوجته السابقة ويعمل محاضراً في مادة تخصصها وهي الكيمياء. ولم تشأ ناتاليا أن تزيد من متاعب زوجها بعد إجراء العملية الجراحية له فامتنعت عن تبليغه بأمر زواجها الذي تم بطريقة الشهر الشفوي بعيدا عن الرسميات. وبطبيعة الحال اضطرها هذا إلى إنهاء إجراءات فسخ زواجها كما تقضي القوانين بذلك.

وفي سبتمبر عام ١٩٥٢ أوحت ناتاليا إلى الخالة نينا بأن تبلغ سولجنتستين بأمر زواجها بعد أن رفضت ماريا أمها أن تفعل ذلك، فكتبت إليه الخالة نينا عبارة مبتسرة للغاية جاء فيها: «طلبت مني ناتاليا أن أخبرك أنه عليك أن ترتب حياتك في استقلال عنها ... وزاد غموض هذه العبارة من قلقه وتوتره لأنه كان في قرارة نفسه متمسكا بها رغم أنه أعطاها حرية الطلاق منه والزواج من

رجل آخر. واستفسر سولجنتسين عن معنى هذه العبارة الغامضة فاضطرت زوجته إلى إخباره بالحقيقة الموجعة. واستبد الغضب والغيرة به إلى الحد الذى جعله يصف زوجها الجديد: «إنه وغد أغرى بالزواج امرأة متزوجة لا يزال زوجها حيا يرزق». ودفعه تفاؤله العارم إلى الأمل فى الإفراج عنه. ولكنه سرعان ما تذكر أن نهاية مدة العقوبة لا تعنى بالضرورة نهاية مدة السجن وأن الحكم الصادر ضده يقضى بنفيه نفيا دائما. وحتى ينسى همه كتب إلى الخالة نينا كى ترسل له كتبا فى الهندسة والرياضيات فقد كان يحلم بممارسة التدريس فى مدرسة فى إحدى القرى الروسية النائية.

وفى إبريل ١٩٥٢ فوجىء سولجنتسين لاستدعائه إلى مكتب الأمن وطلب إليه مسئول الأمن أن يؤكد سابق شهادته بأن صديقه كيريل الذى أصبح جراحا مشهوراً بكفاءته يتواطأ فى نشاط معاد للدولة السوفيتية. ولكنه أبى وأكد أن صديقه مثال للولاء للوطن والتفانى فيه. فالتجأ رجل الأمن إلى المكر والخديعة وقرأ على كيريل شهادة سولجنتسين السابقة التى أدلى بها فور إلقاء القبض عليه حتى يقنعه بخيانة صديقه وغدره. وانطلقت الحملة على كيريل الذى بدأ التحقيق معه هذه المرة بتهمه الشذوذ الجنسى.

وفى فترة عمله بالمسبك نظم سولجنتسين فى نهاية عام ١٩٥٢ قصيدة بعنوان «روسيا» استهدف من وراءها الغوص فى الروح الروسية واستجلاء معالمها وما تتصف به من فضائل، ورزائل وذهب شاعرنا فى هذه القصيدة إلى أن انشغال روسيا بالحروب والغزوات لا يعود عليها بالنفع بل بالضرر وأن قوة روسيا وفتوتها سبب فى شقاء الدول الضعيفة المجاورة وهى النغمة نفسها التى شاعت فى قصيدته السابقة «الطريق» يقول سولجنتسين فى قصيدته «روسيا»:

إن وحمة التتار التى لا تنمحى والتى تلازم الروس منذ ولادتهم وقذارة الوسخ الستالينى تدمغنا جميعاً.

فاسم روسيا ملعون بالثلاث من الآن فصاعدا.

وهكذا أمضى سولجنتسين فى السجون والمعسكرات ثمانية أعوام وفى سجن إكيبا ستوز ثلاثة أعوام انتهت رسميا فى ٩ فبراير ١٩٥٣. وكثيراً ما راوده حلم المنفى الذى اعتبره جنته المرتقبه، حيث يمكنه الحركة بحرية مثلما يتحرك الآدميون. لكن عندما حلّت لحظة الانتقال إلى منفاه المجهول شعر أنه يرحل بجسده فقط وأنه يترك روحه وراءه تحلق فوق السجون والمعسكرات التى شاهدت آلامه وعذابه.

فى المنفى:

تحرك السجناء فى لوريات وشاحنات فى طريقهم إلى المنفى دون أن يعرفوا وجهتهم. وأخيراً تسلم سولجنتسين من الضابط ورقة بنية اللون تفيده بنفيه بصفة مستديمة فى قرية كوك تريك الواقعة على الحافة الجنوبية من صحراء كازخستان الفسيحة المعروفة باسم بت باك دالا، كما تهدده بالسجن لمدة خمس وعشرين سنة مع الأشغال الشاقة إذا عنّ له أن يغادر المنفى دون إذن من السلطات، وفى حالة رغبته فى مغادرة منطقة منفاه فى كوك تريك لأى سبب من الأسباب، فعليه أن يستخرج تصريحاً خاصًا بذلك مبيناً المكان الذى يريد الذهاب إليه وتواريخ سفره وعودته منها ومحل إقامته فى فترة رحلته. وتم التنبيه عليه بضرورة الحضور إلى وزارة الداخلية مرتين كل شهر للتبليغ عن نفسه. وفى منفاه لم يصدق نفسه وهو يتجول حرّاً طليقًا دون وجود حارس بجواره أو خلفه يصوب مدفعه الرشاش نحوه.. وكان أول شىء فعله فى منفاه أنه توجه إلى المنطقة التعليمية حيث قابل بعض المفتشين وطلب منهم تعيينه كمدرس رياضيات أو علوم فى إحدى المدارس، فعلت الدهشة وجوههم وأظهروا تخوفاً منه وسألوه عن السر فى وجوده فى ذلك المكان النائى القصى فاعترف لهم بأنه منفى. وعند سؤاله عن السبب زعم أنه حكم عليه بالنفى لسر من أسرارالدولة وأنه ليس فى حل أن يبوح به. ورفض المسئولون عن المنطقة التعليمية لعدم وجود وظائف خالية لتدريس الرياضيات والعلوم. ولكن سكرتيرة المنطقة التعليمية رقت لحاله وأخبرته أن مدارس المنطقة فى مسيس الحاجة إلى مدرسين فى كلا هذين الفرعين الأمر الذى شجعه على إعادة المحاولة. فطلبوا منه الانتظار حتى يصله رد المنطقة التعليمية بوجود وظائف خالية..

وفى المنفى ذاق سولجنتسين طعم الحرية لأول مرة منذ ثمانية أعوام فانتشى به. ولم يمانع الضابط والحراس فى أن ينام دون أدنى قيود تحت قبة السماء التى انتثرت فيها النجوم. وقد سجل هذه التجربة المثيرة للغاية فى روايتيه، «عنبر السرطان»، و «أرخبيل الكولاج» وراق له الجو الريفى الخالص الذى أحاط به وأصوات حيوانات القرية التى أثلج صدره سماعها. وبحث عن سكن خاص فلم يجد غير حجرة صغيرة مبنية بالطين وواطئة إلى درجة لا تسمح له بالوقوف، وخلت هذه الحجرة حتى من مصباح زيت فسادها الظلام الدامس الذى استمد منه راحة وسلوى بعد أن تعب من أضواء السجن الباهرة التى تسطع ليلا ونهارا. وفى اليوم التالى الموافق ٦ مارس ١٩٥٣ جاءته العجوز صاحبة الغرفة فى حالة اضطراب شديد وأيقظته من نومه لتطلب منه الذهاب إلى الميدان ليسمع ما تذيعه الميكروفونات فى الناس ولما سألها عن السبب همست إليه

بأنها تخشى أن تبوح له به، فخرج سولجنتسين ليستطلع بنفسه الخبر فاتضح له أن ستالين مات واستقبل معظم الناس هذا الخبر بالنشيج والبكاء. أما هو فأراد أن يقفز من فرحته غير أنه سعى جاهدا لإخفائها وقفل راجعاً إلى حجرته لينظم قصيدة بعنوان «الخامس من مارس» لإحياء ذكرى هذه المناسبة. ثم انتقل إلى مسكن آخر متواضع ولكنه أكثر راحة واتساعاً وتروى لنا صاحبة هذا المسكن لحظة دخول سولجنتسين البيت حاملا حقيبته التى وضعها أمام الباب الخارجى، ولفت نظرها إليه سلوكه المهذب، تقاطعية المليحة. وأراد زوجها أن يساعده فحمل عنه الحقيبة فوجدها ثقيلة فسأله إذا كان قد حشاها بالكتب فأجابه بالإيجاب. ولا حظت صاحبة البيت أيضًا أنه يستهلك كمية كبيرة من وقود الزيت وأنه يسهر لساعات طويلة يقرأ ويكتب، وأصابها الذعر عندما قدمت إليه البطاطس مسلوقة بقشرها فقد رأته يلتقط واحدة منها ويقضمها بقشرها فنبهته صاحبة البيت بقولها: «ما الذى تفعله يا ساشا؟ انزع القشرة أولا». فلم يفه بكلمة واحدة بل اكتفى بأن ابتسم لها بطريقة تدل على أنه يستعرض شريط حياته فى السجن والمعسكرات.

وعندما فشل تهرب الإدارة التعليمية فى صده وإبعاده عنها لجأت إلى المسئولين لإصدار منشور مفاده أن مدارسها ليست بحاجة لأى مدرسين فى الرياضيات والعلوم، ولأن الحياة علمته شدة الحرص والاقتصاد فقد استطاع أن يعيش لفترة طويلة على النقود التى صرفها المعسكر له عند خروجه منه. وذات يوم بينما كان يسير فى الطريق جاءه رجل من وزارة الداخلية ليقتاده إلى الجمعية التعاونية بالقرية وطلب منه أن يعمل محاسبا فيها لقرب حلول موعد الأوكازيونات بمرتب فاق كل أحلامه وهو ٤٥٠ روبلا فى الشهر. وحتى ينتهى المحاسبون من عمل التخفيضات على السلع فى فترة الأوكازيون وضبط الحسابات المتعلقة به أصدر رئيس الجمعية أمراً متعسفا باستمرارهم فى العمل لمدة سبع عشرة ساعة يوميا، واستفاد مؤلفنا من تجارب السجن فلم يجأر بالشكوى من هذا التعسف بل عمد إلى التزويغ من العمل فى صمت فلاحظ رئيس المجمع تزويغه وهدد بإنزال أقسى عقاب عليه فارتعدت فرائص سولجنتسين ولحسن الحظ أنه لم ينفذ تهديده لأن موت ستالين فيما يبدو كان إيذانا بحلول جو جديد من السماحة النسبية.

وبعد أن أمضى مؤلفنا نحو شهر فى المجمع الاستهلاكى جاءته الفرصة التى ظل يتحرق شوقا لتحقيقها وهى أن يصبح مدرسا فقد أعجب بشخصيته واحد من أقطاب الحزب المحليين والعاملين فى مجال التعليم اسمه سيريمبتوف الذى تحمس لتعيينه فى وظيفة مدرس رياضيات وعلوم وفلك، توسط له هذا الرجل لدى مدير التعليم العام وأقنعه أنه ليس من المعقول أن يكون بين ظهرانيهم رجل يحمل مثل مؤهلاته العلمية دون الاستفادة منه لرفع مستوى التعليم المتدنى بالمنطقة، ووافقه المدير العام على هذا الرأى متجاوزاً بذلك الجهات التعليمية الأدنى التى قررت رفضه وكان هذا التعيين أكبر فرحة عرفها سولجنتسين فى تلك الفترة من حياته فقد ردت إليه بعد طول مهانة وإذلال احترامه لنفسه وآدميته ورغبة منه فى رفع مستوى طلبته العلمى لتأهيلهم لأداء امتحاناتهم بنجاح تفانى فى عمله وأعطاهم حصصاً إضافية مكثفة فاستجابوا إليه وجاءوا إلى فصوله فى التقوية جماعات و زرافات ويبدو أن ربيبه سيمويمبتوف فى لحظة ما انتابه شك فى أن تكون سنوات السجن والمعسكرات أنسته الرياضيات والعلوم فطلب منه قبل موعد الامتحان بيومين أن يفتح الظرف الذى يحتوى على الأسئلة التى أرسلتها الوزارة المركزية فى موسكو وأن يقوم بحل المسائل التى سوف يمتحن فيها الطلبة ولم يهدأ للرجل بال إلا بعد أن تأكد من قدرة سولجنتسين على حلها بسهولة ويسر. وليس أدل على فساد النظام التعليمى السوفيتى وتدنيه من أن كثيرا من زملائه فى المنطقة عجزوا عن حل الأسئلة ولجأوا إليه يشرحها لهم. وبلغ الفساد مبلغا جعل نظار المدارس ومديريها يفرضون الأتاوات على المدرسين ويقطعون جزءاً من رواتبهم كسلفة لا ترد، ورفض سولجنتسين الاستسلام لهذا الابتزاز كما رفض إعطاء بعض الطلبة المرضى عنهم درجات لا يستحقونها مثلما كانت العادة. والتزم مؤلفنا قدر ما يستطيع بموقف الاعتراض الصامت على هذا الفساد. ويرجع السبب فى هذا إلى رغبته فى الاستفادة بكل دقيقة من وقته فى هذا السبيل.

وفى منفاه استرجع سولجنتسين قصائد الشعر التى سبق له أن نظمها فى سجن إكيباستوز وعلى رأسها قصيدة «الطريق» التى كان قد لجأ إلى استظهارها وإعدام مخطوطاتها حتى لا تقع فى أيدى زبانية السجن ومما يثير تكون الدهشة أنه استطاع استظهارها رغم طولها غير العادى فهى تتكون من عشرة آلاف بيت من الشعر، الأمر الذى يجعل استظهارها عملا ذهنيا جباراً يدل على ماتمتع به مؤلفنا من ذاكرة من حديد. والجدير بالذكر أن هذه القصيدة منظومة على غرار قصيدة تيوركن، التى ألفها الشاعر ألكسندر تفاردوفسكى كما أشرنا من قبل ونحن نقرأ فى فاتحة القصيدة أو البرولوج وصفا لحياة النصب والعناء التى عاشها فى زنازين السجون دون أن تفلح فى أن تقتل فيه الرغبة الملحة فى الكتابة نيابة عن الملايين من ضحايا ستالين فقد نذر نفسه فى كتاباته الشعرية والنثرية على

حد سواء للتعبير عن آلامهم وعذابهم ابتداء من عمله الروائى الأول «يوم فى حياة إيفان دينيسوفتش» حتى «أرخبيل الكولاج» بمجلداته الثلاثة. ولكن يبدو أن شعره لم يرق إلى مستوى نثره فعندما أعاد صياغة بعض أجزاء قصيدة «الطريق» وسعى إلى نشرها فى المجلة السوفيتية المتحررة «العالم الجديد» اعترض رئيس تحريرها تفاردوفسكى على نشرها ونصحه بالاكتفاء بنشرها فى ذيل أعماله الكاملة (عند إعادة نشرها بطبيعة الحال). وفى عام ١٩٦٣ قرأ مؤلفنا هذه القصيدة على الشاعرة المعروفة أنا أخماتوفا فنصحته بعدم نشرها والاقتصار على الكتابة النثرية التى تفوق فيها. وإلى جانب «الطريق» استرجع مؤلفنا أيضا المسرحية الشعرية التى ألفها فى سجن إكيبا ستوزر بعنوان «عيد المنتصرين» وهى تتكون من ألفى وخمسمائة بيت على غرار المسرحية الكوميدية «الويل من الذكاء» التى ألفها جريبويدوف فى القرن التاسع عشر وتدور هذه المسرحية حول ماضى روسيا وحاضرها وسلبيات الثورة البلشفية وإيجابياتها والصراع المحتدم بين القيم الشيوعية الثورية والقيم الإنسانية والأخلاقية الأصيلة. فضلا عن أنها تتناول بعض التيمات التى أصبحت فيما بعد الموضوعات الرئيسية التى تعالجها كتاباته مثل إفلاس الأيدولوجية الماركسية والعواقب الوخيمة للمزارع الجماعية وتركيز السلطة فى يد سلطات الأمن، ولوثة ستالين الناجمة عن شعوره بالاضطهاد وأدائه المزرى الفاشل كقائد عام للقوات المسلحة فى بداية الحرب العالمية الثانية والدور الحاسم الذى لعبته الوطنية الروسية فى كسب هذه الحرب.

وفى منفاه فى كوك تيريك أكمل سولجنتسين مسرحية أخرى له بعنوان «ديسمبريون بدون ديسمبر» التى غير عنوانها فيما بعد إلى «الأسرى» وهى أطول وأكثر طموحاً من مسرحيته الأولى عيد المنتصريين» وينتقل فيها المؤلف من الشعر إلى النثر وتحتوى مسرحية «ديسمبريون» على عدة شخصيات تظهر فيما بعد فى أعماله اللاحقة مثل «أغسطس ١٩١٤» و «الدائرة الأولى» وحاول مؤلفها أن يحشوها بكل تجاربه فى السجون ومعسكرات العمل. وتتضمن «ديسمبريون» الأفكار نفسها التى سبق لمؤلفنا أن عالجها فى «عيد المنتصرين» ولكن بتفصيل أكبر. ولعل الجديد فى هذه المسرحية أنها تعالج موضوعات الروس البيض والروس الذين اختاروا البقاء مع الألمان على العودة إلى بلادهم! والرأى عند سولجنتسين أن التاريخ يقف فى صفهم لأنهم أكثر وطنية من البلاشفة المغتصبين وأن الثورة البلشفية كانت وبالا على الشعب الروسى. وهذه آراء واضحة الخطورة ولو أن هذه المسرحية وقعت فى أيدى المخابرات السوفيتية لكان لها شأن آخر مع صاحبها ولم يعرف العالم بوجودها إلا بعد هجرته للغرب ولا مناص من القول إن أعماله المسرحية التى أشرنا إليها مع ديوانى الشعر اللذين نظمهما عن حياة السجون والمعسكرات (وهما: «القلب تحت الجاكتة المبطنة بمادة مطاطية» و «عندما يفقدون أثر السنوات») لا تعدوان أن تكونا مجرد تدريبات أدبية يبدأ بها كل أديب حتى يصل إلى مرحلة النضج.

وأخيرا تمكن سولجنتسين من استئجار سكن هادئ يعتزل فيه إلى نفسه، ففى سبتمبر استأجر كوخا أو عشة غير مفروشة، من الطين تتكون من غرفة ومطبخ فى ضواحى كوك تيريك واستطاع مؤلفنا أن يصنع سريرا من صناديق الخشب وضع فوقه مرتبة محشوة بالقش ونشارة الخشب. وساعد زميل أوكرانى منفى فى صنع منضدة وكرسى من أفرع الشجر، ولأن حوائط الكوخ كانت تتآكل بسرعة فقد تعين عليه كل أسبوع أن يقوم بإضافة طبقة من الطين والروث إليها ولكن كمية هائلة من التراب كانت تسقط من الطين والروث بمجرد جفافها الأمر الذى اضطره إلى إزالته بصفة متكررة.

ثم وصلة خطاب من ناتاليا اقترحت عليه فيه بسذاجة أن يستمرا فى التراسل كنوع من التواصل الأفلاطونى البرىء، وفهم سولجنتسين من هذا الاقتراح الغريب أن زوجته لا تزال تحبه وتريد أن تعود إليه فرحب بهذه العودة شريطة أن تنفصل عن زوجها الثانى فأرسلت إليه تخبره بأنه أساء فهمها وأنها لا تنوى أن تترك زوجها الثانى وختمت رسالتها بكلمات الوداع والتمنيات الطيبة له وفى تلك الفترة من حياته ساءت حالته الصحية فقد عانى من مغص شديد لم يستطع الأطباء المحليون تشخيصه والوقوف على أسبابه فنصحه طبيب سجين أن يعرض نفسه على متخصص فى زامبول وبعد الكشف عليه بأشعة إكس اكتشف الأطباء وجود ورم فى حجم قبضة اليد فى تجويف البطن من الداخل. ولم يعرف سولجنتسين إذا كان الورم القديم الذى عولج منه قد عاد للانتشار أو أنه ورم جديد تماما ليس له بالورم القديم أية علاقة! وللعلاج من هذا الورم تعين عليه الرحيل إلى مستشفى يبعد مئات الأميال فى طشقند ولم يكن من السهل عليه بسبب نفية لأسباب سياسية الحصول على إذن بالانتقال إلى هناك غير أن هذا لم يمنعه من البدء فى السير فى إجراءات الحصول على مثل هذا الإذن وسمع بوجود رجل عجوز قادر على معالجة مرض السرطان بالأعشاب والأدوية الطبيعية فراق له هذا النوع من العلاج وحاول أن يجربه ولكن حالته الصحية تدهورت بشكل واضح وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الموت الذى مهد نفسه

لاستقباله، وأصبح قلقه يتركز على شيء واحد هو: مصير مخطوطاته بعد وفاته. وخاصة بعد توقف المراسلات بينه وبين زوجته السابقة ناتاليا، الأمر الذى جعله يقوم بنسخ مخطوطاته بخط صغير للغاية خبأها ملفوفة فى اسطوانات حلزونية ضيقة ثم حشرها فى زجاجة شمبانيا ودفن هذه الزجاجة فى حديقته.

وأخيرا وبعد لأى تمكن مؤلفنا من الحصول على إذن من وزارة الداخلية بسفره إلى طشقند وتصادف أن تكون ليلة رأس سنة ١٩٥٣ موافقة ليوم سفره بالقطار فى اتجاه طشقند، وفى فترة انتظاره مجيء القطار الذى يقله تعين عليه أن يسلم بطاقة تحقيق شخصيته إلى ناظر المحطة حتى يسمح له بالمبيت بإحدى حجراتها ولكن ناظر المحطة نسى أمره تماما فقد أخذ يشرب فى احتفالات رأس السنة حتى فقد وعيه فاضطر المحيطون به إلى نقله ومعه تحقيق شخصية سولجنتسين الذى أسقط فى يده ولم يكن باستطاعته السفر دون أن يحمل معه هذه البطاقة - وبالمصادفة شاهد مؤلفنا واحدا يعرفه من رجال الأمن فشرح له المشكلة وأراد الرجل أن يساعده فكتب له بخط يده إذنا بالسماح له بالسفر إلى طشقند، وعندما وصل مؤلفنا بعد رحلة شاقة ومضنية إلى طشقند رفض مستشفى طشقند استقباله فيه لأنه لا يحمل معه إثبات شخصية فأصر سولجنتسين على عدم مغادرة حجرة انتظار المستشفى على النوم فيه حتى يقوم الأطباء بالكشف عليه وتدخلت الطبيبة المناط بها علاجه فى الأمر وقبلته بالمستشفى على مسئوليتها دون أوراق تحقيق الشخصية.

عنبر السرطان فى مستشفى طشقند:

دخل سولجنتسين مستشفى طشقند فى ٤ يناير ١٩٥٤ بقسم الأشعة حتى بدأت الدكتورة ليديا دونابيفا علاجه فى اليوم التالى لدخوله واكتشفت الطبيبة أنه يعانى من وجود ورم سرطانى نادر يعرف فى الطب بالورم المنوى. ورأت هذه الطبيبة علاجه عن طريق الأشعة وليس عن طريق الجراحة. واستمر علاجه ستة أسابيع تعرض فيها لخمس وخمسين جلسة أشعة مدة كل منها نصف ساعة. وهو ما يصفه فى روايته «عنبر السرطان» وفى بداية الأمر تحسنت حالته وأخذ يستطعم الحياة من جديد بعد أن عادت إليه شهيته وارتفعت روحه المعنوية. وزايله الألم الممض الذى كان يعانى منه. ولم يمض أسبوعان على بدء العلاج بالأشعة حتى انكمش الورم. غير أن تعرض المريض المركز لأشعة إكس جعله يشعر بالرغبة فى القيء وبفقدان الشهية. ووصف مؤلفنا تماثله للشفاء فى إحدى قصصه القصيرة «اليد اليمنى» التى تقع أحداثها فى طشقند بعد أن ساءت حالته لدرجة أن صفرة الموت اعتلت بشرته. فضلا عن شعوره بالإنهاك الشديد والحاجة إلى الراحة كلما خطا بضع خطوات. ويرسم المؤلف فى روايته «عنبر السرطان» صورة ودودة ومحببة لإيرينا ميكى الطبيبة التى سمحت له بدخول المستشفى رغم عدم وجود أوراق تحقيق الشخصية فى حوزته، وليديا دونابيفا الطبيبة التى باشرت علاجه. ولم يكن سولجنتسين مريضا سهلا أو مطيعا بل كان صعب المراس وعنيدا ورغم خلفيته العلمية فقد كان يغافل أطباءه ويعالج نفسه بالأعشاب والنباتات الطبيعية. فضلا عن أنه رأى فى تناول كمية كبيرة من هذه الأعشاب والنباتات وسيلته فى الخلاص من حياته إذ اشتد عليه الألم وأصبح لا يطاق، ولكن صحته تحسنت بشكل مطرد فلم يكتف بالمشي داخل المستشفى بل تجاوز حدودها أحيانا. وفى منتصف مارس ١٩٥٤ صدرت التعليمات بخروجه من المستشفى على أن يعود إليها فى يونية من العام نفسه لإعادة الكشف عليه واستمرار علاجه بالأشعة. وقبل أن يغادر طشقند عائدا إلى منفاه فى كوك تبريك دخل مؤلفنا قلب مدينة طشقند فوجد أبواب كنيستها مفتوحة أمامه الأمر الذى أثار فيه الدهشة والاستغراب. ففى روستوف حيث نشأ وترعرع أغلقت كل الكنائس أبوابها فى عام ١٩٣٤ فدخل الكنيسة المفتوحة لأول مرة فى حياته منذ طفولته وشكر الله على أنه منّ عليه بالشفاء. ومن حسن حظه أن نوع السرطان الذى أصيب به كان يمكن علاجه عن طريق الإشعاعات وحدها. وفى مرة من المرات نسب سولجنتسين شفاءه منه إلى إرادة الحياة القوية فيه. ولكنه فسره فى مرة أخرى بأنه معجزة من لدن الله. والجدير بالذكر على أية حال أن عودته إلى حظيرة الإيمان تزامنت مع شفائه من السرطان. ففى المرة الأولى نجح التدخل الجراحى فى إزالة الورم السرطانى فى حين تم علاجه فى المرة الثانية عن طريق الإشعاعات، الأمر الذى أقنعه بأن العناية الإلهية تقوم على حراسته. وبعد إبلاله من مرضه كرس مؤلفنا كل وقته وجهده للتدريس الذى أحبه وأدخل على قلبه السرور رغم قسوة الحياة فى المنفى. وهو يصف هذه الفترة من حياته بأنها أسعد الفترات التى عرفها. وكان تلاميذه من أبناء المنفيين الذين كتب عليهم دون جريرة ارتكبوها ألا تطأ أقدامهم أرضاً غير أرض المنفى. وانبهر سولجنتسين بإقبال هؤلاء الأطفال على التعليم ورغبتهم النهمة إليه فأنشأ لهم ناديا يعلمهم علم تقسيم الأرض كما علمهم الفلك ومواقع الأجرام السماوية. واحتفظ بمفكرة يسجل فيها سلوك كل تلميذ من تلاميذه ما يحب وما يكره والمواد التى يميل إلى دراستها واهتماماته فى أوقات الفراغ، وبعد لأى استطاع مؤلفنا اقتناء آلة تصوير بالتوقيت الذاتى

صور بها نفسه سرا بملابس السجن التى تمكن من تهريبها معه إلى المنفى كما أنه حملها معه فى رحلاته مع التلاميذ واستخدمها فى عمل ميكرو أفلام لكتاباته أخفاها فى أغلفة المدارس. وأخذت حياته فى المنفى وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره فى الانتظام والاستقرار فاشترى الكوخ الذى كان يستأجره. وباشر التدريس فى المدرسة صباحا واعتنى بتلاميذه فى العصر وانصرف إلى الكتابة فى المساء. وبدا كما لو كان راضيا عن حياته ولكنه فى واقع الأمر كان ساخطا عليها، ولم يصادق سولجنتسين فى المنفى سوى زوبوف وزوجته. وزوبوف هو طبيب النساء الذى أسدى له النصح بعلاج الورم الذى يشكو منه. واستمتع مؤلفنا بدفء العلاقة التى تربطه بزوبوف وزوجته (اللذين يظهران كعائلة «كادمين» فى «عنبر السرطان») وأنزلهما فى منزلة الوالد والوالدة.. وبلغت ثقته بهما مبلغا جعله يطلعهما على مخطوطاته فشجعاه على المضى فى الكتابة.

رحلة الشفاء والحرية:

وفى يونية عام ١٩٥٤ عاد سولجنتسين إلى طشقند بناء على تعليمات الأطباء. وبدا عليه تحسن ملموس فى صحته كما ازداد وزنه زيادة واضحة. وفى مستشفى طشقند مكث نحو شهرين لاستكمال العلاج فقد لاحظ الأطباء أنه يعانى من انخفاض ملحوظ فى عدد الكرات البيضاء الموجودة فى دمه. وفى خلال فترة استكمال العلاج انكب على قراءة سلسلة من المقالات النقدية حول المؤلفين السوفيت. ويبدو أنه تأثر بوجه خاص بمقال معروف نشره فلاديمير بوميرا تستيف فى مجلة «العالم الجديد» بعنوان عن الإخلاص فى الأدب، يهاجم الستالينية وينتقد الواقعية الاشتراكية. (والجدير بالذكر أن المسئولين قاموا بطرد رئيس تحرير المجلة الشاعر ألكسندر تفاردوفسكى لسماحه بنشر هذا المقال).

وتتضمن رواية «عنبر السرطان» إشارة إلى الأثر العميق الذى تركته قراءة هذا المقال فى إحدى شخصيات هذه الرواية. وبعد خروجه من المستشفى لم يغادر مؤلفنا طشقند إلا بعد قيامه بزيارة حديقة الحيوان فيها حاملا آلة التصوير. فى ذلك اليوم خطر له أن يكتب «عنبر السرطان» التى لم يشرع فى كتابتها بالفعل إلا بعد انقضاء ثمانية أعوام. ولفت نظره فى تلك الفترة أن معاملة الضباط ورجال الأمن والمخابرات له بدأت تتغير وأنها أصبحت أكثر رقة وتحضرا عن ذى قبل فأدرك أن ريح التغيير بدأت تهب على البلاد.

وبعد عودته إلى منفاه فى كوك تيريك استرد سولجنتسين صحته وعافيته تماما وخامره شعور قوى بأنه عزب يعيش شبابه من جديد فى سن الخامسة والثلاثين ويتمتع بمطلق الحرية فى أن يتزوج. وراقت له فتاة روسية استقرت عائلتها فى إقليم خازاستان، وأوشك فى عام ١٩٥٥ على الاقتران بها. ولكن منعه من ذلك أنه لاحظ أن فتاته كانت شديدة الارتباط بمنظمة الشباب الشيوعية المعروفة باسم الكو مسمول ولا تكف عن ترديد أغانيها والتمتمة بأناشيدها. فخشى أن يكون ولاؤها للنظام السوفيتى يفوق ولاءها له فآثر الابتعاد عنها. ورغم هذا فقد ظل يبحث لنفسه عن زوجة تؤنس وحشته لمدة ثلاثة أعوام بعد أن أمضى فى السجون والمعسكرات ثمانية أعوام كاملة. وأخيرا قرر أن يصرف نظره عن الزواج خشية ألا يجد الزوجة الوفية التى تصون أسراره. فقد كان جل ما يخشاه أن تقع كتاباته ومخطوطاته فى أيد غير موثوق بها، فيؤدى ذلك إلى الحكم عليه بالحبس من جديد.

آثر سولجنتسين أن ينصرف عن الزواج ويكرس وقته لتأليف مسرحية بعنوان «جمهورية العمل» تتناول حياة السجون والمعسكرات ضمنها تجاربه المستقاة من سجن أورشليم الجديد كما ضمنها وقائع وشخصيات استمدها من سجن بوابة كاليوجا وسجن اكيباستوز. ولم يخف مؤلفنا سعادته أثناء كتابة هذه المسرحية الجديدة لأنه فى المنفى - بخلاف السجن والمعسكر - لم يكن بحاجة إلى حرق أصولها بعد استظهارها. فضلا عن أن السعادة غمرته وهو يقوم بتنقيح مسودتها وإعادة نسخها. ولم يعجبه «جمهورية العمل» كعنوان فأعاد صياغتها بعنوان «العاهرة والتابع» التى تدور أحداثها حول شخصية روديون نيموف التى تمثل جانبا من سيرة حياة مؤلفها منذ اللحظة التى وصل فيها إلى المعسكر حتى وقت دخوله المستشفى. وتعالج هذه المسرحية البلطجة والفساد الذى يسود حياة السجون والمعسكرات، الأمر الذى يؤدى إلى اعتلاء القمة أحط أنواع البشر ويستقر فى القاع أفضلها. وتروى لنا المسرحية قصة الغرام المتبادل بين بطلها نيموف وبطلتها ليوبا التى تحمل بين جنباتها قلبا زكيا طيبا غير أنها تتحول إلى عاهرة بالرغم منها بسبب ظروفها القاهرة وتهديد طبيب المعسكر بالتنكيل بها. والجدير بالذكر أنها المرة الأولى التى يؤلف فيها سولجنتسين مسرحياته بأسلوب نثرى الأمر الذى منحه قدرا كبيرا من الحرية فى تناول موضوعاته لم توفره له صياغة المسرح الشعرية. قرأ مؤلفنا فى يونية ١٩٥٥ مسرحيته الأخيرة على كل من صديقه زوبوف وزوجته فكانا بذلك أول العارفين بوجودها.

وتعتبر فترة السجون والمعسكرات ثم المنفى فترة التدريب الأدبى الذى كان سولجنتسين فى أمس الحاجة إليه حتى يتمرس بالكتابة ويصل بها إلى درجة النضج والإتقان. فضلا عن أنها كانت

بمثابة المطهر الذى ساعده على تنقية مشاعره وتهدئة عواطفه المكبوتة الهائجة حتى يصفو قلبه وعقله لمعالجة المواضيع الأدبية التى تستحق المعالجة. وفى خلال تجاربه الشعرية فى المسرح اهتدى مؤلفنا إلى لغة النثر والمواضيع والأشكال الروائية التى تناسب مواهبه. فلا غرو إذا رأيناه فى هذه الفترة ينتقل إلى التأليف الروائى ويسطر صفحات أولى رواياته ذات القيمة الأدبية وهى «الدائرة الأولى».

وبعد وفاة ستالين تم القبض على بريا رئيس مخابراته ووزير داخليته وساعده الأيمن فى التنكيل بالعباد. وبموت ستالين فقد جهاز مخابراته كثيرا من أمواله ومن سطوته، الأمر الذى ساعد على انتشار التذمر فى صفوف المسجونين فطالبوا إدارة السجن بحقوقهم فاستجابت لكثير من مطالبهم. ومنها صرف أجور وليس كوبونات للسجناء نظير ما يقومون به من أعمال، والسماح للأهالى بزيارة أقاربهم من المساجين. وشاهدت الفترة التى أعقبت وفاة ستالين تحسنا ملحوظا فى أحوال المنفيين المعيشية وخاصة بعد الزيارة التى قام بها فى عام ١٩٥٥ المستشار الألمانى أديناور للاتحاد السوفيتى للاتفاق مع المسئولين السوفيت على إطلاق سراح كل الأسرى الألمان منذ الحرب العالمية الثانية .وفى ٩ سبتمبر من ذلك العام نفسه صدر أول عفو سياسى حقيقى وخطير الدلالة فتم العفو عن المساجين السياسيين الذين تزيد مدة الأحكام الصادرة ضدهم على عشرة أعوام، فضلا عن خفض الأحكام بعشرين سنة إلى النصف. وكعادته اهتم مؤلفنا بمتابعة دقيقة لكل ما تنشره الصحف السوفيتية من أنباء. فهو من اكتشف فى منفاه نبأ العفو عن المساجين منشورا فى مكان غير بارز فى إحدى صفحات جريدة أزفستيا الداخلية دون غيرها من الصحف السوفيتية حتى لا يلتفت إليه أحد. وحتى يتابع الأخبار بصورة أدق اشترى سولجنتسين مذياعا ليستمع بانتظام شديد إلى محطة ال بى.بى. سى رغم أن السوفيت كانوا يقومون بالتشويش عليها.

وسعى زميلاه القديمان فى السجون والمعسكرات ديمترى بانين وليف كوبليف إلى معرفة عنوانه بهدف الكتابة إليه. وأرسلا إليه يستحثانه على أن يلتمس من السلطات الإفراج عنه. ورغم قنوطه من هذا فقد فعل ما طلباه منه. وفى أحد الأيام استمع من محطة الإذاعة البريطانية لأخطر نبأ أثرعلى حياته أثرا كبيرا ومباشرا فقد وافته أخبار هذه الإذاعة بالخطبة التى ألقاها خروتشوف فى ٢٦ فبراير ١٩٥٦ أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى وهاجم فيها مبدأ عبادة الفرد وكشف عن جانب من الجرائم التى ارتكبها ستالين. ومنذ تلك اللحظة أدرك سولجنتسين أن سقوط ستالين عدوه سقوط لا رجعة فيه. وكتب سولجنتسين فى «أرخبيل الكولاج» يقول فى هذا الصدد. «عرفت أن عدوى ستالين قد سقط الأمر الذى كان يعنى بداية الصعود بالنسبة لى. وفى مارس ١٩٥٦ وقع ما لم يكن فى حسبانه فقد استدعاه أحد رجال المخابرات وحاول تجنيده كجاسوس أو مخبر، وكما سبق أن حدث له حاول مؤلفنا أن يتنصل ويهرب ولكن رجل المخابرات ألح عليه، وفى احتجاجه ذكر سولجنتسين أن جهاز المخابرات السوفيتية المعروف باسم M.Y.B قد انتهى إلى الأبد بسبب رياح التغيير الليبرالى التى هبت على النظام فشرح له رجل المخابرات أن جهازا جديدا للمخابرات يعرف باسم .K.G.B قد حل محل الجهاز القديم المنحل ولغفلته لم يأخذ مؤلفنا هذه المعلومة مأخذ الجد. ولكنه أراد ألا يستثير غضب الرجل عليه فتعلل بسوء صحته فطلب منه رجل المخابرات أن يقدم إليه شهادة طبية بذلك ليرفعها لرؤسائه كى يبرر لهم فشله فى تجنيده.

ولم يمض شهر واحد حتى وصله خطاب فى إبريل ١٩٥٦ مفاده أنه أصبح حرًّا طليقا يحق له الذهاب إلى أى مكان يريد. فقرر أن يختار موقعا هادئا فى قلب الريف الروسى الجميل فى أواسط روسيا حيث يستطيع أن ينفرد بنفسه ويلعق جراحه ويواصل مهنة التدريس التى أحبها من سويداء قلبه. وتعين عليه البقاء فى كوك تيريك حتى نهاية العام الدراسى والانتهاء من أعمال التصحيح. وفى ٢٠ يونية ١٩٥٦ استقل القطار المتجه إلى موسكو وأواسط روسيا. واستغرقت الرحلة أربعة أيام. وبمجرد أن هبط من القطار ليقع ناظراه على جمال الريف الروسى الذى كان يحلم به هبت قبضة ريح فى وجهه وسالت على خديه الدموع.

سبحان مغير الأحوال

فى الرابع والعشرين من شهر يونية عام ١٩٥٦ قابل سولجنتسين صديقيه القديمين بانين وكوبليف فى محطة القطار بموسكو. ولم يستطع الأصدقاء المجتمعون الاحتفال بهذه المناسبة السارة باحتساء الشراب فقد كان سولجنتسين ممنوعا من شرب الخمر بسبب ظروفه الصحية ولاحظ بانين وكوبليف أن صديقهما فقد كثيرا من وزنه وبدا عليه الشحوب. ودهش مؤلفنا للتغير الكبير الذى طرأ على الجو العام وعلى الجرأة والجسارة التى أظهرها كوبليف وهو يتحدث عن الأحوال السياسية فى البلاد. وعبثاً حاول الصديقان إقناعه بالبقاء فى موسكو فقد كره جلبة هذه العاصمة وضوضاءها. وتردد على إدارات التربية والتعليم المختلفة يستفسر منها عن حاجتها إلى مدرس رياضيات فى إحدى المدارس بالقرى النائية. وبدا لهم هذا طلبا غريبا فقد تكالب جميع المدرسين على

العمل بالمدارس الموجودة فى المدن الكبرى. وأخبره صديقاه أن السلطات أعادت الاعتبار إلى كثير من المساجين السياسيين، وألحا عليه أن يخاطب المسئولين بهذا الشأن ففعل هذا على مضض لعدم إيمانه بجدوى مثل هذا العمل. غير أنه دهش عندما استجاب له المسئولون وأبلغوه بضرورة توجهه إلى سجن لوبيانكا الشهير لمقابلة المحقق الجديد المسئول عن قضيته فى مكتبه. واستغرب مؤلفنا حين رأى هذا المحقق يخرج الملف الخاص به وهو يضحك من بعض النكات التى أطلقها عن ستالين فى ثنايا الخطابات التى أرسلها إلى صديقه نيكولاى، بل إنه امتدح القصص التى ألفها أديبنا وهو على جبهة القتال. وهى القصص التى كانت من بين الأسباب التى أدت إلى الزج به فى غياهب السجون. وقال عنها المحقق الجديد: «لست أجد فيها أية اتجاهات معادية للسوفيت. ويمكنك أن تسترجعها وتحاول نشرها» ولكنه رفض أن يأخذها معه قائلا إنه نبذ الأدب منذ فترة طويلة واحترف مهنة متواضعة هى تدريس الفيزياء.

وفى تلك الفترة سافرت ناتاليا زوجة مؤلفنا السابقة لمصاحبة بوريس الأبن الثانى لزوجها فسفولود فى رحلة على نهرى الدون والفولجا يممت فيها شطر العاصمة موسكو حيث اتصلت عند وصولها تليفونيا بصديقتها ايفجينيا زوجة بانين التى أخبرتها بوجود سولجنتسين هناك ورغبة زوجها السابق فى رؤيتها. فلم تمانع فى مقابلته على انفراد فى بيت عائلة بانين يوم ٢٦ يونية ١٩٥٦ وسألها عن السبب الذى حدا بها إلى طلب الطلاق منه فارتبكت ولم تحر جوابا شافعا. ويبدو أنه أراد ألا تنقطع وشائج الود بينهما فسلمها نسخا من القصائد التى نظمها عنها فى سنوات المعسكر. وقام بزيارة قبر أمه وخاله رومان لكنه لم يعثر على قبر أبيه الذى تهدم واندثر بسبب الحرب. وسعى إلى مقابلة صديقيه القديمين نيكولاى وكيريل. كانت مقابلته مع نيكولاى غير ودية بالمرة فقد بدا على نيكولاى البرم والغضب مما رآه تدخلا من جانبه فى حياته، ورغم ما فعله سولجنتسين من أجله فقد اعتبره مسئولا عن النكبات التى حلت به. أما كيريل الذى أصبح جراحا ناجحا ومعروفا فقد رفض مقابلته ظنا منه أنه السبب فى توريطه مع المخابرات السوفيتية وهكذا صدم مؤلفنا فى صديقيه.

ومع بداية العام الدراسى الجديد جمع، سولجنتسين، متاعه القليل وتوجه فى سبتمبر ١٩٥٦ إلى مدينة تورفوبرودكت الصغيرة حيث تسلم فيها عمله كمدرس. ورغبة من جانبه فى أن يعيش فى جو ريفى تماما قرر أن يستقر فى قرية صغيرة مجاورة اسمها فيلتسبيفو لم يستطع أن يجد فيها مكانا واحدا خاليا ولكن أرملة تدعى ماتريونا زاخاروفا تعيش بمفردها ومعروفة بين أهل القرية بالقذارة وسوء الطبع قبلت أن تؤجر له جانبا من كوخها الذى راق له موقعه الجميل الذى ذكره بالريف الجميل الذى وصفه الشاعر ياسنين فى أشعاره. وفى مستقره الجديد أحس مؤلفنا بجو الحرية والانطلاق. فبعد أن يخلو إلى نفسه من مشاغل التدريس ينكب على أشعاره ومسرحياته ينقحها فى جو ريفى هادىء وخلاب ويبدأ فى تأليف رواية دون أن يضطره الخوف إلى إخفاء ما يكتب عن العيون المتلصصة. ورغم أنه كان يعلم أن نشر ما يسطره من كتابات أمر مستحيل فإنه اختار لنفسه اسما مستعارا هو ستيفان كلينوف. ورغم كل ما عانى فى بيت ماتريونا من مضايقات مثل سوء الواجبات التى تقدمها إليه صاحبة البيت فقد مرت حياته هانئة هادئة لا يعكر صفوها غير شعوره بالوحدة ورغبته فى أن يتمتع بالدفء المنبعث من جسد امرأة. وعاوده شوقه إلى زوجته الأولى ناتاليا فأرسل إليها عنوانه الجديد لعلها تكتب إليه. ويبدو أن الأشعار التى نظمها عنها أثارت فيها الماضى وشجونه فبدأت تكابد الحنين إلى شخصيته الرومانسية القوية. وكتب إليها ليعترف بأن عواطفه نحوها بدأت تتجدد واقترح عليها أن تقوم بزيارته حتى تستطيع أن تحدد عواطفها نحوه، فاستجابت له. ففى ١٩ أكتوبر ١٩٥٦ انتهزت ناتاليا فرصة غياب زوجها الجديد فى أوديسا فتركت ولديه فى رعاية والدتها وقامت سرا بزيارة مدينة تورفوبرودكت. وهناك بدأت جذوة حبهما القديم تتجدد ولم يمض وقت حتى استسلمت ناتاليا لأحضانه وكأن أيام الفراق لم تكن وبات من الواضح أنهما لا يستطيعان الاستغناء عن بعضهما البعض. وكشف سولجنتسين لناتاليا عن مرضه الذى قد يضع حدا لحياته فى غضون أعوام قلائل فتعلقت به زوجته أكثر وأكثر. وأطلعها على كتاباته وطلب إليها ألا تبوح بسرها مهما كلفها هذا من عنت ومشقة، فوافقت دون أدنى تردد. وتصفحت قصاصات الورق التى بدأ عليها كتابة أولى رواياته «الدائرة الأولى» فأدركت على الفور أنها سوف تلعب الدور نفسه الذى تلعبه نادية فى حياة زوجها جليب نرزين فى هذا العمل الروائى. وتكررت زيارات ناتاليا له فى السر وطلب إليها أن تبلغ زوجها الجديد برغبتها فى الانفصال عنه ولكن قلبها لم يطاوعها. ولم يخف على زوجها الجديد أن تغيرا طرأ على موقفها منه، فسعى ما وسعه السعى إلى التسرية عنها عن طريق الفسح والرحلات. ولكنه فشل فى صرف انتباهها عن زوجها القديم. وعندما شعر فسفولود أن زوجته سوف تضيع منه اشتد تمسكه بها وقاوم فكرة الانفصال عنها وما يجنيه هذا الانفصال من خسارة على

ولديه اللذين وجدا فى ناتاليا ما يعوضهما عن أمّهما. غير أن سولجنتسين فى إثرته وأنانيته لم يلق بالا لهذه النقطة. ولكنه أدرك فيما بعد أنه أخطأ فى حق هذين الولدين. وبعد لأى وخلافات حادة فى وجهات النظر اتفق فسفولود وناتاليا على الطلاق. وفى ٢ فبراير ١٩٥٧ قام سولجنتسين بإعادة تسجيل زواجه من مطلقته.

كان سولجنتسين قد تلقى ردا من المسئولين باتخاذ الإجراءات اللازمة نحو إعادة الاعتبار إليه. فى ٦ فبراير ١٩٥٧ عقدت محكمة عسكرية جلسة وأعادت فحص الظروف التى ألقى فيها القبض عليه وطالب المدعى العام العسكرى بتبرئته وإسقاط التهم الموجهة ضده. وتضافر زملاء سولجنتسين فى الجيش وزوجته ناتاليا وأصدقاؤه فى الإدلاء بشهادات فى صالحه. وعدد المدعى العسكرى الأسباب التى تدعو إلى إلغاء الأحكام الصادرة ضد سولجنتسين فقال: «يتضح من الأدلة الواردة فى هذه القضية أن سولجنتسين رغم أنه تحدث فى مفكرته وخطاباته التى أرسلها إلى صديقه ن. د.فيتكفتش عن صحة وسلامة الماركسية ـ اللينينية وتقدمية الثورة الاشتراكية فى بلادنا وحتمية انتصارها فى كل أنحاء العالم، فقد تحدث أيضا بصراحة ضد شخصية ستالين وكتب عن العيوب الفنية والأيدولوجية التى تشوب أعمال كثير من المؤلفين السوفيت وافتقارها إلى الواقعية. وكتب أيضا يقول إن أعمالنا الأدبية تخفق فى أن تعطى القراء فى العالم البورجوازى شرحا شاملا ومتنوعا بما فيه الكفاية لحتمية انتصار الجيش والشعب السوفيتى وأن أعمالنا الأدبية ليست على المستوى الملائم القادر على الرد على التشهير الذى يوجهه العالم البورجوازى بدهاء وذكاء ضد بلادنا»

وهكذا برأت المحكمة سولجنتسين من كل الاتهامات التى سبق إلصاقها به. وأثلج صدر مؤلفنا إعلان المحكمة أنه مواطن سوفيتى لا ريب فى مواطنته.

والجدير بالذكر أن مؤلفنا فى تلك الفترة لاحظ أن عائلة ماتريونا تصرفت بمنتهى الأثرة والأنانية عندما صارعت بلا هوادة حول الاستحواذ على متاع ماتريونا القليل. وهو ما أوحى إليه بكتابة قصته القصيرة المعروفة بعنوان «بيت ماتريونا». وفيما يلى نص قرار إعادة الاعتبار إلى سولجنتسين:

قرار المحكمة العليا لاتحاد الجمهوريات الروسية رقم ٤ ن ـ ٨٣ /. ٥٦

قام المجلس العسكرى التابع للمحكمة العليا فى اتحاد الجمهوريات الروسية برئاسة المستشار القضائى بوريوجليسكى وبعضوية العقيدين القضائيين دولوتسيف وكوفيف فى جلسته المنعقدة بتاريخ ٦ فبراير ١٩٥٦ بفحص الاعتراض المقدم من المدعى العسكرى العام ضد الحكم الصادر من قومسارية الشعب للشئون الداخلية (N.K.V.D.) فى اتحاد الجمهوريات الروسية بتاريخ ٧ يولية ١٩٤٥. والذى على أساسه وفقا لبَنْدَىْ ٥٨ (١٠) الجزء الثانى و ٥٨ (١١) من قانون البلاد الجنائى، صدر الحكم بالسجن لمدة ثمانية أعوام فى معسكرات العمل للتهذيب والإصلاح على ألكسندر إيزايفتش سولجنتسين المولود عام ١٩١٨ وموطنه الأصلى كيسلوفودسك والحاصل على مؤهل عال والذى كان قبل القبض عليه يشغل وظيفة قائد بطارية، واشترك فى الحرب ضد الجيوش الفاشية الألمانية ومنح نوط الدفاع عن الوطن من الدرجة الثانية وكذلك نوط النجمة الحمراء.

وبعد الاستماع إلى التقرير المقدم من الرفيق كونيف والبيان الذى أصدره نائب المدعى العسكرى العام والعقيد القضائى تيريخوف الذى رأى قبول الاعتراض فإن المجلس انتهى إلى ما يلى:

ـ إن التهمة الموجهة ضد سولجنتسين مفادها أنه دأب منذ عام ١٩٤٠ حتى تاريخ القبض عليه على القيام بدعاية مناهضة للسوفيت بين أصدقائه. فضلا عن أنه اتخذ خطوات فى سبيل تكوين تنظيم مناهض للسوفيت..

ـ اقترح النائب العسكرى العام فى اعتراضه إلغاء الحكم الذى أصدرته على سولجنتسين الهيئة الخاصة، شطب القضية نظرا لغياب الدليل على أنه ارتكب الجريمة المنسوبة إليه.

وفيما يلى المبررات التى استند إليها اقتراحه:

من الواضح من أدلة هذه القضية أن سولجنتسين دون فى يومياته وخطاباته التى بعث بها إلى صديقه ن. د. فيتيكفتش أنه رغم أنه تحدث عن سلامة الماركسية ـ اللينينية وحتمية انتصارها فى أرجاء العالم فإنه انتقد أيضا شخصية ستالين وكتب عن أوجه القصور الفنية والإيدولوجية التى تشوب أعمال كثير من المؤلفين السوفيت، والجو الخيالى العارى من الحقيقة الذى يسود كثيرا من هذه الأعمال. وكتب أيضا يقول: إن أعمالنا الفنية تخفق فى إعطاء القراء فى العالم البورجوازى شرحا شاملا متنوعا وبسيطا بما فيه الكفاية لحتمية انتصار الجيش والشعب السوفيتى، وإن أعمالنا الأدبية ليست على مستوى الأراجيف التى يطلقها العالم البورجوازى ضد بلادنا بحذق ودهاء.

هذه العبارات التى سطرها سولجنتسين لا تشكل دليلا على وجود أية جريمة.

ومن أجل التأكد من صحة الالتماس الذى قدمه سولجنتيسن تم سؤال الناس

الذين قيل إن سولجنتسين نشر بينهم المزاعم المعادية للسوفيت وهم ريشيتوفسكايا وسيمونيان وسيمونيانتس فشهدوا جميعا أن سولجنتسين وطنى سوفيتى غيور وأنكروا أنه تفوه بأية أحاديث مناهضة للسوفيت .

وبناء على سجل سولجنتسين العسكرى والتقرير الذى قدمه زميله فى الجيش الكابتن مليكوف يتضح أنه منذ عام ١٩٤٢ حتى تاريخ القبض عليه اشترك سولجنتسين فى الحرب على عدة جبهات دفاعا عن شرف الأوطان وحارب بشجاعة للزود عنها. كما أنه أكثر من مرة أظهر بطولة شخصية وأوحى للقسم العامل تحت إمرته بالتفانى والإخلاص. إن القسم الذى يرأسه كان أفضل الأقسام فى الوحدة كلها بفضل ما اتسم به من نظام وفاعلية قتالية. وبناء على الأدلة الواردة أعلاه فإن النائب العسكرى العام يعتبر إدانة سولجنتسين غير سليمة. ولهذا فإنه يطلب شطب القضية ضده استنادا إلى المادة الرابعة النقطة الخامسة من قانون الإجراءات الجنائية فى البلاد .

وبعد فحص وتمحيص مادة القضية الذى يتفق مع الشروح والمحاجات الواردة فى صحيفة الاعتراض الرسمى ولأخذ فى الاعتبار أيضا أن الأفعال التى قام بها سولجنتسين لا تشكل جريمة وأنه ينبغى شطب قضيته لعدم توفر الأدلة الجنائية، فإن المجلس العسكرى التابع لاتحاد الجمهوريات الروسية قرر إلغاء الحكم الصادر من قومسارية الشعب للشئون الداخلية بتاريخ ٦ يولية ١٩٤٥ بخصوص المدعو إلكسندر إيزايفتش سولجنتسين. وكذلك شطب قضيته لعدم توفر الأدلة استنادا إلى المادة الرابعة النقطة الخامسة من قانون الإجراءات الجنائية .

تحمل النسخة الأصلية من هذا القرار توقيعات المختصين وتأكد من صحة الأصل كبير ضباط المجلس العسكرى الرائد ديجتياروف.

مدرس فى ريازان:

فى سبتمبر عام ١٩٥٧ عين سولجنتسين مدرسا للفيزياء والفلك فى إحدى المدارس العليا فى ريازان بعد أن قدم إلى الإدارة التعليمية الشهادة الدالة على براءته. وفى ريازان أصاب فى عمله نفس النجاح الملحوظ الذى سبق أن أصابه فى إقليم كازاخستان بسبب ما اتسم به من حيوية دافقة وحماس متقد وقدرة على تقريب النظرية العلمية إلى أذهان الناشئة عن طريق المشاهدة العملية. وعندما طبقت شهرته الآفاق قال عنه ناظر مدرسة ريازان لأحد الصحفيين: إنه كان يحرص على اصطحاب تلاميذه لأحد المصانع أو الورش المحلية ويطلب منهم ملاحظة ما يدور فيها، ثم يسألهم عن حل مسألة فى الفيزياء مبنية على أساس ما شاهدوه فى المصنع وهكذا كان يوضح لطلبته قوانين الفيزياء بطريقة عملية متصلة بالحياة اليومية، وكان يواكب أحدث التطورات فى العلوم وبالذات فى مجال رحلات الفضاء. ذهب مرتين إلى موسكو لإلقاء المحاضرات عن علم الفيزياء كما أنه تحدث فى اجتماع عقد بمناسبة إطلاق أول قمر صناعى روسى. واستطاع أن يحبب الطلبة فى هوايته المفضلة وهى التصوير الفوتوغرافى، غير أن اهتمامه الشديد بعمله كمدرس لم يكن بحال من الأحوال على حساب اهتمامه بالتأليف. ففى السنة الأولى من عمله فى مدرسة ريازان لم يزد نصاب جدوله عن خمس عشرة ساعة فى الأسبوع انخفض فى السنة الثانية إلى إثنتى عشرة ساعة وبعدها إلى عشر ساعات فقط وهو أقل نصاب يخول لصاحبه الحق فى الحصول على معاش ومكافآت خدمة. ويحدثنا أحد الصحفيين عن انتظامه الشديد ودقته المتناهية فى العمل، فيقول: إن الوقت له قيمة عظيمة عنده ولولا رغبته فى توفيره من أجل الخلق والإبداع لبدا حرصه المبالغ فيه عليه ضرباً من الشذوذ. وكان من عادته أن يصل إلى باب الفصل قبل موعد الحصة بدقيقة أو دقيقتين. وبعد قيامه بأداء كل واجباته الوظيفية على نحو كامل، يسارع بالتسلل إلى خارج المدرسة، حتى يتجنب الاجتماع بالزملاء والدردشة التى لا تفيد.

وتقول زوجته ناتاليا: إن انتظامه فى حياته المنزلية كان لا يقل عن انتظامه فى مباشرة وظيفته. حتى فسحه اتسمت بالنظام الشديد فقد تعود خلال السنوات التى عاشها فى ريازان أن يذهب مع زوجته إلى السينما مرتين فى الشهر، وإلى الحفلات الموسيقية والمسارح مرة فى الشهر. وإذا حدث أن أكثر من مرات الخروج فى أحد الشهور فإنه يعوض ذلك بالتقليل من الخروج فى الشهر الذى يليه.

فى بادىء الأمر تحملت ناتاليا هذا النظام العائلى الصارم وهى راضية غير أنها ما لبثت أن جأرت بالشكوى منه. وفى عملها فى تدريس علم الكيمياء فى المعهد الزراعى حصلت ناتاليا على مرتب مرتفع ساعد زوجها على عدم إرهاق نفسه والاكتفاء بجدول مخفف حتى يتمكن من التركيز على الكتابة. وساعدت ناتاليا زوجها فى إعادة صياغة المسودتين الثانية والثالثة من رواية «الدائرة الأولى» التى استمد أشخاصها وأحداثها من تجاربه فى حياة السجون، وخاصة من معرفته بصديقيه السجينين السياسيين ليف كوبليف وديمترى بانين. والتمس سولجنتسين رأى هذين الصديقين القديمين فى تصوره لهما فى الرواية فلم يبد كوبليف أى استعداد لتغيير ما كتبه عنه فى حين لم يكف بانين عن التدخل والتعليق على الرواية وأحداثها وتصويرها للشخصيات، وتأثر المؤلف بهذه التعليقات

تأثيراً واضحاً، كما أنه تأثر بوجه خاص باقتناع بانين بشرور الماركسية والثورة البلشفية. ورحب بانين بعودة سولجنتسين إلى حظيرة الدين، ولكنه كتب إليه عام ١٩٥٩ خطاباً مطولا يقول له فيه إنه لايستطيع أن يعتبر نفسه مسيحياً بالمعنى الحقيقى للكلمة إلا بعد أن يؤمن بالكنيسة المسيحية ويسلم إليها كل أمره. وهو ما لم يكن سولجنتسين مستعداً له حتى تلك اللحظة. وفى روايته رسم المؤلف صورة للرسام سيرجى إيفاشوف موساتوف الذى عرفه فى السجون والذى رسم اسكتشاً له بالقلم الرصاص حرص كل الحرص على الاحتفاظ به، ورغم أن صلته بهذا الرسام لم تكن حميمة فإنه كان مغرماً بتبادل الرأى معه حول الفن والإبداع الفنى.. وبوجه عام كان مؤلفنا عزوفا عن الاختلاط بالناس المحيطين به فإنه شعر بوشائج القربى تربطه بزملائه القدامى من نزلاء السجون والمعسكرات، فهم الذين كابدوا ما كابده من عذاب. ولا غرو أنه استمد مادته الروائية فى «الدائرة الأولى» من تجاربه المشتركة معهم. وبطبيعة الحال أطمأن قلبه إلى زملائه فى السجن أكثر مما اطمأن إلى زملائه فى العمل وغيرهم من الناس، فأوراقه ومسرحياته التى سطرها فى السجون تعالج موضوعات من شأنها أن تثير غضب الدولة عليه مثل وصفه لمسلك القوات السوفيتية غير المسئول فى الأراضى الألمانية، وتحريض إدارة السجون السوفيتية لنزلائها من المجرمين العاديين كى يبسطوا سطوتهم الغاشمة على زملائهم المسجونين السياسيين وينكلوا بهم. واستقر فى إدراك مؤلفنا أن التغير الذى صاحب مجئ خروتشوف إلى السلطة لا يعنى مطلقاً أن الدولة سوف تتهاون معه أو أنها لن تغضب منه ومن كتاباته. وزاد حرصه على السرية والأمان أنه بدأ يعالج فى كتاباته مشروع «المعاهد السرية» التى أنشأها ستالين لتجنيد العلماء المساجين للقيام بالأبحاث العلمية. ويشرح لنا دوافعه فى اعتزال الناس اعتزالا يذكرنا بحياة النساك والرهبان فى كتابه «شجرة البلوط والعجل الصغير» الذى يتضمن جانباً من سيرة حياته. فيقول: «كان لزاماً علىَّ أن أكيف حياتى بأسرها إلى حاجتى إلى الأمن المشدد. الأمر الذى منعنى من عقد أية صداقات أو التعرف إلى الناس فى ريازان... بل ومن دعوة أى إنسان إلى منزلى أو قبول دعوته لى إلى منزله. فلم يكن بوسعى أن أشرح لأى أحد أننى فى حقيقة الأمر ليس لدى وقت فراغ لمدة واحدة، كما لم يكن بوسعى أن أسمح بقصاصة ورق واحدة من الأوراق التى خبأتها تتسرب من شقتى، أو لأى عين قوية الملاحظة أن تجول داخل البيت للحظة واحدة. وكنت وسط زملائى فى العمل أتعمد ألا أكشف لهم عن اهتماماتى الأوسع وأظهر دائماً أمامهم بمظهر من لا يبالى بالأدب».

وفى فترة وجوده فى ريازان قام أديبنا بنسخ كل كتاباته على الآلة الكاتبة ثم حرق الأصول التى ينسخ منها، وهى عادة اكتسبها فى فترة وجوده فى السجون والمعسكرات واستمرت تلازمه حتى وقت طرده فى عام ١٩٧٤ من الاتحاد السوفيتى. ورغم مرارة أيام السجن فقد أحب فيها أنها تشحذه على التأليف والكتابة وأنه لم يسمح لنفسه مطلقاً بنسيانها بل دأب على تذكير نفسه بها فأحيا هذه الذكرى يوماً فى كل عام أسماه «يوم السجن» تناول فيه الطعام نفسه الذى كان يتناوله فى السجن بهدف أن تبقى هذه التجربة حية وماثلة أبداً أمام عينيه. فضلا عن أنه احتفظ ببعض الأشياء التى تذكره بتلك الأيام مثل جاكتته المبطنة بالكاوتش وملعقة الألومنيوم التى صنعها بنفسه فى المسبك ومعطفه العسكرى الذى كان يرتديه لحظة القبض عليه. وفى إحدى زياراته لموسكو وجد نفسه فى الشارع الذى يقع فيه سجن بيوتركى فدخل فيه ليرى «مكتب استقبال الطرود واللفائف»، وأخذ يقرأ اللوائح التى تنظم عمل هذا المكتب غير أن الضابط النوبتجى رآه وسارع بإخراجه، وفى مناسبة أخرى زار العمارة التى اشترك مع زملائه المساجين فى تشييدها عندما كان سجينا فى بوابة كالوجا.. واستغرب من التغير الذى طرأ على الموقع الذى شغله سكان لا يدرون ما كابده المساجين من عذاب حتى يتموا بناءه. وتسلل سولجنتسين إلى المكان الذى كان فيه مكتب القومندان ليكتب على الحافة البيضاء للنافذة بالقلم الأسود «قسم رقم ١٢١». وفى أبريل ١٩٥٨ فكر فى كتابة قصة معسكرات العمل فى كتاب أدبى ضخم هو «أرخبيل الكولاج»، وعندما قيض له أن يكتب هذا العمل قال فى مجلده الأول عن الإحدى عشرة سنة التى قضاها فى السجون إنه لم يعد يرى فيها كابوساً ملعوناً يجثم فوق صدره بل إنه يوشك أن يحب عالم المعسكرات الفظيع البشع، ثم قال فى المجلد الثالث إن لهذه الفترة من حياته مزاياها فالحياة خلف القضبان تعلم الإنسان أن هناك مقياساً آخر يقاس به الرجال وتقاس به الأمور كما أنها تزيل الغشاوة من العيون التى تحجب الرؤية الحقيقية للأشياء.

وفى ربيع ١٩٥٨ عانى سولجنتسين من الانتكاس من مرض السرطان الأمر الذى اضطره إلى دخول المستشفى للعلاج بالمواد الكيماوية وتوقعت زوجته ناتاليا أن يموت فى غضون أربعة أعوام غير أن صحته تحسنت تحسناً ملحوظاً على العلاج الكيماوى، فلم يمكث فى المستشفى سوى أسبوعين، ثم تردد عليها لبعض الوقت كمريض خارجى. فضلا عن أنه كان يعالج نفسه بالأعشاب

والنباتات التى كان لايزال محتفظاً بكمية منها. وبعد أن شعر بشفائه شفاء كاملا قام بالتنظيم الدقيق لرحلة مع زوجته إلى مدينة لننجراد التى رآها لأول مرة فى حياته حيث أمضى إجازة امتدت إلى ستة أسابيع. وهناك حضر الزوجان حفلات الموسيقى والباليه والمسرح. وفى عام ١٩٥٨ قرر مؤلفنا العودة إلى هوايته القديمة فى ركوب الدراجات لإزالة السمنة التى أخذت تتراكم على جسده من ناحية وزيارة القرى الصغيرة المجاورة من ناحية أخرى، ولأن هذه القرى كانت أصغر من أن تحتوى على فندق أو مكان للمبيت فإن أهلها نظروا إليه وإلى كل الأغراب نظرات ملؤها الشك والارتياب. وفى نهاية هذا العام نفسه انتهى من تأليف «الدائرة الأولى». والغريب فى الأمر أن سولجنتسين لم يبدأ حياته بنشر أعماله الأدبية بل بدأها بالكتابة إلى الصحف فى بريد القراء للشكوى من فظاظة البيروقراطية السوفيتية. وتناول أول مقال نشره فى مارس ١٩٥٩ فى جريدة ريازان المحلية تحت عنوان «أمور غريبة فى مكتب البريد» يبين فيه عيوب الخدمة البريدية السوفيتية تلاه بمقال آخر. رفضت جريدة «الجودوك» نشره عن سوء الخدمة فى السكك الحديدية السوفيتية التى تسمح ببيع تذكرتين للمقعد الواحد فى القطارات. وفى تلك الفترة من حياته انصرف إلى تأليف قصة عن حياته كمدرس بعنوان «يوم واحد فى حياة مدرس» ولكنه انصرف عنها ليركز على اهتمامه الأصيل والعميق بحياة السجون. وفى ١٨ مايو ١٩٥٩ فكر فى تأليف قصة حول معسكر العمل فى إكيباستوز وهى فكرة سبق أن جالت بذهنه عام ١٩٥٢ عندما كان يشتغل كعامل بناء فى سجن إكيباستوز وكان الأمل يحدوه إلى تمكنه من تصوير حياة السجون والمعسكرات السوفيتية على النحو نفسه الذى استطاع به تولستوى تصوير الحياة فى أوروبا فى قرن من الزمان فى روايته الشهيرة «الحرب والسلام». ولكنه أدرك استحالة تحقيق هذا الحلم الضخم فرأى أن يستعيض عن ذلك بتصوير يوم واحد فى المعسكرات والسجون ليصور من خلاله كل حياة المعسكرات والسجون: يقول سولجنتسين فى هذا الشأن: «بدا لى أن أهم شيء وأكثر تشويق يمكنني أن أفعله هو أن أقوم بتصوير مصير روسيا، وأن فى كل الدراما التى عاشتها روسيا كانت مأساة إيفان دينيسوفتش أكثرها عمقًا، إننى أردت أن أصحح ما انتشر بين الناس من شائعات زائفة حول المعسكرات.. ومأساة إيفان دينيسوفتش مفرطة فى البساطة على نحو قد يضلل قارءها» فهى تصور الأعمال اليومية الروتينية التى يقوم بها هذا السجين من صباحه حتى مسائه. ولم تستغرق كتابة هذه القصة من مؤلفها أكثر من بضعة أسابيع نظراً لأنه استمدها من واقع حياته وتجاربه.

وفى ريازان لم يكن سولجنتسين وزوجته يعيشان بمفردهما فقد كان يشاركهما فى السكن زميلان مدرسان للألعاب الرياضية غادرا الشقة وتركا مكانهما خالياً. فانتهز مؤلفنا هذه الفرصة وأقنع قريبتين مسنتين من أقاربه فى روستوف بأن يستبدلا بمسكنهما المكان الذى خلا بمغادرة مدرسىْ الألعاب الرياضية ووفر له وجود هاتين السيدتين معه فى الشقة إحساساً أكبر بالأمان فهو لم يعد بعد الآن بحاجة إلى حرق أصول كتاباته خوفًا من أن تقع فى أيدى من يتربصون به الدوائر، ولكن علاقتهما بزوجته لم تكن دوما على ما يرام، على أيه حال عاش سولجنتسين وزوجته فى ريازان حياة ملؤها الهدوء وصرامة النظام، فهو يبدأ صباحه برياضة اليوجا ثم يقطع خشب التدفئة بالاشتراك مع زوجته وبعد ذلك يتوجه إلى المدرسة لمباشرة عمله. وطلب إليه ناظر المدرسة فى ريازان أن يقوم بتدريس الرياضيات إلى جانب الفيزياء والفلك فرفض حرصاً على عدم إضاعة وقته فى المزيد من تصحيح الكراسات وفى إحدى المناسبات عرض عليه منصب ناظر المدرسة فرفضه حتى يتفرغ للتأليف والكتابة. وفى تلك الفترة سعى إلى تكوين مكتبة خاصة منظمة يستطيع الاعتماد عليها فى مطالعاته، فاشترى كما تقول زوجته أعمال هوزين ودستوفسكى وتولستوى وهمنجواى وجراهام جرين وريتشارد ألدنجتون وأناتول فرانس إلى جانب الأعمال الكاملة لتشيكوف وكوبرين وبوستوفسكى، وعبر مؤلفنا عن إعجابه الشديد بشاعر القرن التاسع عشر فيودور تيوتشيف الذى دافع دفاعًا مجيداً عن السلافية، وأنحى سولجنتسين بالملامة على بوستوفسكى لاهتمامه الشديد بالكتابة عن نفسه. والرأى عنده أن السيرة الذاتية ضرب من النرجسية لا يليق بالكاتب المبدع الخلاق. وسطر مقالا فى هذا الشأن بعنوان «عدوى كتابة السير الذاتية» هاجم فيه هذا النوع من الكتابة، وأرسل هذا المقال فى نوفمبر ١٩٦٠ إلى «المجلة الأدبية» فرفضته كما رفضته بعض المجلات الأخرى، ويبدو أن كراهيته لهذا النوع من الكتابة كانت نابعة من القلب بدليل اعتذاره عنه فى المقدمات عندما اضطرته الظروف إلى ممارسته.

وبعد انقضاء سنوات طوال من الزواج من سولجنتسين للمرة الثانية لم تستطع ناتاليا أن تتحمل الوحدة القاتلة التى فرضها زوجها عليها فاتهمته بأنه سعى إلى عزلها عن الناس عزلا كاملا. ورغم أن هذا الاتهام ينطوى على جانب من الصدق فإن ظروف حياتها ساعدت على ذلك فقد كان طليقها لا يزال يعيش فى ريازان الأمر الذى عرضها دائمًا لمخاطر

الالتقاء به أو بأصدقائهما وأصدقاء طليقها القدامى.

بداية الطريق إلى النشر:

فى خريف عام ١٩٦٠ أكمل سولجنتسين قصته «ماتريونا زاخاروفا» التى تأثر فيها تأثراً واضحًا بتولستوى. وتصور هذه القصة من خلال شخصية ماتريونا بؤس الفقراء والمعوزين وافتئات البيروقراطية السوڤيتية على حقوقهم التى يكفلها القانون. فضلا عن أن القصة تتضمن جانبا دينياً مسيحياً على نحو غير مباشر. وبعدها عكف أديبنا على تأليف مسرحية بعنوان «النور الذى فيك» تتناول عودة اثنين من العلماء بعد غيبة طويلة فى السجون والمعسكرات بسبب إلصاق الاتهامات الزائفة بهما إلى الحياة المدنية العادية. ورغم حياة العزلة التى فرضها سولجنتسين على نفسه فى ريازان فقد توطدت علاقته برجل يهودى اسمه فينامين توش وزوجته اليهودية سوزانا توش اللذين تخصصا فى الرياضيات وزاملا ناتاليا فى المعهد الزراعى. كان فينامين يحب الموسيقى من قلبه ويهتم بالفنون والعمارة والتاريخ والدين، الأمر الذى جعله يؤلف كتبًا عن الموسيقى وتشيكوف وتاريخ الشعب اليهودى وأظهرت زوجته اهتمامًا بالفنون المرئية بوجه خاص. والذى لاشك فيه أن عشق فينامين للأدب هو الذى جذب سولجنتسين إليه وجعله موضع ثقته كما جعله يعرض عليه كتاباته وهو الدور نفسه الذى كان زميله نيكولاى زوبوف يضطلع به من قبل.

وعلى الرغم من اتجاه الاتحاد السوڤيتى الواضح نحو الليبرالية بعد موت ستالين ومن إعادة الاعتبار لعدد كبير من الأدباء المغضوب عليهم بعد أن وافتهم المنية مثل بابل وبلجاكوف وكولستوف وإيڤان كانابيف وإعادة الاعتبار لكل من أوليشا وزابولوتسكى والسماح لباسترناك وأنا أخماتوفا وزوتشنكو بنشر كتاباتهم، ورغم هجوم شوخولوف على الإجراءات القمعية التى اتخذها ألكسندر فادييف ضد الأدباء، فإن الشك ظل يراود سولجنتسين فى صدق هذه الليبرالية، ولا غرو فقد كانت الساحة الفكرية والأدبية عقب وفاة ستالين تصفو أحياناً وتتلبد بالغيوم أحيانا أخرى. فبقدر ما كانت هناك اتجاهات ليبرالية واضحة كانت هناك مؤشرات نحو العودة إلى الدكتاتورية الستالينية.

ومن المظاهر الواضحة للاتجاه نحو الليبرالية أن مجلة موسكو الأدبية حينذاك نشرت أعمالا لباسترناك وأخماتوفا وتسفتيفا، كما أن مجلة «العالم الجديد» نشرت على صفحاتها سلسلة رواية فلاديمير دادينستيف المعروفة «ليس بالخبز وحده». ومن مظاهر الليبرالية أيضًا ذلك الهجوم العنيف الذى شنه خروتشوف عام ١٩٥٦ على الديكتاتورية الستالينية ومبدأ عبادة الفرد. غير أن خروتشوف ما لبث أن ألقى عام ١٩٥٧ خطاباً يدعو فيه إلى التشدد وينذر بالعودة إلى الوراء بعنوان «نحو ارتباط وثيق بين الأدب والفن وحياة الناس» ذهب فيه إلى أن الفن والأدب جزء لايتجزأ من سعى الدولة وكفاحها من أجل إقامة نظام شيوعى، كما ارتفعت آنذاك أسهم الروائى الستالينى المتصلب فسفولود كوتشيتوف الذى عين رئيساً لتحرير الجازيت الأدبى وصاحب رواية «الأخوة إرشوف»، ورغم أن باسترناك تجنب فى كتاباته الخوض فى الموضوعات الشائكة مثل محاكم التطهير ومعسكرات العمل والمزارع الاجتماعية فإن السلطات السوڤيتية قلبت له ظهر المجن. الأمر الذى روع كاتبنا وأفزعه لأن هذه الموضوعات الشائكة هى المحور الذى تدور حوله كتاباته، ومن بشائر السماحة أن المؤتمر الثالث للكتاب السوڤيت أظهر عند انعقاده فى مايو ١٩٥٩ اتجاها نحو الليبرالية وفى هذا العام نفسه امتدح خروتشوف نفسه بعض جوانب رواية «ليس بالخبز وحده» بعد أن هاجمها بضراوة فى العام السابق. وبعد الرعيل الأكبر من الأدباء الليبراليين أمثال اهرنبرج وبوستوفسكى وبانوفا وتفاردوفسكى وفكتور تكراسوف ظهرت آنذاك بتشجيع منهم كوكبة من الأدباء والشعراء الليبراليين الشبان أمثال يفتشنكو تبعه جيل أصغر من الشعراء الشبان والشاعرات الشابات أمثال أندريه فوزنستنسكى وبولات أوكودزافا وبولا أخمادولينا ومن الناثرين والقصاصين أمثال بور كازاكوف ودانيل جرانين ويورى ناجيبين وفلاديمى تندرياكوف وأفيم دوروشى وفلاديمير سولوخين وفلاديمير ماكسيموف الذين وجدوا من جيل الليبراليين الأكبر سنًا العون والتشجيع على نشر أعمالهم. ولكن اتساع رقعة الليبرالية على أيدى هؤلاء الأدباء لا يعنى بحال من الأحوال اختفاء الأدباء من أنصار الستالينية أمثال ليونفيد. سوبوليف وألكسندر ديمشيتس وفلاديمير أرميلوف وكوتشيتوف الذى ألف رواية بعنوان «سكرتير اللجنة المحلية» هاجم فيها الشاعر يفتشنكو.

ولهذا اختلطت على سولجنتسين الأمور فلم يعرف أى طريق يسلك طريق الخسارة أم الحذر، فالبلاد نهب مقسم بين دعاة التحرر ودعاة الانغلاق ولم ينتشله من حيرته سوى المؤتمر الثانى والعشرين للحزب الشيوعى المنعقد فى عام ١٩٦١ فقد واصل هذا المؤتمر سياسة الهجوم على ستالين دون لبس أو غموض. وحزم مؤلفنا أمره عندما قرأ الخطاب الذى ألقاه تفاردوفسكى فى ذلك المؤتمر ويرفع فيه راية الحرية والليبرالية.

وفى عزلته فى الأقاليم أعاد سولجنتسين قراءة الخطب التى ألقيت فى المؤتمر الثانى والعشرين للحزب الشيوعى

أكثر من مرة فوجدها تعبر عما يجيش فى صدره ويجول فى خاطره، كما أن فيها صدى لما كتبه فى روايته التى تحمل عنوان «سب ٨٥٤» قبل أن يستبدل به عنوانا آخر هو «يوم واحد فى حياة إيفان دينيسوفتش» كان سولجنتسين قد أعطى صديقه كوبلوف الذى يعيش فى موسكو نسخة من هذه الرواية فعرضها بدوره على نفر محدود من الناس الذين أثنوا عليها ثناءا عاطرا بعد قراءتها وأرادوا لها الانتشار والذيوع باعتبارها وثيقة اجتماعية وسياسية بالغة الأهمية. وتردد مؤلفنا فى عرضها للنشر فقد كان الفأر لا يزال يلعب فى عبه، ولكن كوبلوف شجعه على عرضها على تفاردوفسكى الذى أعيدت إليه فى سنوات السماحة والانفراج رئاسة تحرير مجلة «العالم الجديد» بعد اقصائه عنها. وبالنظر إلى أن نوعًا من سوء التفاهم نشأ بين كوبلوف وتفاردوفسكى فقد اتفق كوبلوف مع زوجته على تسليم مخطوطة الرواية إليه. وفى ٤ نوفمبر ١٩٦١ استقل سولجنتسين القطار متوجها إلى موسكو حيث فضل ألا ينزل ضيفًا على أحد أقربائه كما كانت عادته بل استأجر غرفة فى فندق يطل على المعسكر الذى شاهد عذابه وعذاب زملائه كوبليف وبانين وإيفاشوف موساتوف، وكان حينذاك فى نحو الثالثة والأربعين من عمره.

الرواية على مكتب خروتشوف:

بعد أن وصلت بصعوبة نسخة من رواية «يوم فى حياة إيفان دينيسوفتش» إلى يد ألكسندر تفاردوفسكى عام ١٩٦١ انتقلت إلى مكتب خروتشوف عن طريق سكرتيره الخاص ثم عن طريق خروتشوف نفسه إلى أعضاء مجلس السوفيت الأعلى، ولم يدر سولجنتسين فى عزلته الريفية عن العالم الخارجى أن كثيراً من الأدباء الآخرين فعلوا ما فعل وتناولوا تجاربهم فى السجون والمعسكرات فى كتاباتهم، مثل مذكرات أولجا أداموفا سليوزبرج التى استعان بها مؤلفنا فيما بعد فى كتابه «أرخبيل الكولاج» وكتابات كل من أفجينيا جنزبرج وديمترى فيتكوفسكى وفارلام شالاموف. وكان جهل السوفيت بوجود مثل هذه الكتابات يرجع إلى أنها لم تر طريقها إلى النشر وظلت حبيسة الأدراج بسبب مؤتمرات الصمت التى درجت دور النشر آنذاك على اتباعها. وكانت المشكلة التى تواجه «برزر» المحررة الصغيرة فى مجلة «العالم الجديد» التى تسلمت نسخة الرواية من زوجة كوبلوف هى كيف تتخطى البيروقراطية واللوائح الداخلية التى تمنع إرسال العمل الأدبى المقدم للنشر إلى رئيس التحرير مباشرة دون المرور على مساعديه وإبداء الرأى فيه. فلو أن واحدا من هؤلاء المساعدين قرأ الرواية واعترض على نشرها لنشأت تعقيدات إدارية ورقابية تحول دون ظهورها. وخاصة لأن الجهات المسئولة عن النشر كانت أحياناً لا ترى أية غضاضة فى تسليم أى كتاب معروف للنشر إلى جهاز المخابرات، مثلما فعل فاديم كوزيفنيكوف محرر «زنانسيا» مع الروائى الشهير فاسيلى جروسمان عندما أرسل نسخة من روايته إلى K.G.B التى أرغمت المؤلف على تسليم ما بحوزته من نسخ والآلة الكاتبة التى كتبها عليها. ومن ثم كان شغل «برزر» الشاغل توصيل رواية «يوم فى حياة إيفان دينيسوفتش» إلى يد تفاردوفسكى رئيس التحرير مباشرة. وكانت إحدى العقبات التى جابهتها أن سولجنتسين نسخ روايته على الآلة الكاتبة بطريقة تعوق القراءة على الوجه والظهر. فضلا عن أنه لم يترك بين السطر غير مسافة واحدة، الأمر الذى اضطرها إلى إعادة نسخها بطريقة مقروءة. أضف إلى ذلك أن اسم المؤلف المجهول لم يكن مكتوبا على الرواية وقامت «برزر» باستدعاء كوبلوف وسؤاله عن اسم مؤلفها فاخترع لها على التو من عنده اسم أ. ريازانسكى.

وفى حذر شديد أخذت المحررة الصغيرة برزر تتلمس طريقها فذكرت على نحو عابر أمام رؤسائها المباشرين إذا كانوا يرغبون فى قراءة رواية عن معسكرات العمل فأشاحوا بأيديهم ووجوهم عنها إذ لم يروا فى اقتراحها غير المتاعب. وفى يوم من الأيام تغيب رئيسها المباشر نائب رئيس التحرير فأصبح من حقها أن تدخل إلى رئيس التحرير. فاغتنمت هذه الفرصة وصعدت إلى مكتبه فى الدور الثالث ووضعت أمامه مخطوطتين مخطوطة بعنوان «صوفيا بتروفنا» التى ألفتها ليديا تشوكو فسكايا و«سب ٨٥٤» وهى العنوان الأصلى لرواية «يوم فى حياة إيفان دينيسوفتش» وبعناية شديدة اختارت برزر كلماتها وهى تتحدث إلى رئيس التحرير لتقول له إن هذين العملين المقدمين للنشر يثيران النقاش والجدل فرواية «صوفيا بتروفنا» تتناول محاكمات التطهير عام ١٩٣٧ وما سببته من عذاب وشقاء لإحدى الأمهات، فى حين أن رواية «سب ٨٥٤» تعالج موضوع السجون والمعسكرات من وجهة نظر فلاح بسيط. وأضافت.. إنها تعبر عن أفكار ومشاعر الشعب الروسى. كانت مناورة حاذقة وفعالة تتسم بدقة الحساب فقد كان حب تفاردوفسكى للريف واهتمامه الشديد بالموضوعات التى تدور حوله معروفًا لدى العامة والخاصة. فعندما قرر تفاردوفسكى أن يأخذ معه إحدى هاتين المخطوطتين وقع اختياره على رواية سولجنتسين عن الفلاح الروسى. حدث هذا فى ٧ ديسمبر ١٩٦١.

كان من عادة تفاردوفسكى أن يطالع مخطوطات الكتب وهو يتأهب للنوم فى فراشه. ولكنه فى هذه المرة لم يكد ينتهى

من قراءة بعض صفحات رواية «سب ٨٥٤» حتى خرج على عادته ونهض من فراشه وارتدى ملابسه لينكب على قراءة الرواية بروح الجدية والاحتشاد، ولم يتوقف حتى فرغ من قراءة الكتاب فى مطلع الفجر، ومن فرط تأثره به شعر برغبة ملحة فى الفضفضة عن نفسه. واتصل بكويلوف وأنحى عليه باللائمة لأنه لم يقم بعرض الرواية عليه مباشرة دون الالتجاء إلى برزر كوسيط بينهما قائلا له: «ينبغى عليك أن تشعر بالفخر لأن لك مثل هذا الصديق إنه يملك موهبة عظيمة مدهشة ونقية لا يشوبها أدنى زيف أو ادعاء». ويقال: إن الانفعال بلغ به حدا جعله يتوجه إلى مكتبه فى المجلة ناسيًا أنه يوم سبت وأنه لن يجد أحداً من زملائه ومعاونيه. وبطبيعة الحال لم يجد برزر على مكتبها ففتح درجها فى غيابها وأخذ منه النسخ الأربع المتبقية. ثم انطلق لا يلوى على شىء إلى منزل صديقه المثقف سيميون لونجين الذى كان يعيش مع الأديب المعروف فكتور نكراسوف تحت سقف واحد وهو يهزر ويصرخ: «أن عبقرية جديدة قد ولدت! هات بزجاجة شراب يا فكتور للاحتفال بهذه المناسبة». وأضاف أن أمل حياته أصبح ينحصر الآن فى نشر هذه القصة وأنه من أجل ذلك على استعداد لمقابلة نيكيتا خروتشوف نفسه. وتعجب من الزعم بأن الأدب الروسى قد مات فهذه القصة تثبت أنه لا يزال ينبض بالحياة. ثم تحدث فيما بعد إلى الروائية فيرا بانوفا ليقول لها: «صدقى أو لا تصدقى إن معى مخطوطة تنبىء بظهور جوجول جديد»، وأرسل تفاردوفسكى برقية إلى المؤلف يدعوه إلى زيارة موسكو على نفقة المجلة. وإذا كان تفاردوفسكى لم يغمض له جفن ليلة أن قرأ الرواية فإن مؤلفها لم يغمض له جفن يوم أن تلقى برقية تفاردوفسكى. (بعد مضى ما يقرب من عام كتب سولجنتسين إلى تفاردوفسكى يعترف له بأنه لم يعرف فى حياته قط سعادة كسعادته عندما علم من الشاعر الكبير أنه لم يذق طعم النوم بسبب قصته) . والرأى عند تفاردوفسكى أن رواية سولجنتسين تتفوق على رواية «بيت الموتى» لدستويفسكى ومنها يقدم دستويفسكى الشعبى من وجهة نظرالمثقفين فى حين أن سولجنتسين فى قصته يقدم لنا المثقفين من وجهة نظر الشعب. وعبر تفاردوفسكى عن إعجابه الشديد بقدرة القصة على أن تقول بكل ما يمكن قوله عن السجون والمعسكرات فى مثل هذا الحيز الضيق الذى لا يعدو أن يكون وصفا ليوم واحد ممل ورتيب فى روتين حياة إيفان دينيسوفتش فى السجن دون الالتجاء إلى تصوير أية فظاعات مروعة.

وفى الاجتماع الذى عقدته هيئة تحرير مجلة «العالم الجديد» برئاسة رئيس تحريرها مع سولجنتسين وصديقه كوبلوف قرر الحاضرون بالإجماع أن «سب ٨٥٤» عنوان غير مناسب واقترحوا تغييره إلى «يوم واحد فى حياة إيفان دينيسوفتش». وفى ختام الاجتماع وقع تفاردوفسكى عقداً بنشرها وأعطى مؤلفها مقدمًا قدره ألف روبل وهو مبلغ كبير بالنسبة له يربو على راتب سنتين من مهنته بالتدريس، ورغم توقيع العقد فإن تفاردوفسكى لم يستطع تحديد أى موعد للنشر، وسلم معاونا رئيس التحرير إلى المؤلف التقريرين اللذين كتباهما عن روايته، ورغم ثنائهما الشديد عليها واعترافهما بموهبة مؤلفها ونبوغه فإنهما عبرا عن الشك فى إمكانية نشرها لأسباب سياسية. وسأله تفاردوفسكى عن أية كتابات أخرى سطرها تصلح للنشر فى المجلة فتوخى الحذر الشديد فى إجابته وأخفى عنه من الكتابات ما قد يكون سببا فى إلحاق الضرر به. ثم عرض عليه فى زيارته التالية لموسكو جانبًا من أشعاره الباكرة التى نظمها فى السجن فلم ترق فى عينى الشاعر تفاردوفسكى، كما عرض عليه قصته ماتريونا التى راقت له بسبب جوها الريفى رغم أنه اعترض على بعض جوانبها وذلك بعد أن أدخل المؤلف عليها بعض التعديلات لتخفيف وقع ما فيها من نقد.

وبمرور الوقت تخفف سولجنتسين من بعض مظاهر السرية التى أحاط بها مؤلفاته. غير أنه لم يتخل عن احتياطات الأمن تمامًا فقد آثر أن يجمع مخطوطاته وعددها إثنتا عشرة مخطوطة فى حقيبة حملها معه إلى موسكو ليسلمها إلى توش وزوجته اللذين كانا موضع ثقته ليبقياها لديهما فى الحفظ والصون. واعتبر أنها مناسبة سعيدة فسمح لنفسه بشراء حلة جديدة بدلا من الرثة العتيقة التى تعمد أن يلبسها عندما زار مقر مجلة «العالم الجديد» لأول مرة فبدا كما لو كان يجد نوعًا من الزهو والفخار فى مظهره الريفى الغلبان. وفى يوم رأس سنة ١٩٦٢ قام سولجنتسين بزيارة صديقه الرسام إيفاشوف فوجد أنه لا يزال مشغولا برسم لوحة (عطيل وديدمونة) رغم مرور ست سنوات على البدء فيها. وتعجب سولجنتسين كيف ينصرف فنان عن تصوير ما يقع تحت أنفه من مآس جماعية إلى تصوير ما يحل على أبطال وبطلات شكسبير من مواجع فردية.

اعترض تفاردوفسكى على قصته ماتريونا لأنها تتضمن نقداً للحياة السوفيتية أكثر بكثير مما تتضمنه قصة «يوم فى حياة إيفان دينيسوفتش» التى تعالج فترة الأربعينيات المعروفة بالبطش الستالينى والمقترنة بالسجون والمعسكرات فى حين أن قصة ماتريونا تقع أحداثها نحو عام ١٩٥٦ وهى فترة السماحة والانفراج. ورغم هذا فهى تعطى الانطباع بأن الريف السوفيتى فاسد من أوله إلى آخره لا رجاء فيه وتسيطر عليه

الأثرة والأنانية والرغبة فى النهب والسلب، الأمر الذى ينسف النظام السوفيتى من أساسه. واعترض تفاردوفسكى أيضًا على وجود إيماءات مسيحية فى قصته ماتريونا تجعلها غير قابلة للنشر. ومن الواضح أن تفاردوفسكى كان نهبا مقسمًا بين إعجابه بقصة ماتريونا كعمل أدبى وتخوفه منها لأسباب سياسية وعقائدية. امتدحها لواقعيتها وتأثرها بتولستوى غير أنه رأى أنها أقرب إلى الواقعية التحليلية التى سادت روسيا فى القرن التاسع عشر منها إلى الواقعية الاشتراكية التى دعا إليها النظام السوفيتى، ورغم إدراك تفاردوفسكى إلى ميل مؤلفنا إلى الخروج عن الخط السوفيتى التقليدى فقد شجعه على عدم الالتزام به. وفى نهاية الأمر رفض تفاردوفسكى نشر ماتريونا لأسباب أيدولوجية ولكنه طلب استبقاء مخطوطتها معه لعرضها على زملائه فى هيئة تحرير المجلة. وبهذا وجد سولجنتسين نفسه فى موقف غريب فكتاباته رغم كل ما نالته من تقريظ موقوفة فى واقع الأمر عن النشر. وحتى لا يضيع وقته سدى عاد سولجنتسين إلى عزلته ليكرس وقته للانتهاء من إعادة صياغة روايته «الدائرة الأولى» للمرة الرابعة راجيًا أن تكون آخر صياغة لها. وفى تلك الفترة فوجىء مؤلفنا بزيارة مفاجئة من سيدة لا يعرفها ولا يعرف كيف حصلت على عنوانه هى طبيبة جراحة اسمها دكتورة أنا دزيجوردا كان ولدها الجيولوجى مصابًا بمرض السرطان. جابت هذه الأم أرجاء البلاد بحثًا عن علاج لابنها من السرطان. وأعطاها سولجنتسين بعض الأعشاب والنباتات الطبيعية التى كان يستخدمها لعلاج نفسه من ذلك المرض. وإعرابا عن امتنانها له عرضت هذه الجراحة أن تكشف عليه. وبعد أن فرغت من ذلك التفتت إليه لتقول إنه رجل محظوظ منذ ولادته فقد اكتشفت أن ورمه السرطانى انفصل تمامًا عن بقية جسمه وضمر ضمورًا كاملا لدرجة أن الخطر زال عنه، ولم ينس مؤلفنا أن يرسم شخصية جيولوجى أعشاب على غرار ابن الدكتورة دزيجوردا فى روايته «عنبر السرطان».

ورغم انقضاء أربعة أشهر على تسليم مخطوطة قصة «يوم واحد فى حياة إيفان دينيسوفتش» فقد ظل تفاردوفسكى حائرًا وعاجزًا عن أن يحدد لمؤلفها موعدًا للنشر. فهو يعلم جيدًا أنه إذا دفع بالكتاب للمطبعة فسوف يعرض على الرقيب الذى لن يتردد فى حظره. بل من المحتمل أن يقوم الرقيب نفسه بعرضه على اللجنة المركزية للحزب الشيوعى أو على جهاز المخابرات K.G.B. وفى هذا قضاء مبرم على فرص الكتاب فى الظهور. وساعده على حسن التقدير وحصافة التصرف معرفته بطبيعة الصراعات المحتدمة آنذاك بين خروتشوف وأعدائه من المحافظين وأنصار ستالين. كان خروتشوف يعتمد فى إصلاحاته على بعض المثقفين وعلى رأسهم تفاردوفسكى الذى لم يكن شاعرًا فحسب بل عضوا فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى وأدرك هذا الرجل بحسه السياسى وبفضل موقعه فى الحزب أن لخروتشوف أعداءه الأقوياء. ومن ثم خطر له أنه يمكن إقناع خروتشوف بأهمية الرواية كسلاح ماض يرد به كيدهم. ولهذا قرر أن يكتب تصديرًا يقدم فيه الرواية على أنها تدعيم لتيار الإصلاحات الذى يتزعمه خروتشوف. وعرض الرواية على صديقه الناقد الأدبى البارز وكاتب أدب الأطفال المعروف كورنى تشوكوفسكى الذى هنأه على هذه الموهبة الأدبية الفذة. وكتب تشوكوفسكى تقريرًا بعنوان «معجزة أدبية» قرظ فيه الرواية لقدرتها على التعبير عن الشعب الروسى بأكمله كما قرظ فيها تميزها بضبط النفس رغم موضوعها الذى يفجر مراجل الغضب فى العروق، الأمر الذى جعله يصف مؤلفنا بأنه مؤرخ وليس مقاتلا بالكلمات وأضاف تشوكوفسكى فى تقريره: «هذه القصة تكشف عن قدوم كاتب قوى أصيل ناضج فى أدبنا.. وفى كل المناظر التى يصورها يختار المؤلف لنفسه أوعر الطرق وأصعبها ليخرج منها ظافرًا منتصرًا. وحذر من أن أية محاولة تغيير فى النص أو إدخال التعديلات عليه سوف تنتهى بإضعافه والإساءة إليه، ورغم ما قد يبدو على أسلوبها أحيانًا من غرابة وشذوذ فلا مناص من الاعتراف بأن صاحبها يتمكن من ناصية اللغة الروسية على نحو لا يرقى إليه الشك. ورأى فى عدم نشر هذا الكتاب شيئًا مروعًا فصاحبه كرّسه من ألفه إلى يائه لتمجيد الإنسان الروسى وتبيان عظمته، كان فى ذهن تشوكوفسكى وهو يكتب التقرير ضرورة مؤازرة صديقه تفاردوفسكى ضد الرقابة والأدباء المعترضين على نشر الكتاب.

وشجع هذا التقرير تفاردوفسكى على أن يستكتب أصدقاءه من الأدباء تقارير مماثلة تشد من أزره فى معركته من أجل نشر الكتاب مثل مارشال وميخائيل ليفشتز اللذين ناديا دون مواربة أو تحفظ بضرورة نشره. ولكن الكاتبين المعروفين اهرنبرج وفيدين امتنعا عن كتابة أية تقارير عن الرواية. ولم يفت فى عضد تفاردوفسكى أن فيدين أسر إليه بأنها لن ترى النور وأنه يخوض معركة خاسرة. وأخفى عن المؤلف كل التقارير التى تلتهب بالحماس لنشر كتابه خشية أن يلعب الغرور برأسه. والواقع أن الرواية ذاع أمرها حتى وهى مخطوطة. وساعد على ذلك أن أربعة من الكاتبين على الآلة الكاتبة توفروا على نسخها وتوزيعها سرًا. ويقال إن اهرنبرج نفسه نسخ منها صورة فوتوغرافية ليقرأها واحد من

أصدقائه. وتضايق سولجنتسين من النقد الذي وجهه إليه بعض القراء وهو أنه كان يجدر به أن يعرض حياة السجون والمعسكرات من وجهة نظر واحد من المثقفين وليس من وجهة نظر فلاح بسيط، وليس هناك رد على ذلك أقوى من القول إن مؤلفنا استطاع عن طريق الفلاح البسيط شوخوف أن يعبر عن محنة روسيا السوفيتية كلها وليس محنة الطبقات فيها.

ثم قام سولجنتسين مع زوجته بعد ذلك بزيارة سيبيريا لأول مرة ورؤية بعض مناظرها الطبيعية فانبهر لجمالها وانبهر بوجه خاص بروعة وجمال بحيرة بايكال الواسعة. وبلغه أثناء تجواله وسياحته أن برقية وصلته من تفاردوفسكي تطلب منه ضرورة التوجه على الفور إلى مقر مجلة العالم الجديد. وقرأ مؤلفنا نص البرقية فوجده كما يلي: «اخبرنا تلغرافيًا حالا بفرصتك في القيام بزيارة قصيرة إلى موسكو لإعادة إعداد المخطوطة للمطبعة. ورغم أنه كان يتوق إلى استكمال رحلته وزيارة بعض الأماكن الأخرى فإنه قرر العودة إلى موسكو دون أدنى تأخير، وعند عودته من سيبريا قابله صديقه كوبلوف ليقول له أنه أصبح الآن أكثر الرجال شعبية في موسكو ونقل إليه تقريظ الأدباء والنقاد لروايته وكيف أن مئات من نسخ المخطوطة انتشرت بين القراء انتشار النار في الهشيم. وعندما قابلته أنا برزر المحررة في «المجلة الجديدة» أخبرته أن سكرتير خروتشوف الخاص قرأ روايته «إيفان دينيسوفتش» وأعجب بها وأنه يزمع عرضها على خروتشوف نفسه. ولكنه قبل أن يفعل هذا أراد من المؤلف الحضور من سيبريا لعمل بعض التغييرات في روايته.

وعقدت هيئة تحرير المجلة اجتماعًا يوم ٢٣ يوليو ١٩٦٢ لمناقشة التغييرات المقترحة. وصرح له تفاردوفسكي أن بعض زملائه كتبوا خطاباً إلى خروتشوف يعبرون فيه عن إجماع هيئة تحرير المجلة على نشر رواية «إيفان دينيسوفتش» وأنهم يتوجهون بالرجاء إلى خروتشوف كي يهتم اهتماماً شخصياً بهذا الموضوع. وفضل تفاردوفسكي وزملاؤه الاتصال بخروتشوف عن طريق سكرتيره نظراً لأنهم اعتبروه حليفاً لهم بسبب شدة تحمسه لنشر الرواية. وطرح تفاردوفسكي على بساط البحث والنقاش التغييرات التي اقترحها سكرتير خروتشوف على المؤلف، أهمها أن يتجنب المؤلف السخرية من شخصية الكابتن بونيوفسكي القائد في البحرية وعضو الحزب الشيوعي السابق والتقليل من استعمال اللغة العامية السوقية التي يستخدمها المساجين ونزلاء المعسكرات، وكذلك التقليل من الإشارات المتكررة لضباط المعسكرات على أنهم (واغش). وطلب أيضًا منه سكرتير خروتشوف الخاص إدانة ولو عابرة ورمزية لدعاة القومية الأوكرانية. وأن يذكر في روايته أن ستالين مسئول عن كل ما تتضمنه هذه الرواية من جرائم. بالإضافة إلى ذلك طالب ديمنتييف عضو هيئة تحرير المجلة بحذف الحديث الذي دار بين شكوكوف الشخصية المحورية في الرواية وبين أليوشا المعمداني حول الذات الإلهية، وتصف ناتاليا زوجته رد فعله في هذا الشأن فتقول إنه قال للمجتمعين: «لن أوافق على إجراء أية تغييرات من شأنها أن تدمر تناسق قصتي وانسجامها أو تخالف ضميري. «فتدخل تفاردوفسكي قائلا: «ليس لزاماً عليك أن تفعل أي شيء بالمرة. فيمكنك أن تأخذ كل ما قيل اليوم أو تركه حسبما تراه مناسبا. المسألة وما فيها أننا جميعًا نرغب بشدة أن نرى المخطوطة منشورة.» وأحرجت هذه الكلمات صدور الحاضرين فالتزموا الصمت. وفي نهاية الأمر وافق المؤلف على أن يحمل مخطوطته معه وأن يجري عليها التعديلات التي طلبها سكرتير خروتشوف الخاص ومنها إشارة عابرة تسخر من ستالين على غرار ما كان يكتب من جبهة القتال إلى صديقه نيكولاي فيتكفتش، واستطاع في خلال ثلاثة أيام من الانتهاء من التعديلات المطلوبة وسلم المخطوطة بعد مراجعتها إلى أنا برزر في ٢٦ يوليو ١٩٦٢.

احتفظ مؤلفنا بتواضعه رغم المديح الذي كيل له وبدا على السطح هادئًا للغاية كل ما يعتمل بداخله من انفعالات وأعطاه تفاردوفسكي المقدمة التي يزمع نشرها في صدر الرواية فلم يرتح إليها فقد كان يفضل ظهور روايته بلا مقدمات حتى يستجيب القارىء لها بعيداً عن أية مؤثرات. ويعتبر ٦ أغسطس ١٩٦٢ يوما حاسماً في تحديد مصير الكتاب ففي ذلك اليوم قام تفاردوفسكي بإرسال النسخة المعدلة منه إلى سكرتير خروتشوف الخاص. وأرفق بها خطاباً موجها إلى خروتشوف ومعه طائفة مختارة من آراء النقاد فيها. وانتظر نحو شهر بأكمله دون أية بادرة سوى أن ديمتري بوليكاربوف اتصل تليفونيا بتفاردوفسكي وطلب منه نسخة من الرواية. وتضايق تفاردوفسكي لأن الأمل كان يحدو به أن يتجنب اللجوء إلى هذا الرجل لما عرف عنه من رجعية. ولكن يبدو أن سمعة الرواية التي جابت الآفاق جعلت في غير إمكان بوليكاربوف الحيلولة دون نشرها ولعل هذا السبب في أنه اتصل بتفاردوفسكي ليبلغه أنه ليس لديه أي مانع في نشر الرواية. وذات يوم كان سكرتير خروتشوف الخاص يتجاذب أطراف الحديث مع سيركوف في حضرة خروتشوف نفسه عن قصة «إيفان دينيسوفتش» فاستفسر خروتشوف مازحاً: «ما هذا الذي تتحدثان عنه؟ ماذا تخبئان عني؟» فأخبره سكرتيره الخاص بأمر الكتاب فأمر بأن يرى نسخة منه مما

اضطره إلى السفر إلى موسكو كى يحضر له النسخة المطلوبة. وطلب خروتشوف منه أن يقرأ عليه بصوت عال بعض أجزاء الرواية ففعل. وتعمد السكرتير الخاص أن يختار منها تلك المواقف الإيجابية التى تصف المساجين وهم يبنون بسواعدهم محطة لتوليد الطاقة. وتساءل خروتشوف ما دام الأمر كذلك لماذا لم يقم تفاردوفسكى بكل بساطة بنشرها؟ فأجاب سكرتيره الخاص: إن تفاردوفسكى نفسه تعرض لمتاعب ومضايقات كثيرة قبل أن يتمكن من نشر قصيدته «الآفاق البعيدة». قال خروتشوف إنه لا يمانع مطلقًا من نشر رواية سولجنتسين. واستقبلت محررة المجلة أنا برزر هذا الخبر بالفرحة والابتهاج. ولكن لم تصل إلى المجلة أية موافقة رسمية على النشر من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى التى طلبت من تفاردوفسكى يوم ٢١ سبتمبر ١٩٦٢ أن يقوم بإرسال ثلاثة وعشرين نسخة من الرواية فى صبيحة اليوم التالى. وأسقط فى يد تفاردوفسكى لأنه لم يكن يملك كل هذا العدد الكبير من النسخ وللخروج من هذه الورطة التى واجهته، هداه تفكيره إلى الاتصال بمطابع جريدة أزفستيا لتخصيص أربعة آلات طباعة وتجنيد عدد كبير من المطبعجية لطباعة خمسٍ وعشرين نسخة من الرواية. وبطبيعة الحال ساعد على إنجاز هذه المهمة بنجاح صغر حجمها. وصدرت الأوامر لعمال المطبعة بالتزام الصمت إزاء العمل الذى كلفوا به. وانكب هؤلاء العمال طوال الليل على جمع الكتاب وطباعته. فما أن جاء الصباح حتى كانت الخمس والعشرون نسخة المطلوبة مطبوعة ومجلدة. واحتفظت إدارة المطبعة بقوالب الحروف المجموعة فى خزانتها الحديدية وأرسل تفاردوفسكى الثلاث والعشرين نسخة المطلوبة إلى اللجنة المركزية واستبقى نسختين أعطى واحدة منهما لسولجنتسين. وأصدر خروتشوف أمراً بتوزيع هذه النسخ على أعضاء مجلس السوفيت الأعلى.

وفى الأرياف فى ريازان شعر المؤلف بالقلق يستبد به على مصير كتابه فاتصل بالمحررة أنا برزر بالتليفون ليسألها عن آخر الأخبار. وسألها سؤالا محدداً: «خبرينى بشىء واحد. هل قرأها؟ (يعنى خروتشوف) فأجابته بقولها: «نعم واستحسنها». فسافر إليها من موسكو ليستطلع عليه الأمر فأخبرته بكافة تفاصيل الأحداث المشحونة. واجتمع مجلس السوفيت الأعلى مرة واحدة على أقل تقدير لمناقشة الكتاب. وسرت إشاعة أن اثنين من الأعضاء هما فرول كوزلوف وميخائيل سوسلوف اعترضا على نشره بحجة أنه لا يليق بالمؤلف أن يصور حراس المعسكر على هذا النحو المزرى. وأشيع أيضاً أن خروتشوف تدخل بنفسه لإسكاتهما قائلا لهما: «كيف يمكننا أن نحارب بقايا مبدأ عبادة الفرد لو ظل الستالينيون من هذا القبيل بين ظهرانينا؟» وأردف قائلا: «إن ستالين موجود فى كل واحد فينا. وهناك شىء من ستالين حتى فىَّ أنا شخصياً. وإننا يجب علينا استئصال هذا الشر». وقيل إن الذى اقترح نشر الكتاب على مجلس السوفيت الأعلى هو خروتشوف نفسه يؤيده ميكويان.

وبتاريخ ١٥ أكتوبر ١٩٦٢ قام سكرتير خروتشوف الخاص بتبليغ تفاردوفسكى بموافقة مجلس السوفيت على النشر. غير أنه لم يتسلم القرار بالموافقة إلا بعد مضى خمسة أيام، ثم استدعى خروتشوف الشاعر تفاردوفسكى واجتمع به نحو ساعتين ناقش فيهما فيما ناقش الرواية التى أثنى عليها الزعيم السوفيتى لأسلوبها ولأنها تتمشى مع روح المؤتمر الثانى والعشرين للحزب الشيوعى. وعلى رغبة البعض أن يرسم المؤلف صورة أفضل للمعسكرات اعترض الزعيم السوفيتى بقوله: «إن هذه المعسكرات لم تكن مطلقًا منتجعات وأماكن للراحة والاستجمام». ورأى خروتشوف أن الأسلوب الذى عرض به الكتاب عليه أسلوب غريب حقًا. وتساءل عن وظيفة أجهزة الدولة. واغتنم تفاردوفسكى هذه الفرصة ليطلب من خروتشوف إلغاء الرقابة على المصنفات الأدبية والاكتفاء بمسئولية رؤساء التحرير فى هذا الشأن فهم أقدر من الرقباء فى الحكم على الأدب الضار والأدب النافع. ويبدو أن خروتشوف تعاطف معه.

وبعد اجتماعه مع خروتشوف أرسل تفاردوفسكى برقية إلى سولجنتسين فى ريازان جاء فيها: «سوف تظهر القصة فى العدد الحادى عشر من المجلة فتهنئتى» فرد علية سولجنتسين ببرقية يعبر فيها عن شكره وابتهاجه بعد طول اليأس من صدورها. ويبدو أن الاتجاه آنذاك نحو الليبرالية استطاع أن ينتصر على الدعوة إلى الشمولية الستالينية والانغلاق. ففى ٢١ أكتوبر ١٩٦٢ نشرت جريدة الدولة الرسمية برافدا قصيدة بعنوان «ورثة ستالين» التى نظمها الشاعر المعروف يفتشنكو وحذر فيها من أن أنصار ستالين يتربصون بالشعب السوفيتى الدوائر ويريدون العودة بعقارب الساعة إلى الوراء، وهى قصيدة تداولها الروس فيما بينهم وحفظوها عن ظهر قلب حتى قبل أن تقوم برافدا بنشرها.

وبعد مرور أسبوع استدعى سولجنتسين إلى موسكو لتصحيح البروفة النهائية لقصته «إيفان دينيسوفتش» كان من المفترض أن يتولى تصحيح البروفات الأولى التى تعرف عندنا بالخشن ولكن المسئولين عن النشر خشوا عرضها عليه لئلا يتراجع فى إجراء بعض التغييرات التى أجراها فى النص. وكان قد انتهى لتوه من تأليف قصة جديدة بعنوان «حادثة فى محطة كوتشيتوفا» استمدها

عن قصة حقيقية رواها له ليونيد فلاسوف تدور أحداثها حول ضابط روسى شاءت الظروف أن ينجو بنفسه مع مئات الجنود من تطويق القوات النازية لهم. وبدلا من استفادة الجيش الأحمر من قدراته القتالية ساور قائده الشك فيه وظن أنه جاسوس لا لشىء إلا لأنه مهذب ودمث الخلق للغاية على النحو الذى كان عليه الضباط الروس قبل الثورة البلشفية، ولأن لسانه زلف فسمى مدينة ستالنجراد باسمها القديم وهى مدينة القيصر. ويسخر سولجنتسين فى هذه القصة من نفسه ومن سذاجته وإخلاصه ومثاليته وولائه الأعمى للدولة السوفيتية أيام انخراطه فى شبابه فى صفوف الجيش للذود عن البلاد. وتصور «حادثة فى محطة كوتشيتوفا» فى ثراء وإتقان - يفوقان ما سبق للمؤلف أن سطره فى مسرحياته الباكرة - الدور الفاشل الذى لعبه ستالين فى إدارة المعارك فى الفترة الأولى من الحرب كما تصور عدم اكتراث الفلاحين الروس بنتيجة الحرب سواء كانت لصالح بلدهم أو لغير صالحها.

وبعد مرور عام كامل على أول زيارة قام بها سولجنتسين لمقر مجلة العالم الجديد تحسنت ظروف معيشته بشكل ملحوظ. فقد نزل هذه المرة فى فندق فخيم فى وسط موسكو على نفقة المجلة، ولم يقابل مؤلفنا تفاردوفسكى فى هذه الزيارة غير أن أحد المسئولين بالمجلة اسمه بوريس ساش أبلغه أن سكرتير خروتشوف الخاص يطلب منه إجراء تعديل أخير فى الرواية وهو أن يزيل عبارة دينية وردت على لسان تيورين قائد الفرقة الذى قال: «رسمت إشارة الصليب، وقلت لله: أيها الخالق أنت فى نهاية الأمر موجود فى السماء. إنك تمهل ولا تهمل» وشعر المؤلف بالحرج الشديد فهو يدين بالفضل لسكرتير خروتشوف الخاص الذى لولا دفاعه المتحمس للرواية لما كانت هناك بارقة أمل فى نشرها ولكن ما عساه أن يفعل وهو يعتبر شخصية تيورين شخصية شديدة الأهمية فى الرواية أراد من خلالها معارضة وتفنيد الصورة الرسمية الكاذبة للنظام السوفيتى. ولم يطاوعه قلبه أن يجرى هذا التغيير الأخير فقد استرجع فى مخيلته ذكريات السجون والمعسكرات التى يشيب لها الولدان، والأهوال التى لقيها زملاؤه منها. وشعر أن فى إجراء هذا التغيير خيانة لهم وغدراً بهم لأنهم تحملوا هذه الأهوال على أمل أن تظهر الحقيقة أمام العالم فى نهاية المطاف . وبسبب انفعاله الشديد بكى سولجنتسين لأول مرة وهو يطالع قصته وأدرك أنه ليس بإمكانه أن يستجيب لطلب سكرتير خروتشوف الخاص هذه المرة.

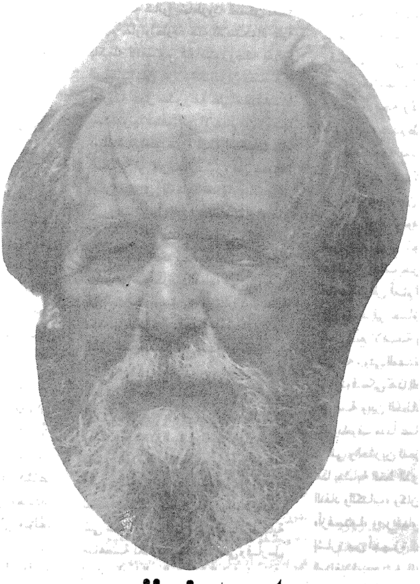
وأثناء هذه الزيارة القصيرة لموسكو قابل مؤلفنا شخصيتين أدبيتين مهمتين هما أنا أخماتوفا وفارلام شالاموف. تمت المقابلة بينه وبين أنا أخماتوفا فى ٢٨أكتوبر ١٩٦٢ . وابتهجت الشاعرة الكبيرة عندما اكتشفت أنه يحفظ قصيدة «دون بطل» عن ظهر قلب واعترف لها أنه وجدها غامضة ومستعصية على الفهم فى بادىء الأمر. وقرأت فى حضرته بعض قصائدها فامتدح وطنيتها وسماها «روح روسيا» . ثم قرأ لها جانباً من أشعاره غير أن هذه الأشعار لم ترق لها وأسرت لبعض خلصائها بذلك. غير أن موقفها من روايته «إيڤان دينيسوفتش» كان شيئاً مختلفاً للغاية. فبعد أن قرأتها فى نسخة مهربة من المخطوطة الأصلية قالت: «أظن أنه ينبغى على كل واحد من المائتى مليون مواطن سوفيتى أن يقرأ هذه القصة ويحفظها عن ظهر قلب» وعبرت أخماتوفا عن سرورها للتعرف إليه ووصفته بأنه حامل شعلة مضيئة. وسألته إذا كان يدرك أنه سوف يصبح فى غضون شهر واحد أشهر رجل على سطح الأرض، فأجابها بقوله: «إننى أمتلك أعصاباً قوية فقد استطعت أن أتحمل معسكرات ستالين» . أما مقابلة مؤلفنا للأديب شالاموف فكانت من نوع مختلف، فشالاموف أمضى سبعة عشر عاماً فى معسكرات كوليما فى شمال شرق سيبريا حيث خاض تجارب أكثر مرارة من التجارب التى خاضها سولجنتسين نفسه، وهى تجارب كتب عنها بعض قصصه وقصائده، ولم يكن اسم شالاموف جديدا عليه فقد قرأ مؤلفنا قصائد شالاموف فشعر على الفور بوشائج الأخوة تربط بينهما.

وبعد عودة مؤلفنا من موسكو إلى ريازان تلقى خطابا طويلا من تفاردوفسكى يطمئنه إلى أن رفضه إجراء التغيير الأخير الذى طلبه منه سكرتير خروتشوف الخاص لن يعطل نشر الكتاب بالمرة وأزجى تفاردوفسكى بنصيحة إلى سولجنتسين أن يقاوم الآثار المدمرة التى سوف تجلبها له الشهرة فى أعقابها وعبر عن أمله فى أن يحتفظ مؤلفنا رغم ذيوع صيته بهيبته ووقاره ونضوجه وقوته الأخلاقية وما تتسم به موهبته المدهشة فى أمانة كما أنه حذره من الغواية ومن تهافت الصحف والمجلات الأخرى على نشر أعماله. وطلب إليه أن يشعر بأن عليه واجباً نحو مجلة «العالم الجديد» التى فتحت أمامه الطريق وأفسحت له المجال. وعاتبه تفاردوفسكى لأنه استقبل تهنئته بنشر روايته بشىء من الفتور فكل ما قاله فى الرد على هذه التهنئة أن خبر نشر الكتاب أمر يدعو إلى السرور. وكتب سولجنتسين إليه يقول إنه يعرف أن عمر الشهرة قصير ويعتذر عن هذا الفتور بقوله إن حياة السجون والمعسكرات علمته ضبط النفس وكبح جماح عواطفه كما علمته ألا يتوقع من الحياة إلا أسوأ ما فيها. واعترف أنه لم يعرف الفرحة الحقيقية إلا عندما أخبره تفاردوفسكى أنه لم يستطع أن يذوق طعم النوم بسبب

قراءة روايته، ووعد سولجنتسين بالامتناع عن الرد على الذين يهاجمونه فى الجرائد وأنه سوف يخص «المجلة الجديدة» بشعره ونثره مستثنياً من ذلك مسرحياته.

وعلى الرغم من أن رواية «إيفان دينيسوفتش» كانت تحمل اسم مؤلفها المستعار. أريازانسكى فإن عدداً هائلا من الناس ومن بينهم زميل مؤلفها فى السجون فلاديمير جرشونى قرأها قبل صدورها فى نسخة من مخطوطتها بفضل الضجة السياسية المدوية التى أحاطت بظروف نشرها واستطاع فلاديمير جرشونى أن يخمن اسم مؤلفها الحقيقى بسبب تعرفه على بعض شخصياتها التى خالطها مع المؤلف فى السجون.

وفى تلك الفترة سلم مؤلفنا نسخة من قصة «حادثة على محطة كوتشتوفكا» إلى تفاردوفسكى ليعرف رأيه فيها. وأراد أن ينتهز فرصة نجاحه المنقطع النظير فى نشر بقية أعماله. وعندما وجه هذا الشاعر بعض الانتقادات الأدبية إلى «حادثة محطة كوتشتوفكا»، ظهر على مؤلفنا الامتعاض. ورغم استياء تفاردوفسكى من موقعه فإنه اقترح عليه أن ينشرها مع قصة أخرى هى «ماتريونا» فى العدد نفسه من المجلة الجديدة الصادر فى يناير ١٩٦٣. وحال انشغال مؤلفنا بالتدريس والتصحيح دون تكريس كل وقته للتأليف الأدبى وقرر أن يستغل شهرته العريضة التى أصابها مؤخراً فى مؤازرة زميل له اسمه ميخائيل بوتابوف تعرض للظلم والعدوان. فقد اختلف هذا الرجل مع جيران له كانوا يشاطرونه المسكن نفسه لأنهم حاولوا طرده منه للاستحواذ عليه بأكمله لأنفسهم. فقامت زوجته بتبليغ السلطات بأن هؤلاء الجيران يحصلون بطريقة غير مشروعة على معاشات لا يستحقونها فسعوا إلى الانتقام من زوجها بوتابوف ولفقوا ضده تهمة اغتصاب فتاة غجرية فى الرابعة عشرة من عمرها تسكن معه فى العمارة نفسها. وبالفعل تم تقديم هذا الرجل إلى المحاكمة فى نوفمبر ١٩٦٢. ورغم اقتناع الجميع ببراءته فقد صدر ضده الحكم بحبسه لمدة اثنى عشر عاماً فى معسكرات العمل، فهاج زملاؤه فى المدرسة وماجوا وأرسلوا عريضة احتجوا فيها على قسوة هذا الحكم، الأمر الذى عرضهم للتهديد بالطرد من وظائفهم بزعم التشهير بنظام القضاء السوفيتى، وقرر سولجنتسين الذى أصبح الآن يشار إليه بالبنان أن يقف بكل ثقله بجانب هذا الرجل المسكين دون أن يخشى الملامة أو التهديد. وزاد من عطفه على بوتابوف أنه علم أنه سبق أن أمضى تسعة أعوام فى معسكر عمل للتهمة نفسها التى ألصقت بمؤلفنا وهى القيام بدعاية مناهضة للاتحاد السوفيتى، فأرسل احتجاجًا إلى المحكمة العليا واستغل صلاته فى تحريض إحدى الصحفيات العاملات فى جريدة «أزفستيا» على كتابة تحقيق صحفى فى هذا الشأن. ويجدر بنا أن نضيف أن الكاتب المعروف كونستانتين سيمونوف عند صدور قصة «إيفان دينيسوفتش» كتب مقالا مطولا عنها فى الجريدة نفسها لم يرق فى عينى سولجنتسين رغم ثنائه عليها. فقد كتب إلى زوجته فيما بعد يشكو من أن سيمونوف فاته أن يتنبه إلى لغة القصة وقدرتها على النفاذ إلى روح الرجل العادى. وأخبره تفاردوفسكى وهو فى منتهى البهجة والانشراح أن المسئولين طلبوا إليه عدم طرح عدة آلاف النسخ من هذه القصة المشهورة فى مجلة العالم الجديد لبيعها فى أكشاك داخل الكرملين إلى آلاف المندوبين القادمين من جميع أرجاء الاتحاد السوفيتى لحضور الجلسة التى عقدتها اللجنة المركزية بكامل هيئتها. ووقف خروتشوف نفسه على المنصة ليعلن أمام الحاضرين أن قصة «يوم واحد فى حياة إيفان دينيسوفتش» عمل بالغ الأهمية ينبغى على الجميع قراءته. وفى المقدمة التى صدر بها تفاردوفسكى هذا العمل ربط بين هذه القصة وبين الخطاب الذى هاجم فيه خروتشوف مبدأ عبادة الفرد فى المؤتمر الثانى والعشرين للحزب الشيوعى، فكان هذا بمثابة الخط الذى اقتفى أثره سائر النقاد والكتاب، وكان امتداح صحيفتى «أزفستيا» و«برافدا» الرسميتين بمثابة إشارة من أجهزة الدولة الرسمية بأن المؤلف لم يعد خائنا للشعب بل بطلا قوميًا يكن له الجميع أسمى آيات التقدير والاحترام. وتأكيداً لهذا المعنى كتب سيمونوف فى أزفستيا يقول: «أعتقد أن الكسندر سولجنتسين فى قصته أثبت أنه يناصر الحزب مناصرة حقيقية فى قضيته المقدسة والحيوية - وهى محاربة مبدأ عبادة الفرد والعوامل الناجمة عنها ■



ســـولچنتـــسين

في من أهم المتغيرات في الساحة الأدبية في السنوات الأخيرة في روسيا إعادة الاعتبار إلى أسماء الكتاب المنشقين، ونشر أعمالهم المحظورة من قبل. ويأتي هذا الإجراء في إطار خطة كبيرة استهدفت فتح ملفات ضحايا حملات الاعتقال، وإعادة النظر في الوثائق الخاصة بهم.(١)

ويُعد الكاتب ألكسندرسولچنتسين - الحائز على جائزة نوبل للآداب في عام ١٩٧٠ والذى عاد مؤخرا إلى وطنه - واحدا من أهم الكتاب الذين أعيد الاعتبار إلى إنتاجهم، فقد بدأ نشر أعماله منذ عام ١٩٨٩ بعد حظر دام لسنوات طويلة منذ رحيلة الإجبارى عن الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٧٤، حيث اتجهت دور النشر الأدبية فى السنوات الخمس الأخيرة إلى نشر مؤلفات سولچنتسين، كذلك أفردت كبرى المجلات الأدبية صفحاتها لإنتاجه.

وفى إطار عودة سولچنتسين إلى الحياة الأدبية فى روسيا ظهرت بعض الكتابات التى تتناول إنتاجه بالبحث والدراسة، ورغم قلة ما كتب عن سولچنتسين فى وطنه فمن الملاحظ وجود اختلاف فى الرأى حول إنتاجه ومكانته الأدبية، ففى الوقت الذى اعتبرته بعض الدراسات امتدادا لتقاليد الأدب الروسى الكلاسيكى فى عصره الذهبى، قابلت بعض الدراسات الأخرى

بين سولچنتسين الفنان، وسولچنتسين المفكر، فعموما، فمن المتوقع أن تشغل ظاهرة سولچنتسين اهتمام الباحثين فى روسيا فى السنوات القادمة.

وهذه الدراسة محاولة للاقتراب من بعض ملامح إنتاج سولچنتسين، وسيرته الأدبية.

لماذا أكتب ؟

«منذ اعتقالى وبعد ما يقرب من عامين من حياتى فى السجن والمعتقل، وحين كانت الموضوعات تنوء تحت الصدر تلقفتها مثل النسمة، وفهمت أن كل شىء تراه الأعين لا يقبل الجدال، ليس فقط لن ينشر أحد مؤلفاتى، بل وقد يكلفنى سطر واحد رصاصة فى الرأس. لقد انخرطت فى قدر الكتابة بلا ارتياب. وبلا تردد، أردت فقط أن أكتب كى لا ينسى كل هذا، وكى يصير فى وقت من الأوقات معروفا للخلف. أما أن تنشر أعمالى فى حياتى فلم يكن عندى أدنى تصور بمثل هذا، ألم يكن ينبغى أن يكون لدى مثل هذا الحلم»(٢).

هكذا يروى لنا سولچنتسين فى سيرته الأدبية عن الأسباب التى دفعت به على طريق الكتابة الأدبية فى فترة المعتقل.

إن قصة اعتقال سولچنتسين تتشابه فى بعض خطوطها مع قصة اعتقال بطلة فى مؤلفه «فى الدائرة الأولى»، فقد اعتقل سولچنتسين بعد اكتشاف الرقابة العسكرية أمر خطابات أرسلها إلى صديق له، وعبّر فيها عن انتقاداته لممارسات ستالين.

خمس سنوات قضاها سولچنتسين معتقلا، وسبع سنوات فى المنفى داخل الوطن، وطوال هذه السنوات كان سولچنتسين يرزح فى عالم الكتابة السرية، وكان هناك من أمثاله بضع عشرات من الكتاب، كان بعضهم يلجأ إلى تهريب ما يكتب للنشر فى الغرب وهو ما كان يطلق عليه «تام إيزدات» بمعنى النشر هناك، وبعضهم الآخر كان يحاول نشر ما يكتب فى الداخل بالجهود الذاتية منسوخا على الآلة الكاتبة أو بخط اليد، وهو ما كان يطلق عليه «سام إيزدات» بمعنى النشر الذاتى.

ويصف لنا سولچنتسين تجربته مع عالم الكتابة السرية بأنه عالم يمنح صاحبه قدرا كبيرا من الصراحة والحرية لأن الكاتب فى هذه الظروف ـ وكما يروى سولچنتسين ـ لا يحتفظ فى مخيلته بالرقابة، ولا برؤساء التحرير، ما من شىء يقف فى مواجهته عدا المادة الأدبية، مامن شىء يحوم من فوقه عدا الحقيقة، ولكن يوجد فى وضعه ضرر دائم ألا وهو قلة القراء، وخاصة القراء المراهقين أدبيا والصارمين، لقد كان عندى قلة من القراء (كان عندى أقل من عشرة قراء، وهم بشكل رئيسى من المعتقلين السابقين، وعلاوة على ذلك فلم يتمكن أحد منهم من قراءة كل ما كتبت، لأننا نعيش فى مدن مختلفة، ولا يوجد لدى أحد منهم أيام زائدة، أو موارد زائدة للسفر، ولا حجرات زائدة للضيافة. إن الكاتب السرى يتخير قراءه تبعا لسمات مغايرة تماما: الموثوقية السياسية، والمقدرة على الصمت، وهاتان السمتان من النادر أن تتجاورا مع الذوق الأدبى المرهف(٣).

والحقيقة فى الفن

مكارم الغمرى

يوم في حياة إيفان دينيسوفتش

إثنا عشر عاما أمضاها سولجنتسين في عالم الكتابة السرية وفي العام الثالث عشر بدأ سولجنتسين يستشعر بأنه لم يعد قادرا على تحمل هذا الوضع، وأنه بدأ يشعر بالاختناق. كان ذلك في بداية الستينيات في تلك الفترة التي لقبت بفترة «ذوبان الجليد» والتي تمخضت عن انفراج نسبي في منابع الديموقراطية الذي حل في أعقاب المؤتمر العشرين للحزب في فبراير عام ١٩٥٦، والذي أعطى شرارة البدء في الهجوم على سياسة ستالين بعد سماع تقرير خروتشوف عن «عبودية الشخصية وتبعياتها»، وقد تلا ذلك عمليات الإفراج عن الآلاف من المعتقلين الذين شملتهم حملات الاعتقال في الثلاثينيات والأربعينيات.

استوعب سولجنتسين المزاج الاجتماعي للستينيات بروحه الناقدة لممارسات ستالين، وتقدم إلى مجلة «نوفي مير» (العالم الجديد) بقصته الطويلة «يوم في حياة إيفان دينيسوفتش» وكان عمره آنذاك ٤٤ عاما ومن خلفه تاريخ من السجن والمنفى.

سبق الموافقة على نشر القصة مداولات طويلة من هيئة تحرير مجلة «نوفي مير» التي كان يترأسها آنذاك الشاعر المعروف «تفاردوفسكي» الذي تحمس للقصة ولكاتبها، وعرضت القصة على خروتشوف لأخذ موافقته الشخصية على نشرها.

ويصف لنا سولجنتسين وقع قصة «يوم في حياة إيفان دينيسوفتش» على خروتشوف حين قرئت عليه في استراحته (الداتشا):

أخذ ليبديف في قراءة القصة بصوت مسموع على نيكيتا خروتشوف (لم يكن نيكيتا نفسه يحب القراءة عموما، وكان يحاول أن يستقي معلوماته من الأفلام)، وكان نيكيتا ينصت جيدا إلى هذه القصة المسلية، وكان يضحك عند الضرورة، ويتنحنح عند الضرورة وطلب استدعاء ميكويان عند منتصف القصة ليسمع معه. وقد تمت المصادقة على كل شيء حتى النهاية»(٤).

وهكذا ظهرت قصة «يوم في حياة إيفان دينيسوفتش» في مجلة «نوفي مير» الصادرة في نوفمبر عام ١٩٦٢. تحكي «يوم في حياة إيفان دينيسوفتش» عن أحداث يوم داخل أحد معسكرات الاعتقال. لكن اهتمام سولجنتسين لا يتجه نحو وصف الأحداث في حد ذاتها، فما يعنيه هو كشف عالم الإنسان من خلال الحدث، وهو لهذا يلجأ إلى حشد من التفاصيل التي يحاول من خلالها إبراز المعاناة الداخلية للإنسان.

وسولجنتسين لا يهتم في قصته ببسط ماضي الشخصية أو تعقب الأسباب التي أودت بها إلى معسكرات الاعتقال بل لقد بعثت قصة «يوم في حياة إيفان دينيسوفتش» لدى القراء بمشاعر «الدهشة»، و«الذهول»، وكان مصدر الدهشة هي تلك الصراحة الكبيرة التي كان يروي بها سولجنتسين عن حقيقة ما كان يدور داخل معسكرات الاعتقال، تلك الحقيقة النابعة من الصدق في الفن الذي كان سولجنتسين يعده واحدا من ركنين أساسيين في الفن ألا وهما «الصدق والتجربة الحياتية»(٥) كذلك اعتبرت القصة بداية على طريق الأدب الذي أخذ على عاتقه مهمة فضح ممارسات ستالين، وكشف حياة الرعب داخل المعسكرات، واستوعب سولجنتسين من جانب القراء بوصفه كاتبا له صوته المميز، وكلمته الصريحة الشجاعة عن عالم المعسكرات.

أما الناقد «جورج لوكاتش» فقد اعتبر القصة نقطة تحول انكسارية في مسار أدب الواقعية الاشتراكية لعصر ستالين وعلامة ملحوظة على الطريق نحو المستقبل»(٦) ولم يكن لحدث نشر قصة «يوم في حياة إيفان دينيسوفتش» وقع كبير على القراء والنقاد وحدهم، بل وعلى كاتبها نفسه الذي يصف لنا شعوره بعد الموافقة على نشر القصة:

«كنت مثل سمكة في أعماق الماء اعتادت على الضغط الجوي الخارجي المستمر،ثم أصابها الموت بعد أن أبحرت على سطح الماء، وصار الضغط خفيفا فلم تستطع التكيف معه. هكذا كنت، خمسة عشر عاما منفيا في معسكرات الاعتقال وفي المنفى، والنشاط السري، لم أكشف نفسي أبدا، ولم أسمح أبدا بخطأ واحد ملحوظ في الشخص أو القضية حين برزت على سطح الشهرة المفاجأة والمجد المفرط المتعدد الأبواق صرت أتعثر المرة تلو الأخرى دون أن أفهم على الإطلاق وضعي الجديد، والإمكانيات الجديدة»(٧).

وبحس الشاعر المرهف توقع تفاردوفسكي هذه الحالة من عدم التوازن التي قد تصيب المرء أمام بريق المجد المفاجئ فكتب إلى سولجنتسين محذرا:

«أود الحديث إليك بحق العمر والتجربة الأدبية. عدد كبير من الناس يتطلع إليك الآن عندنا في إدارة التحرير. يوجد قدر كبير من الاهتمام تجاهك يلتهب أحيانا بدوافع لا تتعلق بالجانب الأدبي. ما الذي سيكون حين تظهر قصتك منشورة؟ سيكون كل الذي يسمى بالمجد. وأصل بحديثي إلى التأكيد على أملي في سكينتك، ورباطة جأشك، وفي شعورك العالي بالكرامة الذاتية. لقد اجتزت تجارب عدة ومن الصعب على أن أتصور بك عدم الصمود أمام هذه التجربة»(٨).

«يوم في حياة إيفان دينيسوفتش» كانت أحد المؤلفات المهمة التي تمكنت

فى الستينيات من اختراق حدود الرقابة الحزبية وظهرت على صفحات المجلات الأدبية وخاصة ـ مجلة «نوفى مير» التى لعبت دورا طليعيا فى الستينيات فى نشر الأدب الذى لا يندرج فى الأطر المحكمة لفن الواقعية الاشتراكية، ويحمل خطابا نقديا للتجربة السوفيتية، وقد كان لهذه المؤلفات فضل الشهرة والشعبية التى اكتسبتها هذه المجله بالذات والتى أكد عليها سولچنتسين:

«سنة وراء السنة كان حب الحرية ينمو فى المجلة الليبرالية «نوفى مير» ولم يكن هذا الحب ينمو من حب هيئة التحرير للحرية، بل كان ينمو من اختيار مخطوطات المؤلفات المحبة للحرية التى تقتحم هذه المجلة وحدها، وكان هذا الاختيار عظيما حتى إنه مهما كانت الرقابة تحذف أو تشوه، فقد كانت تتبقى الكثيرمن القيم»(٩).

ولقد كان لهذه المؤلفات «المحبة للحرية» الفضل فى تسابق القراء على قراءة ما تنشره مجلة «نوفى مير» حيث ـ وكما يشير الناقد تشوبرينين «كان نشر أى مؤلف أدبى حقيقى وصادق لا يندرج فى الخط الرسمى، كان يستوعب كثقب فى حائط برلين»(١٠).

نوبل والرحيل الإجبارى.

فى عام ١٩٦٤ نحى خروتشوف، وقد ربط بعضهم بين هذا الحدث ونهاية «الليبرالية الثقافية»، فقد كان لتغير المناخ الاجتماعى والسياسى السبب فى لجوء عدد من الكتاب والمثقفين إلى الخارج، وإلى النشر الذاتى غير المعلن (سام إيزدات)، أو إلى تهريب كتاباتهم للنشر فى الغرب (تام إيزدات). فى عام ١٩٦٩ أرسل سولچنتسين خطابا مفتوحا إلى اتحاد الكتاب أشار فيه:

«العلنية الشريفة، والعلنية الكاملة، هذا هو الشرط الأول لأى مجتمع شريف، وكذلك بالنسبة لمجتمعنا، من لا يرغب لبلدنا العلنية فذلك هو اللامبالى تجاه الوطن. من لا يرغب لوطننا فى العلنية فذلك هو الذى لا يرغب فى تطهير الوطن من المرض ويرغب فى زج الأمراض إلى الداخل كى تموت هناك»(١١) لقد كان عام ١٩٦٩ من أعوام المواجهة بين سولچنتسين والسلطة، ففى هذا العام طرد سولچنتسين من اتحاد الكتاب، وفى العام التالى حصل على جائزة نوبل للآداب، لقد كان منح جائزة نوبل للكتاب السوفيت مثارا للغضب والاحتجاج من قبل الأجهزة الرسمية السوفيتية التى كانت ترى فى منح الجائزة للكتاب المعارضين نوعا من الدعم الأدبى والمادى لهم بهدف التشهير بالنظام السوفيتى فى زمن الحرب الباردة. ولم يسلم من هذا الموقف سوى شولوخوف كاتب الواقعية الاشتراكية، إن سولچنتسين يفسر الموقف العدائى تجاه جائزة نوبل من قبل الدوائر الرسمية السوفيتية فى إطار المفهوم العام لدور الأدب الذى رسخ فى الفترة السوفيتية:

«لقد أوحت السلطة نفسها إلى الكتاب بأن الأدب جزء من السياسة، ولهذا السبب فإن منح جائزة نوبل لكاتب من كتابنا القوميين كان يستوعب قبل كل شىء بوصفه حدثا سياسيا»(١٢).



خروتشوف

ويتذكر سولچنتسين فى هذا الصدد الذى واكب منح باسترناك جائزة نوبل، ورد الفعل الغاضب من جانب الحزب واتحاد الكتاب على هذا الحدث؛ الأمر الذى اضطر باسترناك إلى الاعتذار عن قبول الجائزة إزاء حملة الانتقادات الواسعة التى وجهت إلى شخصه علنا فى الصحافة.

ويعترف سولچنتسين فى سيرته الأدبية بأنه كان «يحسد» باسترناك على الجائزة وبأنه «يدين» رفضه الجائزة:

«لقد كنت أقيس باسترناك بأهدافى، وبمعاييرى، وكنت أتشنج من الخجل من أجله، مثلما من أجل نفسى، كيف يمكن الهلع من السباب فى الصحافة، وكيف يمكن الضعف أمام التهديد بالنفى».(١٣) ولقد كان الحصول على نوبل مطمحا بالنسبة لسولچنتسين:

«إن هذه الجائزة تلزمنى كمرحلة فى الموقع، وكلما حصلت عليها مبكرا، صرت أقوى، وتمكنت من الضرب بقوة أكثر»(١٤).

وحين حصل سولچنتسين على الجائزة فى عام ١٩٧٠ كان رد الفعل الرسمى هو الغضب، فقد كان اتحاد الكتاب السوفيت يزمع إرسال وفد من المفاوضين إلى لجنة تحكيم جائزة نوبل للحيلولة دون حصول سولچنتسين عليها، ثم بعد ذلك وضعت العراقيل أمام سفره لتسلم الجائزة كذلك وجهت الصحافة حملة انتقادات واسعة إليه، وتعقبته أجهزة الأمن بالمطاردة.

وقد نشرت مجلة «نوفى مير» مؤخرا فى عددها الصادر فى شهر أغسطس عام ١٩٩١ نصوص الخطابات المرسلة من سولچنتسين إلى بعض الشخصيات الحكومية بصدد الحصار الأمنى المفروض عليه، وكشف سولچنتسين فى خطابه الموجه إلى وزير الأمن عن الضغوط التى يتعرض لها:

«تحملت فى صمت لسنوات طويلة الممارسات غير الشرعية لمستخدميكم مثل مراقبة جميع مراسلاتى، مصادرة نصفها، التجسس حول منزلى، والترصد لضيوفى؛ ثقب الأسقف، ووضع أجهزة التصنت فى شقتى فى المدينة، وفى رقعة الحديقة. حملة الافتراء الدءوب الموجهة ضدى من منصات الحاضرين من مستخدمى وزارتكم»[١٥] وتتعقد الأمور بين سولچنتسين والسلطة بعد اكتشاف رواية «أرخبيل جولاج» منسوخة على الآلة الكاتبة فى سبتمبر عام ١٩٧٣ طبعة «سام إيزدات» (النشر الذاتى). وحين يستدعى المدعى العام سولچنتسين للمثول أمامه يرفض سولچنتسين الدعوة، ويتم بعدها ترحيله إجباريا من الاتحاد السوفيتى.

«أرخبيل جولاج»

لقد قمت بواجبى أمام الشهداء، وهذا يمنحنى راحة وسكينة، لقد كان مقدرا على هذه الحقيقة أن يقضى عليها، فقد سمموها، أما عوها، وطحنوها مثل المسحوق، ولكن ها هى مترابطة، حية، منشورة، وهذا لن يحميه أحد أبدا»[١٦].

هكذا علق سولچنتسين على ظهور طبعة روايته «**أرخبيل جولاج**» فى الغرب.

و«**جولاج**» هو الاسم المختصر للإدارة الرئيسية لمعسكرات الاعتقال التى تتناول الرواية وصفها على امتداد الفترة الزمنية من ١٩١٨ ـ ١٩٥٦.

الرواية ليست سياحة لاكتشاف تضاريس الأرخبيل، بل محاولة لاستكشاف عالم الإنسان داخل المكان

ماذا كان يحدث مع الإنسان داخل معسكرات الاعتقال؟ هذا هو السؤال الرئيسى الذى تطرحه رواية «**أرخبيل جولاج**» التى تقدم صورة قاتمة، تمتلىء بالمرارة لعالم المعتقلين الذين تدفقوا بالآلاف على معسكرات الاعتقال.

ولإ براز الوجود المادى والروحى للإنسان داخل معسكر الاعتقال يعتمد سولچنتسين على أسلوب المقابلة بين ما يجرى داخل المعتقلات فى الفترة السوڤيتية، وما كان يحدث قبلها فى زمن القياصرة.

يقابل سولچنتسين ـ مثلا ـ بين ظروف العمل الشاق فى معتقلات القياصرة قبل الفترة السوڤيتية وبعدها؟ ففى الفترة القيصرية ـ وكما يصف سولچنتسين فى الرواية:

«لدى تعيين العمل الشاق كان يؤخذ فى الاعتبار ما يلى: القوى الطبيعية للشخص، ودرجة خبرته (وهل حقا يمكن أن نصدق هذا الآن). كان يوم العمل المقرر فى الشتاء سبع ساعات، وفى الصيف اثنتى عشرة ساعة ونصف، وفى معتقل «كوتسكايا» الشاق (حيث كان ب.ف. ياكوبيتش فى عام ١٨٩٠) كانت تدريبات العمل تنجز فى يسر بالنسبة للجميع عدا بالنسبة له.

كان يوم العمل هناك يتكون من ثمانى ساعات بما فى ذلك السير على الأقدام، وبداية من شهر أكتوبر كان يتكون من سبع ساعات، أما فى الشتاء فمن ست ساعات فقط (وقد كان هذا قبل النضال من أجل يوم عمل من ثمانى ساعات!) أما فيما يعنى معتقل «أومسكايا» الذى اعتقل فيه دوستو يفسكى فقد كانوا هناك عموما لا يفعلون شيئا، كان العمل عندهم يذهب على الصيد، وكانت الرئاسة تكسوهم بسترات بيضاء من التيل وبالسراويل»[١٧].

ويستشهد سولچنتسين برواية دوستو فيسكى «مذكرات من بيت الأموات» ليدلل على يسر العمل فى المعتقل فى الفترة القيصرية، ويشير إلى أن «الرقابة» لم تكن ترغب فى السماح بنشر رواية «مذكرات من بيت الأموات» لأنها كانت تتخوف من أن اليسر الذى يصور به دوستوفيسكى الحياة فى المعتقل لن يوقف الجريمة. ولهذا فقد أضاف دوستويفسكى صفحات جديدة من أجل الرقابة مصحوبة بتنويه إلى أن الحياة فى المعتقل كانت قاسية رغم ذلك»[١٨].

ويورد دوستوفيسكى فى المقابل وصفا لتدريبات العمل الشاق معتقل «كوليم» السوفيتى نقلا عن تجربة الأديب شالوموف التى أوردتها ماريا فولكونسكايا فى مذكراتها، وينوه فى هذا الإطار إلى تجربة الديسمبريين فى الفترة القيصرية:

كان التدريب الواحد بالنسبة للمعتقلين من الديسمبريين عبارة عن استخراج وحمل الحديد الخام فى نيرتشيسكى بوزن ثلاثة بودات للشخص الواحد فى اليوم (البود الواحد يزن ١٦،٣٨ كجم) يمكن رفعها مرة واحدة. أما شالوموف فى معتقل «كوليم» فقد كان يرفع (٨٠بودا) ويكتب شالوموف إضافة إلى ذلك أن يوم العمل فى الصيف عندهم كان يصل إلى ١٦ ساعة! لا أعرف كيف يمكن التصرف بالنسبة لست عشرة ساعة، فقد كانت ثلاثة عشرة ساعة كافية بالنسبة للجميع، وكانت الأعمال فى الأرض فى كارلاجا، وفى الغابات الشمالية، وهذه هى ساعات العمل الصافية عدا السير على الأقدام فى الغابة خمسة كليومترات، وخمسة كليومترات فى العودة»[١٩].

إن سولچنتسين حين يصف قوة الأعمال الشاقة فى السجون والمعتقلات السوفيتية لا يعنيه وصف الألم الفيزيائى فى حد ذاته، بل تأثير هذا الجانب الفيزيائى على الجانب النفسى والأخلاقى، ذلك لأن وصف الجوانب المادية والمعيشية لوجود الإنسان فى

المعتقل يستهدف الغوص داخل وعي الإنسان، إن الغابة ملهمة الشعراء والتي يرتبط بها وجدانيا الإنسان الروسي بدرجة تجعل سولچنتسين يلقبها «بوالدنا»، هذه الغابة قد تحولت بفعل الأعمال الشاقة في معسكر الاعتقال إلى مكان كريه كما يصفه سولچنتسين:

هذه الغابة، هذا الجمال على الأرض الذي تغنت به الأشعار والكتابات النثرية، سوف تدخلها برجفة من الاشمئزاز أسفل قباب أشجار البتولا والزيزفون،(٢٠) ولكن من المذنب فيما كان يحدث من تشويه للنفس البشرية داخل معسكر «جولاج»؟ هل الذنب ذنب ستالين وحده؟

من الواضح ان سولچنتسين لا يحبذ هذا التصور، ذلك لأن مجريات الأحداث في رواية «أرخبيل جولاج» تستهدف الوصول بالقارىء إلى أن طريق العنف الذي سلكته ثورة أكتوبر كان من الطبيعي أن يثمر ظاهرة ستالين، وأنه مالم يكن ستالين موجودا لكان مكانه دكتاتور آخر. إن سولچنتسين يتعقب في روايته ممارسات العنف التي ذهبت بأرواح الملايين، ويبدأ من فترة الحرب الأهلية التي أعقبت ثورة أكتوبر، فيروي عما حدث في عام ١٩١٨ حين أعلن لينين عن مهمة تطهير الأرض الروسية من «الحشرات» الضارة!

ويسرد لنا سولچنتسين بعض هذه الحشرات:

«الحشرات هي الشخصيات الحكومية العامة (قبل الثورة)، الحشرات هم المسئولون عن التعاونيات، وجميع ملاك العقارات. عدد غير قليل من الحشرات كانوا من بين مدرسي المدارس الثانوية، الحشرات هم مجالس الكنائس الأبرشية بالكامل، الحشرات هم من يقومون بالغناء في كورس الكنائس، جميع القساوسة كانوا حشرات، ولاسيما الرهبان والراهبات»(٢١)·

ولكي يوصي سولچنتسين بمصداقية ما يرويه من أحداث نجده يستشهد بشهود العيان، ويعتمد على بعض الوثائق، كذلك يصدر روايته بتنويه يشير فيه إلى أن:

«في هذا الكتاب لا توجد شخصيات من وحي الخيال، ولا أحداث من وحي الخيال. الناس والأماكن تسمى بأسمائها الخاصة، وحين أذكر الأحرف الأولى من الاسم فذلك نظرا لاعتبارات شخصية، وإذا لم أذكر الاسم على الإطلاق فذلك نظرا لأن الذاكرة الإنسانية لم تحفظ الأسماء لكن كل ما ذكر في الرواية حدث على هذا النحو»(٢٢) رواية «**أرخبيل جولاج**» التي اعتمدت في الجزء الأول منها على طبعتها الباريسية الصادرة باللغة الروسية في عام ١٩٧٣ لم تر النور في وطنها سوى من عهد قريب حين نشرتها مجلة «نوفي مير» في حلقات في أعدادها الصادرة ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠، في تلك الفترة التي اعتبرت قمة في سياسة المكاشفة والعلنية.

خمسة عشر عاما من الحظر مضت منذ صدور رواية «**أرخبيل جولاج**» في الغرب. لقد رحبت جبهة المثقفين المعارضين بظهور الرواية آنذاك، وشاهدت في ذلك «حدثا ضخما، ومن الأهمية «بحيث يمكن مقارنته بحدث موت ستالين»(٢٣)· وعلى الجانب الآخر



تشيخوف واحد من مفضلي آلن

احتجت الدوائر الرسمية في الاتحاد السوفيتي السابقة على ظهورها، واعتبرت في ذلك «خيانة للوطن»، وأشارت وكالة تاس الرسمية إلى أن «نشر أرخبيل جولاج» في الغرب يشيد مخاطر عودة جو الحرب الباردة، ويهدد باتساع رقعة التوتر بين الشرق والغرب»(٢٤)

لقد كان سولچنتسين على ثقة بأن الحظر الذي فرض على روايته لن يفلح، وبأنه سيأتي اليوم الذي ستعود فيه الرواية إلى قرائها وها هي ذي الرواية تعود بعد انقضاء زمن الحرب الباردة، وسقوط الستار الحديدي لتثير عاصفة جديدة من ردود الفعل حولها، فلمدة عام لم ينقطع سيل الخطابات التي وردت إلى هيئة تحرير «نوفي مير» التي نشرت الرواية، وهذه الخطابات تكشف عن اختلاف وجهات نظر القراء تجاه الرواية، وتحمل في طياتها ملمحا من صراع الأفكار الدائر على الساحة هناك؛ ففي الوقت الذي أشادت فيه بعض الخطابات «بشجاعة» سولچنتسين، «وصراحته» وأيدت رواياته عن أرقام الضحايا، ندد بعضهم الآخر بلهجة «المرارة»، و«الحقد» و«العدوان» للثورة الاشتراكية، والعمالة «للغرب»(٢٥). رواية «أرخبيل جولاج» التي أسماها مؤلفها «بتجربة البحث الفني» تتسم بلهجة تقريرية طغت على بعض العناصر الفنية، ومع ذلك فقد نظر إلى الرواية في بعض الكتابات بوصفها كشفا فنيا جديدا. تقول الناقدة لاتينينا في هذا الصدد:

«إذا كان سولچنتسين قد أتى إلى الأدب بالحقيقة غير الضيقة، ولم يأت بحقيقة الخبر وموضوعات السجون والمعتقلات (هناك عشرات الآلاف من الناس الذين عادوا من المعتقل، وكانوا يتقاسمون تجربتهم، ويخففون عن النفس بالحكايات) وكذلك بالنسبة لموضوعات القرية، وافتقاد الشعب لحقه ـ أكرر مرة

أخرى ـ كانت موضوعات عادية فى الأحاديث والمراسلات، نوعا من الضروب الخاصة، وهذه الضروب لم تكن تتقاطع مع الأدب المكتوب ليس فقط بسبب عدم كفاية الشجاعة المدنية، بل لأنه لم تكن هناك لغة صالحة لتصوير هذه الحقيقة الجديدة. إن سولجنتسين لم يقل فقط الحقيقة، بل وشيد لغة كان يحتاجها الوقت، فحدثت عملية إعادة اهتداء لكل الأدب الذى استخدم هذه اللغة،(٢٦).

سولجنتسين وأدب الواقعية الاشتراكية

ظهرت قصة سولجنتسين «يوم فى حياة إيفان دينيسوفيتش» ـ كما أشرنا آنفا ـ فى بداية الستينيات، ولم يكن سولجنتسين هو الكاتب الوحيد فى ساحة الأدب الروسى فى هذه الفترة الذى حملت مؤلفاته خطابا ناقدا للواقع والتجربة السوفيتية، فقد تبلور فى «نثر القرية» فى هذه الفترة خط ناقد يصور مأساة اقتلاع الفلاح من الجذور، والحالة التى آلت إليها القرية، وظهر هذا الاتجاه فى أعمال شوكشين، ابراموف، بيلوف وغيرهم.

كذلك اتجه بعض الكتاب إلى لغة الشفرة الرمزية «كوسيلة للخروج عن إطار منهج الواقعية الاشتراكية والتعبير عن رؤيتهم النقدية للواقع، وقد تناولت بالتحليل هذه اللغة الرمزية فى دراسة لى عن «الأدب الروسى ولغة أيسوب» حيث توقفت بالتحليل عند إنتاج بولجاكوف الذى يعد واحدا من أوائل الكتاب الذين اتجهوا إلى لغة الشفرة الرمزية (لغة أيسوب)(٢٧).

غير أن حكم سولجنتسين على الحركة الأدبية فى عصره يبدو قاسيا، فهو يدين الأدب لأنه استدار عن حقيقة ما كان يحدث فى السجون ومعسكرات الاعتقال ويعبر عن الإحساس بالنفور والانفصال الروحى عن الأدب المعاصر له:

لقد قررت مرة وإلى الأبد أن الأدب الذى كان قائما وبواقا بمجلاته العشر السميكة، وبجريدتيه الأدبيتين، والمجموعات القصصية التى لاحصر لها، وبعض الروايات والمؤلفات الكاملة، والجوائز السنوية، والمسلسلات الإذاعية كل هذا أدب غير حقيقى، ولم أكن أفقد الوقت، أو أشعر بالضجر لمتابعتها، فقد كنت أعرف مسبقا أنه لا يوجد بها شىء يستحق، ليس لأنه لم يكن من الممكن أن تولد المواهب هناك، ربما كانت توجد هناك مواهب، ولكنها ماتت هناك أيضا،(٢٨).

سولجنتسين والحركة القومية:

قال البروفيسور الأمريكى فاليرى سويفير فى المؤتمر المكرس للاحتفال بذكرى مرور سبعين عاما على ميلاد سولجنتسين أى منذ خمس سنوات مضت:«إن التقييم الرفيع لإنتاج سولجنتسين يشهد على الدور الكونى، الذى لعبه سولجنتسين الذى قوض بدرجة كبيرة من الحركة اليسارية فى الغرب،(٢٩) فهل عاد سولجنتسين أخيرا إلى وطنه لأن دوره هناك انتهى؟ أم أنه عاد لأن دورا جديدا ينتظره؟ الواقع أن سولجنتسين يتطلع لأن يلعب دورا مهما فى الظروف الحرجة التى تمر بها بلاده الآن، فقد أعرب عن رغبته فى أن يكون «لعودته أثر شاف فى الوضع الحزين غير السعيد الذى يمر به وطنه،(٣٠).

سولجنتسين يعود الآن إلى روسيا جديدة تموج بالتيارات السياسية، التى تشغل التيارات القومية بينها مكانة مهمة، إن بعض هذه التيارات القومية يهتدى بالأفكار البلشفية، والبعض الآخر ينطلق من منطلق دينى وتراثى، ورغم أن سولجنتسين ينفى علاقته بالأحزاب والتيارات السياسية، إلا أن علاقة سولجنتسين بالأفكار القومية الدينية قديمة، ففى عام ١٩٧٣ قبل رحيله من الاتحاد السوفيتى كتب سولجنتسين مشيرا:

«إننى لم أشك أبدا فى أن الحقيقة سوف تعود إلى وطنى. إننى أؤمن بتوبتنا، وبالتطهير الروحى لنا، وبالبعث القومى لروسيا،(٣١) البعث الروحى والقومى والثقافى لروسيا كان هو الشعار الذى رفعه سولجنتسين ومجموعته التى أطلقت على نفسها اسم من «أسفل الصخور» والتى ظهرت بعد طرد سولجنتسين من الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٧٤. كانت المجموعة موجودة على الخط المعارض مع نظام بريجنيف، وكانت ترفض الستالينية، والنظام الشمولى، وتعارض قمع الحريات الشخصية، وترى فى التراث والفكر الدينى ركيزة ومنطلقا لطريقة التطور الاجتماعى ولم تكن أفكار البعث الدينى والروحى التى رفعتها مجموعة «من أسفل الصخور» بجديدة على روسيا، فقد آمن بهذه الأفكار كتاب روسيا الكبار من أمثال تولستوى ودوستوفيسكى، ممن رفضوا فكرة الثورة كوسيلة للتغيير الاجتماعى، وقد لقيت هذه الأفكار انتشارا واسعا فى بداية القرن الحالى فى الفترة التى سبقت ثورة أكتوبر ١٩١٧. لكن سولجنتسين يختلف مع بعض الاتجاهات القومية الحالية فيما يعنى الطموحات الإمبراطورية، فطريق البعث الدينى والقومى الذى يتصوره سولجنتسين لا يتجه نحو تحقيق الطموحات الإمبراطورية، بل يستهدف جمع شمل الأمة، والوحدة الروحية لأبناء الوطن، ورفض الضغط على الأمم الأخرى على طريق الندم والتطور النابع من «خصوصية» روسيا:

«ينبغي علينا ألا نقلد التعددية الغربية بالكامل، نحن تلزمنا التعددية التي تنبسط في العالم كله، أما العالم فيتألف من عوالم منفردة أحدها روسي بخصوصيته»(٣٢) سولجنتسين عاد إلى وطنه بشعار«الكاتب يجب أن يوجد شعبه»، فهل سينجح في مهمته؟؟ ■

الهوامش والمراجع

(١) شكلت في نهاية عام ١٩٨٧ لجنة خاصة منبثقة عن المكتب السياسي للجنة المركزية بهدف إعادة النظر في الأحكام التي صدرت على ضحايا المعتقلات في الفترة الستالينية وقد استمر عمل هذه اللجنة مدة ثلاث سنوات ونصف تم خلالها دراسة أحكام القضايا الجماهيرية في النصف الثاني من الثلاثينيات، وقد برأت اللجنة أسماء أكثر من مليون مواطن وأثبتت بالوثائق زيف التهم الموجهة إليهم والتي بنيت على أدلة غير شرعية تم الحصول عليها بطرق التعذيب، وقد نشرت اللجنة أرقام وإحصاءات خاصة بالضحايا الذين يعدون بالملايين عن «ألكسندر ياكوفليوف، الجيل المعدم «جريدة الثقافة، موسكو، ٣١ يوليو، ١٩٩٣، ص٣.

(٢) سولجنتسين، العجل يناطح شجرة البلوط، مجلة «نوفي مير»، موسكو، عدد ٦، ١٩٩١، ص٧.

(٣) المرجع السابق،ص١٢.

(٤) نفسه، ص٢٩.

(٥) نفسه، ص١٢.

(٦) جورج لوكاتش، «الواقعية الاشتراكية اليوم» (الترجمة الروسية)، مجلة قضايا الأدب، موسكو، أبريل ١٩٩١، ص٧٨.

(٧) سولجنتسين، «العجل يناطح شجرة البلوط»، مرجع سابق، ص٣٤.

(٨) نفسه، ص٣١.

(٩) نفسه، ص٣٨.

(١٠) انظر ترجمتنا العربية لمقال س.تشوبرينين، «الأدب الروسي بعد البيروسترويكا مجلة الثقافة العالمية، الكويت، سبتمبر ١٩٩٢ عدد ٥٤، ص٢٠.

(١١) عن الخطاب المفتوح لسولجنتسين إلى اتحاد الكتاب السوفيتي في ١٢ نوفمبر ٦٩، والمنشور في كتاب «الموقع» الإصدار الثاني، موسكو، ١٩٩٠، ص١٧٣ ـ ١٧٤.

(١٢) سولجنتسين، «العجل يناطح شجرة البلوط»، مجلة نوفي مير ٨٢، ١٩٩١، ص٥.

(١٣) نفسه، ص٧.

(١٤) نفسه، الصفحة السابقة.

(١٥) عن نص الخطاب المنشور في مجلة نوفي مير، عدد ٨، ١٩٩١، ص٩٨.

(١٦) عن حديث لسولجنتسين لمجلة «التايم» بتاريخ ١٩ يناير ١٩٧٤ الاقتباس عن الترجمة الروسية للحديث المنشورة في مجلة «نوفي مير»، عدد ١٩٩١،٨، ص ١٢١.

(١٧) سولجنتسين، «أرخبيل جولاج»، الجزء الثالث، مجلة «نوفي مير» عدد ١١، ١٩٨٩، ص٦٤.

(١٨) نفسه، الصفحة السابقة.

(١٩) نفسه، الصفحة السابقة.

(٢٠) نفسه.

(٢١) سولجنتسين، أرخبيل جولاج، باريس، ١٩٧٣ (بالروسية)، ص٤٠.

(٢٢) المرجع السابق، ص٩.

(٢٣) ليديا تشوكوفسكايا، «ثورة البكم»، «نوفي مير»، عدد ٨، ١٩٩١ ص١٢١.

(٢٤) المرجع السابق، الصفحة السابقة.

(٢٥) راجع الخطابات التي نشرتها «نوفي مير»، عدد ٩/ ١٩٩١ ص٢٣٣ ـ ٢٤٨.

(٢٦) أ. لاتينينا، «سولجنتسين ونحن»، مجلة «نوفي مير»، عدد١، ١٩٩٠، ص٢٤٣.

(٢٧) راجع مقالنا«الأدب الروسي ولغة أيسوب»، «مجلة فصول، القاهرة، عدد الأدب والحرية، جـ٢، صيف ٩٢، ص١٧٠ ـ ١٨٢.

(٢٨) سولجنتسين، «العجل يناطح شجرة البلوط» نوفي مير، عدد٦، ١٩٩١، ص١٠.

(٢٩) عن لاتينينا، مرجع سابق، ص٢٤٤.

(٣٠) عن حديث لسولجنتسين مع التليفزيون الألماني، وقد نشرت الجريدة الأدبية الصادرة في موسكو نص الحديث بالروسية في عددها الصادر في ٢٠/ ١٠/ ١٩٩٣، ص٣.

(٣١) تصريح سولجنتسين بتاريخ، فبراير ١٩٧٤ في مجلة «نوفي مير»، عدد ٨، ١٩٩١، ص١٢٣.

(٣٢) حديث لسولجنتسين مع التليفزيون الألماني، مرجع سابق.


SERGUEj 94
Z Z Z

المراجعات

حقيقة مذهب ابن رشد



من منظور الفلسفة العربية

عاطف العراقى

فى تمهيد :

أود أن أشير فى بداية دراستنا لحقيقة الفلسفة الرشدية من خلال منظور الفلسفة العربية إلى أن هدفنا ليس إبعاد ابن رشد. وفلسفته عن دائرة الإسلام. إذ لابد أن نضع فى اعتبارنا أنه لاتعارض بين كون ابن رشد مسلما، وكون فلسفته، فلسفة عربية.

وهل يمكن أن نتغافل عن حقائق ثابتة نجدها فى كتب السير والتراجم من جهة، وفى مؤلفات ابن رشد وشروحه من جهة أخرى. لقد كان **ابن رشد** قاضيا، وقاضيا للقضاة، وكتب عديداً من الرسائل والكتب الفقهية ومن أبرزها كتابه «**بداية المجتهد ونهاية المقتصد**»، بالإضافة إلى وجود مؤثرات دينية فى فلسفته، وإن كان قد فهمها فهما خاصا يلتقى وكونه فى الأساس وبالدرجة الأولى فيلسوفا عربيا يعد صاحب اتجاه عقلى تنويرى فى فكرنا الفلسفى العربى من مشرقه إلى مغربه.

كان **ابن رشد** وكما سيتبين لنا من خلال عرض بعض نماذج من فلسفته ملتزما بخصائص الفكر الفلسفى. لم يكن مجرد مدافع عن الفكر الإسلامى ولو على الأقل عند الفرق الإسلامية، بل كان يضع فى اعتباره أساسا، الالتزام كما قلنا بخصائص الموقف الفلسفى وذلك بصرف النظر عن اتفاقنا معه أو اختلافنا فى رأى أو أكثر من الآراء التى قال بها.

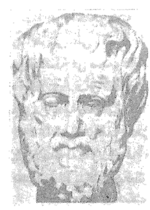
بل إن الخلاف بينه وبين الأشاعرة والغزالى والصوفية، كان خلافا معبرا فى جوهره عن التزامه بشروط الموقف الفلسفى والوقفة الفلسفية، وأحسب أن الغزالى إذا كان قد التزم بتلك الوقفة لما أدى ذلك بموقفه حول تكفير الفلاسفة فى بعض الآراء التى قالوا بها. ونحن نعلم أن **ابن رشد** قد خالف الغزالى نظرا لأن **ابن رشد** - كما قلنا - كان معبرا فى

أفكاره عن الابتعاد عن مسألة التحريم والتكفير لأنه بالدرجة الأولى كان فيلسوفا عربيا ملتزما بالقول بأن الفكرة إنما تعد فكرة فلسفية صحيحة إذا كانت معبرة عن الالتزام بخصائص الفكر الفلسفى، لقد كان يقدم أفكاره بصرف النظر عن مدى اتفاقها أو اختلافها مع الدين، وهكذا فعل الفلاسفة. فلماذا إذن نطلق على فلسفاتهم بأنها فلسفات إسلامية.

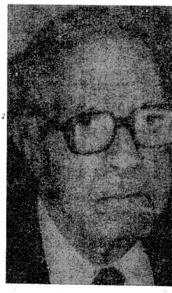
إننا إذا كنا نثير فى دراستنا اليوم، قضية تسمية الفلسفة التى تركها لنا أجدادنا، وهل نسميها فلسفة عربية أم نطلق عليها فلسفة إسلامية، فإن ذلك لا يعنى أننا نود بعث قضية دار حولها الخلاف والجدل بين عديد من الدارسين المهتمين بفلسفتنا، سواء أكانوا باحثين عربا، أو كانوا من الباحثين الغربيين المستشرقين.

لا نريد إذن من جانبنا مجرد بعث قضية أثيرت منذ نصف قرن من الزمان أو يزيد ولكن قصدنا هو التنبيه إلى عدد من الأخطاء وأوجه التعسف التى تشيع الآن وللأسف الشديد فى بلداننا العربية، والتى كان شيوعها نتيجة منتظرة ومتوقعة حين فضل بعض الباحثين والرواد القدامى تسمية فلسفتنا بالفلسفة الإسلامية. ويقينى أن الباحثين والرواد القدامى، ومنهم من لا يزال يثرى حياتنا الفلسفية بالعديد من الثمار الفكرية الرائعة، لو كانوا قد أدركوا ما ستؤدى إليه تلك التسمية مستقبلا من مخاطر وسوء استخدام، لترددوا ألف مرة قبل استخدام مصطلح «الفلسفة الإسلامية».

ومن الأمور التى تلفت النظر أن الرواد سواء فى مصر أو غيرها فى بلدان العالم والذين استخدموا مصطلح الفلسفة الإسلامية قد نظروا إلى الفلسفة نظرة دقيقة إلى حد كبير، وكانت عقلياتهم متفتحة، بحيث نبهوا إلى أضرار كل فكر لاعقلانى، أما الآن وللأسف الشديد فإننا نجد عند بعض من يفضلون تسميتها «بالفلسفة الإسلامية»، تشجيعا للفكر اللاعقلانى، ونشرا للخرافة، وحشرا لموضوعات داخل إطار فلسفتنا ليس لها صلة بالفلسفة من قريب أو من بعيد. ولنعترف بصراحة وموضوعية أن أكثر دراساتنا الحالية وخاصة من حيث المنهج - منهج دراستها - قد أصبحت أضحوكة عند الباحثين والمستشرقين الأوروبيين. وهل من المعقول أن يصبح فكر ابن تيمية والذى يعد عدوا لكل فكر ناضج متفتح،



أرسطو



إبراهيم بيومى مدكور

هو الفكر المسيطر على أذهان المشتغلين ببعض الأقسام الفلسفية فى مصر والعالم العربى، وذلك على الرغم من لاعقلانية هذا الرجل وسذاجة بعض آرائه. نعم، إن من حق المستشرقين الأوروبيين أن يضحكوا على ما نطلق عليه فى عالمنا العربى بحوثا فلسفية فى حين أنها لا تنتسب إلى الفلسفة من قريب أو من بعيد، وتختلف تماما عن الفلسفة كما ينبغى أن تكون، قلبا وقالبا.

كل هذه المآسى والكوارث قد نتجت بطريقة غير مباشرة عن تسمية فلسفتنا بأنها «فلسفة إسلامية» لماذا؟ لسبب بسيط جدا وهو أن فريقا منا قد خلط خلطا شنيعا بين خصائص الفكر الدينى، وخصائص الفكر الفلسفى، وأدى هذا إلى النظر إلى أفكار الفيلسوف من خلال منظور الدين، وهذا من أخطر الأشياء لأنه يؤدى إلى تفسير آراء الفيلسوف تفسيرا خاطئا. فإذا قلنا مثلا: إن **الفارابى** يعد من فلاسفة الإسلام، وفلسفته تعد فلسفة إسلامية وحين نجد **الفارابى** يقول صراحة بقدم العالم، فإن بعضًا من أشباه الباحثين فى الفلسفة، يقوم بتأويل آراء الفارابى تأويلا فاسداً، لماذا؟ لأنه ينظر إليه من خلال كونه فيلسوفا إسلاميا وأن فلسفته تعد فلسفة إسلامية، وأن الفيلسوف الإسلامى لايصح فى نظرهم أن يقول بقدم العالم ومن هنا فلابد من إنطاق **الفارابى** بآراء لم يقل بها إطلاقا وذلك حتى يتفق ذلك مع كونه فيلسوفا إسلاميا.

وهكذا إلى آخر التفسيرات والتأويلات الفاسدة والتى تعد بالمئات وكلها تجعلنا نقول: أيتها الفلسفة التى يطلق عليها البعض منا أنها إسلامية، كم من الأخطاء والأباطيل والضلال ترتكب باسمك.

هل من المعقول أن أنظر إلى فلسفة الفيلسوف من خلال منظور التوفيق بين الدين والفلسفة، فى الوقت الذى نجد فيه

أن فلاسفة العرب لم ينجح واحد منهم فى التوفيق بينهما هل يمكن أن ننسى قول ابن رشد «بالحقيقتين» أو بالحقيقة ذات الوجهين؟.

لا أكون مبالغا فى القول إذا قلت إننا نحن العرب قد أسأنا أبلغ الإساءة إلى فلسفتنا، وكان المستشرقون وما زالوا أكثر عمقا ودقة منا فى النظر إلى فلسفتنا. لقد أصبح فهمنا لفلسفتنا يدور حول الأساليب الخطابية اللامعقولة والتى نجدها عند أصحاب الفكر المتزمت، الفكر الرجعى، الفكر الذى يعد تعبيرا عن الصعود إلى الهاوية، بل نقول بصراحة إن النظرات المتجمدة والخاطئة لفلسفتنا إنما ساعد على انتشارها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة نوع من الفكر المعادى للفلسفة، والذى يسود فى بعض الدول البترولية العربية.

يضاف إلى ذلك أن المناخ الفكرى السائد فى أكثر البلدان العربية إنما يعد تعبيرا عن الترحيب بالفكر الذى لا يمكن اعتباره عقلانيا، وبالتالى الضيق بالفكر الحر، الفكر العقلانى، ولنضرب على ذلك مثالا واحدا. إذا قام فرد منا بدراسة عن ابن تيميه تقوم على الترحيب بآراء رجل بحق وبغير حق، فإنه سيجد الأموال والجوائز تسعى إليه من أكثر البلدان البترولية. وعلى العكس من ذلك تماما إذا قام بتأييد الفكر العقلانى ممثلا فى ابن رشد على سبيل المثال. وهذا قد يؤدى إلى الاعتقاد بالصلة بين الغنى والتأخر الفكرى، وبين الفقر والتقدم الفكرى. أليس من الملفت للنظر أننا نجد عالمنا العربى بوجه عام قد ارتضى لنفسه آراء الغزالى فأدى به هذا إلى نوع من التأخر الفكرى، فى حين أن أوروبا بوجه عام قد ارتضت لنفسها فلسفة ابن رشد ومبادئ ابن رشد فأدى بها ذلك إلى التقدم الفكرى؟.

إن العبرة إذن ليست بالتسمية، فلسفة إسلامية أم فلسفة عربية، وإن كنا نفضل من جانبنا تسميتها: فلسفة عربية. إن مصطلح الفلسفة العربية سيجنبنا أى فهم خاطئ لفلسفتنا، يباعد بيننا وبين التفسيرات والتأويلات الفاسدة، سيجعلنا ننطلق انطلاقة إيجابية بحيث نفهم فلسفتنا كما ينبغى أن يكون الفهم، ونربط بينها وبين متطلبات عصرنا الحالى وما سيجيء بعده من عصور المستقبل. وكم كان أكثر المستشرقين على صواب تماما فى استعمالهم لمصطلح الفلسفة العربية. ومن الذى قال إن فلاسفتنا القدامى كانوا منطلقين من نقطة بداية إسلامية. إننا لوقلنا بهذا القول الخاطئ فكيف نبرر إذن هجوم الغزالى على الفلسفة وذهابه إلى تكفير الفلاسفة فى مجموعة من الآراء التى قالوا بها. فأى الفريقين إذن هو المنطلق من بداية إسلامية؟ الفلاسفة أم الغزالى؟ إذا قلنا الفلاسفة، فمعنى هذا أن الغزالى لاصلة له بالإسلام من قريب أو من بعيد لأنه قام بتكفير من نطلق عليهم: فلاسفة الإسلام. وإذا قلنا إن الغزالى هو الذى انطلق من نقطة بداية إسلامية، فمعنى هذا أنه من الصحيح تماما الاعتقاد بخطأ وصف فلسفة فلاسفتنا بأنها إسلامية.

إن الحل الذى يبدو لى أنه الحل الملائم والذى يعد معبرا عن رؤية عقلانية مستقبلية هو أن نسمى فلسفتنا بالفلسفة العربية، وإننى أعلم تماما ما قد يثيره هذا الرأى من ضيق فى نفوس بعضهم وتأويله تأويلا فاسدا. ولكن ينبغى أن نعلم تماما أن العبرة بالحضارة وليس بأصل هذا الفيلسوف أو ذاك من الفلاسفة. فالفارابى إذا كان من أصل تركى فارسى. إلا أنه يعد من فلاسفة العرب لأنه عاش فى ظل الحضارة العربية والدليل على ذلك أنه كتب أساسا باللغة العربية ولو كان المعيار هو الأصل، لكانت كتب الفارابى بالفارسية، وما يقال عن الفارابى، يقال عن ابن سينا وهكذا إلى آخر الفلاسفة والذين يعد أصلهم غير عربى. ولكن أفكارهم جاءت تعبيرا عن الحضارة العربية، وكانت أكثر كتاباتهم باللغة العربية.

إننا إذا كنا نجد من أساتذتنا أمثال مصطفى عبد الرازق، و إبراهيم مدكور من يفضلون مصطلح الفلسفة الإسلامية، ومن أساتذتنا أمثال أحمد لطفى السيد من يذهبون إلى تسميتها بالفلسفة العربية، فإننى من جانبى لا أتردد فى أن أطلق عليها مصطلح الفلسفة العربية وكفانا ما حدث من سوء فهم، وكفانا ما يلجأ إليه بعضهم من أوجه التعسف وإطلاق الأحكام غير الواضحة والتى تذكرنا بالكلمات المتقاطعة. وإذا كنا لا نطلق على علم الهندسة مثلا أنه هندسة مسيحية أو هندسية إسلامية. وإذا كنا لا نطلق على علم النفس، علم نفس مسيحيا أو علم نفس إسلاميا، لأن الهندسة هى الهندسة فى حد ذاتها، وعلم النفس هو علم النفس فى حد ذاته، فلماذا إذن نطلق على فلسفتنا مصطلح الفلسفة الإسلامية؟ إن فلسفتنا فلسفة عربية قلبا وقالبا. وهذا هو الصحيح فيما أعتقد به وأدافع عنه، تماما كما نقول فلسفة إنجليزية وفلسفة ألمانية وفلسفة فرنسية، وغير مجد فى يقينى واعتقادى الإصرار على تسميتها بالفلسفة الإسلامية مع ما فى التسمية من أخطاء، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

لابد إذن من تحديد مجال الفلسفة وذلك حتى لانقع فى أخطاء لا حصر لها. وأعتقد من جانبى أن الشيخ مصطفى عبد الرازق قد جانبه الصواب حين رأى أن علم أصول الفقه يعد مبحثا من مباحث الفلسفة. لقد أدى هذا الرأى إلى أخطاء لا حصر لها، إذ لا نجد صلة بين خصائص الفكر الفلسفى وخصائص علم أصول الفقه.

* شروح ابن رشد على أرسطو وحقيقة الفلسفة الرشدية:

إذا كنا قد أشرنا منذ قليل إلى أننا سندرس مجموعة من آراء ابن رشد والتى تعد معبرة عن كون فلسفتنا إنما هى فى أساسها وجوهرها تعد فلسفة عربية، فإننا نجد أنه من الضرورى القول بأن الدارس للفلسفة الرشدية، يجد أنه من أهم الأشياء أن يضع فى اعتباره، أهمية شروح ابن رشد على أرسطو. إنه يعد واجبا علينا معشر المشتغلين بالفكر الفلسفى العربى عدم الاقتصار على مؤلفات ابن رشد التى لا تمثل عندنا غير جانب واحد من فلسفته. أما إذا أردنا الغوص وراء المعانى الباطنة والحقيقية لفلسفته، فلابد لنا من الرجوع إلى شروحه. ودليلنا على ذلك أن الدارس لهذه الشروح يجد أنها قد تضمنت أهم وأكثر عناصر فلسفته. فطالما نجد بين تضاعيفها نقدا حرا جريئا للمتكلمين وغيرهم من مفكرى العرب. وطالما نجد فيها أيضا دعوة إلى اللجوء إلى البرهان، وتجاوز ما عداه من أساليب إقناعية وخطابية وجدلية.

ولكن قد يقال إن هذه الشروح لا تمثل وجهة نظره الحقيقية، إذ إن العادة قد جرت على أن المفكر حين يؤلف كتابا يودعه أفكاره الخاصة. وحين يشرح أو يفسر كتابا لغيره يقتصر على إيراد أفكار واضع الكتاب نفسه. ولكن ردنا على ذلك أن ابن رشد على وجه الخصوص يختلف تماما عن ذلك. فهو:

أولا: يبدى إعجابة الشديد بأرسطو كما سيتبين لنا بعد قليل. وثانيا: نجد بين ثنايا مؤلفاته تأكيداً يذهب إليه فى شروحه على أرسطو.

وهذا إن دلنا على شىء فإنما يدل على ضرورة الرجوع مباشرة إلى شروح الفيلسوف وبحيث نضمها إلى مؤلفاته إذا أردنا فهم فلسفته فهما دقيقا، بل إن مؤلفاته تعد من بعض الزوايا أقل أهمية من شروحه.

نوضح ذلك بالقول إن مشكلة التوفيق بين الدين والفلسفة تعد مشكلة زمنية، بمعنى أن فلاسفة العرب كان واجبهم فى عصرهم قبل البدء فى تقرير نظرياتهم وضع محاولة للتوفيق بين الدين والفلسفة. وهذا هو دافع ابن رشد مثلا لكتابة «فصل المقال» و«مناهج الأدلة» وهذان الكتابان طالما احتفلنا بهما وبالغنا فى بيان عمقهما متغافلين عن شروحهما. بالإضافة إلى أن كتابه «تهافت التهافت» إنما كان الهدف الأساسى منه مجرد الرد على الغزالى، بمعنى أنه يتضمن عرضا نقديا.

قلنا إن فيلسوفنا ابن رشد قد أبدى إعجابه بأرسطو. دليل هذا أننا إذا رجعنا إلى شروحه وبعض تآليفه وجدناه يفضله على جميع الفلاسفة الذين سبقوه والذين أتوا بعده حتى زمان ابن رشد فهو مثلا يقول فى مقدمة تفسيره لكتاب الطبيعيات: «مؤلف هذا الكتاب أكثر الناس عقلا. هو الذى ألف علوم المنطق والطبيعيات وما بعد الطبيعة، وأكملها وسبب قولى هذا أن جميع الكتب التى ألفت فى هذه العلوم قبل مجىء أرسطو لا تستحق جهد التحدث عنها».

ويقول ابن رشد فى مقدمة تلخيصه لكتاب الحيوان لأرسطو: «نحمد الله كثيرا على اختياره ذلك الرجل - أى أرسطو - للكمال، فوضعه فى أسمى درجات الفضل البشرى والتى لم يستطع أن يصل إليها أى رجل فى أى عصر».

ونود أن نشير من جانبنا فى معرض دعوتنا إلى هذا المنهج الذى قلنا إنه يتمثل فى المطالبة بالرجوع إلى شروح الفيلسوف على أرسطو، إلى أن هذا الإعجاب من جانب فيلسوفنا لم يكن منه مجرد شعور طارئ فحسب بل نحسب أنه كان صادرا عن عقيدة. ودليلنا على ذلك أن هذا الإعجاب من جانبه قد استحال إلى محاولة لتأييد أرسطو وتبرير أقواله فى أكثر نظرياته، فهو يتأثر بأرسطو ويرى أنه لم يكن مخطئا لأنه اتبع المنهج البرهانى. وإذا فهمنا ما يعنيه بالبرهان - كما سيتضح بعد قليل - استطعنا القول بلا أدنى تردد إن شروحه هذه تعد جزءاً لا ينفصل عن نظرياته الفلسفية، بحيث لا يمكن دراسة نظرية من نظرياته إلا إذا استخلصنا فهما لها وتأويلا من خلال تلاخيصه وشروحه على أرسطو بوجه خاص. بل لابد أن نستمد أساس نظرياته من خلال شروحه وتفسيره. فهو دائما ما يعمد إلى عرض آرائه الخاصة فى سياق شروحه. وهو إذا كان يفسر كتب أرسطو ويعلق عليها، فإنه بدوره يتجاوز التفسير والتعليق ويتطرق إلى القضايا الفلسفية اللاهوتية ولا سيما فى معرض رده على الأشاعرة بصفة خاصة والمتكلمين على وجه العموم ونستطيع أن نؤكد ذلك من جانب آخر. إننا إذا تعمقنا فى شروحه وتلاخيصه وجدنا من جانبه مغزى غاية فى الدلالة. هذا المغزى يتمثل فى أنه إذا كان ينقد رأيا من الآراء فذلك لأنه لا يتفق مع فلسفته ومع مبادئ أرسطو وفلسفته، التى قلنا فيما سبق أنه يؤيدها تأييدا ظاهرا.

نضرب على ذلك مثالا واضحا من تلخيصه لكتاب من كتب أرسطو. يقول ابن رشد فى تلخيص السماع الطبيعى لأرسطو: «إن قصدنا من هذا القول أن نعمد إلى كتب أرسطو فنجرد منها الأقاويل العلمية التى يقتضيها مذهبه أعنى أوثقها ونحذف ما فيها من مذاهب غيره من القدماء إذا كانت قليلة الإقناع وغير نافعة فى معرفة مذهبه، وإنما اعتمدنا نقل هذا الرأى من بين آراء القدماء إذ كان قد ظهر للجميع أنه أشد

إقناعا وأثبت حجة. وكان الذى حركنا إلى هذا أن كثيرا من الناس يتعاطون الرد على مذهب أرسطو من غير أن يقفوا على حقيقة مذهبه فيكون سببا لخفاء الوقوف على ما فيها من حق أو ضده.

يحاول ابن رشد إذن الدفاع عن القضايا الأرسطية. وهذا ظاهر ظهورا بينا من خلال شروحه وتفاسيره ومن خلال مؤلفاته أيضا. وإذا كنا ندعو من جانبنا اليوم إلى منهج جديد يتمثل فى الاعتماد - كما قلنا - على شروحه بصفة خاصة فإن تحت يدنا الكثير من النصوص التى تنهض دليلا على تأييد دعوتنا اليوم، وقد آن لنا معشر المشتغلين بالفكر الفلسفى العربى أن نبحث فى فلسفة ابن رشد بحثا ينظر إليها من منظور يختلف عن ذلك المنظور الذى بحثت فلسفته على أساسه، وهو ذلك المنظور التقليدى الذى يبحث فيها من خلال مؤلفاته كفصل المقال ومناهج الأدلة وتهافت التهافت، من خلال بيان مدى اتفاقها أو اختلافها مع الجانب الدينى.

طريقه البرهان :

إذا كان ابن رشد - كما اتضح لنا - يؤيد أرسطو دون غيره فإن سبب ذلك أنه يحاول الارتفاع إلى مستوى البرهان - كما قلنا - ومحاولته الارتفاع إلى هذا المستوى البرهانى هو الذى جعله ينقد المتكلمين تارة والفارابى وابن سينا تارة أخرى، مبينا أن كثيرا من أقوالهم لاتعدو كونها طرقا إقناعية أو على أحسن الفروض طرقا جدلية، وكل من الطريقتين تعدان فى مرحلة أدنى من مرحلة البرهان.

نقول هذا اليوم ونؤكد على قولنا هذا. وطالما قلنا إن هناك كثيرا من النصوص التى تقطع بذلك قطعا لامجال للشك فيه. فهو يقول فى تفسيره لكتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو: «فليس بواجب أن نفحص فحصا بالغا عن أقاويل الذين حكمتهم شبيهة بالزخارف، بل ينبغى أن نفحص ونسأل الذين قالوا ما قالوا بالبرهان».

وإذا قال قائل بأن هذا القول فى مدلوله يعد قولا أرسطيا، فإننا من جانبنا نسوق قولا من تهافت التهافت لابن رشد يؤيد اتجاه فليسوفنا إلى البرهان. فهو يقول: «أعنى بالحكمة النظر فى الأشياء بحسب ما تقتضيه طبيعة البرهان»، كما يقول فى معرض تفضيله الطريق البرهانى على ماعداه من طرق أخرى: إن الأقاويل البرهانية قليلة جدا حتى إنها كالذهب الإبريز من سائر المعادن والدر الخالص من سائر الجواهر، كما يقول فليسوفنا أيضا فى معرض رده على الغزالى - إن الفلاسفة يبحثون على أساس هذا البرهان فهم قد طلبوا معرفة الموجودات بعقولهم لامستندين إلى قول من يدعوهم إلى قبول قوله من غير برهان. بل ربما خالفوا الأمور المحسوسة.

ابن رشد يقول هذا فى مؤلفاته. وقد استفاد ذلك كله من خلال شرحه لمؤلفات أرسطو. استمع إليه يقول فى تفسيره لكتاب الميتافيزيقا لأرسطو - فى معرض رده على علماء الكلام الذين هم أساسا فيما يرى أهل جدل لابرهان - يقول فليسوفنا: فإنه لما كان هذا العلم - سيقصد به نصرة آراء قد اعتقدوا فيها أنها صحاح، عرض لهم أن ينصروها بأى نوع من الأقاويل اتفق، سفسطائية كانت، جاحدة للمبادئ الأول أو جدلية، أو خطابية، أو شعرية، وصارت هذه الأقاويل عند من نشأ على سماعها من الأمور المعروفة بنفسها(1).

ونستطيع أن نستخلص من ذلك كله أن ابن رشد ينقد طريقين ويرتضى لنفسه طريقا ثالثا فهو ينقد الأدلة الخطابية - وهذا هو الطريق الأول - لأنها جعلت لأهل الإقناع الذين يسلكون المسلك الإقناعى فى جوانب بحثهم واعتقادهم.

وهو ينقد أيضا الأدلة الجدلية، وهذا هو الطريق الثانى - إذ إنها خاصة بالجدليين أصحاب علم الكلام. ونقده لهم أعنف من نقده لأصحاب المسلك الإقناعى. فهم لم يقفوا عند حدود الأدلة الإقناعية وما فيها من بساطة، كما لم يستطيعوا الصعود إلى مستوى البرهان، بل نقدوا مسلك كل من أهل الإقناع والفلاسفة.

أما الطريق الثالث - وهو كما قلنا إن ابن رشد يرتضيه لنفسه - فهو طريق البرهان وهو عنده خاص بالفلاسفة، أو ينبغى أن يكون كذلك. وابن رشد يؤيد المسلك البرهانى أو القياس البرهانى لأنه فيلسوف أصلا. والمبادئ التى يلتزمها أهل البرهان هى المبادئ العقلية والمنطقية التى لايستطيع أى فليسوف التخلى عنها فى بحثه فى قضايا الفلسفة.

إذا رجعنا إلى تلخيص ابن رشد لبرهان أرسطو، وجدنا ابن رشد يقول: إن البرهان يقرر أننا نعلم الشىء علما حقيقيا متى علمناه لا لأمر عارض على نحو ما يفعل السوفسطائيون بل متى علمناه بالعلة الموجودة لوجوده، وعلمنا أنها علته وأنه لا يمكن أن يوجد دون تلك العلة.

كما يذهب إلى أنه كان من الضرورى أن يفيد البرهان علم الشىء على ماهو عليه فى الوجود بالعلة التى هو بها موجود - إذا كانت تلك العلة من الأمور المعروفة لنا بالطبع - فإنه يجب أن تكون مقدماته صادقة، وأوائل، وغير معروفة بحد أوسط، وأن تكون أعرف من النتيجة وأن تكون علة النتيجة بالوجهين جميعا: أى علة لعلمنا بالنتيجة وعلة لوجود ذلك الشىء المنتج نفسه.

بالإضافة إلى أن هذه المقدمات تعرف بالعقل وهو الذى يدرك أجزاء

القضية المعروفة بنفسها، دليل هذا أن النتيجة الضرورية - فيما يرى ابن رشد - لاتكون إلا عن مقدمات ضرورية وإذا كان من شرط العلم الحق أن تكون النتيجة ضرورية، فإنه يجب أن تكون مقدمات البرهان ضرورية، أى غير مستحيلة ولا متغيرة.

نظرية المعرفة :

قلنا إن ابن رشد قد ارتضى طريقا للبرهان مستمدا أساسه من أرسطو وذلك من خلال شروحه، ثم حاول تطبيقه على المشكلات الفلسفية كافة. وهذا يؤدى بنا إلى التأكيد على القول بضرورة الاعتماد أساسا على الشروح، وبحيث إننا إذا وجدنا ثمة تعارضا بين قضاياه التى بثها فى تضاعيف شروحه وقضاياه التى ذهب إليها فى مؤلفاته، فإن الأساس عندنا هو الشروح لا المؤلفات، التى لايخفى - كما قلنا إن بعض ما فيها قد وضع لظروف وأسباب تاريخية.

وإذا كنا قد سقنا فيما سبق بعض الأقوال التى ذكرها ابن رشد والتى تهدينا إلى الطريق الذى ارتضاه، فإننا أيضا إذا رجعنا إلى الأسس الرئيسية التى تحكم نظرياته وجدنا صدق ذلك. بمعنى أنه من السهل علينا رد عناصر فلسفته إلى مبادئ استقاها عن أرسطو وتوصل إليها - كما قلنا - من خلال قيامه بالشرح والتفسير، مقدما لنا الدليل تلو الدليل على صحة ما ارتضاه وقرره، ويمكن أن ندلل على ذلك بأمثلة موجزة غاية الإيجاز قاصدين من ذلك، الدعوة إلى تجاوز ذلك الطريق التقليدى والذى طالما بحثت فلسفته على أساسه، ومن بينها نظرية المعرفة.

فهو مثلا فى هذه النظرية يتجاوز المعرفة الحسية ليصل إلى المعرفة العقلية، طبقا لما يقول به من تدرج الوظائف العقلية، وبناء على رأيه الذى يذهب فيه إلى أن المعقولات تستند إلى المحسوسات.

وهذا إن دلنا على شىء فإنما يدلنا على أن فيلسوفنا شأنه فى ذلك شأن أرسطو، يصعد من الحسى إلى العقلى ومن الجزئى إلى الكلى، فليس العلم علما للمعنى الكلى، ولكنه علم للجزئيات بنحو كلى يتمثل فى قيام الذهن بتجريد الطبيعة الواحدة المشتركة التى انقسمت فى المواد.

من هذه النقطة - فيما نعتقد - يبدأ ابن رشد فى بيان رأيه فى مشكلة غاية فى الأهمية لعبت دورا مهما عند فلاسفة ومتصوفة العرب، فإذا كنا نجد طريقين للاتصال: اتصال يبدأ بالمحسوسات حتى يصل إلى حصول المعقولات فى عقلنا، واتصال يعتمد على القول بأنه موهبة إلهية لاتتيسر إلا للسعداء، فإن ابن رشد يقول بالطريق الأول وذلك طبقا لمذهبه فى تدرج المعرفة الإنسانية من المحسوسات حتى تصل إلى المعقولات، أى يقول بتطور طبيعى للمعرفة منكرا طريق التصوف، وذلك - كما قلنا - يتمثل فى إعلانه أنه لا سبيل إلى الاتصال إلا بالعلم، أى عند النقطة التى تصل فيها ملكات الإنسان إلى أقصى قوتها.

العلاقات بين الأسباب والمسببات :

قلنا إن ابن رشد قد بحث فى مجالات وموضوعات عديدة وإذا أردنا أن ننتقل من البحث فى المعرفة إلى البحث فى الوجود عند ابن رشد، وجدنا أنه كما انتصر للعقل فى بحثه فى المعرفة، فإنه فعل ذلك حين بحث فى الوجود. لقد ابتعد ابتعادا تاما عن كل رأى لا يتفق مع العقل.

وإذا كان البحث فى الوجود يعد بحثا متشعب الجوانب، فإننا سنقتصر على بعض الشرائح أو الجوانب فى بحثه فى الوجود.

فالواقع أن الدارس للفكر الفلسفى العربى يلاحظ أن المفكرين الذين يتجهون اتجاها عقليا كابن رشد يقررون أن العلاقات بين الأسباب والمسببات تعد علاقات ضرورية، ولكن المفكرين الذين لا يعتمدون على العقل كالأشاعرة والغزالى يذهبون إلى أن العلاقة بين الأسباب والمسببات تعد علاقات غير ضرورية، بل ترجع إلى مجرد العادة، والله تعالى قادر على خرق العلاقات بين الأشياء لأنه تعالى يؤثر فى الأشياء بطريقة مباشرة وإرادته مطلقة غير مقيدة بضروريات فكل شىء ممكن بالنسبة له تعالى وكل حركة وكل تغيير مصدره الله. ومعنى هذا أن نفى القاعدة السببية يعد مبدأ من مبادئ الأشاعرة، بدليل ذهابهم إلى أن الله إذا أراد تغيير النظام الذى يبدو لنا فى الكون لاستطاع ذلك، وبدل العادة وخلق عرضا بدلا من عرض آخر، وهذا يؤدى بدوره إلى حدوث معجزة، إذ المعجزة ما هى إلا خرق للعادة.

هذه أدلة تنهض على نفى القاعدة السببية، أى عدم الاعتراف بالعلاقات الضرورية المحددة المعينة بين الأسباب ومسبباتها. وهم لهذا يؤكدون باستمرار على ما يسمونه بالعلة الأولى، أما مايسمى بالعلل القريبة فإنهم لا يعترفون بها؛ إذ من الممكن أن يحدث الشبع رغم عدم تناول الطعام ومن الممكن أن يحدث الجوع رغم تناول الطعام وهكذا إلى آخر هذه الأمثلة، ومعنى هذا أن ما يبدو من عمل العلل القريبة يعد من قبيل الوهم، لأن الله هو الذى يخلقها كما يخلق لنا ما يظهر من آثارها.

وإذا كان الأشاعرة يذهبون إلى نفى القاعدة السببية، فإن الغزالى قد تأثر بهم أكبر تأثر، بحيث إن موقفه فى هذا المجال يعد موقفا أشعريا قلبا وقالبا. فهو قد سار على نهج طائفة من كبار الأشاعرة كأبى الحسين الأشعرى والباقلانى، فيما يختص بقولهم إن

الاقتران بين ما يعرف بالسبب وما يعرف بالمسبب، إنما هو اقتران مرده إلى العادة، لا إلى الضرورة العقلية.

وقد عرض الغزالى موقفه الذى سار فيه على نهج الأشاعرة، فى العديد من كتبه كالمنقذ من الضلال وتهافت الفلاسفة، لكى يبين لنا أنه من الجائز مثلا وقوع الاتصال بين القطن والنار دون حدوث احتراق أو تحول القطن إلى رماد محترق دون ملاقاة النار.

هذا عن التيار الأشعرى الذى تابعه الغزالى، فما هو موقف فيلسوفنا ابن رشد؟ لقد اهتم ابن رشد اهتماما كبيرا بالبحث فى هذا المجال لأنه يتعلق تعلقا تاما بنظرته إلى الوجود. ونستطيع أن نقول إن نظرة ابن رشد لمشكلة السببية تعد - كما سبق أن ذكرنا - انتصارا للعقل، ويتمثل هذا الانتصار للعقل سواء فى الجانب النقدى الذى اهتم فيه ابن رشد بنقد الأشاعرة والغزالى، أو فى الجانب الإيجابى الذى عبر فيه عن موقفه، ولنقف الآن وقفة قصيرة عند هذا المجال، مجال السببية عند ابن رشد، حتى يتبين لنا كيف انتصر ابن رشد للعقل.

لقد كان ابن رشد حريصا على نقد رأى الأشاعرة الذين لم يعترفوا كما ذكرنا - بالعلاقات الضرورية بين الأسباب ومسبباتها. إن أقوالهم فى نظره تعد أقوالا سفسطائية ومخالفة لطباع الإنسان فى اعتقاداته وفى أعماله. ومن هنا يكون إنكار وجود الأسباب الفاعلة التى نشاهدها فى المحسوسات إنما هو من قبيل الأفعال السفسطائية.

ولكن ماذا يعنى ابن رشد بالأقوال أو الأفعال السفسطائية حتى ينقد الأشاعرة؟ إنه يعنى أننا نتصرف فى حياتنا بناء على أن لكل شىء طبيعة ثابتة. فطبيعة الماء هى البرودة، وشرب الماء لابد أن يؤدى إلى الارتواء. فإذا قلنا إنه لاتوجد علاقات ضرورية بين الماء والارتواء أو بين النار والحرارة فإن هذا يعنى أن أقوالنا لا تتفق مع تصرفاتنا وأفعالنا.

ومن هنا يذهب ابن رشد إلى إننا نجد لكل شىء طبيعة خاصة وفعلا معينا. فالنار مثلا إذا قربت من الشىء القابل للاحتراق ولم يكن هناك عائق يعوقها عن الإحراق، فإن هذا يؤدى إلى الاحتراق ضرورة.

ونود أن نشير إلى أن ابن رشد يبين لنا أن موقفه يعد موقفا متفقا مع الدين إذ إن الاعتقاد بالعلاقات الضرورية بين الأسباب والمسببات، والاعتقاد بأن لكل شىء طبيعة معينة وخاصية محددة، سيؤدى بنا إلى أن نتعرف على الحكمة الإلهية والعناية والغائية فى هذا الكون. يقول الله تعالى: «صنع الله الذى أتقن كل شىء» ويقول تعالى: «ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور».

قلنا إن نظرة ابن رشد فى هذا المجال تعد انتصارا للعقل، إذ إنه بعد أن قرر أن العلاقات بين الأسباب والمسببات تعد علاقات ضرورية ذهب إلى أن من يلغى الأسباب ولا يؤكد على وجودها فإنه يلغى العقل الذى يدلنا على أسباب الموجودات، إذ إن العقل ليس شيئا أكثر من إدراك الموجودات بأسبابها ومن رفع الأسباب فقد رفع العقل.

وبهذا ينتهى ابن رشد إلى الربط بين السبب والعقل، فالحكمة هى معرفة الأسباب التى تقوم على منطق العقل. ومن هنا لاتكون الآراء التى ارتضاها الأشاعرة لأنفسهم معبرة عن العقل، وهذا السبب الرئيسى الذى دفع ابن رشد إلى نقد موقفهم وكل موقف يشابه موقفهم معبرا عن انتصار العقل فى هذا المجال من المجالات الفلسفية التى يبحث فيها.

قدم العالم:

هذا عن مشكلة العلاقة بين الأسباب والمسببات، فإذا انتقلنا إلى مثال ثان من بين عشرات الأمثلة التى تنهض على تأييده الاتجاه الأرسطى ومحاولة الوصول إلى الطريق البرهانى اتضح لنا ضرورة الرجوع إلى شروحه بصفة خاصة.

هذا المثال يبدو فى أدلته على قدم العالم والتى فند بها اعتراضات الغزالى التى تقوم على القول بحدوث العالم.

ففى الدليل الأول نراه يؤيد مواقف الفلاسفة ويقيم دليله على فكرة الحركة الأرسطية. وهو بذلك قد ابتعد عن الطريق الجدلى والإقناعى حتى يصل إلى مرتبة البرهان بحيث يبدو لنا أن مفتاح فلسفة ابن رشد كلها إنما يتمثل فى هذه التفرقة بين الطرق الثلاثة مختارا منها الطريق الثالث الذى يعده أكثر الطرق سموا ويقينا وهو طريق البرهان كما قلنا.

أما الدليل الثانى فيقيمه على فكرة الزمان. وإذا تعمقنا فى دراسة هذا الدليل وجدنا تأثرا بأرسطو إلى حد كبير. إذ إنه يربط دائما بين آراء أرسطو وبين آرائه هو فى الطبيعة الضرورية لكل موجود.

وفى الدليل الثالث يناقش فيلسوفنا فكرة الإمكان أو الاحتمال ويذهب إلى دحضها تماما. وهو يتساءل عن المبرر والباعث على تجدد الموقف بالنسبه لله الذى لا يتغير أبدا.

أما فى الدليل الرابع والأخير فنجده يناقش فكرة وجود مادة أو محل قابل للشىء الممكن ذاهبًا إلى أنه لا يمكن أن يتكون شىء عن لاشىء فإن معنى التكون هو انقلاب الشىء وتغيره مما هو بالقوة إلى ما هو بالفعل. ولذلك لا يمكن أن يكون عدم الشىء هو الذى يتحول وجودا ولا هو الشىء الذى يوصف بالكون أعنى الذى نقول فيه إنه يتكون.

خاتمة :

إذا كان الفيلسوف العربى ابن رشد، قد انتقل إلى دار الخلود فى العاشر من ديسمبر عام ١١٩٨م، فإننا تخليدا لذكراه لابد وأن نشير إلى بعض الدروس التى يمكن الاستفادة منها فى حياتنا التى نحياها، أى حياتنا الفكرية، وذلك بعد أن أشرنا إلى بعض نماذج فكره كفيلسوف عربى، فإذا كنا نتحدث اليوم عن قضايا كالتراث والأصالة والمعاصرة والتجديد، وموقفنا من الحضارة الغربية، وموقفنا من العقل وعلاقته بتراث الأقدمين، أقول إذا كنا نتحدث اليوم عن هذه القضايا والجوانب، فإنه من الضرورى ـ فيما أرى من جانبى ـ الرجوع إلى تراث هذا الفليسوف ابن رشد، إذ إننى أعتقد أن الآراء التى قال بها تفيدنا غاية الفائدة فى تحديد موقفنا من أكثر هذه القضايا.

لقد قدم لنا هذا المفكر العملاق، نسقا فلسفيا محكما يعد تعبيرا عن ثورة العقل وانتصاره، وبذل فى التوصل إلى الآراء التى يتكون منها نسقه الفلسفى جهدا، وجهدا كبيرا. وإذا كانت بعض آرائه قد لاقت كثيرا من أوجه المعارضة سواء فى أوروبا أو فى بلداننا العربية فإنها قد لاقت الإعجاب أيضا. بل إن هذه المعارضة فى حد ذاتها تعد دليلا ودليلا قويا على أن آراءه كانت وما زالت آراء حية تعبر عن فكر مفتوح لافكر مغلق، وكان ابن رشد بهذا كله جديرا بأن يدخل تاريخ الفكر الفلسفى العالمى من أوسع وأرحب أبوابه.

ويقينى أن أى دارس لتاريخ الفلسفة العربية لن يكون بإمكانه، إذا كان منصفا وموضوعيا فى أحكامه تخطى أو تجاوز آراء هذا الفيلسوف الممتاز التفكير سواء فى جانبها النقدى أو جانبها الإيجابى. هذا الفيلسوف الذى قدر له أن يكون آخر فلاسفة المغرب العربى، بل آخر فلاسفة العرب، بالمعنى الدقيق لكلمة الفلسفة وكلمة الفيلسوف.

وإذا أردنا أن نبحث عن نقطة انطلاق لما نتحدث عنه اليوم من قضايا الأصالة والمعاصرة، وإذا أردنا وصل ما انقطع، أى أن نجد مستقبلا فلاسفة فى وطننا العربى، فلا مفر فيما يبدو لنا ـ من تدبر آراء هذا الفيلسوف ودراستها دراسة دقيقة، وكم فى فلسفته من آراء مازلنا فى القرن العشرين فى حاجة ماسة إليها.

ويكفى فيلسوفنا فخرا أن فلسفته كانت معبرة عن عظمة الفكر التى تتلاشى أمامها ولاتقترب منها أى عظمة أخرى. يكفى فليسوفنا فخرا أن فلسفته لم تكن محصورة فى نطاق العلاقة بين الدين والفلسفة، وكأنه أدرك أنه يجب النظر إلى الفكر الفلسفى فى حد ذاته وبصرف النظر عن اقتراب هذا الفكر أو ابتعاده عن موضوع العلاقة بين الدين والفلسفة.

إننا إذا نظرنا إلى ابن رشد كمجرد فليسوف إسلامى، فإن هذه النظرة تعد خاطئة قلبا وقالبا ولايصح أن نقلل من أهمية نقده للغزالى وكيف أن منطلقات ابن رشد، تختلف اختلافا جذريا عن منطلقات الغزالى فإذا حصرنا فلسفة ابن رشد فى النطاق التوفيقى فكيف نبرر إذن هجوم الغزالى ولجوئه إلى تكفير الفلاسفة؟.

إن ابن رشد إذا كان قد استفاد من فلاسفة اليونان وفلاسفة العرب فى المشرق العربى وفى المغرب العربى والذين سبقوه ومهدوا له الطريق، طريق العقل، إلا أنه قدم لنا مذهبا لا نستطيع أن نقول إنه يعد مجرد صدى لآراء من سبقوه، بل كان تعبيرا من جانبه عن آراء فريدة ودقيقة وناضجة صادرة عن منهج ارتضاه لنفسه هذا الفيلسوف الذى يعد ـ فيما نرى من جانبنا ـ أكبر عميد للفلسفة فى بلاد المشرق والمغرب معا وصاحب اتجاه يقوم على إعلاء كلمة العقل فوق كل كلمة.

غير مجد فى ملتى واعتقادى إهمال فلسفة وفكر هذا الفيلسوف. ومن الأمور التى يؤسف لها أننا فى عالمنا العربى لم نستفد بعد من دروسه الاستفادة الكاملة، هذا على الرغم من أن أوروبا قد استفادت من آراء هذا الفيلسوف واستوعبت دروسه جيدا. لقد أدت آراؤه العلمية والعقلية إلى التقدم الفكرى لأوروبا التى اخذت بآرائه فى حين تأخر الشرق بوجه عام لأنه كان عالة على الغزالى، هذا المفكر الذى حشر حشرا فى زمرة الفلاسفة وقال بآراء غير عقلية.

إننا يجب أن نأخذ عظة من التاريخ، أى الربط بين تقدم أوروبا وفكر ابن رشد من جهة، وتأخر الغرب والشرق وفكر الغزالى من جهة أخرى. فهل استفدنا جيدا من هذا الدرس؟ واقعنا الفكرى اليوم يقول إننا لم نستفد شيئاً.

إن عالمنا العربى اليوم من مشرقه إلى مغربه تسوده وتسيطر عليه اتجاهات غير عقلية، اتجاهات تدخل فى مجال اللامعقول، وما أحوجنا إلى أن نتذكر تماما دروس أعظم فلاسفة العقل عند العرب على وجه الإطلاق، وهو فيلسوفنا ابن رشد.

إننا نعانى اليوم من فقر فكرى واضح، نعانى من جدب عقلى، وأعتقد اعتقادا راسخا أنه بالإمكان تجنب هذا الفقر الفكرى والابتعاد عن حالة الجدب العقلى بالرجوع إلى فلسفة ابن رشد التى كانت معبرة كما قلت عن ثورة العقل، مؤيدة لانتصار العقل.

لقد ترك لنا ابن رشد كتبا ورسائل فى مجال الفقه، وقد بحث فى مجال الفقه من خلال منظور عقلانى. وقد آن لنا الآن ـ بعد أن وصلنا إلى حالة من التخلف الفكرى الرجوع إلى آرائه الفقهية، أو على الأقل الاستفادة من منهجه فى هذا المجال.

لقد اشتغل ابن رشد بالطب وترك لنا أكثر من كتاب ورسالة وقدم لنا كثيرا من الآراء العلمية فى هذا المجال. وإقدام ابن رشد على التأليف فى مجال الطب يدل على أنه كان يعتز بالعلم وما أحوجنا أن نستفيد من دفاعه عن العلم، فإن هذا أفضل لنا، إننا لو كنا فعلنا ذلك لما وجدنا ما يشيع الآن فى عالمنا العربى من تيارات تسخر من العلم، تسخر من الحضارة. إن هذه التيارات الخرافية واللاعقلانية إذا قدر لها الاستمرار والنمو، فسوف نصبح أضحوكة بين الأمم وستلحق بنا لعنة السماء.

لقد دعا ابن رشد من خلال أكثر كتبه إلى الانفتاح والاستفادة من أفكار الأمم الأخرى وما أحوجنا الآن إلى تلك الدعوة.

أقول أننا الآن فى أمس الحاجة إلى الاستفادة من دعوة ابن رشد إلى الانفتاح على أفكار الأمم الأخرى. عار علينا الاستماع إلى تلك الدعوات التى تصدر الآن عن بعض العقول الضيقة، عقول العصر الحجرى، والتى تصف لنا أفكار الأمم الأخرى بأنها تعد كبحر من الظلمات. نعم مازلنا نجد بيننا فى بلداننا العربية وفى الوقت الذى نحن فى أمس الحاجة إلى الانفتاح على علم الغرب وحضارة الغرب، أقول مازلنا نجد بيننا من يصور لنا الانفتاح الفكرى وكأنه كفر فهل بعد هذا نطمع فى التقدم، أى تقدم؟!

إننى أعتقد اعتقادا راسخا بأننا إذا كنا قد استمعنا إلى صوت العقل، صوت المنطق، صوت ابن رشد وهو ينادى فى كتبه بوجوب الإقبال على علوم الآخرين، وما كان منها صوابا قبلناه منهم، وما كان منها ليس بصواب، نبهنا إليه لكان الحال غير الحال، هذا ما قاله لنا ابن رشد وينبغى أن نستوعب هذا الدرس جيدا ومن الغريب أن هذا الصوت قد انطلق منذ أكثر من ثمانية قرون من الزمان، ولكننا صممنا آذاننا عن الاستماع إليه حتى وصلنا إلى تلك الحالة التى يرثى لها.

نعم لقد حذرنا ابن رشد من كل دعوة لا تقوم على العقل. نبهنا إلى مغالطات الأشاعرة مثلا كفرقة من الفرق الكلامية التى تعد مسئولة عن طرح العقل جانبا بل السخرية منه. فهل نفهم الآن ما نبهنا إليه. إننا لم نفهم شيئا فوقعنا فيما وقعنا فيه من الابتعاد عن العقل وإذا ابتعدنا عن العقل، فمعنى ذلك الوقوع فى اللامعقول، بل أقول الوقوع فى الخرافة والأساطير.

رحم الله ابن رشد الذى حذرنا من أخطاء ومغالطات مفكر كالغزالى. فهل استمعنا اليوم إلى تحذيره؟

إننا اليوم إذا كنا بين أمرين اثنين لاثالث لهما، إما الاحتكام إلى العقل وجعله الدليل والرائد، أو اللجوء إلى اللامعقول والخرافة، فيقينى أننا لابد وأن نختار الطريق الأول الذى دعانا إليه ابن رشد منذ أكثر من ثمانية قرون، دعانا إلى هذا الطريق منبها ومحذرا من مخاطر الطريق الثانى، الطريق المظلم، الطريق المسدود، الطريق المغلق.

وإذا أردنا لأنفسنا الحياة، إذا أردنا تجديد فكرنا الفلسفى والعربى، فينبغى علينا أن نستمع إلى صوت ابن رشد، صوت الأستاذ، صوت عميد الفلسفة العقلية فى عالمنا العربى. هذا ما نقوله اليوم ونحن نحلل هوية فكر ابن رشد، هوية فلسفتنا وكيف أنها أساسا تعد فلسفة عربية حتى لاننظر إليها من خلال المنظور التوفيقى، المنظور الذى باعد بيننا وبين الالتزام بخصائص الفكر الفلسفى. فهل ياترى سيجد هذا القول من جانبنا صداه، هل سيجد آذانا صاغية فى عالمنا العربى المعاصر من مشرقه إلى مغربه؟ ■

هامش :

١ - انظر تفصيل ذلك كله فى كتابنا «النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد» ص ٥٠ وما بعدها، وكتابنا: «المنهج النقدى فى فلسفة ابن رشد»، وكتابنا «تجديد فى المذاهب الفلسفية والكلامية»، وأيضا كتابنا: «ثورة العقل فى الفلسفة العربية».

نقد الخطاب

من الأيديولوچيا إلى المعرفة

علي مبروك

مدرس مساعد - آداب القاهرة - فلسفة

فمنذ اللحظة التى أدرك فيها الطهطاوى أنه لا سبيل إلى حصد جملة الأفكار - الليبرالية خاصة - التى تعرف عليها على الجانب الآخر من البحر؛ حيث أوروبا الناهضة ، فى أوصال عالمه الخامد إلا عبر تبريرها تراثياً، فإن الخطاب العربى المعاصر لم يعرف، وعلى مدى تاريخه، إلا مجرد التبرير - ومن خلال التراث بالطبع - لكل أشكال الأيديولوچيا التى راح يستعيرها ... ودائماً من الجانب الآخر للبحر. ولعل هذا الحضور التبريرى للتراث فى بنية الخطاب يكشف عن كون التراث ليس حاضراً لأجل ذاته، بل لأجل غيره. ولذلك فإنه (الحضور التبريرى) لم يستلزم وعياً بالتراث فى سياقاته المنتجة له، وبما يسمح بإعادة بنائه على نحو منتج، بقدر ما فرض إدراكًا له فى لا تاريخيته؛ أى عزلا له عن جملة هذه السياقات، كما يسهل انتزاعه منها لأداء الدور التبريرى الذى أناطه به الخطاب . ولقد كان ذلك يتحقق عبر عزل المفهوم فيه (فى التراث) عن شبكة المفاهيم المتضافرة معه، والتى لا فعالية له بمعزل عنها، ثم التمييز فيه بين شكل وبين مضمون (لابد من إهداره) ليبقى الشكل فارغًا وجاهزاً لتقبل كل أشكال الأيديولوچيا المستعارة. وهكذا ينتهى الحضور التبريرى للتراث فى بنية الخطاب إلى الإهدار الكامل له، وبحيث لا يبقى منه غير جملة قوالب وأشكال فارغة لا تقبل شيئًا سوى الترديد والتكرار. ولعل ذلك يكشف عن أن الحضور التبريرى للتراث هو علة الحضور الترديدى له، ومن هنا - لا شك - عجز الخطاب عن إنتاج معرفة حقيقية به، ودوام معرفته به، وحتى بأشكال الأيديولوچيا التى استخدم فى تبريرها، مجرد معرفة زائفة. إذ أن السعى إلى غرس هذه الأشكال الأيديولوچية، عبر

مجرد التبرير لا يجعل الخطاب بحاجة ـ أيضًا ـ إلى المعرفة الحقة بها، وأعنى الوعى بها فى سياقاتها التاريخية والمعرفية المنتجة لها، والتى لا فعالية لها خارجها.

لم يكن ثمة فى الخطاب، إذن، إلا مجرد السعى إلى الاستهلاك الأيديولوچى للتراث؛ وأعنى بذلك الانشغال بالبحث فيه عما يدعم توجها أيديولوچيا معينًا (ليبراليًا أو قوميًا أو حتى ماركسيا) ، أو الانشغال بأن يكون نفسه هو أيديولوچيا قائمة بذاتها، وتسعى الآن إلى فرض نفسها على الواقع باعتباره بديلا لكل أشكال الأيديولوچيا التى تراها غير أصيلة. ولكن هذا التوجه بالتراث إلى أن يكون أيديولوچيا بديلة لا يأتى نتاجًا للمعرفة الحقة به، بل يأتى نتاجًا لحضوره التبريرى أيضًا، ذلك أنه ـ كغيره من أشكال الأيديولوچيا الأخرى ـ يتبلور بوصفه ضربًا من المعرفة الزائفة بالواقع. وأعنى أن هذا التبلور لا يأتى نتاجا طبيعيًا لحركة الواقع وتطوره الخاص، وإنما ينشأ عن مجرد السعى إلى تبرير التخلى عن أشكال الأيديولوچيا المستعارة من الغرب، لحساب أيديولوچيا أخرى لا تختلف إلا فى أنها مستعارة من السلف، ولذلك فإنها لا تختلف عن غيرها فى كونها تبلورت واكتملت خارج الواقع، وجاءت تفرض نفسها عليه قهرًا. ومن هنا فإنها لا يمكن أن تكون أبدًا نتاجًا أصيلا له، لأن ذلك كان يقتضى منها استيعابًا شاملا للتراث واستدماجًا له فى صميم بنائها الخاص، توطئة لتجاوزه وتخطيه، وذلك على النحو الذى يتحول به عن وجوده الخاص إلى أن يكون موجودًا من أجلها بدل أن تكون هى الموجودة من أجله ، أى أن الأمر كان يقتضى إنتاجًا معرفيًا للتراث وتجاوزًا للاستهلاك الأيديولوچى له. ولأن ذلك لم يتحقق بعد، فإن التوجه بالتراث إلى أن يكون أيديولوچيا بديلة يبقى كغيره، مجرد ضرب من المعرفة الزائفة بالواقع؛ أعنى أنه يبقى وجهًا للأزمة ، لا تجاوزًا لها.

واللافت أن هذا الاستهلاك الأيديولوچى للتراث قد أحاله إلى عالم من الفوضى الشاملة، راحت معها الأيديولوچيات المتعارضة إلى حد التصادم تجد فى ذات التراث ما يدعم وجودها ويبرره. فبدا التراث ، هكذا حاويًا للشىء ونقيضه فى آن معًا ... لكنها هنا ليست نقائضه الذاتية التى تثرى وتغنى ، بل نقائض تفرض نفسها عليه من الخارج ، ولذلك فإنها أدنى إلى أن تهدر وتفقر. ذلك أن قانون ظهور هذه النقائض واختفائها ليس داخل التراث، بل يقع خارجه، ولهذا فإنها لا يمكن أن



الطهطاوى

تكون أبدًا دليلا على ثراء التراث وغناه.. حقًا يتكشف التراث بالفعل عن ثراء وغناء حقيقيين، ولكنه لا يأتى أبدًا من تلك التناقضات الهشة المفروضة عليه من الخارج، بل من تناقضاته الحقة التى ينتظمها، تاريخيًا ومعرفيًا ، قانونه الباطنى الخاص، الأمر الذى يجعلها تجلياً لثرائه لا فوضاه، وأما الاستهلاك الأيديولوچى الراهن للتراث ، فإنه لا يتكشف عن أى ثراء، بل عن الفوضى كاملة وشاملة ، وذلك من حيث أن تعدد الأيديولوچيات التى تتعلق عليه وتعارضها، ليس نتاجًا لتناقض حقيقى ، يجد قانونه فى صيرورة الواقع الباطنية، بل نتاجًا لتناقض مشوه ينتظمه السعى الدائب للخطاب إلى إنتاج معرفة بواقعه، لا يمكن إلا أن تكون زائفة، لكونها لا تتخذ نقطة بدئها من الواقع، بل تأتى كنماذج جاهزة معطاة تفرض نفسها عليه من الخارج، ولذلك فإنها تتجه إلى البحث فى التراث عما تدعم به وجودها ، وذلك من حيث لا تجد فى الواقع، أصلا أى سند لوجود أصيل . وهكذا يتبلور الدور الجوهرى للتراث فى مجرد تدعيم فوضى الأيديولوچيات السابحة فى فضاء الخطاب. وفى حدود هذا الدور فإن أحدًا لم يجد أية ضرورة لإنجاز فهم شامل للتراث فى شموله وكليته، واكتفى الجميع بالانتقاء النفعى من التراث، كل حسب موقفه الأيديولوچى. وإذ الانتقاء هنا توجهه الأيديولوچيا ، فإنه بات حتمًا على التراث أن ينطق بمضمون هذه الأيديولوچيا، وفى أكثر صورها حداثة، الأمر الذى أحاله إلى ساحة؛ راح كثيرون يسقطون عليها أوهامهم الأيديولوچية. والحق أن حضور التراث فى معية هذا الوهم الأيديولوچى ، يبدو ـ بدوره ـ مجرد حضور وهمى أيضًا، الأمر الذى يعنى أن الاستهلاك الأيديولوچى للتراث ـ والحداثة كذلك ـ لم يتمخض إلا عن

الوهم شاملا ومسيطراً... فلا هو أحيا تراثاً، ولا هو استنبت حداثة ، بل عاشهما أوهامًا، ولذلك فإن إخفاقه في إنجاز النهضة كان ذريعاً.

وعندئذ بدا لازمًا تجاوز هذا الاستهلاك الأيديولوجي للتراث إلى إنتاجه معرفيا، بعد أن بدا ذلك هو الشرط الجوهري لأن يكون التراث منتجاً لنهضة حقة. إذ النهضة الحقة لا يتأتى لها البتة أن تبدأ من خارج تراث الذات، ليس فقط لأجل كونه جماع خبرتها الماضية، بل ـ والأهم ـ لأجل كونه أحد أهم مكونات الواقع الراهن من جهة، ولأجل كونه كذلك المجال المعرفي الذي تكون فيه العقل المنتج للمعرفة الآن من جهة أخرى. ومن هنا فإن إنتاج معرفة علمية بالتراث ، هو ـ في جوهره ـ إنتاج للمعرفة الحقة، بكل من الواقع الراهن والعقل المنتج للمعرفة في حقله أيضاً.

ولقد بدا أن نقطة البدء في هذا الإنتاج المعرفي للتراث لابد أن تنطلق من نقد الاستهلاك الأيديولوجي له، وهو النقد الذي لابد أن يستحيل إلى ضرب من النقد الشامل للخطاب العربي المعاصر بأسره. إذ الحق أن آلية الخطاب في التعامل مع (الغرب) ، هي آليته نفسها في التعامل مع (التراث) ؛ وأعني أنه لم يتجاوز في تعامله مع الغرب أيضاً نطاق الاستهلاك الأيديولوجي له، مما يعني أن ثمة ثابتاً واحداً ينتظم علاقة الخطاب بكل من التراث والغرب معًا. ولابد هنا من الوعي بأن دلالة النقد تتجاوز المعنى الأفقر الذي يجعله مرادفاً للنقض والهدم، إلى معنى أعمق يكون فيه النقد ضرباً من التحليل المعرفي للخطاب ـ أي خطاب ـ يتغيا الكشف عن نظامه الباطن، وكذا عن جملة الآليات والعمليات الباطنية التي أنتجته، والتي لا تكون موضوعا لتفكير الخطاب نفسه ، ويمتنع بالتالي أن تكون موضوعاً لوعي حامليه.

وهكذا يتجاوز النقد ـ هنا ـ منطق الإدانة الأيديولوجية الساذج، إلى الحفر المعرفي، فيما تحت سطح الخطاب وتشكلاته المتباينة في الظاهر، سعياً إلى المسكوت عنه واللا مفكر فيه، وأعني به ذلك الذي ينتج الخطاب دون أن ينطق به أبداً. بل لعل الخطاب يجتهد في إخفائه سعياً إلى إطالة أمد بقائه، لأن عدم الوعي بهذا المسكوت عنه لن يؤدي إلا إلى إعادة إنتاج الخطاب نفسه، ولكن في صور وتحت أقنعة أخرى. ويبدو أن الوعي بهذا المسكوت عنه يبدأ من الوعي بالكيفية التي يؤسس بها الخطاب علاقته بكل من التراث والغرب، وهما معًا مصدر كل النماذج والتشكيلات الجاهزة التي راح الخطاب يستعير منها كل ضروب معرفته بواقعه، والتي جاءت ـ لكونها تكراراً لا إبداعاً ـ معارف زائفة لا تنتج إلا المزيد من التبعية والعجز. ولعل ذلك يكشف عن أن مأزق الخطاب لا يكون من التراث أو الغرب، بل من كيفية تأسيسه لعلاقته معهما. ومن هنا فإن كلا من الغرب والتراث لا يمكن أن يكونا موضوعاً للنقد، بل النقد يتعلق بكيفية حضورهما في الخطاب استهلاكًا وتكراراً، لا استيعاباً وإبداعا.

ومن هنا فإن «نقد الخطاب الديني» مثلا، لا يمكن رده إلى مجرد ضرب من النقد الأيديولوجي الذي يتغيا تقويض أيديولوجيا الخطاب لحساب أيديولوجيا بديلة ـ وهذا ما فعله كثيرون للأسف ـ بل هو ضرب من التحليل الأبستمولوجي للخطاب يتغيا الكشف عن مجمل الآليات الباطنية التي أنتجته، والتي يجتهد ـ كأي خطاب ـ في إخفائها ، سعيًا إلى إطالة أمد بقائه، والكشف ـ كذلك ـ عن الثابت أو البنية العميقة التي تنتظم كل ما ينتجه الخطاب من معارف وتصورات وتهبه المعقولية والتفسير. ولعل الإلحاح، في مواجهة هذا التحليل الأبستمولوجي للخطاب ، على إعادة إنتاجه أيديولوجياً، ليكشف عن دوام الاستغراق في أحبولة اللجاج الأيديولوجي الذي شغل ساحة الخطاب العربي المعاصر وأعجزه عن إنجاز أي تقدم، ولذلك يتجه الجهد إلى تجاوزه الآن. ولكن ذلك لا يعني أن التحليل الإبستمولوجي للخطاب ـ أي خطاب ـ يتكشف عن الغياب التام للأيديولوجيا ، بقدر ما يكشف عن كون الأيديولوجيا لا تصلح أبداً نقطة بدء في أي تحليل يستهدف كسر الخطاب وتجاوزه، وليس إعادة إنتاجه في صور وأقنعة أخرى. إذ الحق أن زحزحة الخطاب وتجاوزه تستحيل البتة إلا بالحفر ـ فيما وراء الأيديولوجيا عند سطحه ـ عن الإبستمولوجيا المنتجة له. وضمن هذا السياق الإبستمولوجي فإن الأمر فيما يتعلق بـ «نقد الخطاب الديني» يتجاوز ـ لا ريب ـ كونه مجرد صراع بين أيديولوجيتين أحداهما تتنكر للتراث، والأخرى على وفاء له، إلى كونه صراعا بين أبستمولوجيتين نقيضتين أنتجت كل منهما طريقة في التعامل مع التراث. إحداهما تكرره والأخرى تبدعه؛ أو إحداهما لم يزل يستغرقها استهلاكه أيديولوجيًا، بينما الأخرى تستهدف إنتاجه معرفيا.

ثمة إذن ضربان من الإبستمولوجيا: إحداهما ترى التراث ذاتاً لا تملك إلا أن تتوحد معها أنطولوجياً. وبالرغم من أنه يستحيل إلا التواصل مع التراث، إلا أن التوحد الأنطولوجي معه، يحيل تماماً إنتاج أي معرفة به، ويؤول فقط إلى مجرد تكراره. وهذا التكرار يجد ما يؤسسه في الإهدار الكامل لتاريخيته إلى حد تكريس ضرب من التماهي بينه وبين المطلق ذاته. إذ التراث ـ والحال كذلك ـ لا يمكن أن يكون موضوعًا للمساءلة والحوار، بل نموذجًا للاحتذاء والتكرار، والحق أن التماهي بين التراث وبين

المطلق (أو الدين) هو ما يمنح التراث والإبستمولوجيا المتوحدة معه، بالتالي، ما تبتغيه من سلطة مطلقة تغدو معها مركزاً للحقيقة، وأصلا يرد إليه كل ما في العالم من ظواهر، ومن هنا فإن تكريس السلطة المطلقة للتراث ليس أكثر من قناع تسعى من ورائه هذه الأبستمولوجيا - التي صارت بدورها قناعاً لأيديولوجيا معينة - إلى تكريس سلطتها الخاصة، وإلى الحد الذي لا يكون فيه أي خروج عنها، مجرد خروج عن التراث، بل خروجا عن المطلق ذاته.

والحق أن هذا التوحد الأنطولوجي مع التراث كان - في سياقه الخاص - آلية دفاعية راحت معها الأمة تحتمي بتراثها إلى حد التوحد معه، وذلك في مواجهة التحدي الغربي الساحق، حتى لقد بدا أنه كلما ازداد إحساس الأمة بخطر الانسحاق أمام الغرب، ازداد توحدها مع تراثها. لكنه بدا الآن أن التكرار الساذج للتراث - الناتج عن التوحد الأنطولوجي معه بالطبع - قد آل بالأمة إلى عجزها الشامل الذي تنسحق تحت وطأته، فبات لازماً تجاوز هذه الأبستمولوجيا إلى أخرى تستطيع، بفضل تواصلها مع التراث - لارغماً عنه، أن تراه موضوعاً للمعرفة، وليس نموذجًا للتكرار. وهكذا فإنه لا توحد هنا مع التراث، بل سعي إلى قراءته في كليته وشموله، قراءة تجتهد في رصد بنيته العميقة التي تنتظم كل ما يسبح في فضائه من تصورات ونتاجات معرفية، يرافق ذلك السعي إلى رده إلى سياقه التاريخي الذي أنتجه، وذلك في سبيل استيعابه كلياً في بناء الذات الراهنة توطئة لتجاوزه وتخطيه بالطبع. وهكذا فإنه لا سبيل - في إطار هذه الإبستمولوجيا - لأي ضرب من التماهي مع التراث، أو بينه وبين المطلق، تماهيًا يستحيل معه التراث إلى سلطة مطلقة لا سبيل بإزائها إلا للتقليد والترديد، بل ثمة الوعي بالتراث في أفقه المعرفي والتاريخي الخاص، وعيًا يصبح فيه التراث تجربة مشروطة بالسياقات التي أنتجتها معرفيًا وتاريخيًا، ولذلك فإنه لا سبيل لتكرارها، بل لتخطيها وتجاوزها، بوصفها تجربة مشروطة، ولكن ذلك لا يكون البتة باستبعادها، بل باستيعابها واستدماجها في بناء الذات استدماجاً تتحول معه من وجودها الخاص إلى وجود من أجل الذات. وإذن فإنه ليس ثمة، هنا، تنكراً للتراث، لأن ذلك مما يستحيل مطلقًا، بل التنكر لإبستمولوجيا تنتجه تكراراً وتزايداً، ولكنها إذ تتماهى مع التراث - ومن خلاله مع المطلق ذاته - ترى في هذا التنكر لها لا تنكراً للتراث بل تنكراً للمطلق أو الدين نفسه.

لقد بدا إذن أن النقد يتعلق، لا بالتراث، بل بالكيفية التي يؤسس بها الخطاب علاقته معه. وإذ سبقت الإشارة إلى أن هذه الكيفية للعلاقة مع التراث، تكرارا واستهلاكا له، تؤسس لعلاقة الخطاب العربي المعاصر بأسره - وليس فقط للشكل الديني على سطحه - مع الآخر (غربا وسلفا)، وعلى نحو بدا معه العقل المنتج للمعرفة في إطار الخطاب بأسره لا يعرف إلا مجرد تكرار الآخر واستهلاكه، فإن ذلك قد اقتضى ضرورة نقد هذا العقل وكشف آليات إنتاجه للمعرفة، مما استلزم نقداً للتراث، لا بما هو كذلك، بل بوصفه حقلا تكوّن فيه العقل إذ كان يكوّنه وينتجه. وهنا أيضًا لن يكون النقد نقضا بل تحليلا معرفيًا يكشف الآليات المنتجة والبنيات العميقة.

ولعله يجدر البدء، هنا، من أن ثمة ثراءً حقيقيًا يكشف عنه التعدد اللافت للخطابات في فضاء التراث (في لحظة ما على الأقل)، وأن هذا التعدد يعكس ثراءً معرفيًا يتجلى في تباين الكيفيات التي راح كل واحد من هذه الخطابات يؤسس بها علاقته مع (النص) الذي يعد مركزا للتراث بأسره. والمؤسف أن هذا التعدد سرعان ما تم إهداره لحساب خطاب وحيد راح يحقق هيمنته - نظرياً - عبر التماهي مع ما يتصوره «الإسلام الحق»، وواقعيًا، عبر التوحد مع سلطة راحت تكرس هيمنته في مواجهة الخطابات المناوئة، بقدر ما راح - بدوره - يكرس هيمنتها في مواجهة خصومها. فبدا وكأن الإقصاء الأيديولوجي للمعارض / الخصم، يكتمل بالإقصاء الأبستمولوجي للخطاب / الخصم؛ وأعني أن اهدار التعدد على صعيد الأيديولوجيا يوازيه - ولعله يسبقه - إهداره على صعيد الإبستمولوجيا. ولا شك في أن إقصاء الخطابات المناوئة للخطاب المهيمن يوازيه الإقصاء لكل الكيفيات التي تؤسس بها تلك الخطابات علاقتها مع النص، لتبقى الكيفية التي يؤسس بها الخطاب المهيمن علاقته مع النص، هي وحدها المنتجة - فيما يخايل - لدلالة النص الحقة، وأما الكيفيات الأخرى، فإنها - كخطاباتها المنحرفة - لا تنتج إلا الضلال والهرطقة. وهكذا يبدو الصراع في جوهره، ليس صراعاً حول النصوص، بل حول كيفية إنتاجها. إذن فالأمر هنا لا يتعلق أبداً بأي تنكر للنص ذاته، بل التنكر لكيفية ما في إنتاجه. حقا يبدو أن الخطاب المهيمن، حين راح يحقق هيمنته عبر التماهي مع ما يتصوره «الإسلام الحق»، كان يؤسس، في الوقت نفسه، لعلاقة تماهي النص ذاته، الأمر الذي راح معه ينظر إلى نفسه، لا بوصفه مجرد اجتهاد على النص، بل بوصفه النص نفسه، فبدا التنكر لعلاقته بالنص - تبعًا لذلك - تنكراً للنص ذاته، ومع ذلك فإنه يبقى التمييز لازمًا بين التنكر للنص وبين التنكر لطريقة في إنتاج دلالته. واللافت أن هذا الخطاب المهيمن، إذ يؤسس علاقته بالنص تماهيًا معه، لا يستطيع أن يعرفه أو يفجر دلالاته

الأعمق، وفقط يستطيع أن يكرره دون أن يتجاوز فى تكراره دلالاته المباشرة الفقيرة. ذلك أن يرى النص عالماً من المعانى مستقلا وقائماً بذاته، الأمر الذى يجعل إنتاجه للدلالة مرتبطاً فقط بجملة عناصره اللغوية، ودون أية إحالة إلى أى سياقات أخرى خارجه. وليس من شك فى أن هذا الإهدار للسياقات خارجه لا يمكن أن ينتج - مهما كان ثراء اللغة - إلا الدلالة الأفقر، لأنه إذ يحيل تفاعل النص - فى القراءة - مع العالم خارجه، لا يملك إلا أن يكرره. ورغم ما فى التكرار من الإهدار لفاعلية النص وإفقاره، فإن الخطاب كان حريصاً عليه، لأنه يكرس دوام هيمنته وتأبيدها.

ومن حسن الحظ أن هذا الإهدار للسياق فى إنتاج دلالة النص ومعناه، يتعارض مع الواقعة الجوهرية التى يبدو فيها النص وقد تشكل - أثناء التنزيل - فى سياق علاقة حميمة مع الواقع، الأمر الذى يعنى أن دلالته - أثناء التأويل - لا يمكن أن تكشف أبداً إلا فى سياق العلاقة ذاتها مع الواقع بأبعاده كافة، وأعنى أن النص هنا ينتج دلالته من تفاعل جملة العلاقات التركيبية اللغوية (داخله) بالسياق الثقافى الاجتماعى التاريخى (خارجه). وإذن فإن ثمة طريقتين فى إنتاج دلالة النص: إحداهما ترى الدلالة نتاجاً لعلاقات عناصره اللغوية، دون إحالة إلى شىء خارجه، (ولعلها تنطلق من نظرية فى المعنى يكون فيها أقرب إلى المعطى المطلق)، والأخرى تراها نتاجاً لتفاعل العلاقات اللغوية (داخل النص) بجملة السياقات التاريخية والثقافية خارجه، (ولعلها - بدورها - تنطلق من نظرية فى «المعنى» يكون فيها أدنى إلى التكوين التاريخى) وفى حين يبدو النص - تبعاً للأولى - سلطة قاهرة تتنزل بمطالبها على الواقع قسراً، فإنه يبدو - تبعاً للأخرى - إطاراً يسع حركة الواقع ويتسع بها كذلك.

ضمن هذا السياق تأتى قراءة «الشافعى» - أو غيره - لا تطاولا عليه فيما حسب البعض، بل كشفاً للكيفية التى يؤسس بها - وهو الأصولى الرائد - للعلاقة مع النصوص. ومن غير شك فإن التنكر للكيفية التى يؤسس بها للعلاقة مع النصوص، لا يعد البتة تنكراً للنصوص، بقدر ما هو السعى إلى علاقة جديدة معها تتجاوز مجرد التكرار والاجترار، إلى الفهم والحوار، وأحسب أن ذلك السعى ليس مشروعاً فقط، بل لعله واجب أيضاً، وخصوصاً فى ظل الأزمة الشاملة التى تنسحق الأمة تحت وطأتها الآن. ■

لعبة النصوص

وائل غالى



فـ إنّ الفلسفة هى نوع من أنواع الفكر التجريدى النظرى العام وليس أشد أنواع الفكر تجريدا نظرياً.

ومن المؤكد أنها «تعبّر» عن الواقع الاجتماعى العينى و «تعيد إنتاج» هذا الواقع حسب قوانين تفكيرها الخاصة. إلاّ أنها تساهم بالقدر المتغير فى صناعة هذا الواقع الاجتماعى. وبالتالى فالفلسفة أو الفلسفات مرآة الواقع ولحظة تكوينية للواقع فى الوقت نفسه أو فى وقت مغاير. وهى مستوى من بين العديد من مستويات بنية الواقع. إنّ الفلسفة لا تملك بنية، لا بنية منهجية ولا استقلالا بنيويا.

والبنية إنما هى بنية الواقع التى تنعكس فى الفلسفة وتشارك الفلسفة بدورها فى صياغة هذه البنية.

لذلك فليست الفلسفة صراعاً طبقيًا ووطنياً وقومياً فى النظرية. ولا يمكن فى الوقت نفسه أن نقبل بفلسفة القطيعة والانفصال التى تحتوى عليها مقولة البنية وأن نقبل التفسير الطبقى والوطنى والقومى للفلسفة والمقصود هو أن الصراع الفلسفى ليس صراعا فلسفياً فحسب. لكنه أيضا ليس صراعاً سياسياً.

والحديث عن الاستقلال الفلسفي البنيوى لا يتماشى مع الطبيعة الطبقية - السياسية للصراع الفلسفى، لأنه إذا كانت الفلسفة تبنى بنية فهذا يعنى بأنها منفصلة عن الواقع. إذن وحدة الواقع تشكل بنية مستقلة عن الفكر، هذه البنية تحوى بداخلها لحظة فلسفية. ولحظة تفلسف الواقع إنما تتم على النحو التالى: انكسار لصورة الواقع فى الفكر وانكسار للصور الفكرية فى الواقع. البنية هى بنية الواقع تنعكس فى الفلسفات وتنعكس الفلسفات فيها. والاستقلال أو الخصوصية إنما هى عملية يستقل خلالها الواقع عن الفكر. ولحظة تفلسف الواقع إنما هى متداخلة تداخلا حميميًا مع صياغة

اللحظات الأساسية الأخرى كاللحظة الاجتماعية واللحظة التاريخية واللحظة السياسية واللحظة الأيديولوجية. وسواء أكانت اللحظة فوقية أو كانت تحتية، فهى فى جميع الحالات أو أغلبها على الأقل ماثلة أبداً فى بنية الواقع. وهكذا فليس التاريخ كما توهمنا هو المالك الوحيد الأوحد للدلالة النهائية الذى لا يشاركه فيها أحد. كما أنه ليس الاجتماع وحده هو الجوهر القاطع لبنية الواقع. وليست وظيفة الواقع مؤدلجة فى حدا ذاتها. وليس المنهج ولا المعرفة هما السلاح الأمثل الذى علينا أن نتسلح به لكى نمسك بخيوط الواقع. وإنما بنية الواقع تتشكل أحيانا بمضامين تاريخية وأخرى اجتماعية وثالثة أيديولوجية ورابعة فلسفية.. وهكذا دواليك.

والقضية الثانية فى كتابة تاريخ الفلسفة إنما هى قضية المحافظة على زمنية الفلسفة ونفى هذه الزمنية. والواقع أن للفلسفة ماهية ثابتة ومتغيرة بتغير الجواهر الفكرية المفهومة. ومن شأن ماهية الفلسفية الثابتة المتحركة مع تحول الظروف والعقول أن تحفظ للفلسفة خواصها الجوهرية وأن تلتقط تحولات المذاهب والنظم فى لحظة الثبات والتحول.

فماهية الفلسفة ليست مفارقة لزمنية الزمن بالضرورة وإنما التحول جوهرى أيضا. والفكر. والفكر الثابت هو متغير فى أوقات متباعدة متقاربة. والفلسفة قائمة أبدا متقلبة حسب تقلب المرجعيات الأصلية وانفتاح المنظومات المغلقة. هذا هو فى تقديرى قانون تطور الفلسفات عبر السنين.

ولمَ يعرف العالم العربى منذ حصوله على الاستقلال السياسى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم أن يستقل استقلالا فكريا يجاوز محاكاة الفكر الغربى. أو قل هو مازال يحاول أن يحاكيه فى أضيق الصور. ولم يستقل الفكر العربى حتى فى صياغته للعقائد الاجتماعية فى الأيديولوجيات الوافدة التى صاحبت انخراط الشعوب فى مسيرة التنمية المستقلة فى انتظار الاستقلال الفكرى المتوقع أن يتشكل فى فكر متفرد وخاص.

ويكاد يبدو العالم العربى اليوم وكأنه يشعر بحاجة ماسة إلى إبداع فكرى جديد يقصد العام ويجاوز المقولات العنصرية والرأسمالية والشمولية التى سقطت فيها الفلسفة الغربية المعاصرة. وحتى عند بعض الشعراء الكبار نجد هذا الهاجس. والافتراض الذى افترضه وأخضعه هنا للاختبار هو أنه لم يحدث قط أن حاكى الفكر الغربى لأنه لم يكن فى مقدوره أصلاً أن يحاكى الفكر العربى الفكر الغربى لإنه لم يكن فى مقدوره أصلا أن يحاكيه لعدة أسباب جوهرية أساسها السياق التاريخى الاجتماعى الخاص والمكونات الشخصية المتفردة. ومن بين هذه المكونات الشخصية الحاسمة العامل الدينى.

والباحث فى هذه الدراسة يقوم بتحليل الفلسفة والدين فى المجتمع العربى المعاصر، عند فؤاد زكريا، الذى هو الفصل الثانى من القسم الأول من «مشروع الفلسفة العربية المعاصرة»، فى **الفلسفة فى الوطن العربى المعاصر**، بحوث المؤتمر الفلسفى العربى الأول الذى نظمته الجامعة الأردنية وأصدره مركز دراسات الوحدة العربية عام ١٩٨٥. وفى بداية الدراسة يبنى الباحث تصوره لطبيعة العلاقة المعقدة بين الدين وبين الفلسفة فى شكلها العام. أما النقطة الثانية التى يتوقف عندها فهى تحليل الصراع العربى المعاصر الدائر بين الدين والمقاربة الفلسفية. وينتهى فى النقطة الثالثة إلى تحليل المقاربة الفلسفية العربية المعاصرة للدين. ويختلف الباحث أساساً مع د. فؤاد زكريا فى ميدان تحديد الصلة التى تربط الفلسفة بالدين. وبالتالى فهو يختلف مع النتائج التى يستقيها فؤاد زكريا فى علاقة الفلسفة بالدين فى صورتها العامة.

لو تأملنا الصلة التى تربط الفلسفة بالدين لبدت لنا أنها مزيج من الاختلاف

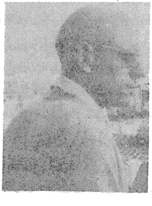
طه حسين



نصر حامد أبو زيد



ميشيل فوكو



والاتفاق أو أن قاعدة هذه الصلة على مدى فترات تاريخها المتبادل إنما هي قاعدة اتفاق الاختلاف والاتفاق. ذلك أن الفلسفة ظلت تبدل اهتماماتها ومشكلاتها وموضوعاتها ومناهجها الأساسية. ليست جميع الفلسفات كما نتصور دائما بحثاً في أصل الكون ونشأته وليست الغاية التي تتجه إليها الفلسفة واحدة وحيدة لا تشاركها نهايات أخرى ومقاصد أخرى متباينة، وليست جميع الفلسفات إنسانية في حد ذاتها. قد تكون العقيدة الدينية محور التفكير الفلسفي - وقد حدث - لكن العقيدة الدينية في حد ذاتها ليست المحور النهائي القاطع الجازم للفلسفة سواء أكانت هذه العقيدة الدينية سماوية أو غير سماوية. ومن ثم فإن اهتمام الفلسفة متحول حسب تحول الزمان والمكان والسياق المعرفي والهوية الفكرية لكل فيلسوف وكل مجتمع.

كذلك فإن ميدان اهتمام الدين متغير أيضا بتغير من يدينون به أولا وبتغير المجتمع الذي تظهر فيه. وقد تقاطع خط سير الفلسفة أحيانا مع خط سير الدين عبر العصور وتوازى أحياناً أخرى وتباعد أحيانا ثالثة وتقارب أحياناً رابعة.

لم تكن الصلة التي تربط الفلسفة بالدين عدائية من حيث الجوهر ولا انسجامية من حيث المبدأ. واعتقادي الراسخ أن الفلسفة والدين صاغا ومازالا يصوغان وحدة نظرية عامة من المنافسة والمحبة. وحدة نظرية تتسع للاثنين معا وحدة أحادية الجانب بالطبع لأنها فلسفية الجوهر.

صحيح «أن قصة العلاقة بين الفلسفة والدين قصة طويلة شديدة التعقيد، لم يكن المسار فيها واضحاً مستقيماً، بل كان يسير في معظم الأحيان في خطوط شديدة التعرج والالتواء.» (ص٤٣).

وصحيح أيضا أنه ليس من مهمة الفيلسوف أن يتتبع الصلة التي تربط الفلسفة بالدين تتبعاً تفصيليا إلى أقصى تعقيد. إلاّ أن السبب الأكبر الذي أدى إلى اندلاع الحرب بين الفلسفة وبين الدين لم يكن سببا شكليا فحسب وإنما هو سبب شكلي ومضموني في الوقت نفسه. فالأفكار (المضمون) التي ينادي بها الفيلسوف يصوغها (الشكل) صياغة هي نفسها فكرية. أمام من يدين بدين من الأديان فلا ينادي بفكر وإنما ينادي بعقيدة وشتان بين الفكر وبين الدين أوالعقيدة. ثم إن طريقة التفكير أو المنهج قضية علمية أو فلسفية لكنها ليست قضية أي دين عن الأديان. فقد ولدت مشكلة المنهج في سياق تعثر مسيرة العلوم الطبيعية الحديثة ولم تنشأ في سياق الأديان.

كما أن النقد والإيمان حركتان فكريتان دفعتا التفكير الفلسفي والاعتقاد الديني على السواء. وليس النقد خاصية تخص الفلسفة وحدها دون غيرها. كما أن الإيمان ليس خاصية تخص الدين وحده. فالفلسفة تسلم سلفًا بالعديد من المسلمات قبل أن تشرع في إعادة النظر فيها جميعًا. هي تسلم سلفا بمسلمات «المنطق الدقيق» (ص٤٣).

والاعتقاد الديني الواحدي ينسف ويحفظ الاعتقادات الكثيرة الأخرى السابقة عليه واللاحقة معًا. فالاعتقاد ليس نقيض المناقشة بمعنى أن الاعتقاد الواحدي يقدم على القطع مع الاعتقادات الغيرية. التناقض منحوت في جوهر الاعتقاد رغما عنه.

وأما الفلسفة فتقبل سلفا ببعض البديهيات الحاسمة قبل أن تشكك، وبعد التشكيك تصل في نهاية الحجة إلى التصديق بأوليات جديدة لم تكن مطروحة قبل ذلك. وقد تكون البديهيات دينية وقد لا تكون كذلك. لكنها في جميع الأحوال حاضرة في الحجة الفلسفية .مما يعني أن المراجعة الشاملة لجميع المسلمات ليست السمة الحاسمة للفلسفات كافة. لأن كل فيلسوف يتمسك بمنهجه الخاص بطريقة متسقة وحسب (ص٤٤).

ولا يكمن الفارق الجوهري بين المجال الفلسفي وبين المجال الديني في أن الفلسفة عقلية بالطبع وأن الدين السماوي وحي إلهي، وإنما الفرق الأساسي بينهما هو في التوحيد الخاص لكل منهما للعقل الإنساني والوجداني. ففي الدين قدر من العقل.

وفي الفلاسفة كثيرون ممن زعموا أنهم من سلالة الأنبياء وأنهم يمتلكون الحقيقة الواحدة المطلقة، من هو الفيلسوف الذي لم يقدم تفسيراته باعتبارها التفسيرات الواحدة الصحيحة النهائية؟ من هذا الفيلسوف الذي لم ير في الفلسفة الأخرى مروقا وزندقة أو بدعة على أقل تقدير؟

وأما الاعتقاد الديني السماوي الوحداني فيراجع أسس غيره من العقائد ومبادئها الأولى، حيث ترقى إلى مرتبة الصورة الناقصة للوحي الأصلي الذي يحويه هو وحده دون غيره.

وهكذا تتبادل الفلسفة والاعتقاد المواقع، فبينما المنافسة بين الفلسفات تكون أحيانا تعميقا.. (ص٤٦) وأحيانا أخرى «تشويها» يقتضي التكفير والتحريم التجريم، يؤدي تبدل الاعتقاد الديني الوجداني وغير الوجداني إلى تبديل يرقى أحيانا - وليس دائما - إلى التعميق المتبادل بين مختلف أنماط الاعتقاد.

والحقيقة المؤلمة التي لا مناص لأي كاتب من أن يسلم بها هي أن المجتمع العربي ظل يمنع الفلسفة من أن تناقش «المسائل الدينية بطريقتها الخاصة وعلى أرضها هي» (ص٤٦). وظلت إلى الآن عاجزة عن مراجعة الأسس الدينية الأولى ونتائجها جنبا إلى جنب مع التقليد

الراسخ فى «التسلط السياسى والاستبداد فى الحكم» (ص٤٦).

وهكذا أصبحت النصوص هى المسلمات الأولى التى يتوجب على الفيلسوف أن ينطلق منها على أقل تقدير. ويرى د. فؤاد زكريا عيبين فى هذا النوع من المسلمات التى تفرض التفكير الفلسفى من خارج عملية التفكير نفسها: «أولهما أن الفكر الفلسفى حين يلجأ إلى المواجهة من خلال النص يكون قد اعترف بأنه ألقى سلاح العقل والمنطق، أعنى أنه اتخذ موقف المهزوم الذى سلم مقدما بأنه خسر أهم أرض يرتكز عليها. فهو حين يفترض أن النص لا يقبل المناقشة، وحين يدعم موقعه الخاص من خلال نصوص يواجه بها تلك النصوص الأخرى التى يلجأ إليها الطرف الآخر، إنما يكون قد سلم مقدمًا بأن النص هو المرجع غير القابل للمناقشة العقلية، وأنه هو الذى يمثل حقيقة مطلقة تتجاوز المنطق والعقل، وهو تسليم ينطوى ضمناً على اعتراف بأن العقل النقدى قد توقف عن ممارسة عمله. أما العيب الثانى، الذى يرتبط بالأول ويترتب عليه، فهو أن هناك تناقضا داخليًا فى المحاولة ذاتها: أعنى فى أن تلجأ إلى سلطة النص لكى تستخلص منها موقفًا عقلانيًا يسمح بالمناقشة المنطقية المفتوحة ذلك لأن هذه المناقشة المنطقية، إذا شاءت أن تكون متسقة مع ذاتها، ينبغى أن تكون (من الوجهة النظرية على الأقل) قادرة على التصدى للنص ذاته، بحيث لا تكون هناك حدود لقدرتها على النقد والتقويم. ومن هنا فإن المرء لا يستطيع منطقيا، أن يتخذ فى آن واحد موقف الاعتراف بسلطة مطلقة، ويحاول استخلاص موقف نقدى عقلانى من داخل هذه السلطة.

فالتناقض واضح لأن السلطة نقيض العقل النقدى واستخلاص أحد الطرفين عن الآخر ممتنع عقليا» (ص٤٧ ـ ٤٨).

لذلك سادت النزعة المثالية كما يقول د. فؤاد زكريا، واكتسبت الفلسفة المادية الوضعية سمعة سيئة فى المجتمع العربى إلى الآن. (ص٥٠).

كما ذاع التشكيك فى مبدأ التفكير المنطقى ذاته الذى يوصل المرء فى فكره إلى الزندقة. وأما الشكل الآخر الذى يتخذه الهجوم على الفكر العلمى فى مجتمعنا «فهو التوسع فى تفسير النصوص الدينية إلى الحد الذى يجعلها صالحة لتفسير أحدث النظريات العلمية» (ص٥٢) فى أصل الكون والفيزياء وعلم الأحياء والفضاء...

لكن نزعة فؤاد زكريا الوضعية تجعله لا يرى فى الفيلسوف إلا تابعاً (ص٥٢) مسار العلوم وليس أكثر من ذلك. وصحيح أن الفلسفة استقلت عن العلوم واستقلت العلوم عن الفلسفة، بحيث أصبح للفلسفة مجال أضيق وللعلوم منطق خاص بها لا يتعدى إليها منذ القرن الماضى على وجه التقريب. إلاّ أن ديكارت فى الأزمنة الحديثة كان عالما بالمعنى التقنى للكلمة وفيلسوفا. كما كان هيجل عالماً قبل أن يتحول إلى الفلسفة بحيث لم يأت تحليله للعلم استنباطا من الخارج. وإنما كان يعرف علوم عصره الطبيعية معرفة متفوقة. عادة الفيلسوف لا يسبق تحليلات العالم. لكن الفيلسوف لا يقف أبدا وراء العالم فى انتظار نتائج المعمل. هل حدث فى تاريخ العلوم الطبيعية والإنسانية جميعًا أن دفع الفيلسوف مسيرة البحث العلمى؟ صحيح أن «الفلسفة تخلت للعلم عن البحث فى الكونيات والطبيعيات» (ص٥٢). لكن فلسفة العلوم فحص ونقد وتقويم بعدى وقبلى لمقدمات ونتائج العلوم جميعا.

ومن المؤكد أن العلم الحديث ليس كما تتصوره الغالبية العظمى من أعضاء برلمان الأيديولوجيا الحاكمة. إن العلم الحديث الطبيعى والإنسانى مجرد فى جوهره مثالى من حيث المبدأ وعقلى بطبعه بسبب الدور الحاسم الذى تلعبه الرياضيات: لذلك يقول د. فؤاد زكريا «إن العلم أعظم انتصار لروح الإنسان على المادة. وحين يفهم العقل الإنسانى الطبيعة ويكشف قوانينها ثم يسيطر عليها، فإنه يعلن بذلك سيادة عقله على العالم المادى».

إن انتصار الإنسان على الطبيعة ليس على الإطلاق إعلاء للمادة، بل هو أعظم دليل على انتصار الجوانب العقلية والمعنوية فى الإنسان.

والشىء الأصيل حقا هو أن قدرة الإنسان على لجم الطبيعة المادية وكبح جماحها بالعقل، وإعلاء حكم التفكير المنظم على الاضطراب والفوضى الظاهرية للطبيعة، هو انتصار هائل للروح على المادة، وليس على الإطلاق «علما ماديا» كما يردد بعض الدعاة بلا فهم» (ص٥٣).

والحقيقة المرة الأخرى التى لابد من التسليم بها هى أن المجتمع العربى الراهن يتباعد يومًا بعد يوم «عن ذلك المناخ الذى يسمح بالعقلانية، والديمقراطية وازدهار الفكر الفلسفى. إن جو الأمية المتفشية التى لم تبذل طوال القرن العشرين أية محاولة جادة لاستئصالها فى أى بلد عربى، على الرغم من كل ما مررنا به من «ثورات» وتصحيحات للثورات ثم تصحيحات للتصحيحات.. وكذلك جو الجهل والإرهاب والتسلط المطلق، والهزائم التى تتوالى فى الميادين العسكرية والسياسية، والإخفاق الذريع فى حل المشكلة الاقتصادية، وهذه العوامل تحدد بوضوح نوع الاتجاه الهابط الذى لابد من أن يسير فيه تفكيرنا» (ص٥٧)

ويحلل د. فؤاد زكريا ظاهرة الصحوة الإسلامية المعاصرة تحليلا دقيقًا قائلا إنها كانت وما زالت تعبيراً مباشراً «عن

حالة الهزيمة الفكرية والسياسية والاجتماعية التى نعانيها، وليست على الإطلاق محاولة للتخلص من هذه الهزيمة. أى أنها تسهم، بصورة أو بأخرى فى الأوضاع التى تجعل من المستحيل تحقيق الحد الأدنى» (ص٥٨).

وجوهر ظاهرة الصحوة، حسبما يرى د. فؤاد زكريا، إنما هى النظرة الخاصة التى تنظرها إلى الزمان حيث «تتجاهل البعد الرئيسى فيه، وهو الحاضر لحساب البعدين الآخرين، أعنى الماضى والمستقبل» (ص٥٨).

والحقيقة المؤلمة - فيما أظن - هى أن الصحوة الإسلامية المعاصرة لا تتجاهل الحاضر فحسب وإنما تتجاهل مجمل أبعاد الزمان: وهى الحقيقة التى تتطابق مع غياب لفظة الزمان نفسها عن القرآن الكريم الذى يتحدث عن الدهر والعصر والمسير والطور والأجل والوقت وليس عن الزمان.

وليست مصادفة أن يعجز أنصار الصحوة المعاصرة عن سبر أغوار الزمان لأن متكلمى الإسلام أنكروه إنكارهم للمادية (أو الدهرية) والكفر بالله الخالق وما إليهما. ولم يكن أصحاب المذهب المثالى من الفلاسفة أقل إنكاراً له من المتكلمين. وقد جرى شعراء العرب وروائيوها على تلقف فكرة الزمان المرفوضة فى ميدان الفلسفة، كمفهوم شعرى وروائى مساعد لهم فى التعبير عن مجرى الحوادث والتصرف.

إلا أن د. فؤاد زكريا لم يقف على هذا الجذر التراثى الجوهرى حيث الغياب الأصلى لنظرة قرآنية للزمان والزمن. والأمر ليس خارقًا أن تخرج الصحوة الإسلامية المعاصرة إذن المبادئ والأسس فى سياق الزمن.

والقضية بالتالى هى إدخال الزمن ضمن هموم الفلاسفة العرب، نحته من عدم على ضوء التطورات الفلسفية الأخيرة والتحولات العلمية والمعرفية الكبرى التى ظهرت فى الآونة الأخيرة. ثانيًا تتجاهل أيديولوجية الصحوة ليس فقط الحاضر وإنما تتجاهل أساسًا جميع أبعاد الزمان تتجاهل الحاضر مثلما تتجاهل الماضى والمستقبل بل وتعيش فى حضور دائم فى زمن ماثل بلا زمنية. حاضر عبر سنين طويلة، عاجزاً أصلا عن قياس أغوار الزمان الكامنة فى مختلف أبعاد الزمان المثلثة والمقسمة إلى حاضر وماض ومستقبل. وكان ومازال أنصار الصحوة يفكرون بقناعة شىء ما أن القياس التاريخى أو الزمنى أو الكرونولوجى أمر مستحيل فى حد ذاته. ليست القضية إذن غيبة البعد الحاضر عن نظرة الصحوة وإنما هى غياب الزمان فى حد ذاته المثلثة الأضلاع الحاضرة والماضية والمستقبلية. وليس تجاهل الحاضر من حيث هو حاضر وشل حركة التاريخ سوى واحدة من نتائج الغياب النهائى القاطع للزمان والزمنية. لذلك لا ينظر أنصار الصحوة إلى الزمان نظرة تسقط البعد الرئيسى فيه (الحاضر) وإنما تسقط الزمان نفسه.

وهكذا غابت فلسفة الدين عن المجتمع العربى لأن الزمان هو الدافع الأول والأخير للتفلسف. كما يقول د. فؤاد زكريا عن سياق مستقبل فلسفة الدين فى العالم العربى «فإن أحدا لم يعد يجرؤ اليوم على مناقشة المشكلات المعاصرة التى تثيرها التجربة الدينية فى الرؤية الفلسفية» (ص٦٢). وظل العالم فى ميدان الدين يهتم أكثر بقضايا المظهر والملبس والحجاب والحبس والاختلاط التى هى أبعد ما تكون عن محاور فلسفة الدين. ويحصر د. فؤاد زكريا مسائل فلسفة الدين العربية الراهنة فى النقاط الخلافية التالية: أولا تحليل العلاقة بين ألوهية التشريع وبين بشرية القائمين بفهمه وتطبيقه. ثانيا، مسألة الصلة التى تربط أزلية الأحكام الواردة فى النصوص الدينية بزمانية تأويلها.

ثالثا، مسألة التضاد بين النظرة الشمولية للإنسان وبين النظرة الجزئية. رابعاً «تحليل العدل والحرية.

لكن لماذا تؤدى فلسفة الدين حتماً إلى تعميق الفكر الدينى (ص٦٤) كما يرى د. فؤاد زكريا؟ لماذا لا يؤدى تطوير فلسفة الدين العربية المعاصرة إلى تطوير الفلسفة العربية نفسها؟ فقد سبق أن خدم علماء الكلام القدماء الحياة الدينية بطروحاتهم العقلية. كما سبق أن خدم الفلاسفة الغربيون المحدثون الديانة المسيحية بوضع منحوتات نظرية كفكرة «الإله الهندسى» الذى ينظم الكون تنظيماً هندسيًا. فمتى يخدم الفلاسفة أنفسهم! لماذ يكون على الفلسفة أصلا أن «تعين» (ص٦٦) المفكر الدينى فى ميدان تحليل عناصر المشكلة الدينية وتأملها فى نظرة تركيبية على أن يعيدوا التوازن بين جوانب الإنسان المختلفة وينظروا إلى الإنسان نظرة متكاملة، تضع كل عناصره فى موضعها الصحيح، وتعطيها حجمها الحقيقى» (ص٦٧).

فإذا كان صحيحا «أن الفلسفة تبحث أساسا فى الكليات» (ص٦٧)، لماذا يبحث الفيلسوف عن تقديم العون للفكر الدينى؟ لماذا يقتصر عمله فى كلية واحدة دون غيرها من الكليات التى تصوغ المشروع الأكمل والأشمل؟ هل فلسفة الدين هى مجرد تحليل متعمق لمعطيات الفكر الدينى؟ وأقصد أن الفلسفة قد تثرى الفكر الدينى وقد تضعفه بتحليلاتها النقدية. وقد تخدمه كما أنها تستطيع أن تناقضه من أساسه. ففلسفة الدين لا تعنى المزج بين الفكر الفلسفى وبين الفكر الدينى. كما أنها لا تعنى الخلط بين الفلسفة وبين الدين، وإنما تعنى فيما أتصور المقاربة الخاصة المبنية على فروضها الخاصة

بحيث يرقى الفكر الدينى والدين نفسه إلى لحظة واحدة من بين لحظات عديدة أخرى تكوّن مسار التفكير الفلسفى الذى عليه أن يحتوى الدين دون أن يحتويه الدين.

هذا هو جوهر أزمة العقل العربى وكان محمد عبد الهادى أبو ريده على حق تام حين رأى فى تحليل تاريخ الفلسفة فى الإسلام للعالم الهولندى ت.ج. دى بور أنه يتضمن حكما جائرا، غير معقول، مستحيلا، غير صحى وغير سليم، مقفلا على نفسه وغير حقيقى (ص٦٩ وص٧١).

صحيح كما يقول ت.ج. دى بور أنه «لم تكن للعقل السامى قبل اتصاله بالفلسفة اليونانية ثمرات» «فى الفلسفة» (ص٣٥). لأن الفلسفة «ظاهرة فريدة ومستقلة نشأت فى بلاد اليونان، حتى لقد يعدُّها الإنسان غير خاضعة للظروف العامة التى تنشأ فيها المدنيات، وبحيث لا يمكن تعليل ظهورها بأسباب خارجة عنها» (ص٧٠ - ٧١). لكن الحقيقة أيضا كما يقول أبو ريده «دائما هى المعانى اليونانية» وقد أثار كل من متكلمى الإسلام وفلاسفته مشكلات ووصلوا إلى حلول وكونوا مفاهيم لم يعرفها اليونان» (ص٦٩) فلمفكرى الإسلام فلسفتهم الخاصة وللفلسفة الإسلامية طابعها الخاص ومشكلاتها الخاصة ومساهمتها الخاصة فى إثراء وإضعاف التراث الفكرى الإنسانى وهم حتى ولو ارتدوا رداء اليونان، فإن رداء اليونان كما يقول دى بور دون أن يرى أن هذا يصطدم باطروحته الأساسية اصطداماً واضحاً «لا يخفى ملامحهم الخاصة» (ص٧١).

هناك إذن فلسفة إسلامية أو عربية بالمعنى الحقيقى للكلمة. والقضية هى تحديد المعيار الذى نقيس به مسار تطورها. ما هو القانون الخاص بتطور الفلسفة الإسلامية؟ هل هو التبعية المطلقة لليونان؟ هل هو التوفيق بين أفلاطون وبين أرسطو؟ هل هو التوفيق بين الفلسفة اليونانية وبين العقائد الإسلامية؟ هل هو إعادة إنتاج مذهب الأفلاطونية الجديدة؟ ماهو القانون الخاص بالفلسفة الإسلامية الذى تحكم فى تميزها؟ وما هى المشكلات الجوهرية الجديدة التى افتتحها على نحو لا نظير له فى التاريخ السابق على مولد الفلسفة الإسلامية ولا فى التاريخ اللاحق؟

وكيف استقلت بجديد فيما حاولته من معالجة المسائل القديمة؟ إذا كانت الفلسفة الإسلامية حقا ليست مجرد فلسفة توسطت بين الفلسفة القديمة وبين الفلسفة المسيحية فى القرون الوسطى.

وأصل الالتباس هو اتصال الكلام بالفلسفة واختلاط علوم القرآن بعلوم الفلسفة. يؤكد أبو ريده على أن علم الكلام علم من علوم الفلسفة وعلى أن المتكلمين «فرقة من فلاسفة الإسلام» (ص٨٦) ويصر على أن «مذاهب المتكلمين هى الفلسفة العربية الحقيقية» (ص٨٦).

كما يلح على «أن الحركة الفلسفية الحقيقية فى الإسلام يجب أن تلتمس فى مذاهب فرق المتكلمين. ولايزال الباحثون المعاصرون يجعلون هذه المذاهب من أقسام الفلسفة فى الإسلام» (ص٨٦).

فما يعنى أن فى علم الكلام «عناصر فلسفية» شأنه شأن علوم العقائد عند اليهود والنصارى (ص٨٦).

والقضية إذن هى ما إذا كانت الفلسفة الإسلامية علمًا من بين علوم الكلام العديدة. إذ ما معنى اتصال الكلام بالفلسفة؟ هل يعنى هذا أن الكلام فلسفة؟ أن الفلسفة كلام؟ أم أن هناك فى علم الكلام بعض العناصر الفلسفية؟ فحتى إذا سلمنا بأن نزعة الإسلام تميل إلى التوفيق بين علم الكلام وبين الفلسفة، ما معنى التوفيق بين الكلام وبين الفلسفة؟ هل هذا توفيق بين طرفين متناقضين؟ وحتى التناقض يفترض أرضية مشتركة. فهل هناك أرضية مشتركة بين الكلام وبين الفلسفة؟

لا يبدو ذلك من كلام أبو ريده. إذ أن علم الكلام تحليل للقرآن الذى لا يحوى «نظريات مبوبة» (ص٨٧). وأما الفلسفة فتحوى فى صورتها العامة نظريات مبّوبة. ثانيا، يحلل علم الكلام كتاباً إلهياً وأما الفلسفة فحتى حينما تحلل الكتب الإلهية فهى تحلل تحليلا يختلف اختلافا جذرياً عن التحليل العقائدى. ثم أن القرآن ليس فلسفة. إن ما يقوله القرآن عن الذات الإلهية وصفاتها إنما يقول ذلك هو الله وليس الفلاسفة. القرآن هو كلام الله عن الإنسان والكون العلوى والسفلى وما فيهما والإيمان والأنبياء والحقائق المغيبة والعوالم غير المحسوسة.

وقد يخاطب القرآن العقل الإنسانى الطبيعى السليم كما يقول أبو ريده لكن هذا الخطاب إنما هو خطاب الله وليس خطاب الفلاسفة. فالقرآن يبنى بناء جديداً ليس فى ميدان الفلسفة وإنما على أرض الأديان. وقد يدعو الإنسان إلى النظر الفلسفى. إلاّ أنه هو نفسه ليس فلسفة، وتبدأ الفلسفة إسلاميا حين يعيد الفيلسوف تشكيل المادة الغزيرة التى يحتوى عليها القرآن.

وهكذا فليست الفلسفة ولا القرآن بما يصورهما محمد عبد الهادى أبو ريده. إن الفلسفة بالإضافة لصفات أخرى أساسية هى الفلسفة المبوّبة المنظمة بحسب قواعد المنطق والواقع جميعا السائدة والمتغيرة.

ولم تكن الفلسفة سواء أسميناها إسلامية أو مسيحية أو يهودية، أقول لم تكن الفلسفة قط فى أى وقت من الأوقات فلسفة بمعنى الكلمة حين تنبثق «دفعة واحدة» (ص٨٨) من أعماق النفس الإنسانية البعيدة. بل كانت ولاتزال

الدفعة الفكرية الواحدة الأولى لحظة من بين لحظات الترتيب المنطقى والمسار التاريخى لعملية التفكير الفلسفى نفسه. الدفعة الواحدة هى نفسها دفعة ثانية أى أنها منتوج عملية بعيدة المدى قائمة ابدا ماثلة بغير انقطاع.

ولذلك لا ينبغى فيما أظن أن نبحث فى القرآن عما لايحويه. ولا يجب أن نتجاهل أن القرآن يحتوى أساسا علىَّ أحكام ومنهاج ووصية وحدود وموعظة. أما الاستدلال والاستنباط والاجتهاد فهى طرائق الفقهاء وعلماء الكلام فى البحث عن العلل وتحليل النص. وقول أبو ريده بأن فى القرآن «استدلالا» (ص٨٨) إنما هو قول فى غير موضعه»

كما أن أبو ريده يخلط بين مفهوم الوحى وبين مفهوم النظرية قائلا: «وكما كان الأنبياء يتلقون الوحى، فيجيدون بفضله فى أقوالهم وأفعالهم وما يصنعون أو يقرون من نظم، هداة للناس، فإن قول النقاد إنهم لم يجيئوا بنظريات أو عقائد قول فى غير موضعه» (ص٨٨). فهل الوحى فى حد جوهره الدينى نظرية أو هل يماثل فكرة النظرية؟ قد تدعو طبيعة الوحى الى التفكير. وقد توجه النفوس إلى الفكر الحق وإلى المنهج الصحيح الذى يكونه العقل السليم. لكن هل محتوى الوحى نفسه محتوى نظرى؟

إنّ الوحى يستوعب كل النصوص الدالة على خطاب الله للبشر. أما الفلسفة فخطاب بشرى للبشر. وأصل الوحى إعلام فى خفاء. أما الفلسفة فإعلام ظاهر. وإذا كانت الفلسفة لا تخلو من الإلهام والإشارة والإيماء والكتابة والكلام، فإن هذه المعانى كلها تستوعبها الفلسفة فى إطار خاص شديد الخصوصية. ونستطيع أن نقول بعبارة أخرى أن اللحظة التى تتحول فيها الفلسفة إلى وحى تنقلب فيها الفلسفة على أعقابها، أى أنها تنقلب إلى عقيدة مطلقة الصحة، مطلقة العدل وبالتالى مطلقة القهر، ساحقة كاذبة. إلا أن العمل الفلسفى ليس عملا عقائديا ولا يمكن أن يكون. بمعنى الفلسفة - العقيدة التى تملك وحدها سر الحقيقة وسر القانون وسر التاريخ. لا تقيم الفلسفة علاقة اتصال بين طرفين يتضمنان إعلاما خفيا سرياً.

وعقيدة محمد عبد الهادى أبو ريده إنما هى أن محمداً عليه السلام نبىٌّ «يوحى إليه من جهة موجد الكون» (ص٦٢). ويسلم بأن محمدا جاء بوحى إلهى ليبلغه للناس لكى يوجهوا أنفسهم فى الطريق المؤدى الى الاتصال بالله وليقوموا بعمل شاق أساسه الكفاح الروحى للانحياز عن المركز المتوسط إلى جانب الله.

إن محمد عبد الهادى أبو ريده باحث دينى يستعمل المنهج الفلسفى فى موضوع الدين فى داخل الدين وفى صميم مسلماته الأساسية ويعوزه فى الغالب الموقف الفلسفى المحض. لأن الفلسفة عنده أشبه بالنظر فى الأحوال الخارجية للأديان دون التعرض لقضاياها الجوهرية. إن الفلسفة فى الإسلام عنده إسلام متفلسف، إسلام أساسًا وقبل أى شىء وخصوصاً قبل أن يصطبغ بالصبغة الفلسفية التى هى أقرب ما تكون بالغلاف الخارجى. الفلسفة فى الإسلام عند أبوريده ليست تحليلا فلسفياً للإسلام وإنما هى إسلام ميتافيزيقى عميق يصوغ فيه الفيلسوف الوحى صياغة بعدية فلسفية. الكتاب والسنة أولاً ثم تأتى الفلسفة إذا شاءت.

إن اعتقاد أبو ريده الذى أسس عليه الفلسفة فى الإسلام يتلخص على النحو التالى: «القول بالموجد المطلق الخالق لكل شىء المتصرف فيه كما يشاء، لا يسأل عن شىء، لأنه لا شىء فوقه، ولأن أفعاله خلق وقوانين. ولا معنى للإعتراض عليه، لأن هذا الاعتراض سيكون من وجهة نظر كائن محدود، وهذا نسبى ذاتى لا يصلح أساسا لحكم عام ولا لتقدير قيمة مطلقة، وإذا احتج أحد بالعقل الإنسانى وأحكامه فالعقل الإنسانى مهما تحرر لا يزال نسبياً، وهو لا يزال فى خدمة الإنسان ومعبرا عن وجهة نظره الخاصة ومتأثراً بذاتيته، فأما العقل المطلق فإنه لا يجد اعتراضا على تصرف الموجد المالك فيما أوجد وملك» (ص٩٩).

وهذا مسلك يقيم الفلسفة فى الإسلام على أساس الفضل الإلهى وعلى قاعدة الاتفاق التام والانسجام التام بين آيات القرآن. لذلك يرى أبوريده فى المعتزلة رؤية تكفيرية تصل به إلى حد وصفهم بأنهم «خرجوا عن الدين وعن الحق نفسه» (ص١٠٦)، بسبب اعتمادهم على العقل لا على الوحى.

إلاّ أن اعتماد المعتزلة على العقل لا ينفى أنهم وجدوا الله وسلموا بالعدل الإلهى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى غير ذلك من الأساسيات الإسلامية التى يتحول عنها المعتزلة. فالأصل الأول من أصول المعتزلة الخمسة المشهورة إنما هو التوحيد بمعنى إنكار التعدد فى المبدأ الأول أو فى المبادئ القديمة. ونعرف عن واصل بن عطاء الغزال المتوفى سنة ١٣١هـ أنه اعتبر العقل مصدرا للمعرفة الدينية إلى جانب القرآن والسنة بل والإجماع.

ولعب المعتزلة وليس أهل الحديث وحدهم دوراً محافظاً فى زمن خلفاء بنى العباس فى أيام المأمون إلى عهد كل الذين جعلوا مذهب المعتزلة عقيدة للدولة تمتحن عقائد خلق الله. تحول المعتزلة إذن بالنظر العقلى فى زمن المأمون إلى النظر النقيض للعقل حيث حلّوا السيف محل الحجة والدليل. وبالتالى فلا يخلو مذهب المعتزلة العقلى العظيم من اضطراب وتناقض داخلى يتجلى فى النظر نفسه وفى التطبيق السياسى.

إلا أن ما يحسب للمعتزلة أن كثيرًا منهم كانوا يعوّلون على العقل أكثر مما يعوّلون على نصوص القرآن ونظروا في الأديان الثلاثة السماوية، يقارنون بعضها ببعض. دون أن يتعارض ذلك عندهم مع الشريعة النظرية العقلية التي تقوم على أن في الإنسان علمًا فطريًا يؤدي بالضرورة إلى معرفة إله واحد خالق وحكيم، غير أن استعداد المجتمعات البشرية لقبول دين مفروض من إله أعلى، أكبر من استعدادها لقبول الشريعة العقلية الاعتزالية.

وأما محمد عبد الهادي أبوريده. فهو أقرب إلى مذهب الأشعري الذي لم يبعد كثيراً عن نصوص السنة، تثبيتًا لأفئدة المتقين وإرضاء لعقول الناس. وهو يعتمد الوحي المنزل في القرآن ولا يعتبر النظر الفلسفي المستقل عن الوحي سبيلا إلى معرفة الحقيقة، لأن الأصل الوحيد لمعرفة الحقيقة هو الوحي.

وتكون روح الشك والسخرية بأقدس الأشياء لا عند الفلاسفة وإنما في شعر العرب .إلا أن أبا العلاء على سبيل المثال كما يقول أبو ريدة، كان يتناول القضايا «كما يتناولها الشاعر لا الفيلسوف الذي يصنع مذهبا فلسفياً. هو حكيم أو شاعر متفلسف وليس فيلسوفاً بالمعنى الخاص» (ص١٤٢).

وصحيح أن أبا بكر محمد بن زكريا الرازي كان ينفر من علم الكلام لكنه لم يوغل في علم الكلام ولا علم غرضه الأقصى؛ فضلا عن أنه الطبيب المشهور بأنه «طبيب المسلمين غير مدافع» وبأن كتبه الطبية ليست الفلسفية هي التي كانت سائدة في العصور الوسطى وظل الرازي في أوروبا حجة في الطب لا ينازع حتى القرن السابع عشر أيضا في ميدان الطب لا في مجال الفلسفة. فجاء طعنه في الأديان النبوات أقرب للمراهقة الفكرية منه الى التحليل الفلسفي الدقيق.

هذا وإن اعتقد أن الفلسفة هي السبيل إلى الخلاص من كدورات المادة ومن آلام هذا العالم.

وليس الطب الروحاني عنده إلا صورة طبق الأصل لمعطيات طب البدن.

ومهما يكن من أمر المقاربة الشعرية والطبية لمعطيات الدين الأولى فهي ليست مقاربة فلسفية خاصة. إذ لفق الفكر العربي الفلسفي نفسه بمعنى أنه ضم الدين إلى الفلسفة على حساب الفلسفة. فلا يمكن أن تكون نزعة التلفيق نزعة فلسفية. لأن الاقتباس أو الأخذ في مختلف المذاهب ليس توحيداً مذهبيا واحدا وإنما هي عدة مذاهب .من الحسن حقاً ألا تعادى الفلسفة علماً من العلوم وألا تهجر كتابا من الكتب. لكن كيف لا تلتزم بمذهب دون غيره من المذاهب؟ أقصد كيف لا يكون لها مسلماتها الخاصة؟ فأغلب الظن أن الرأى الفلسفي الواحد أو المذهب الفلسفي الواحد يخفي نفسه وراء وهم الاستغراق في المذاهب كلها وجمع للعلوم كلها. وأغلب الظن أن الجمع بين نوح وإبراهيم وسقراط وأفلاطون وزرادشت وعيسى ومحمد وعليّ كان لصالح نوح وإبراهيم وزرادشت وعيسى ومحمد وعلى وليس لصالح سقراط وأفلاطون.

لم يكتب نصر أبو زيد أي كتاب عنوانه «المقدمة» يقدم فيه «منطقا شاملا» في مجال بحثه وعلوم القرآن والحديث. لم يصغ «آلة جديدة» تكون أداة لفهم العلوم الدينية. بل لم يطرح عالمًا دينياً جديداً يجاور العلوم الدينية القائمة.

لكن كلمة المقدمة تكاد تكون الأقرب لوصف مضمون إضافات أبو زيد. ومن هنا فليس نقداً سلبياً فجاً أن نقول إنه لا يمتلك «رؤية واضحة». إذ يميل إلى تسليط الضوء على الغموض لا على الوضوح إذا جاز التعبير. وهي الآلية التي تتميز بها الدراسات الحديثة التي باتت تشدد على الغموض وتشكك في الوضوح. وقد سبق القرآن الدراسات الحديثة في هذه النقطة قائلا: «هو الذي أنزل عليك الكتاب فيه آيات محكمات هذه أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب»(١).

وعلى هذا فإن أهم خصائص فكر أبو زيد هو ولوج باب التأويل من ناحية علم الغامض والواضح أو المحكم والمتشابه ومقاربة علوم الدلالة بعد اللغوية، أي علم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها والإشارات النازلة فيها ثم علم ترتيب مكيها ومدنيها وناسخها ومنسوخها وخاصها وعامها ومطلقها ومقيدها ومجملها ومفسرها وعلم حلالها وحرامها ووعدها ووعيدها وأمرها ونهيها وعبرها وأمثالها ...

وترجع أهمية علم المحكم والمتشابه الحاسمة إلى أن النص نفسه في أحد جوانبه يغاير ذاته ويخالف المرجعية الثقافية الأخرى. واحتواء النص على المغايرة إنما هو أمر يجعل القراءة فعلا مشاركا وفعالا في صناعة دلالة النص.

على أن المشكلة تنبع من أن البعض فرض قانونا ينص على أن النص هو معيار ذاته، وبعبارة أخرى، يقول النص بأن المحكم هو معيار وضابط المتشابه» وعلى هذا الأساس يتم تفسير أجزاء النص بعضها بعضًا، ويضطر المفسر إلى غض النظر عن معايير هي ليست «خارجية» على وجه الدقة وإنما تبدو كذلك لمن ينغلق ضمن غوامض النص فيستخرج الدلالة في داخل النص. ومن ثم فإن محاولة أبو زيد محاولة لتحطيم التطابق التام بين منطوق النص ومفهومه أو هي

محاولة لمراجعة النظرة أحادية الجانب للنص.

ولو لم يكن القرآن مغايراً لذاته لكان مطابقا لقراءة واحدة وكان تصريحه مبطلا لأية قراءات أخرى . وهو ما يحبط ويقمع سائر القراءات الأخرى عن قبولها والنظر فيها أو الانتفاع بها . فإذا كان أبو زيد صاحب رؤية واضحة أو محكمة لما كان مفهومه للنص أو محاولة بلورة مفهوم تأويلي للنص مقاربة حديثة بكل المعاني الحديثة للكلمة . وأقول محاولة لأن أبرزها ما أوضحه أبو زيد هو إثبات المغايرة من خلال مفهوم للقراءة يتعدى حدود الشرح إلى تفجير الطاقة الدلالية للنص والقراءة والواقع . والخلاصة أنه ليس بمقدور النص أن يدل بمنطوقه على دلالة مباشرة أو معنى واضح أو مفهوم حاسم.

وهذا كله يقرب أبو زيد إلى حد كبير من المفهوم المعاصر للقراءة الذى يقضى بأن التأويل يقيم حركة مكوكية مستمرة بين المعطى اللغوى للنص وبين الأفق الثقافى ، أى بين المنطوق المباشر وبين المفهوم المجاور للنص .

ليست مصادفة على حال أن يكون أحد أعمال نصر أبو زيد بحثا فى «إشكاليات القراءة» فهو لا يقدم مفهوما للنص بقدر ما يطرح نظرية فى قراءة النص لا تقف عند حدود اكتشاف الدلالات فى سياقها التاريخى والثقافى ، بل تصل إلى «المغزى» الراهن للنص الدينى (٢) . فالقراءة فعل حاضر أو معاصر يتم ضمن سياق ثقافى تاريخى أيديولوجى، وفى أفق معرفى وخبرة محددين. ومعنى ذلك أن القراءة لا تبدأ من فراغ ، وإنما تبدأ من سؤال تصوغه للوصول إلى إجابات غير محددة مسبقا .

ولم ينظر أبو زيد إلى علوم القرآن من منظور البنيوية، ولم يحاول قط أن يكون بنيويا حديثا ولا متطورا . فالنص عنده قد تشكل فى الواقع فى الهواء . أما البنيويون فهم على غير ذلك لايبالون كثيرا أو قليلا بالواقع وإنما ينصب اهتمامهم المنهجى الأساسى على البنية المتوارية وراء الواقع . ولابد حسبما يقول كلود ليفى شتراوس شيخ التيار البنيوى أن يدير العلم ظهره لكل ما هو معاش لأن الواقع الحقيقى لا يمكن أن يكون هو نفسه الواقع الظاهر المباشر، ومن شأن العلم أن يهرب أو أن يتهرب مما هو واقع مباشر ولذا نجد شتراوس يعارض بين «محسوس» السطح الظاهرى وبين «معقول» البنية الخفية لصالح البنية الخفية.

أما نصر أبو زيد فيقيم مفهومه الإشكالى للنص على لانهائية الوقائع وحالتها الحركية المستمرة السيالة التى يعارض بينها وبين «النص» المحدود حتى إذا كان النص قادرا على استيعاب تلك الوقائع بحكم قدرة اللغة على التعميم والتجريد (٣) . وهى المقاربة التى تميزه عن الخطاب المعاصر الزاعم أن العبرة «بعموم اللفظ» لا بخصوص السبب والتمسك بهذا الجانب .

وأنه رغم العمق المعرفى أو بفضله ، يظل فكر الدكتور نصر أبو زيد فى حدود «مقدمة فى المنهج» تمهيداً للبحث المقبل، وكأن البحث نفسه لا يأتى . وككل مقدمة عملية فإن مقدمة أبو زيد ليست بالفعل عنوانا لأحد كتاباته إذ تبدو وكأنها عرض دقيق وشفاف لمجموعة الشكوك والاعتراضات الجذرية والعقبات الكبرى أمام الفكر الجديد والزمن الجديد ، فالبحث قبل استقصاء الصعوبات فى كل الاتجاهات من علوم التفسير إلى علوم التأويل ومن الخاص إلى العام ومن الرواية إلى الدراية ومن النص إلى العقل، ليس إلا سيرا على غير هدى .

ومن حق أى قارىء أن يرى فى نصر أبو زيد «اعتزاليا» جديدا . لكن الهاجس الأساسى لديه بعيد كل البعد عن سؤال الأحياء الذى يدفع العقل إلى الوراء لحل المشكلات القائمة أمامنا من جهة، وينزلق بالحاضر من جهة أخرى إلى أدنى درجات الفساد والضعف والانحراف عن المقاييس الأصلية بينما يرقى الماضى إلى أرفع درجات النضارة وأعلى مراتب الطهارة والنقاء .

واقع الأمر أن مقدمة أبو زيد معركة مستمرة بينه وبين حاضر الخطاب المعاصر وبينه وبين احتمال الحيرة وسؤال المنهج، لذلك هو أقرب ما يكون إلى روح النهضة الأوروبية الحديثة وفلاسفة الأنوار فى القرن الثامن عشر وتصورات الفرع المتطور من اليسار الهيجلى فى القرن التاسع عشر. لكن مقدمته هى مزيج معقد من عيار العقل ومقياس الواقع.

والسؤال المنهجى فى اللغة العربية ، لم يظهر إلا حديثا فى العشرينيات من هذا القرن، بعدما تحولت الجامعة المصرية من جامعة أهلية إلى جامعة حكومية عام ١٩٢٥ ، وجاء لالاند الفيلسوف الفرنسى المعروف ليعلم دون وسيط تاريخ الفلسفة الحديثة، لا سيما فلسفة ديكارت ومقاله عن المنهج على وجه التحديد. ومن هنا عرفنا ديكارت وهاجسه المنهجى ولماذا آثر طه حسين هذا الهاجس بإقباله عليه وإعجابه به إلى حد تحويله لدراسة الشعر الجاهلى فى صورة جديدة .

ومن قرأ كتابات نصر أبو زيد سيعبر بنعومة ودقة وإتقان من خلال لقاء المحطات والمفترقات وتقاطع المسارات الذاهب كل منها وحده ، إلى اتجاه يرى أنه بإزاء زمن آخر فى التفكير أو تنظير لزمن فكرى مغاير .

وفى كتابه «الإمام الشافعى وتأسيس الأيديولوجية الوسيطية على سبيل المثال يظهر جذور المعادلة النهضوية العربية

الحديثة التوفيقية المنكسرة عام ١٩٦٧ فى التراث العربى الإسلامى . ولم يختر أبو زيد الشافعى اعتباطا بل لأنه صاحب الفضل التاريخى فى تثبيت وترسيخ مبدأ جوهرى فحواه أن (الكتاب) يدل بطرق مختلفة على حلول لكل المشكلات أو النوازل التى وقعت أو يمكن أن تقع فى الحاضر والمستقبل. وهو المبدأ الذى ساد تاريخنا العقلى والفكرى إلى الآن، ودفع العقل العربى وراء لافتات الوسطية والتوفيقية والتلفيقية إلى عقل راكد يتبع ولا يبدع إذ يقتصر دوره على تأويل النص واشتقاق الدلالات المشروعة وغير المشروعة(٤) .

وبالطبع لم يؤسس الإمام الشافعى هذا المبدأ للمرة الأولى أو لم يكن أول مؤسسيه، بل اعتمد على استقراره الضمنى فى بنية الثقافة العربية ثم أعطاه الشكل شبه النهائى الذى كفل له السيطرة والسيادة .

ودور الإمام الشافعى يبدو شديد التعقيد لأنه كالغزالى فى الفلسفة يزيل العقل بقوة العقل والإبداع بالاتباع . فقد كان هاجسه الأساسى توسيع مجال النصوص لتضييق مجال العقل والنقد وحصر العقل فى حدود الذات . وهكذا يكون العقل كشفا لما هو موجود بالفعل فى (الكتاب) .

وعلى هذا فالوسطية التى سقطت عام ١٩٦٧ لم تكن جمعا واعيا أو غير واع بتنافر المتناقضات بل كانت فى عمقها العميق مصوبة نحو أحد أطراف التناقض دون أن توجد بالفعل بين العقل والفعل . ويعود بنا هذا المحور إلى جوهر ما سبق أن كتبه أبو زيد ضمن «مفهوم النص» ودراسته فى علوم القرآن حيث لم يهتم بالتفصيلات الجزئية ، بقدر ما رفع إلى رأس الإشكال قضية العلاقة المعقدة بين العقل والنص ليبرز سؤال المنهج أكثر مما يظهر سؤال الجزئيات .

إن مقدمة أبو زيد تختلف عن «مقال فى المنهج» لديكارت ، لأن أبو زيد لا يقصد من مقدمته قيادة العقل بل يقصد اعتبار الواقع معيارا للحكم . لكنهما يتلاقيان فى نقطة مهمة هى البحث عن الحقيقة فى العلوم . بالنسبة لابو زيد هى علوم القرآن . وبالنسبة لديكارت هى العلوم الطبيعية من بصريات وآثار علوية (الفلك) وهندسية . ونقطة الالتقاء الثانية هى أن المباحث العلمية التى يقدمان لها ليست تطبيقا للمنهج المسبق (ديكارت) أو لم تطبق بعد المنهج بالفعل وبشكل متكامل (أبو زيد) .

ومن ناحية أخرى يبتعد أبو زيد كثيرا عن ديكارت ويقترب قليلا من طه حسين خصوصا فى رسالته الجامعية الأولى، أى طه حسين عن أبى العلاء المعرى التى نال بها شهادة الدكتوراه من الجامعة المصرية عام ١٩١٤ حيث يقول : «إنما الحادثة التاريخية والقصيدة الشعرية والخطبة يجودها الخطيب والرسالة ينمقها الكاتب الأديب ، كل أولئك نسيج من العلل الاجتماعية والكونية تخضع للبحث والتحليل خضوع المادة لعمل الكيمياء»(٥) مؤكدا أن أبا العلاء هو ثمرة من ثمرات عصره قد عمل فى إنضاجها الزمان والمكان والحالة السياسية والاجتماعية بل والحالة الاقتصادية والدينية .

لكن أبو زيد لم يخصص حتى اليوم كتابا أو عدة كتب لموضوع دراسته ، وهو أصول تناول القرآن يبين فيه على نحو تفصيلى زمان النص ومكانه بدقائقه السياسية والاقتصادية والاجتماعية . أى ما ننتظره هو تخصيص للعام وتشخيص للموضوعية .

فنحن لا نستطيع أن نكتفى مثلا باعتبار البحث عن دين إبراهيم بحثا عن اليهودية الخاصة للعرب . وقد تهددتها مخاطر الاقتصاد وضيق الموارد التى تعتمد على المطر والعشب من جهة، وعلى التجارة من جهة أخرى . وربما الجانب الذى يفيه أبو زيد حقه بين جوانب الواقع . على نحو واضح مرتبطا بالنص هو الجانب الثقافى . أى أن ما قام به فعلا هو إزالة القطيعة لا بين الواقع بشكل عامّ وبين النص، بل بين الثقافة وبين النص . خاصة بتوثيق العلاقات بين الشعر، نص ثقافة ما قبل الإسلام وبين القرآن دون أن يتحول القرآن إلى شئ آخر غير القرآن . فإذا تعاجم عليكم شئ من القرآن كما يقول القدماء فعليكم بالشعر .

يحتوى فكر نصر أبوزيد إذن على نقد مضمر لأنصار «القطيعة المعرفية» .

تلك المقولة التى شاعت فى الفكر المعاصر منذ جاستون باشلار وإلى لويس آلتوسير وميشيل فوكو ثم المفكرين المعاصرين العرب من أمثال محمد أركون ومحمد عابد الجابرى . وفى الأصل ليس المقصود من «القطيعة» القطع مع الماضى فى سبيل الحاضر والمستقبل، وإنما المقصود هو إزالة العقبات التى تعترض العلم سواء أكان علما إنسانيا أو علما طبيعيا . إلا أنها فى الفكر العربى المعاصر جمدت نفسها وحولت العلم إلى ماهية قائمة بذاتها مقطوعة الصلة عن الأيديولوجيا التى تحولت بدورها إلى ماهية قائمة بذاتها هى الأخرى .

القضية إذن بين الشعر وبين القرآن شديدة الدقة وليست وحيدة الجانب . كما أن الشعر والقرآن لا ينحصران فى حدود ثنائية الشكل والمضمون أو فى ثنائية الجوهر والمظهر، لأن الثقافة فى تحوّل معرفى مستمر دون توقف . يتصل الشعر بالقرآن وينفصل عنه فى نطاق من التباين فى الوحدة والنشاط المتبادل . يقول نصر أبوزيد : « إنّ علاقة القرآن

بالشعر تقوم فى جانب منها على (التماثل) وتقوم فى جانب آخر على (المخالفة)، إنها علاقة جدلية بدأت من المفاهيم والتصورات الأساسية فى الثقافة، وقد أدرك العرب الجاهليون والمسلمون الأوائل فيما يبدو زيف القطيعة المعرفية بين الشعر وبين القرآن، كما أدرك النقاد المعاصرون فى الغرب العلاقة القوية التى تربط الأيديولوجيا بالعلم داخل منظومة الفيزياء الحديثة نفسها، حيث أدت هندسة الطبيعة إلى إعطاء الأولوية «المطلقة» للمكان على الزمان ولعلم الحركة (الميكانيكا) على الهندسة (الهندسة المطلقة). وذلك نتيجة المطابقة التى أقامها جاليليو وغيره بين لحظات الزمن المستغرق وبين نقاط المسافة المقطوعة.

و هذا رأى أردت فيه أن أبنى الصلة الوثيقة بين دراسة القرآن وبين روح الدراسة الفلسفية.

صحيح أن هذه الصلة شقت طريقها إلى نوع من الاضطراب فى سياق التاريخ الشامل للثقافة العربية الإسلامية مع التحكيم التدريجي للنصوص على حساب العقل، ثم القضاء على الاعتزال بعد عصر المأمون إلى حصار العقل فى دوائر ضيقة إلى مجيء أبو حامد الغزالى الذى أغلق باب الفن الفلسفى فى بلادنا من زمن الانهيار السياسى والاجتماعى وسيطرة المؤسسة العسكرية والدينية على نظام الحكم والحياة والمجتمع إلى الآن، ثم سقطت بغداد.

كما وصل الاضطراب بالصلة الوثيقة بين دراسة القرآن ودراسة الفلسفة فى ذلك العصر إلى حد استعداء السلاطين من جانب الفقهاء على كل مسلم يقترب من الفلسفة تعلما وتعليما باعتبار أن الفلسفة هى أس السفه والانحلال وأداة الحيرة والضلال ومثار الزيغ والزندقة. ومن تفلسف عميت عينه عن محاسن الشريعة المطهرة.

فالواجب علينا أن نبين فى هذا الصدد أن القرآن نفسه لا يشتمل على فلسفة لأنه قبل أى تفلسف كتاب فى العقيدة الإلهية والطبيعية والإنسانية ليست بالضبط هى مشكلات الفلاسفة. كان القرآن هو المصدر الأول الذى استوحاه المتكلمون على اختلاف آرائهم ومذاهبهم. إلا أن علم الكلام ليس بالضبط علما من علوم الفلسفة. ولا يشتمل القرآن على فلسفة لأنه كتاب مقدس منزل. وأما الفلسفة فمن صنع البشر. وفى حين يضم القرآن بين دفتيه مابه سعادة المؤمن من عقيدة وخلق وتشريع، تضم الفلسفة على وجه العموم ما يثير القلق والشك فى العقول والقلوب والنفوس.

وهو كتاب أحكمت آياته. وأما الفلسفة فتتطوع بين الإحكام والتفكيك. وبينما أوحاه الله إلى رسوله ليخرج الناس من الظلمات، فإن الفلاسفة عمومًا غالبًا ما يتداخل عندهم النور والظلمة. وفى حين يتحدث القرآن بلسان عربى تتحدث الفلسفة بلسان إغريقى. وقد نزل القرآن بين العرب وبلغة العرب.

إن الفلسفة، رغمًا عن اختلاف فى الآراء قد ظهرت بين اليونانيين وبلغة اليونان.

على أن القرآن والفلسفة يدعوان دعوة عامة موجهة للإنسانية جمعاء، لا فرق بين عرب وعجم، وأمة وأمة، وجنس وجنس، هما رسالتان مختلفتان للناس كافة على اختلاف حظوظهم من العقل والمال وبصرف النظر عن دياناتهم ومللهم المختلفة العديدة.

ولكى لا ننزل إلى تفاصيل كثيرة فى هذه الناحية لانرى ضرورة للحديث عنها. نكتفى بأن نذكر أن أبوزيد ليس من عبدة الأوثان والأصنام ولا هو ممن أنكروا الخالق والبعث. كما أنه ليس ممن لم يروا - سببا لوجود هذا العالم إلا الطبع المحيى والدهر المفنى. هو ليس من هؤلاء «معطلة العرب». إذ ليست قضية أبوزيد الإقرار أو الهداية إلى الإقرار بوجود الخالق والدار الأخرى. وذلك لسبب رئيسى لا لسبب استراتيجى وتكتيكى. فدراسات أبوزيد لا تهدف إلى بلورة مفهوم فى الحياة الدنيا وإنما مدار دراساته جميعًا هو بلورة مفهوم للنص الدينى.

وهكذا فليست قضية أبوزيد قضية إلهية. ذلك أنه ليكون الإلحاد لابد أن يكون الله أو الآلهة.

صحيح أن ظاهرة الإلحاد فى تطور الحياة الروحية العربية ارتبطت برفض فكرة النبوة وليس بالإعلان عن موت الله كما قال الغرب. لكن حتى فى هذه الحال أبوزيد ليس ملحدا إذ يراجع مفهوم النص القرآنى وليس مفهوم النبوة.

وأما الملحدون فى الروح العربية فقد اتجهوا جميعا إلى القضاء على فكرة النبوة والأنبياء.

وكل ما هناك هو أن التراث الشرقى القديم نجح فى أوروبا فى إبداع النزعة الإنسانية التى صاغت أوروبا الحديثة المتقدمة، بينما هذا التراث عينه لم يؤد إلى إبداع نزعة مشابهة للنزعة الإنسانية فى النظر إلى النصوص الدينية الإسلامية. وإنما أنتج هذا التراث فى العالم الإسلامى فقهاً سنيا يختلف اختلافا جذريا عما أنتجه العالم الأوروبى. إذ أصبح على المفكر أن يشرح الكتاب الذى فيه بيان أوامر الله ونواهيه، كما هو الحال فى مجموع أعمال أبوزيد، كذلك أصبح كل من يخالف مذهب أهل السنة زنديقا أو صاحب بدعة أو ملحداً أو كافراً بينما كان يطلق على «الزنديق» من يؤمن بالمانوية ويثبت أصلين أزليين للعالم: هما النور والظلمة!

ومن ناحية أخرى يبدو ضرورياً أن نشير إلى أن محاولات نصر أبوزيد جزء من عملية عربية واسعة النطاق راحت تفتح مرحلة جديدة فى دراسة التراث العربى فى أعماق هزيمة ١٩٦٧، وازدهار الخطاب الدينى هو جزء من عودة عربية شاملة إلى الماضى تمثلت من بين ما تمثلت فيه **نقد الفكر الدينى** (١٩٦٩) لصادق جلال العظم، ومشروع **رؤية جديدة للفكر العربى فى العصر** الوسيط (١٩٧١) لطيب تزينى، **والثابت المتحول** (١٩٧٤) لأدونيس، **وأزمة الحضارة العربية أم أزمة البرجوازيات العربية** (١٩٧٤) لمهدى عامل، والنزعات المادية **فى الفلسفة العربية الإسلامية** (١٩٧٨) لحسين مروة والتراث والتجديد (١٩٨٠) لحسن حنفى. وهى عودة رغما عن حضور الماضى الأكيد أو مجاورته له - إلى الماضى الذى فات ولم يعد له أى وجوداً إلاّ فى الذاكرة الواعية به. أو قل إنه حنين الإنسان العربى إلى العصر الذهبى المفقود أو حنينه إلى حضن أمه أو انبعاث للمثل القديمة فى سياق اللاوعى بحيث إن وقوف صادق جلال العظم وطيب تزينى وأدونيس ومهدى عامل وحسن حنفى وإميل توما وهادى العلوى ونصر أبوزيد عند الأطلال ليس عودة إلى الجاهلية بقدر ما هو عودة إلى أعمق ما يمتلكه الوعى العربى عبر العهود، بينما يحدق الحاضر إلى عيوننا ونحن لا نمتلك الأجوبة، حاضر التبعية والنظام العالمى الأمريكى الجديد.

وهكذا ولدت المرحلة الجديدة فى دراسة التراث العربى لتحليل أو للرد على ظاهرة المد الدينى الإسلامى وما صاحبتها عقب هزيمة ١٩٦٧ من يأس الشباب العربى الذى راح يبلور أطروحات «غير نضيجة». فضلا عن انقلاب عقد السبعينيات.

إن ما أحدثه عهد السبعينيات من تغيرات هو إضفاء الطابع الدينى على توجهات الانفتاح الاقتصادى «يوحى بإلحادية سلفه فى الستينيات من جهة، ويستغل عواطف الجماهير لتبرير توجهاته المعارضة لمصالحها من جهة أخرى، لذلك لم يكن غريبا أن ترفع شعارات مثل «دولة العلم والإيمان» و«الرئيس المؤمن»، وأن يسيطر على الخطاب السياسى الاستشهاد بالنصوص الدينية، وأن يشار إلى السلطة باسم «الولاية»(٦)

وإنه لأمر غريب حقا أن يتزامن الانفتاح الاقتصادى والانغلاق الدينى أو العقائدى. نسفت سياسة الاقتصاد المفتوح ولاتزال تنسف نسفا مدويا جميع القيود التى تعوق حرية الحركة الاقتصادية. وأما القيود الفكرية فلا تزال قائمة رغما عن الانفتاح الاقتصادى(٧).

وقد كان الانفتاح الاقتصادى كما هو معروف جوهر استراتيجية المرحلة التاريخية التى لا تزال تعيش فى سياقها إلى الآن ومنذ حرب أكتوبر. هى مرحلة توفير كل الضمانات، بما فى ذلك التخلف الفكرى والعقائدى لتنمية رأس المال واستثمار رأس المال فى التنمية ثم فى الوقت نفسه إباحة الاستثمار وتقييد رأس المال الفكرى.

وأما الانفتاح الاقتصادى فهو إباحة الاستثمار لرأس المال والسماح لرأس المال الخاص الأجنبى والمحلى، بما كان محظورا عليه. الانفتاح الاقتصادى هو السماح لرأس المال الخاص بالنمو الأفقى والرأسى، بلا قيد ولا شرط إلى حد ربط الرأسمالية الوطنية بالرأسمالية العالمية ومعايير الرأسمالية العالمية فى ضبط مسار الاقتصاد القومى.

وأما الانغلاق الفكرى فهو «إن للإسلام معنى واحدا ثابتا لا تؤثر فيه حركة التاريخ، ولا يتأثر باختلاف المجتمعات فضلا عن تعدد الجماعات بسبب اختلاف المصالح داخل المجتمع الواحد. النتيجة الثانية: أن هذا المعنى الواحد الثابت يمتلكه جماعة من البشر - هم علماء الدين قطعًا - وأن أعضاء هذه الجماعة مبرأون من الأهواء والتحيزات الإنسانية الطبيعية» (٨).

وبينما افتتح عصر الانفتاح الاقتصادى فى شهر يونيو من عام ١٩٧٤ بإصدار قانون الاستثمار الأجنبى الذى يبيح استثمار رأس المال الأجنبى فى الأنشطة الوطنية الاقتصادية كافة، قام الخطاب الدينى المتطرف أو الإرهابى المعاصر بإصدار فتوى تؤدى إلى أن «تدفق خلط من الفلسفة والأدب والعلوم من اليونان والإيرانيين والهنود فى التربة الإسلامية، وبذلك بدء الخلاف النظرى بين المسلمين، بدأت عقائد المعتزلة والنزعات الشكية والإلحادية، وقبل ذلك أو على رأسه الاتجاه إلى الفرقة والخلاف فى مجال العقائد، وأدى إلى وجود فرق واتجاهات جديدة. وبالإضافة إلى ذلك وجدت فنون الرقص والموسيقى والرسم - وهى فنون غير إسلامية - تشجيعًا من أولئك الذين كان محرما عليهم أن يقترفوا هذه الفنون القبيحة»(٩).

وبينما تم حل جماعة الإخوان المسلمين فى عصر ما قبل الانفتاح ومحاكمة أعضائها، حيث تم إعدام عدد من القيادات وحكم على الأعضاء بالسجن لمدد متفاوتة حسب موقعهم التنظيمى، جاء قانون الانفتاح الاقتصادى عقب حرب أكتوبر ممزوجا بالسماح الحكومى لجماعات الانغلاق العقائدى والفكرى بممارسة نشاطها، بل وتمويلها ماديا وتدريبيا فى الجامعات وخارجها. وقام النظام السياسى الانفتاحى على أساس الانغلاق الفكرى نفسه الذى يزعم أنه يقاومه نتيجة احتكار سلطة الحكم

وتأويل الحاكمية على نحو خاص «وهو تأويل يختلف عن تأويل الخطاب الديني، ومن هذا الخلاف يقع الصدام»(١٠)، على أن الاتفاق بين نظام الانفتاح وبين نظام الانغلاق الفكري أو الديني أو العقائدي إنما هو اتفاق في الجوهر لا في الدرجة.

ومن جانب آخر، لم تكن ندوة الكويت التي عقدت في أبريل ١٩٧٤ ودارت حول «أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي» إلا علامة من علامات هذا التناقض المرّ بين الانفتاح الاقتصادي وبين الانغلاق الفكري، بمعنى أن الحركة التاريخية التي افتتحتها في أعقاب حرب أكتوبر تصطدم في مسار انفتاحها بعقبة داخلية تحول دون استمرارها أو تعوق مسار الانفتاح الشامل. فالإنفتاح كما نتصوره - أو كما يبدو لي - كل تترابط فيه مستويات عديدة، سياسية واقتصادية وفكرية، مستويات وليست بنيات منغلقة على نفسها. فكيف نحرر علاقات الإنتاج ونقيد السياسة والفكر اللذين يقومان على هذه القاعدة المادية؟

إن نصر أبوزيد لا يدعو كما سبق أن دعا اليسار الإسلامي إلى إقامة دولة إسلامية شيوعية. وإذا كانت فكرة اليسار الإسلامي تبدو اليوم من الناحية النظرية أحدث فكرة عربية يسارية وجهت على نحو من الأنحاء بحوث أبوزيد، فإن ذلك لا ينفي أن جوهر اليسار الإسلامي هو جوهر قديم وجد في التفكير الإسلامي منذ أواخر القرن الثالث الهجري، وهو جوهر من المحال تطبيقه في نظر أبوزيد لأنه كما تقول الآية: «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون»(١١).

على أن الاجتزاء الشيوعي للنص جاء وغزا المجتمع الإسلامي ذاته وهو في ذروة قوته ونضجه ورسوخه في أوائل القرن الرابع الهجري على يد طائفة من الدعاة الذين اعتنقوا مبادئ دينية واجتماعية جديدة ونجحوا في إقامة دولة من طراز جديد تقوم على نوع من الشيوع الاقتصادي والاجتماعي. طائفة القرامطة الذين ظهرت دعوتهم الثورية لأول مرة في أهواز الكوفة.

إلا أن دعوة أبوزيد ليست كما أسلفنا دعوة إلحادية. في حين كانت دعوة قرمط في البداية على أقل تقدير دعوة إلحادية عنيفة شهرها عبدالله بن ميمون في جنوبي فارس باسم الحركة الشيعية في أوائل النصف الثاني من القرن الثالث الهجري.

كما أن مشروع أبوزيد ليس مشروعا دينيا رغما عما يبدو لأول وهلة ورغما عن الفكرة الدينية التي ظلت إلى الآن قوام كل دعوة جديدة تبدو في المجتمع الإسلامي للقيام بأية محاولة لانتزاع السلطة السياسية والدينية والفكرية. وكان ولايزال الدين عضد السياسة ودعامة الفكر الأولى. ولم يشذ داعية القرامطة في هذه القاعدة. بل ولم يشذ دعاة النهضة الحديثة عن القاعدة نفسها.

بل نستطيع أن نستنبط من قراءة التاريخ أن كل مشايخ مصر الكبار وأصحاب الأضرحة الكبيرة والموالد المزدحمة أنهم في الواقع زعماء سياسيون وفكريون قبل أن يكونوا رجال دين. وأنهم كانوا حتى ما قبل عقد الثلاثينيات من هذا القرن في صف الناس ضد الحاكم والوالي وعساكر السلطان. وكلهم وبلا استثناء وفي أولهم السيدةنفيسة والإمام الشافعي وإلى الحسن الشاذلي والمرسي أبوالعباس وسيدي أحمد البدوي والشاطبي والقباري وإبراهيم الدسوقي، كلهم قاوموا السلطان ورسخوا تقليدا في التفكير التلقائي لعامة الشعب وخاصته على السواء.

وقد انتهت إلينا في مشروع أبوزيد أقوال كثيرة متضاربة. بيد أنه يكاد يكون من الدقة العلمية مشروعاً مادياً لا يقوم على مرجعية اليسار الإسلامي وإنما على أساس مرجعية سياسية واجتماعية وثقافية، مختلفة تمام الاختلاف عما أدت إليه التوفيقية من سقوط واضح لا يحتاج إلى إثبات.

على أنه يبدو مع ذلك أن محاولة أبوزيد ينقصها تحديد أدق لما تقوم عليه من سياق تاريخي اجتماعي لا يكون تحديدا في المطلق وإنما يكون تحديدا يربط النص بمدار الواقع ■

الهوامش:

(١) القرآن الكريم، سورة آل عمران الآية ٧.

(٢) د. نصر حامد أبوزيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ط٢، ١٩٩٢، المركز الثقافي العربي، ص٦.

(٣) د. نصرحامد أبوزيد، مفهوم النص، ١٩٩٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١١٧.

(٤) د. نصر حامد أبوزيد، الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية ١٩٩٢. سينا للنشر ص ٢١.

(٥) طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلاء، ط٣، ١٩٣٧، دار المعارف، ص٣٠.

(٦) د. نصر أبوزيد، الخطاب الديني، ١٩٩٢، دار المنتخب العربي، ص ٥٣

(٧) د. نصر أبوزيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ط٢، ١٩٩٢ المركز الثقافي العربي، ص ١٤.

(٨) د. نصر أبوزيد، الخطاب الديني، ١٩٩٢، دار المنتخب العربي، ص ٢٤.

(٩) سيد قطب، المستقبل لهذا الدين، دار الشروق، ص٨، نقلاً عن د. نصر أبوزيد، الخطاب الديني، سبق ذكره، ص ٤٤.

(١٠) المرجع نفسه، ص ٥٤

(١١) القرآن الكريم، سورة البقرة آية ٨٥.

الماضويون يحتلون المقاعد الأمامية

محمود قرنى

شاعر وكاتب مصرى

تمهيد :

قام ينطلق نصر حامد أبو زيد فى كتابه «نقد الخطاب الدينى» من تفسيره لظاهرة المد الإسلامى الجديد، إلى الفصل بين الخطابات الدينية التى تتعدد فى مستويات أصولية متباينة، متمثلة فى اتجاهين رئيسيين، هما المؤسسة الدينية الرسمية للدولة ممثلة فى الأزهر، وبعض رجال الدين الذين يصنفون عادة فى صفوف «المعارضة الدينية»، وقد قسم المؤلف الكتاب إلى ثلاثة فصول بدأها بالخطاب الدينى المعاصر، الآليات والمنطلقات الفكرية. وفى الفصل الثانى قدم المؤلف قراءة فى مشروع اليسار الإسلامى وأخيرا إعادة قراءة النصوص الدينية وهى دراسة استكشافية لأنماط الدلالة، وهذه الفصول الثلاثة قد سبق نشرها منفصلة وقد رأى المؤلف أنها ليست منبتة الصلة بالأزمة الرئيسية التى تشغله وهى مشروعه الرئيسى فى ضرورة إعادة قراءة التراث.

فى البداية يأخذ نصر أبو زيد على عاتقة مهمة الكشف - كما أشرنا - إلى تعرية الخطاب الدينى فى وضعه «المعتدل» و«المتطرف» ويرى أن هذين النمطين من الخطاب يفصلهما فقط فارق فى الدرجة لا فى النوع وذلك لعدم وجود خلاف جذرى فى المنطلقات الفكرية أو الآليات «ويتجلى هذا التطابق فى اعتماد نمطى الخطاب على عناصر أساسيه ثابته فى بنية الخطاب الدينى بشكل عام مثل «النص»» و «الحاكمية» ويرى الكاتب أن الخلاف بين المعتدلين والمتطرفين يكمن فقط فى «تكفير» الحاكم والمجتمع، ويؤكد هذا الاتجاه البيان الذى أصدره مجموعة من علماء الدين بعد أحداث عين شمس وهو البيان الذى تعرض لفكرتى «عصيان الحاكم وعدم خروجه عن الدين» وموقف هؤلاء العلماء من قضية تغيير المنكر

باليد»، ولم يكن موقفهم من هاتين المشكلتين واضحا بل كان يحمل فى الوقت الواحد، الاتهام والتبرئه، يقول البيان «إن الحكام لايردون على الله حكما ولاينكرون للإسلام مبدأ» وهى كما يقول المؤلف عبارة مراوغة تنفى عن الحكام صفة الكفر لتنسب إليهم - بهذه الصياغة صفة «العصيان ماداموا لا يردون أحكام الإسلام ولامبادئه وهم فى الوقت نفسه لا يطبقونها».

ويرى أبو زيد أنه من الظلم الفادح «فضلا عن عدم الدقة العلمية، اعتبار الجماعات الدينية نبتا غريبا عن التربة ويجب استئصالها، كما تروج لذلك أجهزة الإعلام، لأن هؤلاء الشباب ضحايا الخطاب الإعلامى المستند على أسس ليست أقل فاشية من خطاب الجماعات الدينية، وإذا كان يبدو أحيانا فى سياق بعض الأحداث والمواقف أنهم جلادون، فإن الجلادين الحقيقيين هم الذين ملئوا عقول هؤلاء الشباب - بكل ما تمتلئ به من أفكار، وضعوا بها فى أيديهم السياط والجنازير».

والسؤال الذى يطرحه المؤلف فى مستهل تحليله لآليات الخطاب الدينى هو ما أشار إليه فى مجال التوحيد بين الفكر والدين فى ديماجوجية الخلط وخطورتها وإلغاء المسافة المعرفية بين الذات والموضوع «بل تجاوز كل الشروط والعوائق الوجودية والمعرفية والوصول إلى القصد الإلهى الكامن فى النصوص. وهذا ما يمنح رجال الدين وحدهم الحق فى «الحديث باسم الله»، وهى المنطقة التى تحاشى الخطاب الإسلامى على طول تاريخه مقاربة تخومها على حد تعبير الكاتب، لذا فإن المسلمين مطالبون بالكشف عما إذا كان تصرف النبى محكوما بالوحى أم محكوما بالخبرة والعقل، ويرى المؤلف أن هذا الخلط بين الفكر والدين - حيث يقع الفهم فى



الحاضر وينتمى النص إلى الماضى - لابد أن يعتمد على «إهدار البعد التاريخى» ويتأكد ذلك فى اللجوء إلى آراء القدماء واجتهاداتهم باعتبار أن ذلك جاء استنادا إلى الإسلام «والسؤال الآن هو الكشف المأمول عن الأسباب الحقيقية وراء الإقتناع بامتلاك «الحقيقة»، فى الخطاب الدينى ومصادرة مواقف الآخرين ووضمهم على الفور «بالكفر». وقد يكون ذلك ناتجا - كما يذهب المؤلف - إلى رد جميع الظواهر إلى مبدأ واحد أوعلة أولى وهى فى الإسلام الله - ورد الظواهر جميعها إلى مبدأها الأول هو «إحلال الله فى الواقع العينى المباشر، مما يستتبع بالضرورة نفى الإنسان وإلغاء القوانين الطبيعية والاجتماعية ومصادرة أية معرفة لاسند لها من الخطاب الدينى أو من سلطة العلماء. وهذا من شأنه أن يقود بالضرورة إلى الحاكمية الإلهية بوصفها النقيض - لحاكمية البشر. وبالتالى فإن الخطاب الدينى يوظف هذه الآلية لتكريس هجومه على كثير من اجتهادات العقل الإنسانى فى محاولته لتفسير الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية وفهمها - «ويتم ذلك باختزال كل اجتهاد من هذه الاجتهادات ورده إلى فكر واحدة تبدو ساذجة متهالكة فى تعبير الخطاب الدينى ، وهى اتهام كل الأفكار المناقضة بالإلحاد أو فصل الدين عن الدولة كما يبدو ذلك فى الهجوم على العلمانية».

ولايتورع الخطاب الدينى عن إسقاط كل مايتناقض معه من التراث ولاسيما فى مجال العلوم العقلية، وذلك باعتماد المنهج الانتقائى النفعى حين يتعرض بالنقاش لكثير من القضايا، وهو فى ذلك لايتحمل أى خلاف جذرى، وإن اتسع صدره لبعض الخلافات الجزئية، «وكيف يتحمل الخلاف الجذرى وهو يزعم امتلاكه للحقيقة الشامله المطلقه؟». ويشير المؤلف إلى وهم التطابق بين المعنى الإنسانى (الاجتهاد الفكرى) الآنى، وبين النصوص الأصلية وإسقاط أثر الفعل التاريخى على آليات عمل النصوص، واستخدام الخطاب الدينى لمصطلح «الجاهلية»، وتعمد الخلط بين الجهل - بمعنى انعدام العلم والمعرفة فى لغتنا المعاصرة وبين الجهل المناقض للحلم فى اللغة العربية قبل الإسلام، ويفسر المؤلف الجهل فى لغة ما قبل الإسلام بما يعنى الخضوع لسطوة الانفعال والاستسلام لقوة العاطفة دون الاحتكام إلى رزانة العقل وقوة المنطق، وتحولت كلمة الجاهلية فى لغة الإسلام لتكون مصطلحا دالا على

مرحلة تاريخية فى تطور المجتمع العربى، وهى بالتحديد مرحلة ما قبل الإسلام، وإذا كان الفكر الإسلامى يمثل الخطاب المضاد لخطاب الجاهلية فإنه كان جديرا به أن يحتكم إلى العقل والمنطق فى فهم نصوصه ذاتها، لكنه يتجاهل الفعل التاريخى - يتجاهل هذا التوجه فى سبيل تثبيت خطابه، وأصبحت الجاهلية فى مفهوم هذا الخطاب هى «الاعتداء على سلطان الله فـ الأرض وعلى أخص الخصائص الـ ـهية وهى الحاكمية، إنها تسند الـ كمية إلى البشر - فى صورة ادعاء ـق فى وضع التصورات والقيم ـرائع والقوانين والأنظمة والأوضاع ـزل عن منهج الله للحياة» وهذا هو ـريف الإمام سيد قطب فى كتابه معالم الطريق حسب تضمين المؤلف، وبهذا ـعلى فإن حاكمية الله المشار إليها فى ـطاب الإمام سيد قطب تنتهى بالطبع ـى رجال الدين ليصبحوا المتحدثين باسم ـله رغم أنهم بشر لهم أهواؤهم وتحيزاتهم ـأيديولوجية.

وهذه المحاولات الدائمة والدائبة لإلغاء العقل وتهميش دوره لحساب النص وتأسيسه، لنفيه النهائى وذلك بنفى أساسه المعروفى، ويؤكد الكاتب على أن العودة إلى الإسلام لاتتم إلا بإعادة تأسيس دور العقل فى الفكر والثقافة، مناهضا بذلك التوجه الذى ساد الخطاب الدينى بداية من ثورة يوليو ١٩٥٢ التى تزامنت مع الخطاب الدينى للإخوان المسلمين متمثلا هذا الاتجاه فى أعلى مناطقه عند الأمامين حسن البنا وسيد قطب على وجه التحديد فى كتابه المهم «معالم فى الطريق».

ويرى المؤلف أن الخطاب الدينى فى هذه المرحلة لم يكن يتجاوز التصور التراثى - نظريا - تجاه فكرة الدين والحاكمية - إلا أنه على المستوى الاجتماعى لم يستطع طرح ماهو أبعد مما دعت إليه ثورة يوليو بقيامها بإرساء ماسمى بالعدالة الاجتماعية بمظاهرها وتجلياتها المختلفة، لذا فإن الكاتب يرى أن الهدف من خروج الإخوان على الثورة لم يكن إلا تنفيذا لتصورهم عن الحاكمية التى هى لله فى الأصل ثم لهم باعتبارهم المتحدثين باسمه فى الأرض، لذا فإنهم لم يكن لديهم أقل من تصورهم للحصول على السلطة كاملة دون أدنى مشاركة من أية قوى سياسية أخرى.

ويتعرض الكاتب بالانتقاد لمشروع اليسار الإسلامى باعتباره - كما يرى الكاتب - جزءاً لا يتجزأ من المنظومة الدينية التى تتفاوت درجة التشدد فيها، لأنها تنبنى على أساس معرفى غير قابل للانقسام، وكانت مادة الحوار، ... المشروع الكبير الذى قدمه الدكتور حسن حنفى متمثلا فى مؤلفة الضخم «من العقيدة إلى الثورة» باعتباره أهم ممثلى هذا الاتجاه فى مصر بل فى العالم الإسلامى عموما، ويضيف الدكتور نصر أبو زيد أن مشروع اليسار الإسلامى يمكن أن نجد له بذوراً واضحة فى كتاب «معركة الإسلام والرأسمالية»، و «العدالة الإجتماعية فى الإسلام» لدى الإمام سيد قطب وكذلك عند قطب الإخوان السورى «مصطفى السباعى» فى كتابة «اشتراكية الإسلام»، ويضيف المؤلف أن هذه الإرهاصات تمثل امتدادا طبيعيا للتأويل العقلانى للإسلام الذى طرحه كل من الأفغانى ومحمد عبده استجابة للتجديد الحضارى الذى طرحه الآخر «الغربى» من جهة واستناداً إلى التراث العقلانى للمعتزلة وابن رشد من جهة أخرى.

ويوجه المؤلف فى البداية تهمة التلفيقية للدكتور حنفى مستنداً إلى إعلانه الذى يفتتح به العدد الأول والوحيد من مجلة «العروة الوثقى» الصادر عام ١٩٨١ فى قوله «لايهدف اليسار الإسلامى إلى استنفار أحد أو الإستعداء على أحد بل يرمى إلى يقظة الأمة، واستئناف نهضتها الحديثة وطرح البدائل أمام الناس، والإحتكام إلى جماهير الأمه»، ويرى المؤلف أن هذه التوفيقية الواضحة فى بنية الخطاب تعود إلى الحظر السياسى الذى حاق بكل اتجاهات اليسار وفصائله فى بداية الثمانينيات وكرد لتنامى اتجاه اليمين الإسلامى، وليس لنا أن ننسى أن اليسار الإسلامى اتهم بالماركسية والعمالة من جانب النظام والمد الدينى من جهة، واتهم بالتلفيقية والتبريرية من جانب قوى اليسار من جهة أخرى، إلا أن الكاتب لا يتفق مع من ذهبوا إلى أن حسن حنفى أصابه ما أصاب غيره من الإرتداد ومغادرة معسكر اليسار، رغم ما يراه - الكاتب - من انحياز الخطاب السياسى لليسار إلى التراث الدينى بأكثر ماينتمى للعلمانية رغم الميل الواضح لهذا الانحياز الذى يبدو للناظر إليه بنظرة عابرة وغير متعمقة، ولا يرى المؤلف تناقضا فيما يذهب إليه هذا التيار من اعتماده التراث كفعالية تشكل أهم العوامل فى صياغة وعينا الثقافى والفكرى الراهن ولكنه ليس التراث بمجمل اتجاهاته وتياراته التى يضعها، لكن الكاتب يرى أن هذه الاختيارات، معقدة ومتناقضة إلى حد الصراع مع الواقع العينى المباشر نظراً لما تتضمنه هذه العملية من إبراز وتعتيم أو تلوين لتيار دون الأخر إلى المغزى الذى نحدده سلفا، وهذا يستوجب النظر إلى تأسيس علمى مغاير لبناء العقل العربى أدى غيابه إلى موت المشروع التنويرى المصرى الذى بدأ بداية هذا القرن.

ويرى الكاتب أن المشروع اليسارى الإسلامى بالمعنى التوافقى السابق أقرب إلى الإخفاق منه إلى النجاح، ويبرهن على ذلك بأنه يسعى للتوفيق بين أطراف لم ترصد جوانب الخلاف أو الاتفاق بينها

بدقة، ويجمد الحاضر فى إسار الماضى ويجعله خاضعا له ولمعطياته خضوعا شبه تام، وكذلك تجاهله للسياق التاريخى الاجتماعى للتراث وتعامله معه بوصفه بناء شعوريا مثاليا مفارقًا لزمانه ومكانه رغم نشأته منهما، لذا فإن الكاتب يرى أن ما قدمه هذا المشروع كان مجرد إعادة طلاء وليس إعادة بناء، لكن هذا الإخفاق الواضح على جميع المستويات لا يمثل الحقيقة كلها فقد حقق المشروع إنجازات هامة فى دراسة التراث لاسبيل إلى تجاهلها - حسب تعبير الدكتور أبو زيد.

وفى بداية دراسته الاستكشافية لأنماط الدلالة فى النصوص الدينية يباغتنا المؤلف بسؤال شديد الحيوية ألا وهو: كيف أمكن لإنجازات النهضة والتنوير أن تنزوى فى دائرة ضيقة مفسحة المجال لسيطرة خطاب دينى غاشم يسعى إلى إطفاء كل المصابيح الإنسانية التى جاءت الأديان السماوية لتقوى وهجها، ويضيف الكاتب أنه مع التحليلات التى تفسر هذا النكوص برده إلى الطليعة التلفيقية لمشروعات النهضة، تلك الطبيعة التى تفسر دورها بهشاشةالطبقة الوسطى حاملة لواء النهضة وتهافت تكوينها وتبعيتها الاجتماعية والاقتصادية، وكان من أهم عوامل تراجعها أيضا دوران الخطاب التنويرى - حسبما يرى المؤلف - مع نقيضه السلفى داخل دائرة السجال الأيديولوجى، ولم يتجاوز ذلك إلى تأسيس أفق معرفى جديد منقطع جذريا عن نقيضه السلفى.

وإذا كان النظام اللغوى بدلالاته المتعددة هو تعبير عن بناء ثقافى يعبر عن بيئته التى ينتمى إليها وهو ما ينطبق على النصوص اللغوية كما يرى المؤلف، فإنه من الجدير طرح إشكاليه الفارق بين النصوص الدينية وغيرها من النصوص اللغوية التى تخضع بسهولة لمنهج التحليل عند «دى سوسير»، ويرى المؤلف أن العائق أمام إخضاع النصوص الدينية للمنهج المشار إليه هو توهم إخضاع الكلام الإلهى «الذى لابد أن يكون مخالفا للكلام الإنسانى» لمناهج التحليل العقلية الإنسانية، وذلك بافتراض أن العلاقة بين الإلهى والإنسانى تقوم على الإنفصال وهو التصور الأشعرى للعالم.

وهو فى الحقيقة إهدار للروح التاريخية وحقيقتها الموضوعية الملاصقة والمرتبطة بالظاهرة والإصرار على التمسك بالأصل الأسطورى والميتافيزيقى باعتباره المفسر الوحيد المحددلطبيعة هذه النصوص.

ويضيف المؤلف أن النص الدينى بالمعنى السابق هو نص مستغلق تنتفى عنه صفة الرسالة والبلاغ باعتباره نصًا لم يخلق لأفهام البشر العاجزين عن فهمه لطبيعته الإلهية التى تحتاج لبشر ذوى طاقات خاصه تمكنهم من الفهم - ويرد المؤلف هذا الموقف على أصحابه بتقريره باعتبار النص الدينى نصا لغوياً شأنه شأن أية نصوص أخرى فى الثقافة وأن أصله الإلهى لا يعنى أنه فوق الدرس والتحليل والمنهجية.

وهذا التصور اللغوى الذى يجعل المؤلف يقرر ببشرية النصوص الدينيةهو ذاته الدافع الذى يقرر به - منطقيا بتاريخية النص الدينى، بالمعنى الذى يربطه ربطا وثيقاً بالنظام اللغوى والمحيط الثقافى الذى نشأ منه وكذلك حقائق العلوم النقلية كافة المرتبطة بالنصوص بعد إخضاعها لأدوات الفحص والتوثيق.

وهذه الجزئية كانت من أهم العوامل التى دعت الدكتور عبد الصبور شاهين مقرر لجنه الترقيات بالجامعة إلى التقرير السلبى بإنتاج الدكتور أبو زيد باعتبار أن تاريخيةالنص الدينى، وهى نتيجة طبيعية لاعتماده نموذجًا بشريا وليس إلهيا «يخرج صاحبه لدائرة الكفر الصريح». ■

مقدمة فى تحليل الخطاب السينمائى



حسنى عبد الرحيم

باحث وكاتب مصرى

فى توطئة عن الأيديولوجيا بشكل عام:

لا توجد فى رأينا أية أشكال للتعبير سواء منها الرمزى أو الإشارى أو المفاهيمى لا تندرج ضمن الإطار العام لممارسة السيطرة (autorité)، فكل أشكال الممارسة الخطابية، وكل أشكال ما يسمى بالإبداع هى تمثيل لعلاقات واقعية معاشة هى بالأساس علاقات سيطرة، ومجمل الممارسة الواعية واللاوعية للخطاب هى علاقات صراعية، وفى خلال العمليات الأكثر تلقائية والبعيدة عن الخطاب الواعى بذاته - سياسى، اجتماعى، اقتصادى - تكون الممارسة الاصطراعية مقنعة حول قيم جمالية وأخلاقية تفترض لنفسها سرمدية معينة - إنسانية -، وهذا التقنع لا يقوم به صانع الخطاب بغرض الغش وإنما يفترض فى الأصل توهم منتج الخطاب لسرمديته. أى أن الشرط المعرفى لإنتاج خطاب إبداعى يتضمن الإيهام الكامل أو المسيطر الواقع فيه منتج الخطاب حتى يمكننا اعتباره ضمن ما اصطلح على تسميته إبداعا، أى الاستخدام الحيوى المشفر والمومئ - الناقد أو المجدد - لأدوات الاتصال (اللغة - الصورة - الصوت، وربما فى أحوال - الرائحة).

ويعتمد هذا الشرط على معطيات خارجية (عن الخطاب، تشتمل على الأوضاع التاريخية لتشكل القوى الاجتماعية وتمفصلها، والإطار الثقافى الذى مارست خلاله احتكاكاتها والشروط الدولية لوجودها، والأهداف المعلنة والمستترة لنشاطاتها أى: أيديولوجيتها المعلنة (Ideolgie declaré) وأيديولوجيتها المستترة (Ideologic cosché)، كذلك يعتمد على شروط فرعية معقدة تتضمن العلاقات الخاصة بين أفرع الإنتاج الأيديولوجى ودرجات تقسيم العمل فى إنتاج الخطاب ذاته،

ومدى انبثاق شريحة اجتماعية متخصصة فى هذا الإنتاج، ومدى حظها من الفائض الاجتماعى، ودرجة تمأسسها (جامعات - دور نشر - مجلات - نواد - فرق مسرحية ... الخ).

وتتشكل الخطابات الأساسية (المسيطرة) والخطابات الفرعية داخل نظام للتفكير (System de pensé) وبالإمكان تجريد معظمها إلى مخططات (Schema) متشابهة .. ذلك ضمن الاستقرار العام لمجتمع معين تحكمه أنظمة سلطة مستتبة (Pouvoire) كذلك أنظمة سيطرة معترف بها (autorité) قادرة على الدمج وإعادة الإنتاج.

والشرط الأولى لظهور خطابات مضادة هو تعرض هذا الاستقرار للاهتزاز الناتج من صعوبات هيكلية فى إنتاج وإعادة إنتاج الهيراركية السابقة الذى يظهر أثره بشكل عام فى كسر الإيهام لدى منتجى الأيديولوجيا أنفسهم حول قيم وجماليات وأخلاقيات النظام الاجتماعى، ويبدأ التوتر يشوب عمليات الإبداع وتتزرع الأسئلة الجديدة فى قلب نظام التفكير .. لكنها تكون هى الأسئلة التى يمكن التفكير بها (pensable)، أى ما تطرحه التناقضات المعينة ضمن نظام التفكير المعطى والمتوتر.

إن عملية تشكل الخطاب، والخطابات المضادة يحكمها نظام التفكير الذى يفرض على الجميع نوع الأسئلة التى تنبنى حولها الخطابات وعكسها .. إن نظام التفكير كما يفترض ما يفكر فيه يفترض كذلك ما لا يمكن التفكير فيه (inpensable)، وهو يؤكد على جميع محاور الصراعات الفكرية - الأيديولوجية والرمزية كمعمار مشترك لمجمل الأبنية الفكرية المتعاركة، وهذا المعمار يماثل إلى حد بعيد المعمار الاجتماعى وأشكال تمفصل الفئات والطبقات الاجتماعية.

إن الخروج من نظام للتفكير لآخر يفترض تدمير بنية اجتماعية معينة (بنية سيطرة) والولوج إلى بنية أخرى مفارقة.

حالة الصور المتحركة:

لا يشكل إنتاج الخطاب السينمائى استثناءً لما سبق، بل يشكل المثال الأكثر تطابقا مع التوطئة السابقة، ذلك بسبب طابعه البضاعى وطريقة إنتاجه شديدة الارتباط بتقسيم العمل خارجه، وآليات إنتاجه واستخدامه الجماعية وشبه الجماعية، كذلك عمليات التعبئة الرمزية المرتبطة به حول منتجات متنوعة. (أخلاقية - اجتماعية - سياسية). ذلك أنه قد حل محل تقسيم عمل قديم ودمج عناصر سابقة كانت متنافرة (الكنيسة - السوق - الحانة) ضمن إنتاج موسع للمخيال الاجتماعى (Imaginaire social).

إن طريقة الإنتاج هذه للمخيال فرضت تناقضات أساسية تتحكم فى فعالية الخطاب السينمائى وتماسك بنائه وقدرته المفترضة على إحداث الدمج والخلق الواسع لآليات محاكاتية (memitique).

١ - آليات إنتاج المخيال الاجتماعى، وآليات إنتاج المخيال الإبداعى:

يتشكل المخيال الاجتماعى حول عمليات موضوعية للإنتاج والاستهلاك والحاجات اليومية المشبعة والحاجات المحرومة، ويتم ترتيب وهيكلة هذا المخيال حول العلاقات السائدة فى النسيج الاجتماعى، واستدعاء ما هو مناسب من المخيلة التاريخية، واستنباط أو اكتساب ما هو ضرورى من الإنتاج الرمزى المعاصر، وتنميط أشكال السلوك والتعامل بالموافقة مع الأشكال التى يعيشها الناس فعلياً فى نظام حياتهم المادى، كذلك التشديدات المختلفة على الجوانب المتنوعة من النسيج الأيديولوجى تبعاً لوضعية الناس فى نظام السيطرة الواقعى.

إن درجات السلوى أو اليوتوبيا تعتمد على حظوظ الناس من الثروة والسلطة، كذلك احتفاليتهم تتنوع بتنوع نصيبهم من الفائض، ويتم تركيب كل ذلك داخل النظم الإشارية والرمزية للتعامل والتفكير.

زبدة القول ومختصره أن هذا النظام للتشكل المخيالى تحكمه أساساً علاقات الناس الواقعية (الموضوعية) وهو يماثلها ويمثلها.

من ناحية أخرى يتشكل المخيال الخاص بصانعى السينما وفق علاقات مفارقة ليست هى علاقات العمل تلك (وإن كان أغلبها علاقات عمل مأجور

شديد التخصص)، ولكنها تتضمن بداية السمات الذاتية من طبيعتها المتعالقة على علاقات العمل الأصلية وتتضمن عناصر إغوائية (tentational) مركبة تحول منتج الصورة هو نفسه إلى صورة (نجم)، وتشكل ما يسمى «بالوسط» المهنى وتراكم الممارسات الخطابية التى تؤدى إلى تشكل وسط مؤدلج له احتياجات ونوازع ونظام للترميز (سيمولوجيا الوسط) أى فى نهاية الأمر تشكل طائفة مغلقة (cult) لها سِيم، وضمن هذه الطائفة يتم تكوين الصور المتحركة وتوليفها وإعطاؤها رسالتها المفترضة، والتى تبدو لواضعيها كما لو أن الآليات التى تحكمها مستقلة عن العمليات خارجها.

إن إحدى أهم تناقضات العملية السينمائية هى تلك الإزاحة (deplacement) بين تشكل المخيال الاجتماعى بشكل عام وتشكل المخيال الابداعى بشكل خاص، وأحد أهم الأسئلة المطروحة على الإبداع فى الصور المتحركة، هو كيفية البحث عن مواءمة أو توافق (resonance, pertinence) بين الآليتين، وهو الشرط الأوّلى لتفاعل نظامى التشكيل الرمزى والتكوين المخيالى أى تأثير الصور المتحركة ـ التى هى فى آخر الأمر صورة ما عن الواقع محملة برسالة مشفرة ومبنية لكى تتوافق مع بناء آخر وتخترقه وتدخل معه وتقوم بالتأثير فيه.

لا يمكن البحث بتاتاً عن مطابقة فى بناء المخيالين (الإبداعى ـ الاجتماعى)، وإنما المواءمة شرط أولى للتأثير والتمثيل كذلك للوهم والخداع والتلهية والفرح.

٢ ـ طبيعة خاصة للإنتاج الفيلمى.

الصورة المتحركة تنتج بواسطة نظام متراتب لتقسيم العمل، أولا مجال الكتابة السينمائية سواء أكانت مفردا أو ورشة سيناريو مدركا فى غالب الأحوال شروط الإنتاج الأخرى، لم يعد هناك بالطبع ذلك العبد الصالح الذى يجلس على مقهى ويؤلف سيناريو لسينما مجهولة.

فالحقيقة أن الناس تكتب وهى مفترضة شروطاً معينة للإنتاج، وإمكانيات معينة للتمثيل والإخراج والتقنية، وتتوالى بعد ذلك عمليات الإخراج التخطيطى (mise en scence) والديكور وتأليف الموسيقى ثم الإخراج التنفيذى (mise en. Shot) ونهاية التوليف والمزج السمعى والبصرى والعمليات المتراتبة تلك يقوم بها مبدعون مختلفون لديهم حساسيات مختلفة وخيال إبداعى متفاوت، وعلى عكس مؤلف الكتاب وكاتب القصيدة ومصور اللوحة ومؤلف الموسيقى فإننا نواجه هنا وجوداً متزامناً داخل نفس «المنتج» للحساسيات المختلفة للمبدعين.

إن الشرط الضرورى لنجاح التجربة الفيلمية قبل العرض هو إمكانية تكامل مجمل هذه الملكات المرتبط والمعتمد على وجود توجه معين مصاغ فى خطاب متفق عليه للأهداف التى يتوجه إليها الشريط والرسالة (message) الإبداعية الخاصة به والأسئلة التى يدور حولها وضمن أى نظام للتفكير وأية ثقافة هو. طبعاً هذه شروط مثالية (Ideal) ليس مفترضاً وعيها كاملاً بالنسبة لكل المشاركين أو بعضهم، ولكن توفير عناصر مهمة منها ضرورى خصوصاً فى مخرج الفيلم، وقدرته على وضع بقية المشاركين داخل هذا «الجو» هو الذى يسمح بإنتاج يملك قدرة إيحائية لجمهور واسع.

يفترض هذا «إيماناً» ما بأهداف العمل وليس مجرد «عمل مأجور» يفترض أيهاماً ما من عناصر المشاركة الفيلمية فى مجمل المحتوى الجمالى والأخلاقى المتضمن يفترض بكلمة واحدة «رسالة».

٣ ـ نظام تمفصل وشريحة مفصلية (Articulation)

انتقلنا من آليات إنتاج المخيالين الاجتماعى والإبداعى إلى الطبيعة الخاصة للإبداع الفيلمى، والآن تبقى العملية التى تتحقق خلالها هذه الرسالة والتى لا يمكنها أن تتنزل على الجمهور هكذا دون توسط ودون فئة (شريحة) متوسطة تشكل نواة الجمهور وعقله التوسطى بين المخيال الإبداعى والمخيال الاجتماعى ..أى التكوين الذى تختلط فيه عناصر تكوينية من العمليتين السابقتين، وهو ليس الجمهور بشكل عام، ولكنه شريحة نواة (الجزء النشط من الجمهور) نسميه هنا تحت المثقفين (-sous itteli gencia)، وهو يشبه إلى حد ما «المثقف العضوى الغرامشوى» وتحت المثقف السينمائى هو ذلك المدرب على المشاهدة بفعل قلق ما وجودى، وبفعل تكوين غير مكتمل وحساسية إبداعية ناقصة، ويدرك بشكل مبتسر أدوات اللعبة الأيديولوجية دون وعيها كلياً، ولا يدمج الإدماج الكامل للمشاهد العادى، وهو القارئ للتحليلات الصحافية السريعة والمتابع الشبق لأخبار النجوم وأخبار الأفلام والمتعرف بشكل إعلامى لتاريخ الفن السينمائى.

إن هذه الشريحة هى التى تكون الذوق السينمائى وتعممه، إنها تمارس عملها من خلال التكوينات الاجتماعية، إنها جمهور متميز تشكل تحبيذاته وتحيزاته القوة التحريضية لخلق المناخ العام، أنها تمتلك مخيالاً هجيناً بين ما هو اجتماعى وما هو إبداعى ـ نخبوى، مهنى.

إن عملية تضافر المكون الإبداعى مع ما يحتويه من مخيال ونظام معين

للإدراك مع المخيال الاجتماعي المشفر والمجرد تجريداً متناسباً مع التكوين الثقافي في مجتمع معين.

إن عملية التضافر هذه هي التي تسمح بالتأثير واختراق الإبداعي للاجتماعي، ذلك عن طريق الإيهام بالواقع الذي يشكل الملمح الرئيسي لكل الأعمال التخيلية (Fiction) .

٤ ـ وسط التلقي Intermediare

إن الرسالة التي تبثها الصور المتحركة متنوعة، كذلك الأماكن التي يتم فيها تلقي هذه الرسالة، وهي تشتمل منازل مختلفة لطبقات متنوعة ، وذات ثقافات أصيلة أو مستعارة تتخلل الأثاث المنزلي وترتيب الحجرات وشكل المشاهدة، كما تتضمن أنواعا مختلفة من صالات العرض ذات عمارات مختلفة، وذات أشكال متنوعة من الطقوس، وتتضمن عادات مختلفة قبل وبعد وأثناء العرض .. هناك مشاهدات يعقبها طعام ومشاهدات تتخللها حوارات مع الفيلم نفسه (جمهور الدرجة الثالثة في مصر والهند)، وتوجد دور العرض في أنواع مختلفة من المدن والقرى ، وربما يوجد حرس وجنود على أبواب بعض الدور، وربما يرتدي موظفو الصالة زياً رسمياً يشبه زي الجنود ، وأخيراً مشاهدات بالسيارات.

كل هذا وأشياء أخرى كثيرة ومركبة تدخل في صلب المشاهد وتتمازج عناصرها الرمزية مع العناصر الرمزية للصور المتحركة، وتكون جزءاً من مركبات «العرض» بالضبط كما يشكل اختلاف أشكال المعمار للكنائس الإنجيلية عن الكنائس الكاثوليكية جزءاً لا يتجزأ من طبيعة الرسالة التي تنشرها كلتاهما.

إن هذه المؤثرات ذات أهمية خاصة فيما يتعلق بالجمهور الأوسع الذي يفترض أن يسلك سلوكاً محاكاياً (mamitique) .

إن آليات عمل الشريط المبثوث على الفيديو تختلف في نواح كثيرة عن آليات عمل الشريط المبثوث نفسه من قاعة كبيرة يؤمها مئات الناس ، يدخلون ويخرجون في شبه نظام للعمل، وانتظاراً لما تتلى عليهم من مصدر متعالٍ، وتحت إظلام يؤدي إلى حالة معينة مشابهة للتنويم الإيحائي.

إن الأثر المختلف للصور والموسيقى يختلف ويتنوع باختلاف الوسط .. إن الناس لا يشاهدون الفيلم نفسه، كذلك تتضمن المشاهدة عنصراً مهما من «ما قبل العرض» هو الدعاية التي تشدد على عناصر معينة من الفيلم كالعناصر المؤلفة للدعاية التلفزيونية ، وكذلك الملصق «الأفيش» الذي يعتبر معالجة ما لرسالة الفيلم ، وليس مجرد دعوة للمشاهدة، إنه يتضمن تركيزًا للعناصر التي يرى أصحاب الفيلم أنها جوهرية ، وبالتالي فإن المشاهد يذهب إلى دار العرض وهو يبحث عن شيء ما رآه في الأفيش.

* تعتمد هذه الدراسة على عدد كبير من الدراسات في هذا المجال وبالذات على أبحاث ميشيل فوكو ورولان بارت كذلك سباستيان ميتز، وهي تستخدم كثيرا من أنظمتهم المفاهيمية (system de conception) دون أن تشاركهم إستراتيجياتهم الفكرية، وهي تكيف هذه المفاهيم للقاعدة الأساسية للنظرة الماركسية، ولهذا فاستخدام المفاهيم الفوكووية أو غيرها ليس بالضبط كما يستخدمه منشئوها ولكننا نعيد استخدامها على طريقتنا، ولهذا فلقد تعمدنا في المقال هذا (الأول) كتابة المفاهيم باللغة الفرنسية بجانب العربية حتى يتسنى لمن يريد النقاش أن يتعرف على مصادرنا ■

الإيقاعات والرؤى

الومض، ثانية

المعتمون فى هالةٍ ، مُرِّى بنا!
علّمى أسماءنا كنية الومْضِ، ثانيةً
علّنا نواصلُ عناويننا
وهجةً
مثل عادتنا.

أرجعى لعيوننا سرْحَةَ الأفقِ
إذ ربمّا خَطَوْنا من وِجْهَةٍ غير هذهِ.

إننا نشاورُ، الآن، ظلالنا
فى غيابِ النخلِ.
لذغةً نداورالفضا، لذغةً
ونسائل، من وَحْشَةٍ
طولَ الطريقِ، فى أمْرِنا، نوْءاً.

نحيدُ مَرَّةً
ومرّةً للهدى
ولا نعرفُ، ثالثةً
أين نخبئ ما استعصى علينا
من ومضنا.

القادمون من عسلٍ قوىٍّ
نشهدُ الآن، ولادةَ زهرةٍ
ليس تشبه غصنها، ونرتبكُ
مُرِّى
ولو لمرةٍ أخيرةٍ بنا.
أنتِ نَحْلتنا
عصفٌ يُرَتِّبُ أوراقنا ■

مسافة، منأى

شعر

وليد خازندار

شاعر فلسطيني
صدر له «أفعال مضارعة» و«غرف طائشة»

وشكاً لسورةٍ
تشدُّ ظلَّك خلفكَ، حينما الندى
وإذ ترتدُّ راكداً
دونما رِعدةِ الفجر الذى تشتهى
تفضى على غيمةٍ، وتحنو.

ترفُّ عطشُ الكلامِ، على يديكَ، إلى البداهةِ:
أنت قد عاليتَ عتماً، سُدفةً سُدفةً
وعرفتَ من خَفَضٍ
أن بين الظلِّ وارتخاءتهِ مسافةَ منأى
وجاورت أفقاً
يضيق حين يقتربُ.

كيف استطعتَ أنْ، فى سَرْحَةٍ
تستعيد من الرتاج البعيدِ انتظاراتكَ كلَّها، وتنتظرُ
كيفَ، وأنتَ فى ارتيابكَ
لم تلتبسْ
بين محابسِ الوردِ الكثيرةِ
والياسمين الذى يتسلقُ الأسوارَ
ثم كيف عُدْتَ، من نَفْرةٍ، أليفاً وتؤتلفُ؟!

سَرَفٌ منك هذا الشُّدى!

بالأصابع التى كالمشط

شعر

محمد سليمان

ليس شمع الكلام إذَنْ

والأناقةُ

أو نكهة الشاى

ليست مرايا النوافذ

والشمس ساعيةً بالرسائلِ

أعنى..

إلى الآن لم يتّضحْ أوّلُ الخيط

لكننى سأقارن أطرافها بالهواءِ

وأثوابَها بالسفنْ

هكذا

سأميل على حجرٍ لأصدّ ينايرَ

فى البرد لا يخرج الشعراء من الصوفِ

والشمسُ أيضاً..

هكذا

سأقول الغياب حضورٌ

ـ لأخدعَ مَنْ أحسنَ الظن بالكهلِ ـ

ثم أقارن سِلْسلة الظهر بالمنجنيقِ

وأرفع قبعتى للترام الذى بشخير المسنّين يحبو

وأقول الشوارع كالناسِ

بعضُ الشوارع يُفْضى إلى البحرِ

والبعض يفنى

لأن العصافير لا تصطفيهِ

يناير دبٌّ

ولكننى الآن أمهر من ثعلبٍ

وعجوزٌ

وأعرف أن البحيرة ليست سوى زَخّةٍ

والسلالم فخٌّ

لدىّ سيصبح وقتٌ لأسألَ

بعد التقاعدِ

أعنى

بنظارةٍ

وفم فارغٍ

قد تصير الحروفُ مساكنَ للنملِ

والصمتُ أبلغَ

هل ستجىء غداً؟

- ٢ -

حين كانت هنا

لم أرها

أظن لم تكن منذورة لغامضٍ مثلى

ولم تكن جارفةً كراكلى الكراتِ

هكذا

لم أزُه مرةً ببابها العالى

أو شعرها القصير

والذى يُرَوِّض الغيوم تحت ثوبها

ويكسر العصا

هل كانت الأشجار فى طريقها للذبحِ

والطيور فوق سُلم المجازِ

ماؤها مازال موصوفاً

لكننى استبدلت بالقطا قِطاً

والحوضَ بالمحيطِ

رُبَما

لأن شاربى صار دُخانياً

وربما

لأن ثعلباً بداخلى يُفَضّل انتظار موكب الأوزّ

فى كُرّاسةٍ كهذه

-٣-

الصدقُ لم يكن قميصها قط

ألأنها لم تكن بست أصابع

وحوائط مكسوّة بالخزّ

أم لأننى لم أكن قرصاناً

ببسمةٍ مشعّةٍ كالمدية

وشاربٍ تهابه القطط

ـ ٤ ـ

لو أنها

بأصابعى

ظللت تمشّط شعرها

لهجرتها

لكنها ذهبت وظل المشْطُ يطحنه الفراغُ

أظن كان الليل مرْيلةً

وأنا أسايرُ مُغْرمين إلى الحدودِ

أقول ياباشا

فتقفز من كهوف الوجهِ

أو تنساب من ورقٍ

أبريل كان هنا

والحرب طاولة تلمُّ العاطلينَ

وكنت أخفى مشية القروىّ

أحلق مرة فى الصبح كى يقفَ الترامُ

ومرةً

قبل الصعود إلى طيور لا تطير

أكان مصعدها يذكّر بالزنازن والمظليّين

مازالت وراء السور تنْتف ريش عصفور

ومازالت على الكرسى تنسى حقّ زينتها

وتفتح باب غرفتها لغير الريح

ظلى لم يعد خلفى

ومهر المولد النبوى

لكنى بثوب الكهل سوف أسير مُحْتَرَماً

أكاذيبى عكاكيزٌ

لأعلن أنها ذهبت

وأنى ارتحتُ

سوف أكلم الأوغاد عن قاموسها

وأقول موسى كان متجها إلى بحرٍ

وأنا إلى الصحراءِ

هل ستطيل بسمتها نهار البهو

أم ترث الشوارعَ هذه العرباتُ

كان بشنْس مشغولا بكنس مكاتب البكواتِ

حين رَسَتْ

هل ظل فى الدولاب من دمها حفيفٌ

أم فَراشٌ

كان يلهو بين سرتها وباب الغارِ

ظل الماءُ فى إبريقها يغلى

وظل هبوبها عيداً

حصان المولد النبوى فى الشبُاك والحلوى صهيلٌ

كيف مرّ الوقتُ؟

خيطِ دم من الحيطان سوف يسيلُ

خيط دمٍ

سيلمع ربما فى الفجرِ

حين تفتّش القدمان عن قدمين

والإعصار عن شكلٍ

●

متون الباب سوف تقول غابت كى تسب دمى

وغابت كى تكونَ

فَرُجَّ صَحْنَ البطن بَلَّ فماً

وشُقَّ الفرْوَ

ما كان اسمها نورا

وما كانت كستَ الحُسْن تلسعها العيون فتختفى

ظلت بلا ظل

وظلت لصّة تستل ثم تروغُ

سوف تُعير مَخْفّيين أقداماً

وتُدْنى صوتها المخبوء فى وَدَعِ

ستعلن أنها الميناءُ قمح كلامها حدُّ

ولؤلؤها الذى وارته

هل ستقارن الأبقار بالأشجار

تهبط سلم البارود عاريةً لترضع نابتاً فى القاع

أم ستهب من جسد ملَوَّحةً برايات البدائيينَ

حلفاء الشوارع لم تزل تعلو

- ٥ -

الخوفُ

عندما تغيب يغزونى

فأنزوى.. متّهما عينى

وساعة الجدارِ

صوتها السرى لم يزل فى أذنى

وماؤها

فى الليل

حين يصبح الحنين محراثاً

يعبىء الأكوابَ

لم تكن واقفة فى آخر الممر عندما نوديتُ

برْمهاتُ كان حولها يُلحّ

والهواء بالأصابع التى كالمشط

فى الصباح

عندما تدحرجتْ هززْتها

وسرتُ فى الدهليز

- قاعة الملوك لم تكن دافئةً -

وفى المساء عندما حَسِبْتنى امتلكتها شبّتْ

وهدّت الأبراج

لم تكن سَخيّةً

ولم تكن تحبُ من يبيتُ مغلوباً

الطيبون يعرفون أنها دنتْ

حتى فشا خرابُها

وابتعدت فسالمتها العينُ

جملَتْ

وجاملت

- ٦ -

حتى الآن

لا أعرف اسمها الذى التقطته من على الرصيف

ولا الذى دفنته فى جواز السفر

حتى الآن

لا أعرف ماالذى يشدنى إليها

فمها لم يكن مُضاءً

وثوبها

لم يكن متّسعا لغيرها ■

الشلة

قصة

إبراهيم صموئيل

فمن ثقب صغير فى العصبة، بحجم سم الإبرة، كنت ألمح طيفها وقد زاغ يبن طيوف رفاقى، فأتجه صوبها، مناوراً مخاتلاً أولاً، ثم منعطفاً خطفاً نحوها لأقبض عليها، وأضم جسدها الطرى إلى صدرى لا أفلته حتى تنتزعه منى انتزاعا.

لا أحد من رفاقى فى الحارة كان قد اكتشف، كما يبدو، ذلك الثقب، إذ حين يأتى دور أحدهم فى ربط العصبة على عينيه، تراه يميل ويتخبط بيننا، لائباً عن وداد، وسط زعيق التموية الذى نطلقه قرب أذنيه كى يتوه مزيدا عن هدفه، فيفشل فى معظم المحاولات وينجح فى القليل القليل منها، حين تجاريه المصادفات فتضع وداداً بين يديه.

وحتى حين تغيث المصادفة واضع العصبة، ويمسك يدها أو كتفها أو يلتقط طرف ثوبها... فإنه سرعان ما ينزع العصبة عن عينيه وينظر، فإذا ما تأكد، ركض من فوره بيننا، مهللا من نشوة الفوز.

انضمام وداد إلى شلتنا وهّج الحماس فينا، ولوّن لعبتنا، مضيفاً إليها نكهة فريدة ما أحسسنا بها من قبل، فصرنا لا نمل ولا نكل من اللعبة ومعاودتها إلا إذا اعتذرت لتعب لحقها أو انسحبت جراء طلب أحد أفراد أسرتها.

وبإجماع صارت وداد البنت الوحيدة بيننا شلة الصبيان ـ موضوع اللعبة وحكمها .ترتب أدوارنا، وتخرج عصبتها البيضاء، فتحكمها على العينين وتشدها، ثم تتمعن فى أطرافها لتضبط أى تسلل محتمل للنظر فإذا ما تم، انفرطنا حول المعصوب، متقافزين، ومطلقين صيحات ناعمة، حادة، نقلد بها أصوات البنات كى يزوغ المعصوب عن هدفه: التقاط وداد من لمتنا.

وكم تعثر لاعب، فأكب على امرأة عابرة أو طفل لاهٍ أو أحاط برجل أو داس على طرف كلب شارد فجعله ينبح بشدة ودفعنا للتساقط على الأرض من فرط الضحك على جفلته وفزعه وهروبه العشوائى.

من بين الشلة، كنت الأقل تعثرا وخطأ فى الوصول إلى هدفى والتقاط وداد، بل إننى، لولا خشيتى من ارتيابهم، لما أخطأت بالمرة، وكيف لى أن أخطئ والثقب، على صغره وضيقه، يدلنى إليها ويرينى مناوراتهم ومراوغاتهم فى إخفائها خلفهم؟..

ولفوزى فى معظم المرات كنت أتوج الأمهر بين رفاقى وأنتزع لنفسى المفاخرة والمباهاة، باثا فيهم الدهشة من ذكائى وشطارتى. لكن الشكوك راحت تنمو لتفضح حيلتنا.

أقول حيلتنا، لأن ودادا كانت متواطئة معى.

أدركت ذلك من طريقة عقدها العصبة حين يحل دورى: تفرشها على عينى، ثم تزيحها وتحركها، بحجة ضبطها، إلى أن يقابل الثقب الصغير حدقتى.. لحظتها، وفيما فمها يدانى أذنى وأصابعها منشغلة خلف رأسى، تهمس همسا رفيقا: «شايف هيك؟»، فأكتفى بنحنحة خاطفة، ثم ننطلق للعب.

وعلى الدوام يغلبنى توقى لاحتضانها. يختصر تحركاتى ويوجز لوبانى، فأندفع نحوها، بأخطاء لا تذكر، لأضمها، ضاغطاً صدرى اللهوف المضطرب على برتقالتيها اليافعتين،

فتلفح أنفاسها المتقطعة وجهى وتذيب كتفى أصابعها الملتفة، الحنون، الضامة.

ما من مرة ذكرت لى صراحة، أو أشارت ولو بكلمة، إلى حيلتنا. ولا جرؤت مرة على بيان فرحتى ومتعتى بسرنا. كلانا تكتم وتحفظ، ومضينا، بصمت، نمارس اللعبة فى اللعبة، لكأنما الامتناع عن البوح بالسر والتكتم عليه وتجاهله، حتى بين صاحبيه، يزيده متعة ويلفه بضباب من السحر شفيف.

ما أجج سعادتى بلعبتنا الخاصة السرية، ملاحظتى لوداد وهى تعقد العصبة لغيرى من الشلة، إذ كانت تطويها جيدا، وتحكم إغلاق العينين بها، وتشد عقدتها إلى أن يستاء اللاعب ويشكو. ويندر، بعد ذلك، أن يفوز بالاهتداء إليها أو يتخلص من جمعنا المتماوج حوله، فيلوب ويتخبط فيما يغشانا الضحك المجلجل الطليق.

أحسست بالخطر الحقيقى، لحظة اندفع أحمد، وكان الدور على، غاضبا محتجا فأوقفنى، وأحكم العصبة بيديه، معلنا أننى أغش فى اللعب، فأقسمت بأغلظ الأيمان أن ذلك ليس صحيحاً بعدها، حرصت على أن أخطئ، وأتعثر وأسقط أرضا مثيراً ضحكهم، ومتجنبا العثور على وداد كى لا ينكشف أمرنا، فأفقد كل فرصة لضمها.

وعلى الرغم من نظراتها المتسائلة العتوب، مضيت فى الوقوع بالأخطاء لإحساسى أننى بت تحت مراقبة مشددة، وأن فصلى من اللعبة بات محتملاً جدا. وهكذا عادت، ولو على ندرة، متعة الضم واللف ثانية.. لكنها لم تعمر طويلا.

إذ بين حث التوق للوصول إليها وكبح العيون الرقيبة، تكشف تصنعى وتعرى، خصوصا حين كنت أنحرف عنها بغتة، وقد دانتها يداى، فى اتجاه آخر.. أو أمسك بطرف ثوبها وأفلته لتوطين الوهم لدى رفاقى.

ووقع يوما ما كنت أخشاه.

فما نهضت من حفرة إلا انزلقت بأخرى، ولا تعثرت بحجر إلا وسقطت بعرقلة من غيره، وما اندفعت بحثا عن وداد إلا وارتطمت بعابر أو شجرة أو عامود حتى بت مثل أعمى حقيقى خلف العصبة السوداء التى أحضرها أحمد يوما، مطالباً باستبدال البيضاء الأخرى بها فوافق الجميع وسط احتجاجى الصارم وصمت وداد المحير.

وليومين أو ثلاثة خلف العصبة الجديدة، أحسست ـ بعد أن كنت فى الماضى الأكثر حماساً واندفاعاً ـ بملل لا يحتمل وضجر خانق من لعبتنا التى تبلدت وبهتت ألوانها، فوجدتنى، لا أدرى إلى أين، أنسحب من الشلة دون أن أعود إليهم قط أو أعلم إن كانت وداد قد بقيت معهم أم أنها انسحبت أيضاً ■

الموسيقيون

شعر
فتحى عبد الله

تلك العباراتُ التى أخذتِ
الروحَ إلى المياه
وجرّبتْها كثيراً
وعندما لم تستطعِ المثول
رأتْ فى الصناديق آخرَ
المحطات
فحملتْها على ظهورِ البغال
حتى الصباح
فلم أستطعْ أن أقبضَ
على شىء
وخرجتُ بطيورى كاملة
على أمى
فَفَرِحَتْ بملابسى
وأعطتْنى كثيراً من القماش

●●●

وكلما دخلتُ منزلا
أجدُ ذهباً
ودقيقاً أبيضَ
أذبحُ طيورى
لعل الضيوفَ تعرفُ
الأشجارَ
فى المراتِ القادمة

-٢-

فى الجلساتِ الطويلة
يأخذونَ الرؤوسَ
واحدةً
بعدَ أخرى
وبعدَ الطعامِ بيومين
أو ثلاثة

يتركون أحمالَهم فى فَرَحٍ آخرْ
يأخذُ المولودُ حقيبتَهُ
للحقلِ المجاورِ
ويسمعُ ما طابَ له
ويبكى لا نفصالِ الوترِ
عن الآلة
حتى تعثرَ أمُّهُ
على حذائهِ
فيقولُ المؤذن:
رأيتُه يتحدث
وينتقلُ من مكانٍ
إلى مكان
ولا شيءَ يصلُحُهُ

فتركتُه
حتى غابَ عن عينى
- ٣ -
انقطعَ الوترُ فى المرّةِ
الأولى
وفى المرّةِ الثانية
قَطَعَ ذراعَهُ
فلم تأمنْ زوجةُ الحدادِ
من بكائه
وأعدّتْ سريرَه فى
الهواء
فربما نَسَىَ دون أن
يدرى إصبعَه المكسورَ
فى النقلةِ الأولى

وصاحَ كعادتِهِ
أذنى وقعتْ من الطابقِ
الخامس
ولم يسرعْ أحَدْ

- ٤ -

الإيقاع لم يكنْ سهْلا
فقد اختلفتِ الأشجارُ
على خطوتى
ومكثتُ أياماً بكاملِها
كان أكثر ما يُفْرِحُنِى
مرورُ القواربِ
وغناءُ الفلاحين
فاعتذرتُ - كعادتى - لزوجتى
وأولادى
وذهبنا لبحيرةٍ
لم يروها من قبلُ
فأحاطونى بأثوابٍ قديمة
وصلّوا للملاك الذى
عقَدَ لسانى ،
فاختارَ آلاتِ النشيد
وهبطَ لأربعينَ عاماً
تاركا مروحتى للزفير...
- المقطوعةُ لم تكنْ كاملةً
وكان على المريضِ
أن يَكْسِرَ البيانو -

- ٥ -

الهلالُ الذى عبَرَ على منزلِها
لم يفُرّقْ بين الكنيسةِ والجامعِ
إلاّ بمقدارِ السماع
فقد شاهدَ الرهبانَ
يخطرون أمامَ القاعةِ
بدون طيلسان
وربما أعادَ ذلك
للنوبات التى تصيب الفلاحينَ
أيامَ الحصاد
أو ربما الحروب
فقد زوّجوها أربعينَ مرّةً
ولم تَقْتُلْ أحداً..
فقط تعرفُ الأمراض
وتشاركُ العازفين
فى تقطيعِ الجثّة
فإذا عرفَ الطيورَ
أخذَهُ الموسيقيونَ للأفراحِ
يأكلُ ويشربُ
دون أن يسمعَهُ أحدٌ
حتى تُهلكَهُ
فى الليلةِ العاشرة ■

كـــأبتك التى لا حـــد لهـــا
تليق بالملوك دائمـــا

إلى هدى نعيم

شعر

محمد آدم

١ ـ هذا ما أراه ملائما لى

الليلُ ...،

هذا الهواءُ الأخيرُ، يمرُّ على شجرةٍ يا قطينك فتنفتحُ شهوةُ الأرضِ،

ويقتربُ القمرُ الأخضرُ من براريك العميقةِ، فيحبسُ الليلُ أنفاسَهُ،

وتجلس النجومُ على ركبتيكِ، ويبدأُ ملاكٌ أخيرٌ فى الترانيمِ،

لا أسميك،

أنتِ الليلُ،

ونقيضهُ ...،

لرمادكِ رائحةُ النارنجِ،

ولأغنياتك عذوبةُ الوردةِ،

لشمسك،

نهارُ الأبديةِ،

ولشفتيكِ نبعُ ماءٍ،

ولعينيك ما يشبهُ الطوفانْ...،

غاباتكِ الشاهقةُ الواطئةُ، المشتبكةُ المرتبكةُ، لا تسمحُ سوى للقراصنةِ بالمرورِ،

وجسمك كتابةُ الألوهةِ فى ساعة الصفو، على حائط الوقت،

إذْ لا شبيه لكْ...،

لماذا تتركين رمادكِ الأخير لى؟

٢ ـ المرأة التى ليست لى دائما هكذا

شمسكِ تُشعُ فى الأعالى،

على قمم جبالك المشتعلة يقفُ طائرُ العزلةِ، وحولك تلتقى البراءاتُ والإثمُ،

حقلك ملىءٌ بالحنطةِ، وعلى حوافك الأثيرةِ تشع اللآلىء بانتظامٍ،

لسنواتك ما يشبهُ الوحشة،

وعلى جبينك الأخاذِ، يُلْقى القمرُ بأشعته المتوهجةِ، وبين أصابعك تصطفُّ الوعولُ،

وينفرطُ كلامُ النبوءاتِ،

أمس،

اشتريت لك وردةً وحيدةً من رجلٍ وحيدٍ، واستندتُ على حائطِ الأبديةِ الضخْمِ،

(لمالا نخبئ هذه الوردةَ يا حبيبتى، حتى لا يكشفُ الطغاةُ سرها،؟

هكذا قالت المرأة

شعركِ حقيقةُ الليلِ،

أصابعكِ تلوّن الفضاءَ،

وجسمكِ حديقةٌ منسيةٌ لأزمنةِ الطوفانِ،

نهداكِ،

طائرانِ

مصلوبانِ...،

– أقاليمكِ التى يصعدُ إليها الرملُ والصبارُ والغربانُ، وتعوى فيها الذئابُ الجريحةُ،

سأحرسها،

بعزلتى،

وسديمى –

كآبتك التى لا حدّ لها، تليقُ بالملوكِ دائما،

تحت ظل يا قطيفةِ سأجلس وانتظرك،

يا حبيبتى.

٣ ـ مقايسة

لى،

أن أدفعَ الهاويةَ إلى حيث اللاشىء،

أن أقيسَ الرغبةَ ببريق عينيكِ، وأن أتربعَ على حافّة الجنونِ ولا أنيسَ لى،
سأعبثُ بما تقرره الهاويةُ من تناقضاتٍ، وأدفع اللاشىءَ باللاشىء،
وأتوقف تحت حائط العزلةِ، حيث تلمعُ الرغبةُ والضغينةُ،
وأسمّى الشهوةَ باسمكِ أنت،
يا سيدةَ الشفاعات،
والتعاليم،

لى،
أن أقول لعينيكِ: هنا يرقُد الأبدُ والأزلُ، ولا شىءَ بعدُ،
جسمكِ الجنونُ ذاتُه.

٤ ـ جسد يليق بأغنياته

يدفع عن نفسه فضاءَ الرغبةِ،
ويقوضُ النّهارَ بيديه،
هل يدفعُ الليلَ إلى الحوافّ، ويفكرُ وحدَه فى النهاياتِ دائماً؟
أكتبُ على جسمكِ لغتى، أيتها المرأة، واحتمى ببراكينى،
عينكِ تعرف كيف تباغتُ اللغةَ، بينما جسدكِ يبتكرُ الضوءَ، وشعركِ يلملمه،
هواؤكِ صافٍ،
وشمسكِ آثمةٌ
وضوؤك
مأخوذٌ بأغنياتهِ...، ■

مــا أســقطتــه التــقـاويم

شعر

يوسف إدوارد وهيب

«دائرة.. أو أرجوحةٌ هى حركة تؤرقه»

(١) قيامة

مسكين جدا
يتخيل أن العالم سيصير قصيدة،
مرأته التى أحبها..
الكائنات مفرداتها:
أن ينتقى من روحه مزقاً..
تصطفى أوراق صفراء شارعاً سقط من ذاكرة الندى
أن يزرع العينين لونا آخر
لا.. لا تصلح الشفتان للشفتين
لا لا تصلح الأسماء فى هذا الجسد
يرى أن يستعيذ من انكسار اللفظ بالرؤيا
ومن التشتت فى فضاء الروح
بالجسد الموزع فى شبابيك البيوت
هو وحده تغتاله الرؤيا:
فى أنفه تتجسد الأشياء
رائحة الرطوبة فى جدار،
رغوة الصابون.. رفرفة الهدوم
حياةٌ معلقة فوق البيوت
تتشكل البنت الصغيرة مرأة
من صوت الخميس مساء... هل تقتل أمها؟!
وسادة تصير فارسا
ليلة الخميس عيدها القصير
ياه..
موسيقى الجسد!

(٢) ملوى

لا أحد يستطيع السير هكذا..
لكنه معبأ بقبابها الصفراء.
مسكونة نعليه .. شوارع منسية..
لحظة:
سوف ينفض قدميه عن ماء الوضوء
سيبص الناس إليه طويلا..
ربما سألوه: شارعا فجأة من مسامه؟

ربما سألوه: اسمه المنسى
ربما سلخوه عن لحظته المنتظرة:
ما الذى يثبت أن اليوم جمعة
هل يحتمى بالأبيض المغسول منذ الأمس؟!
وللطريق نصيب فى سعال العابرين؟
يلمع سونكى فى وجوههم:
سوف يتهيأ شارع للراحة
سوف تسرسب «الميكروفونات» أشياءها..
سيضحك منذ أنه اكتشف
ما كان..
اسمه طلقة المحبة،
أو «دانة» الرحمة!

كارتعاشة الجسد،
شهوة المياه لاعتقال الطمى
طفل يخرج عن طفولته.. ويبكى
ربما الآن تراه،
أو تسير نيابة عنه
علّ أشياء تكون به.. لا سبيل لكشفها
حين تأخذ الشفتان تشكيل السكون
إذن:
ما الذى يحادثه الآن؟:
رائحة البيوت الطاعنات فى النسيان..،
بوابة تآكلت أبوابها...،
أكف من طرقوها... ثم أحرقوا أخشابها
نكاية ضد الشتاء!
أم حشّه الوجع:
١ ـ قطة تموء فى صباح طويه
٢ ـ طفلة تضاجع الرصيف.. والمساء خنث
«بلوليب» البرد.. ولقاح السخونة
علّه مشنوق بين ثلجين:
تشابه الأبواب..
بين «الكاكى»،
والكنيسة ■

خشب خلصان

شعر

رجب الصاوى

اكتب أقولك إيه ..
وإيه معنى الكتابة
واجيب منين الفرح
والاقى فين الضحكة مش كدابة
ضحكة مش قلابه
ضحكه .. وبس
والدنيا مش ماشيه غير بالعكس
وأنا قديم فى الفلس
قديم فى اليأس
وباشم ريحتك ولاّ طرف الملس
وكنتى ويايا بصحيح
ولاّ كنتى فـ كل ركن اتكنس
وفـ كل عقل اتنكس
وفـ كل صورة من خيال الغلابة.

●

واكتب أقولك إيه..
قفلت شباكى وبقيت معزول
بقيت مهزول
وهربت من صوتك
خجلان من نفسى، وخجلان من يأسى
م الدنيا اللى بتمشى بعكسى
خجلان من كل الأحلام المخنوقه
واللعبة المحروقه
والضحك اللى بيركب تاكسى
خجلان من نفسى..
وبامد إيدى فـ وسط الشارع
مالقاش صديق عريان
ولا صديق مكسى
وأنا خجلان..
على قد ما كنا بنحلم بصعود الإنسان
بطّلنا الأحلام
وبقينا بنضحك ونبكى فـ أربع جدران
وانتى كمان ..
روحك خشب خلصان
قلبك عواطلى، وضحكتك ميتانه
واكتب أقولك إيه..
وإيه معنى الكتابه؟! ■

الإشارات والتنبيهات

١٨٨ مصر - بصيرة الحواس الشاعرة، عبدالله السمطى. على شاطئ الإسكندرية الفلسفى، احمد عبدالحليم عطية . ابن رشد سؤال العقلانية ، حسن سرور. الإبداع القصصى لأدباء النوبة ، كريم عبدالسلام. مائة وعشرون عاما على تعليم المرأة ، علاء حمروش. غراميات عطوة أبو مطوة ، مجدى فرج. الصعود إلى القلعة، وفاء حامد عمالو. الروح التى سرقت، فتحى امبابى. الشعر السياسى فى مصر، إيناس رفعت.

الإشارات والتنبيهات

نص

بصيرة الحواس الشاعرة (*)

«إنّ كلّ كلمةٍ هى عملٌ شعرىّ»

«بورخيس»

.. يدركُ المتأملُ فى النصّ الشعرىّ الحداثىِ الآن، أن ثمة تغيّرات تقنية عدّة تتمظهرُ فى هذا النص وأبنيته، وفاعليات أدائه الجمالى وحسبنا أن نشير إلى أن توجيه الخطاب الشعرى لم يعد مشغولا بخارج ما يتوجه إليه، بل أصبح يركّز أساساً على «داخل» الذاتِ الشاعرة، وما يعتملُ فى مكامنها، وهنا يصبح الكشفُ عن قيمِ الجمال منوطا بالكشف عن قيمة الإنسان، فى زمنٍ آلى يواجهه الشاعرُ بفطْرةِ الكلماتِ السحرية وبدائيتها، كذلك فإن هذا النصَ أصبح أكثر ميْلا لتقطير اللحظةِ وتوسيع أبديتها فى الآن ذاته، ونقل ما يمكن نقله من مجامر المخيلة من استقصاءات دالة، إلى أفق الوجود المعاين، وبالتالى إلى أفق الكلام».

ولعل الشاعر «محمد فريد أبو سعده» من الشعراء البارزين الذين يجتهدون فى إنتاج نص شعرى له أنساقه الخصوصية، وأبنيته التى تسمه، وتحدد فاعلياته، وهذا ما يؤذن بالقول بأن النص الشعرى بمثابة منظومة إبداعية متكاملة العناصر، سياقيًا واستبداليًا غنائيًا ودراميًا، إنه بنية مجازية تترمز فيها الدوال وتبوح عبر ميكانيزم التجربة الشعرية بفضاءات واشية رحبة، تؤوّلُ فيه الذات الشاعرة وتكشف - بالدرجة الأولى - عن علائقها مع - ورؤاها لـ - الوجود، هنا يبحث الشاعر من خلال نصه عن معنى ما - وعن ترددات وهواجس - تهرقها حواسه وطواياه وخلجاته - تتحولُ جميعًا إلى خطاب لغوى ذى بنية منتظمة يلعب فيها التخييلُ دوره المجازىّ البناده، فتتنامى هذه المعانى إلى ملفوظات، وإلى أشكال تقنيةٍ رهيفةٍ تصبحُ فى حد ذاتها معانى أخرى، لم تكن - لحظة الانفعال - كامنة فى مخيلة الشاعر، ولكنها تولدت لحظة الكتابة، لحظة تحول ما هو ميتاذهنى إلى ذهنى، من مجرد معقول إلى فعل مادى محسوس، يقدمُ فيه الشاعر ويؤخرُ، يضمرُ ويبوحُ، يكتبُ ويحذفُ، وعبْرَ هذه الحركة الديناميةِ النشطةِ يحاولُ أن يغيّبَ مالا قبل للنصِ به من دوال، ومن مفردات غير معْربةٍ عما بمخيلته وبصيرته، حتى يصبح هذا المغيب المحذوف - بمعنى من المعانى - لونا من المجاز، لونا من الاستبدال القاسى الجميل الذى يستبدلُ مفردة بأخرى، وعبارةً بعبارةٍ، وصورةً بصورةٍ.

وفى هذه القراءة نحاول المثول أمام نصوص «وردة القيظ»★ ومراودتها لتفصح عما بها من رؤى للوجود، تصنعها الذات الشاعرة عبر الكلمات، متوسلين فى ذلك بطرف من المقولات الفينومينولوجية (الظاهراتية) Phenomenological التى تركز أساسًا على مبدأ القصدية intentionality والتوسم فى قصد المؤلف تارة، وقصد النصوص تارات أخرى، بحيث تهدف من وراء ذلك إلى الربط بين ماهيات النصوص ورؤية الذات للوجود الأنطولوجى وذلك باعتبار أن النصوص الشعرية ما هى إلا موضوعات تعبر عن أشياء ظاهرة يتلمسها الوعى الشعرى ويعبر بها عن قصده وهنا ينبغى الاتجاه إلى الأشياء ذاتها، هذه هى القاعدة الأولى والأساسية فى المنهج الفينومينولوجى، وكلمة «شىء» تعنى هنا «المعطى» أى ما نراه أمام وعينا، هذا المعطى يسمى «ظاهرة» لأنه «يظهر» أمام الوعى، ولا تدل كلمة «شىء» على أن هناك شيئًا مجهولا يوجد خلف الظاهرة»[1] ويربط المنهج الفينومينولوجى (الظاهراتى) دائمًا بين الذات والموضوع ومحاولة تفسير الدلالات التى تسقطها هذه الذات - من وجهات نفسية وجمالية أساسًا - على الموضوع المنبثق الظاهر فى الوجود، لذا فإن المنهج الفينومينولوجى «يهدف كلية إلى أن يكون منهجًا موضوعيًا، إن ما يهتم به مباشرة، ليس هو الفكرة الذاتية، ولا هو حتى العمليات التى تقوم بها الذات، على الرغم من إمكان تطبيق المنهج الفينومينولوجى على هذه العمليات ذاتها، باعتبارها معطيات إنما هو «ما هو معروف، أو مشكوك فيه أو محبوب أو مكروه.. الخ»[2].

لكن هذه الموضوعية لا تترك الذات وحدها تمامًا، فالذات «تظهر مع هذه التحليلات مربوطة ربطًا جوهريًا إلى الموضوع، ويظهرُ الموضوع معطى جوهريًا إلى الذات الخالصة»[3].

* فاز الشاعر محمد فريد أبو سعده (أربع مجموعات شعرية) بجائزة الدولة التشجيعية فى الشعر لهذا العام. فيما يلى مقاربة نقدية لمجموعته «وردة القيظ».

الإشارات والتنبيهات

وقبل أن نشم أريج الظاهراتية من وردة القيظ، تجدر الإشارة إلى أن الشاعر اعتمد - فى أغلب نصوصه - سردية العبارات الشعرية وامتدادها بحيث أنه تخلى نوعاً ما عن الكثافة والجزالة التركيبية التى كان الشعرُ الجديدُ يتحلى بها حتى سنوات قريبة، كذلك تبدو فى النصوص السبعة عشر أن ثمة وحدةً دلالية متقاربة ترشح بها دوالُ النصوص وعلاقاتها، بالإضافة إلى ما سنحاول استبيانه فى هذه القراءة والتى نركز فيها على عدة ظواهر تمثل جوهر الديوان، وتتبدى هذه الظواهر فيما يمكن أن نسميه بـ«شاعرية البصر» حيث يتحرك بصر الرؤية دائماً إلى سرد مشاهداتٍ، وأشياء حسية تقع عليها عينُ الشاعر، كذلك تدخل الحواس الأخرى كعناصر إضافية لتعضيد الرؤية، وتتقطر كل ذلك فى محاولة القبض على حسية الوجود، بظواهره، وأشيائه، وتتحلى اللحظة الزمنية التى يصوغ الشاعر فيها كل ذلك، بأنوثة ما، قد تكون أنوثة الكلمة ذاتها، أو التعبير عن حالة حسية شبقة اجترحها الشاعر عبر صنع رؤيته للوجود، وفيما يلى نحاول تبيان ذلك بشىء من التفصيل، على أن يكون فى حسباننا أن المنهج الظاهراتى يعطى الباحث قدراً كبيراً من الحرية فى تثوير المعطيات والأشياء وتأويلها تبعاً لوجودها فى النص أولا بوصفها فعلا من أفعال الذات الشاعرة، وثانياً، بوصفها موضوعاً ظاهراً تبعا لتجليها فى الوجود.

● شاعرية البصر:

يتبدى فعل الرؤية عبر البصر كظاهرة بارزة فى نصوص «وردة القيظ» حيث يتجلى ذلك فى استثارة عدة عناصر حسية مشهدية تراها العينُ، يكملها الشاعربأشياء أخرى تدل على الحضور البصرى البادى، وتنسحب هذه الرؤية على



محمد فريد أبو سعدة

كلَّ نصوص الديوان الشعرية حيث يستثمر الشاعر حضور المرايا، والصوَرِ، والأشكال، والهيئات، والرسوم، وتكرار ثنائية الفن التشكيلى المعهودة، الظل/ الضوء، هنا يلعب البصر دوراً ماتعاً فى تشكيل هذه العناصر، وإعطائنا لقطاته المشهدية وتخييلاته الحسية - إذا صح التعبير - ولنصغ بدءاً لهذه المشاهد:

١ - هَذه الأنثى التى تعرفُ قلبى
لنْ تَرانى
وأنَا سوف أرَاهَا
شاخصاً من ورقِ الحائطِ
فى هيئةٍ وعلٍ
وهى تَعْرى .. وحدها
شيئاً فشيئاً
مثلما يَعْرى الشَجرْ. (الديوان ص٩)

٢ - أيّها الطائرُ أنْتَ أسيرُ ذَاكرتى
ربّما رأتْكَ الغزالةُ غيْمَةً
ورأتْكَ السماواتُ
حجراً كريماً
أيُها الطائرُ المسكينُ
أنْتَ وَهْمى
وأنا وَهَمُكَ أيْضاً
تُرى
كيف ترانا الشجرةُ؟! (ص ٩٤)

٣ - رأيت الأصابعَ تخطفها الطيرُ
....
ورأيْتُ دمى يتجوّلُ، يصرخُ
....
تقدّمَ جبريلُ، قالَ: ستنسى
وزَمْزَمَ حتى رأيتُ مسوخاً تهمهمُ
تأخذُ فى حِجْرِها مدناً
ثم تعدو
....
رأيتُ كأنّ يدَ الله ترفعُ سُجّادَةَ الكوْنِ
لا شىء يبقى سوى النَّفْطِ
(ص.ص.٤٨، ٤٩)

ما الرابط بين هذه المشاهد الثلاثة المنتقاه عشوائيا؟ وهل مرادنا أن نهجس بهذا السؤال؟ إيذاناً بمرأى حسىٍّ ما يضع الشاعر فعل الرؤية كمرتكز جمالى صانع للفقرات الشعرية، (أرى) تركيز حسّى بفعل البصر - لا البصيرة - (لن ترانى - وأنا سوف أراها)، (ربما رأتك الغزالة غيمة)، (رأيت الأصابع تخطفها الطير)، لا غرو فى أن الشاعر يبغى تثبيت هذه اللحظة الرائية، هو المشهد الأول (١) يطيل أمد هذه اللحظة إلى زمن المستقبل (سوف أراها) ثم رؤية ماضوية تمت، ورؤية حاضرة أيضاً تتم، لكن الشاعر يجمع عناصر الزمن الثلاثية - بمعنى ما - داخل مشهده ليرقب هذه الأنثى التى تعرف قلبه - هل يراها بعين قلبه أيضاً؟ - والتى تتعرى، وهنا يأتى التشبيه الحسى (مثلما يعرى الشجر) تتبدى له بجذورها ولحائها وأفنانها، فى المشهد الثانى يكتب الشاعر طائره، الشاعر هنا يرى رمزيًا، الطائر هنا موضع رمز، وموضوع شعرى، كلمة الطائر أسير الذاكرة يستثير دلالات متعددة جمالية تتعلق بجسم هذا الطائر ورسمه، وأسطورية تتعلق بطيور كثيرة

يونانية وعربية وفارسية، أو الطائر/ الكتاب كما في سورة «الإسراء» هل هو غيمة أو حجر كريم، أم هو «الوهم» حين يكرر الشاعر ذلك (أنت وهمي) هذا مسعى الشعر الآن، ألا يعطيك ما تبغي من معنى، المعنى هو هذا اللامعنى، هو هذه الحالة من التردد والقلق والتساؤل والانفعال، ولعل هذا ما يؤذن لنا بتبرير اتكاء الشعر الآن، وبالطبع شاعرنا، على الأساليب الإنشائية أكثر من الخبرية، وعلى شيوع عدم اليقين بجمال ما، وبشيء ما، بربما وبالسؤال وبالفوضى المنظمة - إذا صح كلامنا - حين ينقل حالة اللاوعي كما في المشهد الثالث والتي ينتقل فيها الشاعر من رؤية إلى رؤيا، «الدم يتجول بعد أن تخطف الطيور الأصابع، كأنها تتجه صوب إشارة ما، والمسوخ تهمهم وتأخذ المدن في حجرها، حتى يصل الشاعر إلى تقريره... «لا شيء سيبقى سوى النفط، ولعل هذا التقرير هو نقطة ضعف النصوص - إذا أذن لي بتقييم ما - فحين يقول الشاعر (لن تراني - وأنا سوف أراها) و(أنت وهمي وأنا وهمك) و(لا شيء سيبقى سوى النفط) فإنه يضعنا بإزاء ما هو مؤكد، ما هو يقيني خبري، وهو بهذا الوضع يعيد تكرار الرؤى الشعرية السابقة الجاهزة، وبتكراره هذا يشوه العالم، لأن التكرار تشويه، لأنه استنساخ واقتباس، فيما لو حوّل الشاعر هذا التقرير إلى سؤال لكان أجدى جماليا.

فعل الرؤية إذن هو هذه المثابة التي تتبدى حيالنا، كما هو واضح من المشاهد، ولعل ذلك يتم بالاستناد إلى أشياء أخرى تعضد من فكرة الشاعر/ الرائي، وتتمثل هذه الأشياء في الصور والأشكال والهيئات، والرسوم، والتأكيد على فعل الرؤية بأرى وأنظر وأشاهد، كذلك تحضر المرايا بشكلها العاكس كجزء أساسي من عملية الرؤية هذه، يقول أبو سعده في بورتريه للآنسة:

امرأة
في هيئتها الأولى
لم تأخذ بعد الحلكة من رف الذاكرة
ولا نقرتها الوسوسة الهاجسةُ
ولم
تقترف النظرة في بذر أنوثتها
أو
تتملى. (ص ١٤)

يمثل الإلحاح على فعل الرؤية هاجساً أساسياً في هذا المقطع، فالمرأة في هيئتها الأولى تستثير في التو الحاسة البصرية لكي تحدد ملامح هذه الهيئة، وسماتها، وهنا تصبح الذاكرة محط فعل البصر، فالذاكرة بمعنى ما أحد المنابع الرئيسية في الإنسان التي تختزن المشاهد والهيئات والصور والكلام الإنساني أيضاً، وتأكيداً على أن المرأة لم تزل في فطرتها، وهيئتها الأولى ينفي الشاعر عنها أية وسوسة هاجسة، أية جرثومة للشبق، فهي لم تقترف النظرة في بذر أنوثتها، أو تتملى، وهنا يعدنا الشاعر في بقية النص بتوصيف هذه الهيئة الأنثوية من صورة لأخرى ومن مقطع لآخر:

تأخذها الرجفة حين ترى في الخلوة
قدام المرآة
أفاعيل الربّ السرية،
كيف يكور نهدين صغيرين
ويلمس بعصاه زواياها، فيدورها
ويرش الزغبَ الهش على سطح أنوثتها
ثم يحككها، يجلوها
حتى تتجلى (ص ١٥)

إن التجلي، هو مسعى البصر دائماً، والتجلي لا يدرك إلا بالرؤية، والتجلي هنا يحدث أمام المرآة، وهذا يعضد سلطة البصر أيضاً، إن الشاعر يكرر كلمة المرايا - في حالتي المفرد والجمع - في نصوص كثيرة - تتعلق دائماً بحضور المرأة، كأن هذا التجسد الصاخب هو الخيال الشعري الأول الذي يصفه الشاعر عبر هذا الجسم الصقيل. المرآة، وحيال ذلك نجد الصورة في المرآة وقد تخايلت أمام الحاسة بشكل تخييلي بمعنى ما، تختفي هذه الصورة بزوال فعل الرؤية، وتعود بعودته - وفي هذا نمط من أنماط التخيل الحاضر إذا صح التعبير، التخيل اليقظ الذي يكاد يلمس المخيل والمستدعى ويتحسسه جزءاً جزءاً. «إن الصورة المنطبعة لا حقيقة لها من حيث هي انعكاس، وإنما تؤول حقيقتها إلى العين المقابلة للسطح العاكس، ولكن الناظر لا يتأتى له أن ينكر رؤية صورته في المرآة، تلك الصورة التي تخضع في تشكلها المنعكس لطبيعة السطح العاكس، وعلى هذا النحو يبدو الانعكاس رمزاً عرفانياً على الخيال باعتباره مرتبة وسطى تقابل كل طرف بوجهها، مما يؤذن بأن للخيال بنية ديالكتيكية تضم المتقابلات وتدمجها في نسيج واحد»(٤).

ولعل هذه البنية هي من طبيعة الشعرية التي ترمي دائماً إلى توحيد الشيء والكلمة، وفي هذا الديوان يصبو الشاعر إلى التوحد والامتزاج مع الأنثى بكل طزاجتها، وفداحتها في آن، ولعل حضور المرايا يشي بتكرار هذا الفعل المنعكس، فالمرايا «إذا تقابلت أفضت إلى متوالية الانعكاس، فكذلك الخيال، لأنه يضفي على الصورة نوعاً من التعدد والثراء ومرونة التشكل إلى ما لا نهاية»(٥).

أخلص من ذلك إلى القول بأن الشاعر يحرك دائماً بصره في الوجود المرئي الذي تشكله الأنثى غالباً، يحركه في حركة تهوى إلى سطوح الأشياء، ولا

تمس أعماقها، الشاعر الرائى يرى ببصره فحسب، ولا يدنو من هذا الجدل الحميم بين الرؤية والرؤيا، بين الحسى والمجرد، وهو إذ ذاك يركز على أفعال التأمل، والنظر، والمشاهدة، والتملى، والتجلى، كما يكتفى برصد الصور والهيئات والأشكال والطرز، والأطر، مما ينبث فى نصوصه انبثاثا بينا، فريد أبو سعده إذن شاعر حسى من الطراز الأول، يمتلك القدرة الراصدة، التى تمس طزاجة الأشياء وتحاول الاتحاد معها، غير أن الشىء ليس مظهرا فحسب أو صورة منعكسة فحسب، بل إن الجوهر لا المظهر هو المقصد دائما إذا ما ارتأينا التعبير عن هذه اللحظات الكامنة غير المفارقة، الصور تتغير، والمكامن باقية، تحل فى صور كثيرة، ولنتذكر مقولات الحلول الصوفية أو الاستنساخ - بمعنى ما -، أقصد أن الشعرى يحاول دائما المواءمة بين المتضادات، وعبور صورة الشىء إلى نسقه وجوهره فالشىء، كل شىء، «هو فى آن صورته العينية - الظاهرة، وصورته المعنوية الباطنة، فصورة الشىء لا تنحصر، كما يظن في ظاهره، وإنما تشمل كذلك باطنه - أى حقيقته ومعناه، وهكذا نرى أن الاكتفاء بمحاكاة ظاهر الشئ (تصويره واقعيا كما يبدو للعين) لا يقدم منه إلا جزءه السطحى، عدا أنه تكرار لا يجدى. لهذا نخطئ الشىء حين لا نصور إلا سطحه الظاهرى، ولكى نصيبه لا بد من أن نتصوره - أى تؤول دلالته ومعناه ، وأن نصوره من ثم وفقا لهذا التصور(٦) بهذه المثابة فإن فريد أبوسعده منحنا شعريته عبر إيناسه إلى الظاهر المحسوس، وهى - على الرغم من ذلك - شعرية متحركة، وحيوية، ودالة، فكأن الشاعر يؤكد قوله فى أحد نصوصه «لاحىّ سوى عينيه».

بصيرة الحواس:

إذا كان البصر يبدو محايدا فى أغلب الأحيان، حيث يكتفى لطبيعة العين بالرؤية فحسب دون القيام برد فعل ما، سوى ما تختزنه الذاكرة البصرية من مشاهد وصور، فإن الحواس الأخرى وبخاصة حاستى اللمس والتذوق تلومان بالفعل ورد الفعل بمس الشىء وتحريكه والكشف عن كنهه، فإذا، ما غابت «بصيرة» الرؤيا لدى الشاعر باعتماده على الرؤية فحسب، فإن هذه البصيرة تتبدى فى الحواس الأخرى لأنها تتغلغل فى الأشياء وتتفاعل معها، أليس اللمس أو التذوق، أو الشم أو السمع كلها أفعال تتبادل وتتجادل مع المحسوس، بعكس البصر الذى يرى بشكل محايد فحسب، نصوص «فريد أبو سعده» تقلقنا على هواجس كثيرة، فلنحاول ملامستها، وبدءا نشير إلى بعض المنمنمات الصغير المنتشرة فى بنى النصوص وهى عبارة عن بعض الصور المعشقة التى تنم عن حسية بارزة:

- طوحت فوق المدى بأصابعى العشرة.

- هيئْ أيها الجسد اختمارى

سوف أصعد مثل لبلاب على الحيطان

متكئا على نهْدين

- صبى فوق أعضائى مياه الصحو هونًا

واقرأى تعويذة الوقت الجميل.

- سنشرب نخب من جاءوا من التاريخ

أبداننا بلا أعضاء

- أعلن أنى جسد أحد

تتخبأ فيه قبائل لا أعرفها

- وحط عليها عينيه وشفتيه

وراح يدندن أغنية

- أشم على سرتك النائتة/ الواطئة

كعلق التفاحة

عرقا آخرْ

أتحسس فوق النهدين المبغوتين

أصابع رجل آخر

ففى هذه الصور الصغيرة التى تتكاثر بشكل لافت فى نصوص الديوان، نلمح كيف تتعامل الحواس مع الوجود الإنسانى تحديدا، الجسدى بشكل أخص، وكيف يتنقل الشاعر بين حاسة وأخرى، حين يوزع أصابعه على المدى وكأنه يريد أن يمس كل جزئية فيه، وحين يفجر الخصوبة المشتهاة حين يتكئ على نهدين، وحين تصب مياه الصحو فوق أعضائه، هذه الجسدانية لا شك تدل على حاسة اللمس، كأن اللمس فى دفقه، وفى تلاقيه مع الآخر، جسدا أم شيئا ما، يوحى بأن الشاعر يشعر بتوقه الحميم إلى حنان جمالىّ ما، يبدأ وينتهى مع جسد المرأة، الذى يعادل القبائل كلها كما يقول (أعلن أنى جسد أحد تتخبأ فيه قبائل لا أعرفها) وهنا يتحول اللمس إلى بصر وتذوق ودندنة، ثم إلى شم ثم إلى لمس، كما تخبرنا الصورة الأخيرة.

وفى نص يجسد هذه الحواس جميعا هو «وساوس صيفية» يقلقنا فريد أبو سعده على عدة أمور:

أولها: الإيغال فى ترقب اللحظة الأنثوية، والربط بين هذا الترقب وفعل التذكر.

ثانيهما: إضفاء الصفات الحسية الأولى - التى لا تتجرد - على فعل الترقب والتذكر.

ثالثهما: التساوق السياقى للنص ونقل شعرية الحالة القصصية عبر سرد

الإشارات والتنبيهات

النص، مما أدى إلى وحدة زمكانية للنص.

ففى هذا النص نجد الحواس تتآلف عبر ترقب الذات وتذكرها، وهنا نأتنس بقول باشلار: «إن مسألة استرجاع الذكريات قد تتثور أيضاً حين نولى مزيدا من الاهتمام باللحظة حيث تتحدد الذكريات فعلا وواقعا، عندئذ سنرى دور تناسق الحوادث الجديدة، الترشيد العقلى شبه الآنى للأحداث المتصلة فى ذكرى معقدة.(٧)».

وهذا بالضبط ما يفعله أبوسعده حيث يركز تماماً على الإيغال فى ترقب اللحظة كما قلت فى انتظاره المتتالى للأنثى، وهنا يكرر تساؤله الدائم «متى ستجىء؟» «فالذات هنا ذات مترقبة، تحمل أساها وانتظارها وقلقها داخلها:

أقلب فنجان القهوة فى الطبق المنقوش

وقلبى مشغول بالباب

متى ستجىء؟ (ص ٤٠)

وينتقل الشاعر إلى خارج ذاته فكل العشاق سعيدون، وكل المعشوقات بهيجات (وللصفح عن جمع «سعيد» بـ«سعيدون، وليس سعداء)، وهو وحده المنتظر المتسائل «متى ستجىء» وهنا تبدأ حواسه فى الانشغال بالأشياء من حوله، ويبدأ تبصرها بها، فى مشهد يجمع بين حاستين:

الركبة تلتمس الركبة

تحت الطاولة

يصبح البجع المستقر فى العينين

وترتعش الشفة السفلى (ص ٤٠)

إذ يتراوح الملمس بين اللمس الذى يشير له الشاعر بفعل (تلتمس) وصحته (تلمس) فالالتماس غير اللمس، ثم البصر (العينين) ثم اللمس تارة أخرى فى (الشفة السفلى)

ولا شك أن كلا من اللمس والبصر لهما حساسية جنسية كبيرة فى إدراك المحسوسات، فالعين إحدى المناطق الشهوية فى الإنسان، وغشاء الشفتين له حساسية جنسية تجعل من القبلة مثلا أعلى لحاسة اللمس من الناحية الجنسية، وتتوالى أفعال الحاستين حتى نهاية النص بين الرؤية واللمس، ثم يكرر على سمعه سؤاله الأثير «متى ستجىء» وأمامه فنجانه يترشفه حينا، ويتفرس فى بنه المحروق حينا آخر حتى يكتشف أنه وحده، وأن ذاته لا تمارس شيئاً سوى التذكر فى انتظار من لن تجىء:

أذكر أن سريرى مفتوح كالفخ

فأكسر فنجانى وأنام

عريان إلا من عطر امرأةٍ

سمراء كروحى

ترمقنى من بقع الفضة فى المرآة (ص٤٣).

ولو تأملنا فى النص سنجده تضمن الحواس الخمس، خصوصاً الرائية واللامسة وكأن هاتين الحاستين الشهويتين تحلان فى بقية الحواس ليؤكدا أن هذه الذات مهمومة بالارتقاب الجسدى، وبالتوق الدائم للاندماج مع الاخر، واكتمال الجسد الإنسانى بطرفيه الذكورى والأنثوى، وهنا نجد النص مشمولا بالارتقاب والانتظار ليصنع مفاجأة الذات فى قلقها العاشق «فياله من فرح يثير اللقاء - كما يقول باشلار - يكفى المرء أن يحب أن يخشى كل شىء، أن ينتظر فى أشد أنواع القلق جنونا، حتى يبدو القلق المتأخر فجأة بأنه هو الأجمل، الأضمن والأحب فالأنتظار حين يصهر الزمان ويحفره إنما يجعل الحب أعمق، إنه يضع الحب الأشد رسوخاً داخل جدلية اللحظات والأوقات، فيعيد للحب الوفى فتنة التجدد، عندئذ تتشبث فى الذاكرة الأحداث المرتقبة بقلق، وترتدى معنى فى حياتنا، وهكذا تكون الذكرياتُ الكبرى هى انتهاء الاحتدام وانفكاكه فى يوم، فى ساعة، إنها المكافأة على رفض أولى لحياة شىء آخر خلاف ما نرغبه،(٨) ولعل قول الشاعر «قلبى مشغول بالباب متى ستجىء» يحيل فى التو إلى هذا التوقيت القلبى الخارج عن توقيت الزمن، فى تسارع نبضاته وفى تعبيره عن قلق الذات وارتقابها، فى نشدان أنوثة اللحظة ولحظة الأنوثة وتوهجها فى بصيرة الحواس، وبالطبع فإن الشاعر لا يهدف إلى قنص اللذة فحسب، بل يهدف إلى البحث عن قيم جمالية حسية توطد سلطة الجمال فى الوجود، وتسعى إلى مجاوزة قبحه.

إن هذه اللحظات الحاسة تستثيرنا للبحث عن نمط تقنى باده فى ديوان فريد أبى سعده، وهو إلحاحه المستمر على توظيف تقنية التشبيه إذ تبلغ جملة التشبيهات فى الديوان نحو (١١٧) تشبيها تتوزع بين التمثيلى والمعكوس والبليغ، ولا تخلو أية قصيدة من قصائد الديوان من هذه الأنماط التشبيهية بل إن ثلاث قصائد منها تضم قدراً كبيراً من التشبيهات مثل (باب مكة - ٢١ تشبيها) و(الفاروسة - ١٩ تشبيها) و(فى المرايا ١٥ تشبيها)، لكن ليس من هدفى هنا أن أبرز أنماط هذه التشبيهات، لكن بغيتى الأولى هى التوكيد على أن الحسية هى المسيطرة على ديوان «وردة القيظ»، فإذا كانت العلاقة التشبيهية بين طرفى التشبيه تنتج من التعالق بين المحسوس

الإشارات والتنبيهات

والمعقول فإن ذلك يؤدى إلى صنع أربعة أشكال، ويمكن بالنظر إلى جملة التشبيهات أن نصوغها فى الجدول التالى:

	العلاقة التشبيهية	معدل ورودها
١	محسوس + محسوس	١١٢
٢	معقول + معقول	ـ
٣	محسوس + معقول	٤
٤	معقول + محسوس	١
	جملة التشبيهات	١١٧

يتبدى من الجدول أن الشاعر يركز تماماً على ما هو محسوس، ولا يتجاوز هذه العلاقة الحسية إلا نادراً كما يظهر فى النمطين الثالث والرابع فإذا ما صفنا الأرقام من وجهة ثانية سنجد أن طرفى التشبيه يبلغان نحو ٢٣٤ عنصراً، يخرج منها خمسة عناصر معقولة والباقى وقدره (٢٢٩) عنصراً، جميعها محسوسة، فما دلالة ذلك؟؟

إن الشاعر يريد أن يتحسس كل شىء، وأن يشعر به فى تفلته اللدن الذى يشبه تفلت الجسد الأنثوى، يريد أن يبقى له الحضور مع الأشياء التى يجمعها كالطير فى صعيد واحد لكى يحقق لذته، وشهوته الحسية، وكأن الجسد الأنثوى يحل فى كل الأشياء، لا يبغى تجريداً يحققه التخيل، فهذه العلاقات الحسية تؤذن بأبدية الحضور الذى يتجاوز التوقيت الزمنى الخارجى، لذا فإنه يتنقل فى هذه العلاقات ما بين حضور الذات وبين حضور الاخر (الأنثى) ويترقب ذلك فى علاقات المشابهة، فالأنثى تعرى مثلما يعرى الشجر، وهو يسقط كوردة، والنخل له شكل الذكور، والبونسيانا كامرأة، والجسد ممدود كالنخلة والسرة كعنق التفاحة، والسرة فاكهة المرأة، والحلمات كعصفورين احتبسا، والملاحظ أن الشاعر فى أغلب العمليات التشبيهية لا يترك المتلقى يؤول وجه المشابهة بين طرفى التشبيه، بل يحدد هو هذا الوجه، مما أفقد تشبيهاته هذه كثيرا من الطاقة الفاعلة للتلقى المشاركة فى صنع الجمال الأدائى للنص، كذلك فإن الغالب على هذه التشبيهات هو أن العلاقة بين طرفى التشبيه فى معظم الأحيان علاقة متجاورة قريبة، أو مألوفة من مثل: (أنسل كريح، كامن كالطريدة، زهورا تشبه النارنج، أمَةً/ أمةً، عين الغزالة جوهرة، أصعد مثل لبلاب، الفجرى خفيفاً كالفلين، أتشظى كزجاج... الخ).

ومن هنا فإن معظم هذه التشبيهات تفقد دهشتها، وتفقد توترها وجدلها، واستقصاءها الذى يجاور بين المتباعد والمتضاد لا المتقارب المتآلف.

يقول الإمام عبد القاهر «وهكذا إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب وكانت النفوس لها أطرب، وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب، وذلك أن موضع الاستحسان ومكان الاستظراف، والمثير الدفين من الارتياح، والمتألف للنافر من المسرة، والمؤلف لأطراف البهجة، أنك ترى بها الشيئين مثلين متباينين، ومؤتلفين مختلفين، وترى الصورة الواحدة فى السماء والأرض وفى خلقة الإنسان وخلال الروض، وهكذا طرائف تنثال عليك إذا فصلت هذه الجملة وتتبعت هذه اللمحة»(٩).

إننى هاهنا لا أستحضر التشبيه لمجرد أن علاقة مشابهة بسيطة حدثت بل لابد من أن يقوم الشاعر باستيثاق تجربته عبر المخيلة، والصعود إلى نسغ الأشياء، وبواطنها، لا الاكتفاء بوجهها الحسى فحسب، حتى يحدث هذا الجدل الخلاق الذى يتطلبه الفن، لذا كان المتباعد والمختلف بين طرفى التشبيه هو المراس الحقيقى والنتاج الدال للعملية التشبيهية، ويضيف عبد القاهر عن التشبيه «وهل تشك فى أنه يعمل عمل السحر فى تأليف المتباينين حتى يختصر بعد ما بين المشرق والمغرب، ويجمع بين المشئم والمعرق، وهو يريك للمعانى الممثلة بالأوهام شبها فى الأشخاص الماثلة، والأشباح القائمة، وينطق لك الأخرس، ويعطيك البيان من الأعجم، ويريك الحياة فى الجماد ويريك التئام عين الأضداد فيأتيك بالحياة والموت مجموعين والماء والنار مجتمعين»(١٠) إن «فريد أبوسعده» يسجل اعترافا شعريا ينم عن حسيته المفرطة العاشقة للجسد الأنثوى الذى يرى فيه خلاصه من قبح العالم ورداءته، ويرى فيه اللحظة المبتكرة المتجددة الحميمة، ويرى فيه طزاجة الأشياء وتجددها:

إنى مهتاج

كطيور جارحة

ممتلئ بالشهوة

مكسو برخام الورع

أنا من آخر نسل الرهبان

وأول نسل الماء (ص.ص ١٢٢ ـ ١٢٣)

وهنا يتأكد ما ذكرناه سابقاً، عن حسية الشاعر، وأنه شاعر حس فى

الإشارات والتنبيهات

المحل الأول، لكن من وجهة ثانية هل يكون عشقه للجسد الأنثوى يكتسى صبغة عرفانية صوفية - بمعنى ما - تتذكر فى هذا المقام قولا لأبى القاسم الجنيد يقول فيه: «كما أن النساء حبائل الشيطان فهن حبائل العرفان، إذ قد يتوصل القاتل من عشقهن إلى معرفة مبدعهن»(١١).

لربما يكون الشاعر فى هجسه الحسى هذا المكسو برخام الورع، برخام الجسد يبحث عن صوفية جديدة يؤسس بها عرشه على ماء الشعر أو ماء الذكورة، بيد أن هذه الظاهرة الحسية فى الديوان تؤكد ظاهرة عامة أخذت تستشرى فى النصوص الشعرية الآن، فهل يشعر الشاعر الآن فى هذه المرحلة القلقة بالخوف الشديد من القادم وعدم الوثوق بزمكان ما، فيلجأ إلى دفء الآخر، إلى التوحيد بين الجسد الإنسانى المنشطر، بديلا عن انشطار الذات الواحدة، هل هى الدراما الحسية التى تبتكرها الحواس فى حين يغيب صفاء المخيلة، واستقصاؤها الطليق النافر.

لربما كان هذا وعْد فريد أبو سعده، لكن التوجه الشعرى يبحث عما وراء الحسية، أو على الأقل يجادلها بطرفها المعنوى الآخر ليؤكد امتيازها وانبثاقها، ويشارف ائتناسها، فالخيال والبصيرة - فيما يرى موريس بورا - «لا ينفصلان فى الواقع، وربما يكونان موهبة واحدة فى كل الأغراض العملية، فالبصيرة توقظ الخيال ليعمل، وهو بدوره يزيد فى حدتها عندما ينشط»(١٢).

إن التوجه الشعرى يؤالف دائماً بين الحسى والمعنوى، ويعالق بين المتضادات: إن تشبيها أو استعارة، بيد أن استبصار الحواس، والترائى الدال الذى يحدثه البصر يشى بفعل متحرك لم تغب عنه الذات الشاعرة، فى إفصاحها الأول عن مشاهدها، وإيغالها التجربة قسطاً فادحاً من الطزاجة، والتفلت، والتلذذ بفاكهة الأشياء وتجردها الحسى المأنوس. ■

عبد الله السمطى

إشارات :

محمد فريد أبوسعده: وردة القيظ - هيئة الكتاب المصرية الطبعة الأولى ١٩٩٣.

١ - إم بوشنسكى: الفلسفة المعاصرة فى أوروبا - ترجمة عزت قرنى - سلسلة عالم المعرفة - الكويت - ١٩٩٢ ص٢٣٠، ويمكن لفهم المفهوم الظاهراتى تتبع كتابات كلا من هوسرل، باشلار، هايدجر، ماكس شلر، جابريل مارسل، كارل ياسبرز، على سبيل المثال.

٢ - السابق ص ٢٣٠

٣ - السابق ص ٢٣٥

٤ - عاطف جودة نصر: الخيال مفهوماته ووظائفه - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الأولى ١٩٨٤ ص٩٠.

٥ - السابق ص ٩٠.

٦ - أدونيس: الصوفية والسوريالية - دار الساقى - لندن - الطبعة الأولى ١٩٩٢ ص ١٩٨.

٧ - غاستون باشلار: جدلية الزمن - ترجمة خليل أحمد خليل - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - الجزائر - الطبعة الثانية ١٩٨٨ ص ٦٢.

٨ - السابق ص ٦٣.

٩ - عبد القاهر الجرجانى: أسرار البلاغة - تحقيق السيد محمد رشيد رضا - مكتبة صبيح بالقاهرة - الطبعة السادسة ١٩٥٩ ص١٠١.

١٠ - السابق ص ١٠٣.

١١ - داود الأنطاكى: تزيين الأسواق بتفصيل أحوال العشاق - المطبعة البهية المصرية د. ت ١/ ٣٥.

١٢ - موريس بورا: الخيال الرومانسى - ترجمة إبراهيم الصيرفى - هيئة الكتاب المصرية ١٩٧٧ ص ١٢.

على شاطئ الإسكندرية الفلسفى

ق كم أنت متسع، رحب وعميق يا بحرنا المتوسط، الذى نادى عميدنا طه حسين بثقافة تجمع بلدانك فى الشمال والجنوب، والذى جسدت الإسكندرية بمراحل تاريخها المتلاحقة بما قدمته هذه الفكرة العميقة التى سعى إليها مؤسسها بإنشاء ذلك الثغر الجميل الذى يجمع شتى الثقافات والحضارات المتنوعة. فى ثقافة عالمية واحدة تبدأ من هنا، وقد كان من الطبيعى أن يوصى إمامنا الكبير الشيخ السكندرى الشاب محمد على أبوريان فى محاضرته الافتتاحية فى الندوة السادسة للجمعية الفلسفية المصرية، التى عقدت فى الفترة من ٩ - ١٢ يوليو ١٩٩٤ عن مدرسة الإسكندرية عبر العصور، يؤكد على ضرورة إنشاء مكتبة الأسكندرية لتكون مركز إشعاع مؤسس على أحدث وسائل الاتصال لتكون ملتقى طلاب العلم فى مقر أقدم جامعة عرفها العالم.

كانت الجلسة الأولى متنوعة متعددة الألوان، شارك فيها أساتذة الفلسفة والتاريخ واللاهوت والدراسات الكلاسيكية وتم فيها استعراض لمحاور كثيرة أهمها: الملامح الحضارية فى مدرسة الإسكندرية، د. لطفى عبد الوهاب، والتأكيد على أن «مدرسة الإسكندرية حلقة وصل بين الشرق والغرب»، أحمد عثمان، وأبرزت «الثوابت والمتغيرات فى مدرسة الإسكندرية»، حسن جنفى، وتناول الأب فاضل سيداروس «بعض ملامح مدرسة الإسكندرية اللاهوتية».

الإشارات والتنبيهات

وإذا كانت المحاضرة الافتتاحية لأبوريان «مدرسة الإسكندرية واغتراب الفكر الفلسفي في الإسلام» إبراز بعض النماذج الفلسفية اليونانية الغربية على روح الإسلام الأصيل، فإن بحث حسن حنفي حاول التأكيد على الثوابت التي ميزت التفكير الفلسفي في الإسكندرية عبر العصور اليونانية والمسيحية والإسلامية والحديثة، مثل التفكير في الواحد منذ أخناتون حتى أفلوطين، وأن هذا الواحد له صلة بالعالم عن طريق فيض العالم عنه، وارتباط الإنسان بالعالم، وتجلى هذا الواحد في الأمة والجماعة، التشريع والقانون. وأن الإسكندرية، مركز، لقاء عبر العصور، جسر بين الثقافات المختلفة: الشرق والغرب، أثينا وروما، الإسكندرية وبغداد العرب واليونان والسريان.

ودارت الجلسة الثانية «الإسكندرية اليونانية» حول «البدايات الفلسفية في مدرسة الإسكندرية القديمة» مصطفى العبادي و«اتجاهات الفلسفة والعلم في مدرسة الإسكندرية» حربي عباس و«الملامح الأساسية للفكر الفلسفي في المدارس المتأخرة» مجدي الكيلاني، وتوقفت أستاذتنا الجليلة أميرة حلمي مطر أمام «حكماء الإسكندرية بالتياس وجالينوس ويحيى النحوي» مؤكدة على أن الإسكندرية أعظم مركز للطب في العالم القديم، وفي رحابها عاش جالينوس الذي سيطر على الطب في مشارق الأرض ومغاربها حتى عصر النهضة الأوروبية مما يؤكد على دور الإسكندرية في تطور العلم العالمي. وبالإضافة للأمواج المتلاحقة للفكر اليوناني والهلنستي تناولت إكرام فهمي الإسهام المسيحي في بحثها التأويل الرمزي (يحق أن يسمى المجازي) عند فيلون وأوريجين.

وكان أفلوطين هو الموجة الأساسية الغالبة على أبحاث الجلسة الثالثة، التي



زكي نجيب محمود

توزعت وتنوعت بين دراسات المحدثين لأفلوطين حيث عرض الشاروني لأفلوطين عند نجيب بلدي، وقارنت صفاء عبدالسلام في بحثها بين «الإليثيا عند أفلوطين وهايدجر»، وقد حاولت فريال خليفة تأويل فلسفة أفلوطين ونقلها من التأمل إلى الفعل «فلسفة الفعل عند أفلوطين»، ورمضان الصباغ الذي قدم لنا بحثه عن «التفسير الأخلاقي للفن عند أفلوطين». إن الخصوبة التي شهدتها هذه الجلسة في التفسيرات المتنوعة أنطولوجيا ومعرفيا وأكسيولوجيا وأيديولوجيا تؤكد على ثراء الندوة عبر تنوع الأبحاث المقدمة، وجهود الجيل الجديد من باحثي الفلسفة في تفسير أفلوطين حيث تمثل الأبحاث الثلاثة الأخيرة إسهام جيل الشباب في هذه الجلسة.

وكما دارت الجلسة الثالثة حول أفلوطين، اختصت الجلسة الرابعة بدراسة الإسهام العلمي في مدرسة الإسكندرية حيث تناول فارسا فلسفة العلم ومناهج البحث الجدد محمد قاسم، يمنى الخولي على التوالي: «رياضيو مدرسة الإسكندرية وطبيعة البرهان الرياضي»، و«الرياضيات في مدرسة الإسكندرية من هندسة السطح المستوى إلى هندسة القطع المخروطي»، وكانت مناقشة الفارس القدير في فلسفة العلم والرياضيات محمد مهران رشوان ذات تأثير مهم في تأكيد حوار الأجيال وإثراء الجلسة بالتعليقات الموضحة المفيدة.

وقد توزعت أبحاث الجلسة الخامسة (الإسكندرية الإسلامية) بين تناول تاريخي «ازدهار الحركة العلمية في الإسكندرية في عصر دولة المماليك الأولى» السيد عبدالعزيز سالم، وبين الفكر السياسي في «الروافد الثقافية لمدينة الإسكندرية، الطرطوشي وكتابه سراج الملوك» لعبدالفتاح الفاوي، والتحليلي الفلسفي والفيلولوجي للاصطلاحات الذي ظهر في بحث إبراهيم ياسين وبين تاريخ العلم في بحث عباس سليمان عن «أثر نصر الدين الطوسي في إحياء وتقويم المؤلفات العلمية لإقليدس السكندري» الذي يوضح فيه أن مؤلفات الطوسي كانت المصدر الوحيد الذي استقى منه الغرب معلوماته عن العلماء اليونان.

وتنقلنا الجلسة السادسة من التاريخ إلى الحاضر، من الماضي البعيد إلى الواقع القريب، من المكتوب إلى المعاش، من الاتفاق إلى الاختلاف، ومن النظرة التاريخية شبه الموضوعية إلى وجهات نظر تغلب عليها الذاتية ولن أقول التناقض. فقد كانت جلسة في معظمها حية ثرية خصبة، فهي شهادة الجيل الحالي على جيل الرواد المعاصرين من مدرسة الإسكندرية، فيها الحرارة والسخونة والنار. وفيها أيضاً لهيب الضغينة - الذي يسعى دون أن ينجح في إخفاء نور الشمس القوية - وذلك في أحد الأبحاث.

وقد تحدث مراد وهبة بعلمية حقيقية عن أستاذ الأساتذة يوسف كرم في بحث امتزج فيه الحب العميق بالنقد الدقيق، لقد تبنى كرم التوماوية وكتب من خلالها

الإشـارات والتنبـيهـات

مـؤلفـاته فى تاريخ الفلسـفـة وفى الميتـافيزيقـا ونظرية المعرفة، لكنه لم يستطع أن يقدم لنا كتابه فى الأخلاق، لأن أية أخلاق فلسفية ستبدو منحازة إذا قدمت من خلال وجهة النظر التوماوية فى بيئة إسلامية.!!.

وقدّم لنا فتح الله خليف بحثه عن نجيب بلدى مؤكداً - ونحن نتفق معه على ذلك - أن بلدى وهو يؤرخ للفلسـفـة فيلسوف، وهو لم يكن فقط خير معلمى الفلسفة بل أيضاً ذو عقلية محللة، وأن فلسفته نوع من الرؤى تبعث فينا النشاط والحيوية الفكرية، وإن كان - بلدى - لم يتعرض كـمـا لاحظ بحق حسن حنفى لفلاسفة وحكماء الإسلام، فهو كما رد خليف لم يكن معجباً بالفلسفة الإسلامية وإن كان شديد الإعجاب بالأدب العربى.

وقـد تحـدث فى هذه الندوة كل من محمد مهران عن زكى نجيب محمود بين ناقديه، مـوضحـاً المنطلقات المختلفة الأيديولوجية والأصولية والفلسفية التى كانت وراء الانتقادات المختلفة لفكرة زكى نجيب محمود تلك الانتقادات التى أوجدت معـارك فكرية بينه وبين منتقـديه مثل محمود أمين العالم فى نقده الفلسفى الذى أرسى حواراً عميقاً حول مناهج وسبل الإدراك فى فهم واقع المجتمع المصرى. أو الانتقادات التى قدمها عبد المعطى بيومى عميد كلية أصول الدين السابق بالأزهر، أو الانتقادات الفلسفية المختلفة التى حاورت صاحب المنطق الوضعى من يحيى هويدى صـاحب منطق البرهان، والوضعية المنطقية فى الميزان، وقد كان رد فعل «العمق الذى قدم به مهران بحثه «متمثلا فى نفس العمق الذى علق به المعقبون وعلى رأسهم المفكر الشيخ الشاب محمود أمين العالم، وقد أكمل حامد طاهر رئيس قسم الفلسفة بكلية دار العلوم ببحثه عن الأصالة والمعاصرة عند زكى نجيب محـمـود النقاش حول دور مؤسس المنهج العلمى فى فكرنا العربى فى العصر الحديث.

وأتى بحث أحـمـد أنور «من المنطق الوضـعى إلى المنطق الفلسفى»، ليكون محاولة لإعادة النظر فى مفهوم المنطق الوضـعى كـمـا طرحـه زكى نجيب فى كتاباته الباكرة فى إطار المبحث المعاصر المسمى بالمنطق الفلسفى كما تطرحه كتابات غربية حديثة للغاية، ويرى أنه يجب اعتبار مشروع المنطق الوضعى اجتهاداً فلسفياً يمكن الاتفاق أو الاختلاف معه داخل إطار المنطق الفلسفى الذى يهتم بالعلاقة بين القوانين الصورية المنطقية والقضايا الفلسفية

وكما تحدث شيخ فلاسفة الإسكندرية المعاصرين ابوريان عن أستاذه أبوالعلا عفيفى مؤكداً على دوره المهم ليس فقط فى التـأريخ للفلسـفـة بل وفى تحـديد المصطلحات الفلسفية الدقيقة سواء فى المنطق أو الفلسفة العامة أو التصوف، موضحاً تمايز مدرسته (عفيفى) عن مدرسة الشيخ مصطفى عبدالرزاق، فقد تحدث أحدث أساتذة مدرسة الإسكندرية محمد عبد القادر عن أستاذه تلميذ الشيخ عبدالرازق فى بحـثـه من «الأصالة الإسلامية فى كتابات على سامى النشار» أو النشار العظيم كما يسميه محمد قاسم. وملامح الأصالة التى يحددها لنا عند النشار هى:

حرصه فيما يكتب على أن يكون له قضية يدافع عنها وهى الأصالة الإسلامية، مع حرصه على تأكيد نزعته الفكرية الأشعرية وتكوينه لمدرسة متميزة نابعة من الأستاذ متحررة من أشعريته، بالإضافة إلى موقفه العلمى النقدى من الاستشراق.

إن هذا الحوار الخصب بين الأجيال لم يظهر فى الدراسة المقدمة عن الأب چورج شحـاته قنواتى، الذى لم يتصل مباشرة بآداب الإسكندرية رغم عمقه ودقته وحرصه الدائم على حضور جميع جلسات وندوات الجمعية الفلسفية المصرية والذى كان متحدثا دائما فيها.

ورغم أن الحب كـان دائماً دافع الأب قنواتى ومع الأب كريستيان والأب فاضل سيداروس فى متابعة ندوات الجمعية الفلسفية فإن النقد بل الهجوم كان سمة البـاحث الذى عـرض للأب قنواتى والمفارقة العجيبة، بل التناقض الصارخ فيما قدم عن قنواتى أن صاحب البحث الذى يرفع شعار النقد والتنوير والعقلانية يخبرنا باعتزاز أن مهمته فى بحثه عن قنواتى أن يجمع الأدعيـة (الدعاء) المشتركة بين رجال الأديان فى حوالى ستين صفحة عنه. ومن هنا يدعو للدعاء ويهاجم العلم العربى ولا يتورع ضد البحث العلمى والحقيقة التاريخية أن يعلن أن تاريخ العلم العربى الذى كـرس له قنواتى حياته كلها - لا يشغل سوى نصف سطر فى أى تأريخ للعلم؟! مع أن الدوميلى وچورج سارتون أشهر مؤرخى العلم المعاصرين يخصص فى كـتـابه «مقدمة فى تاريخ العلم» الذى لم يترجم للعربية بعد - (يسعى ماهر عبد القادر ومعه بعض الزملاء لنقله للعربية) - يخصص آلاف الصفحات لتاريخ العلم العربى فى المجلدين الأول والثانى من كتابه والذى يطلق على فصوله المختلفة أسماء العلماء العرب مثل عصر البوزجانى، البيرونى، جابر بن حيان، الحسن بن هيثم، عمر الخيام.

وأمام هذه الافتراءات العديدة كان الرد الكريم والنقد العلمى الدقيق وتصحيح أخطاء تلك الآراء التى لا تستند إلى أى سند من العلم والفلسفة والحقيقة الذى رد به ماهر عبدالقادر فى رئاسته للجلسة السابعة.

واختصت كل من الجلسة السابعة والجلسة الثامنة بتكريم رواد الفلسفة فى القاهرة والإسكندرية من الراحلين: زكى نجيب محمود ومحمد ثابت الفندى، ومن الأحياء محمد على أبوريان أطال الله بقاءه بحيث لم يشعر أعضاء الندوة والمشتركون فيها بغياب أعضاء الجمعية

الإشارات والتنبيهات

الفلسفية العربية بل لقد حرصت السيدة الفاضلة الاستاذة منيرة حلمى زوجة المفكر الراحل زكى نجيب محمود على تفضيل دعوة الجمعية الفلسفية المصرية وعدم تلبية دعوة الجمعية العربية التى أخلت باتفاقها على إقامة تكريم الرواد فى ندوة الإسكندرية.

ثم جاء بحث كل من محمد أبو قحف آداب الزقازيق عن تطوير الحركات الفلسفية فى مدرسة الإسكندرية وبحثان عن مدرسة الإسكندرية المعاصرة «أبو ريان نموذجاً ليقدم نموذجا للحوار بين الأجيال ويقترح منهجا للتعامل مع الرواد بعيداً عن كل من التمجيد والتقديس من جانب والإغفال والتجاهل والحط من قدر الرواد من جانب آخر، بعيداً عن العبارات الإنشائية الجوفاء، ثم تتناول إنجازات الرائد وإسهاماته ونظراته فيما أسماه «الواقعية الوجدانية»، و«خريطة الإسلام الروحية»، والتأكيد على ازدهار الفلسفة فى المشرق بعد ابن سينا فى بحثه «أصول الفلسفة الإشراقية»، والمدرسة الأفلاطونية فى الإسلام التى أكدت استمرارية البحث الفلسفى بعد هجوم الغزالى.

وبالإضافة إلى أبحاث هذه الجلسة الطويلة المثمرة التى استمرت أكثر من ثلاث ساعات ونصف فإن تعقيبات الحضور وتعليقات رئيس الجلسة ماهر عبد القادر فى تأكيده على أهمية الحوار العلمى، والالتزام بالمصادر والأسانيد، والتنبيه على عدم إغفال الحقيقة وتجاهل حقائق العلم المتعمد، ورفضه الترويج لأفكار لاصلة لها بالعلم.

ونظراً لكثرة عدد الأبحاث فقد نقل بحثان من هذه الجلسة إلى الجلسة الثامنة والأخيرة عن زكى نجيب محمود هما: بحث على حنفى عن مكانة العقل عند زكى نجيب وبحث محمد عزيز نظمى عن المذهب الجمالى عند زكى نجيب.

وخصصت أبحاث الجلسة الأخيرة عن رائد مدرسة الإسكندرية وعميدها الأسبق محمد ثابت الفندى حيث قدمت أبحاث خمسة تغطى نواحى اهتمامه المختلفة فمن الناحية الاجتماعية نجد بحث السيد بدوى «لمحات من حياة ثابت الفندى» وبحث سامية جابر «البعد الاجتماعى عند ثابت الفندى» وبحث أحمد عبد الحليم «ثابت الفندى بين التصوف والمنطق» وثابت الفندى إنساناً وفيلسوفاً على عبدالمعطى وأصول المنهج الاستقرائى عند ثابت الفندى لماهر عبدالقادر. وإذا كان بحث على عبد المعطى ركز على المواقف الشجاعة ذات الطابع الاجتماعى والسياسى أولا ثم كتاباته الفلسفية ثانياً خاصة ذات الجانب المنطقى وأخيراً مرحلة التصوف فإن ماهر عبد القادر- الذى يعد كتاباً عن الرائد الكبير- حاول تناول إنجاز الفندى فى سياقه التاريخى مرتبطاً من جهة بإسهام من سبقوه وبسياق برنامج علمى متكامل اختطه لنفسه.

من جهة ثانية تتواصل الأمواج وتتلاحق، وتتحاور الأجيال وتتناقش، وتظل المياه نقيه وإن أصابها بعض من تلوث حياتنا الحاضرة، إن ثبات وعمق البحر والمدينة والجامعة يؤكد أن للفلسفة دورها الكبير عبر العصور المختلفة للإسكندرية وعبر الندوة السادسة للجمعية الفلسفية المصرية، التى أصدرت العدد الثالث من مجلتها عن الندوة، والتى تستعد لإحياء ذكرى رئيسها الراحل الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازانى فى الوقت نفسه الذى تستعد فيه لندوتها القادمة عن «التأويل - الهرمينوطيقا - فى الفلسفة والعلوم الإنسانية» فإلى موجة قوية قادمة تقلب البحر فيذهب الزبد جفاء ويبقى ما ينفع الناس. ■

أحمد عبد الحليم عطية

ابن رشد سؤال العقلانية

فإن ابن رشد حكيم قرطبة - إن شئت - والشارح الأكبر هكذا أطلقوا عليه، تعرض لاضطهاد كل الذين اختلفو مع آفاق دولة الموحدين. هذا ما كان وما دعى د. مراد وهبه أن يقول: «إن مفارقة ابن رشد تكمن فى أنه كان ممهداً للتنوير فى أوروبا فى حين أنه كان موضع اضطهاد من أمته».

ومفارقة أخرى فى هذه الفقرة من ورقة أ.د. فتح الله خليف: «ولم يخرج على هذا الإجماع فى زماننا فيما أعلم إلا عاطف العراقى الذى جاء اسمه على صدر كتاب ابن رشد مقروناً بعبارة: أستاذ الفلسفة العربية. نحن إذن أمام خروج عن الإجماع بين المشتغلين بالفلسفة الإسلامية لا مسوغ له، إلا إذا كان عاطف العراقى قد اختار أن يقف مع جميل صليبا وخليل الجر ليقول بدين عربى بدلا من الدين الإسلامى».

المفارقة الثالثة هى مناقشة كتاب «الفيلسوف ابن رشد، مفكراً عربياً ورائداً للاتجاه العقلى، إشراف وتصدير د. عاطف العراقى، أستاذ الفلسفة العربية، المجلس الأعلى للثقافة، لجنة الفلسفة والاجتماع، القاهرة ١٩٩٣، فى ندوة ذات جلسات متعددة، قدم فيها أوراق حول الكتاب ودُعى لها عدد كبير من المتحدثين والمحاورين. قدمت فى هذه الندوة سبع قراءات للكتاب، ثلاث قراءات من المساهمين فى الكتاب ذاته (د. عاطف العراقى، د. مراد وهبه. د. حامد طاهر).

الإشارات والتنبيهات



وقامت على هذه الندوة ودعت إليها لجنة الفلسفة و الاجتماع بالمجلس الأعلى للثقافة.

ماعلينا ولنردد مع حسن حنفى فى الفقرة الأخيرة من ورقته: «ومع ذلك، فإن تواصل الجهود مطلوب وتراكم الخبرات الفلسفية أساس الوعى الفلسفى التاريخى. فلولا كتاب «ابن رشد مفكراً عربياً ورائداً للاتجاه العقلى، ما تمت المراجعة، وما حدث نقاش وحوار بين أساتذة الفلسفة فى مصر. فالجهد يولد جهداً. والسكون يعقبه الموت».

ويقدم حسن حنفى تصنيفاً لبحوث الكتاب الثمانية عشرة على النحو الآتى:

أولا: الفلسفة والدين [أحمد محمود صبحى: هل أحكام الفلسفة برهانية؟، محمود حمدى زقزوق: الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية لدى ابن رشد، حامد طاهر: قضية العلاقة بين الفلسفة والدين لدى ابن تومرت وابن رشد].

ثانياً: الفلسفة [محمود زيدان: نظرية ابن رشد فى النفس والعقل، سعيد زيد: ابن رشد وكتابه «تهافت التهافت»].

ثالثاً: الكلام [على عبد الفتاح المغربى: التأويل بين الأشعرية وابن رشد، زينب عفيفى شاكر: مشكلة الحرية فى فلسفة ابن رشد، مرفت عزت بالى: موقف ابن رشد من مشكلة الخير والشر].

رابعاً: التصوف [أبو الوفا الغنيمى التفتازانى: ابن رشد والتصوف].

خامساً: الطب [منى أحمد أبو زيد: ابن رشد طبيباً].

سادساً: ابن رشد والحضارة الإسلامية [عبد الفتاح فؤاد: الفلسفة الرشدية مدخل إلى الثقافة الإسلامية، عاطف العراقى: فلسفة ابن رشد وفكرنا العربى المعاصر].

سابعاً: ابن رشد والحضارة اليونانية [إبراهيم مدكور: ابن رشد المشائى الأول بين فلاسفة الإسلام، سعيد مراد: ابن رشد بين حضارتين، نبيلة ذكرى زكى: ابن رشد والمؤثرات اليونانية فى فلسفته الإلهية].

ثامناً: ابن رشد والحضارة الغربية فى العصر الوسيط (مراد وهبه: مفارقة ابن رشد، زينب الخضيرى: مشروع ابن رشد الإسلامى والغرب المسيحى، جورج قنواتى: ابن رشد فى عصر النهضة].

ويقول حسن حنفى: وواضح من هذا التصنيف أنه أقرب إلى عرض جوانب فلسفة ابن رشد منه إلى تناول الإشكاليتين الرئيسيتين المعلنتين على الغلاف، كما أنه لا يوجد ربط بين هذه الموضوعات الثمانية فى التصدير بحيث تبدو الاشكاليتان واردتين ولو بصيغة ضمنية خلال البحوث الثمانية عشرة، فرأس الكتاب الذى يمثله العنوان فى جانب وجسم الكتاب المتضمن للبحوث الثمانية عشرة فى جانب آخر.

وفى الورقة المعنونة «إشكاليتا الندوة، يقول مراد وهبه «الكتاب، فى تقديرى، يثير إشكاليتين هما على النحو الآتى:

الإشكالية الأولى تدور على ما يبدو أنه تناقض بين ما هو عربى وما هو إسلامى. فعنوان الكتاب ينعت ابن رشد بأنه مفكر عربى، ولقب المشرف على إصدار الكتاب «أستاذ الفلسفة العربية»، أما أبحاث الكتاب، فى جملتها، فإنها تتناول ابن رشد كفيلسوف إسلامى أو على الأقل فيلسوف عربى إسلامى.

والإشكالية الثانية تدور على وصف ابن رشد بأنه «رائد الاتجاه العقلانى» على نحو ما هو وارد فى عنوان الكتاب. فما المقصود بالعقلانية؟ وإلى أى مدى عبرت أبحاث الكتاب عن هذا الاتجاه العقلانى؟».

إلا أن الدكتور فؤاد زكريا يرى رأياً آخر إذا أردنا أن نتعامل مع إشكاليات ابن رشد، من منظور معاصر: «اسمحوا لى بأن أعلن، بوضوح، أننى لا أؤمن بأن هاتين القضيتين هما أهم القضايا التى يمكن أن ندرس من خلالها ابن رشد من منظور معاصر، بل إن هناك قضايا أخرى أحق منها وأولى بالدراسة، أشار

الإشارات والتنبيهات

الكتاب التذكارى نفسه إلى بعضها، دون توسع، وإن كان قد فاته أن يشير إلى البعض الآخر.

القضية الأولى: تلك الظاهرة هى أن العالم العربى، كان متفوقًا على أوروبا بصورة كاسحة، وكان ينطوى على جميع مقومات التقدم التى تؤهله ليكون نقطة انطلاق النهضة الحديثة كلها، فى العلوم والرياضيات كانت الأسس الرياضية والأشكال التوضيحية التى بنى عليها كوبرنيكوس إعلانه الثورى - «إن الأرض متحركة، وتدور حول الشمس» - معروفة لدى ابن الشاطر والطوسى وغيرهما من الفلكيين العرب. وفى ميدان الاقتصاد، كان العالم العربى يحوى ثروات هائلة، وكان محور التبادل التجارى فى العالم، وكانت الفنون والصنائع والعمارة وتخطيط المدن. ومع ذلك لم ينتقل العالم العربى إلى مرحلة الرأسمالية الحديثة.

وفى ميدان الفكر والفلسفة. كان ابن رشد وابن باجه وابن طفيل ومن قبلهم كوكبة لامعة من فلاسفة المشرق، يحملون لواء الفكر الإنسانى ويستوعبون التراث القديم بأفق واسع، وكان لهم الفضل فى إعادة تعريف أوروبا نفسها بتراثها اليونانى. فلماذا لم تظهر هذه النهضة عندنا، مع أننا كنا نحمل أهم مقوماتها؟ وربما كان فى الإجابة مفتاح لفهم سر التخلف الذى انتابنا فى ذلك الوقت الذى بدأت فيه أوروبا قفزتها الكبرى فى هذه الميادين، ومن ثم مفتاح لمعرفة الأسس التى يمكن بواسطتها تدارك هذا التخلف. وتستحق هذه القضية أكبر قدر من اهتمام العرب المعاصرين فى ميادين العلوم والاقتصاد السياسى والفلسفة.

القضية الثانية: هى قضية «القطيعة المعرفية» بين فلاسفة المغرب العربى، وعلى رأسهم ابن رشد، وبين فلاسفة المشرق، وهى القضية التى أثارتها كتابات محمد عابد الجابرى وأصبحت تمثل موقف مدرسة كاملة فى المغرب العربى واسعة الانتشار، قوية التأثير. هذه المدرسة تذهب إلى أن الفلسفة العربية قد اكتسبت فى المغرب طابعًا برهانيًا، عقلانيًا، يمثل «قطيعة معرفية» مع فلسفة المشرق التى توصف بأنها «إشراقية»، ومن ثم فإنها «عرفانية»، لا تقوم على العقل والبرهان.

القضية الثالثة: لعل أهم الإشكاليات التى ينبغى أن يتصدى لها الكتاب، وأن تبرزها الندوة، هى الأهمية المعاصرة لابن رشد، أو الدور الذى يمكنه القيام به بوصفه مصدرًا يستفاد منه فى الصراع الحالى بين السلفية والعقلانية.

ويقول د. حسن حنفى: «لا يوجد بحث واحد لتحديد معنى العقلانية كمذهب فى تاريخ الفكر الفلسفى الإسلامى والغربى، الشرقى أو الغربى، حتى يمكن الحكم بناء على هذه المذاهب على «ابن رشد عقلانيا»، ولايوجد بحث واحد مقارن بين اتجاهات مختلفة للعقلانية ومذاهب تاريخية سابقة على ابن رشد أو لاحقة عليه لمعرفة معنى الريادة والسبق إذا كان للشعارات وزن وللكلمات معنى ... لقد تحول العقل إلى دعوة، والعقلانية إلى خطابة».

ويقدم الاستاذ محمود أمين العالم ورقة بعنوان «ملخص لبحث عقلانية ابن رشد فى ضوء كتاب الفيلسوف ابن رشد مفكرًا عربيًا ورائدًا للاتجاه العقلى». ويتألف هذا البحث من أربعة محاور: المحور الأول هو عرض عام لدلالة العقلانية والمحور الثانى قراءة لدراسات هذا الكتاب والمحور الثالث تعليق عام على هذه الدراسات والمحور الرابع محاولة لتحديد دلالة العقلانية الرشدية فى إطار مذهبه الفلسفى عامة. وفى بداية المحور الرابع - ومن ورقة البحث - كتب العالم: «أحرص فى البداية على تحديد أمرين: الأول هو أن دلالة العقلانية الرشدية أو عند أى فيلسوف آخر لا تكون بالاكتفاء بتعريفاته التى يقول بها دائمًا وإنمابالدراسة لمجمل فلسفته ولمنهج معالجته لمختلف القضايا والمشاكل التى يعرض لها. والأمر الثانى أن الطابع العام السائد للفلسفة فى العصور المسماة بالوسطى سواء فى البلاد العربية الإسلامية أو فى أوروبا هو الطابع الدينى. ويبقى الاختلاف بين المذاهب الفلسفية حول العلاقة بين الدين والفلسفة. هل الدين موضوع للفكر الفلسفى أم الفكر الفلسفى موضوع للدين. فى ضوء هذا أحاول أن أعرض لمفهوم العقلانية الرشدية فى أربعةأبعاد: البنية الذاتية للعقل، والعقل كأداة معرفية، والتحقق الأنطولوجى للعقل ثم أخيرًا التجلى العملى للعقل».

وتؤكد الأوراق المقدمة والمناقشات داخل الندوة، أن أهم الأبحاث هى:

«هل أحكام الفلسفة برهانية»، «الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية لدى ابن رشد»، «قضية العلاقة بين الفلسفة والدين لدى ابن تومرت وابن رشد»، «نظرية ابن رشد فى النفس والعقل»، «مشروع ابن رشد الإسلامى والغرب المسيحى»، وسوف نتعرض لهذه الأبحاث بإيجاز شديد وعلى لسان أصحاب تقييم الكتاب.

البحث الأول: «هل أحكام الفلسفة برهانية» للدكتور أحمد محمود صبحى: يقول د. فؤاد زكريا: «قدم الأستاذ الدكتور أحمد صبحى بحثًا فلسفيا رصينا، قد لا يتفق المرء مع كل حججه واستنتاجاته، ولكنه ينطوى على وجهة نظر تتسم بالأصالة وتقوم وجهة النظر هذه على أن من طبيعة الحجج الفلسفية فى عمومها أن تكون جدلية، لا برهانية كما تصور ابن رشد. وهذا يؤدى إلى هدم التقسيم الثلاثى للأدلة إلى خطابية، تأخذ بها العامة، وجدلية، يطبقها المتكلمون والفقهاء، وبرهانية، ينفرد بها الفلاسفة والعلماء، وهو التقسيم الذى اقتبسه ابن رشد عن أرسطو، بعد تعديله وفقًا لظروف مجتمعه.

الإشارات والتنبيهات

ولقد بنى الدكتور صبحى رأيه القائل بأن طبيعة الحجج الفلسفية عامة أن تكون جدلية، على الفكرة القائلة أنها لا ترتكز على مقدمات يقينية: فهى لم تعرف طوال تاريخها سوى مذاهب متعارضة وتيارات متناقضة وهى فى ذلك تختلف اختلافا أساسيا عن العلم النموذجى القائم على البرهان، وهو الرياضيات وتؤدى وجهة النظر هذه إلى إزالة الفوارق بين المتكلمين والفلاسفة، من حيث المنهج الفكرى، والقضاء على «الاستعلاء» الذى ظهر واضحا لدى ابن رشد كما تؤدى إلى الشك فى وجود حقيقة فلسفية أسمى من ظاهر الحقائق التى يقول بها الإيمان الساذج، كما اعتقد ابن رشد».

البحث الثانى: «الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية لدى ابن رشد» للدكتور محمود حمدى زقزوق.

ويضيف د. فؤاد زكريا: «وبالمثل كان بحث أ.د. محمود زقزوق يتسم بالأصالة، ويسير فى خط مواز- إلى حد لافت للنظر - لبحث الدكتور صبحى. فهو يستهدف فكرة ازدواجية الحقيقة نفسها ما بين دينية وفلسفية، ويسعى إلى تأكيد «وحدة الحقيقة» فى الإسلام. وحين يطبق هذه الفكرة على ابن رشد، ينكر وجود أية خصومة بين الدين والعقل، ومن ثم لا يكون الإنسان فى وضع يرغمه على الاختيار بينهما. ويبدو لى أن الجهد المشكور الذى بذله الدكتور زقزوق يمارس كله فى ميدان مثالى، يعالج فيه الباحث ما ينبغى أن يكون عليه الوضع بين الحقيقتين الدينية والفلسفية».

البحث الثالث: «العلاقة بين الفلسفة والدين لدى ابن تومرت وابن رشد» للدكتور حامد طاهر.

يرى الدكتور صاحب البحث أن ابن تومرت يؤكد أن الشريعة ذات كيان قائم بذاته مستقل عن العقل، ولهذا فإن ثبوتها لا يتوقف على أحكام العقل وبراهينه وهو يحصر الشريعة فى عشرة أصول وخمسة فروع تؤكد جميعا من القرآن الكريم والسنة النبوية ولا حاجة لتدخل العقل فيها، وهناك الإجماع والقياس اللذان يراهما ابن تومرت متضمنين فى القرآن والسنة، والقياس عنده هو القياس الشرعى لا القياس العقلى. فإذا انتقلنا إلى ابن رشد وجدناه يعرف الفلسفة بأنها «النظر فى الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على صانعها وهو هنا (فصل المقال) يحصر مفهوم الاعتبار فى القياس العقلى البرهانى».

ويقول الاستاذ محمود أمين العالم: «يفسر الدكتور حامد الفرق بين موقف ابن تومرت وموقف ابن رشد بأن ابن تومرت كان فى بداية الدولة الموحدية وفى حاجة إلى جذب الناس، أما ابن رشد فقد جاء وقد استقرت الدولة وأصبح أمامها أن تقدم الأساس العقلى لاتجاهها، والواقع أن ابن تومرت فى تقديرى كان تمهيدا عقليا لابن رشد لا بفضل استعانته ببعض المناهج العقلية فحسب، بل بتحديده كذلك لهذا الكيان المستقل للشريعة القائم بذاته والذى لا يتوقف على أحكام العقل والذى كان تمهيدا لإبراز الكيان المستقل للفلسفة عند ابن رشد».

وما زال البحث عن تحديد عقلانية ابن رشد يشعل الحوار ويرى الدكتور مراد وهبه فى ورقته: «إن عقلانية ابن رشد تقوم فى العلاقة العضوية بين التأويل والبرهان. حيث يقرر ابن رشد حق الفيلسوف أو الراسخ فى العلم فى «تأويل» النص الدينى بما يتفق وطبيعة البرهان العقلى. ويعرف ابن رشد التأويل بأنه «إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، وهو يقول ذلك فى شأن العلاقة بين الشريعة والبرهان. ويضيف د. وهبه: «ومن شأن التأويل أن يخرق الإجماع إذ لا يتصور فيه إجماع على حد قول ابن رشد، ولهذا يمتنع تكفير المؤول، أى لا تكفير مع التأويل. ولهذا غلط ابن رشد الغزالى عندما كفر الأخير الفلاسفة من أهل الإسلام مثل الفارابى وابن سينا».

البحث الرابع «نظرية ابن رشد فى النفس والعقل» للدكتور محمود فهمى زيدان. يقول د. مراد وهبه: «إن بحث د. زيدان يدور حول نظرية ابن رشد فى طبيعة العقل الإنسانى التى تحاول التوفيق بين نظرية أرسطو فى العقل وعقيدة الدين فى خلود النفس، وبعد عرض النظرية يخلص إلى القول بأن ابن رشد لم ينجح فى محاولته الدفاع عن عقيدة الإسلام فى خلود النفس. وفى تقديرى أن مسألة الدفاع عن العقيدة ليست من شأن الفلسفة، بل من شأن علم الكلام ومنشأ علم الكلام دليل على ما نقول».

البحث الخامس: «مشروع ابن رشد الإسلامى والغرب المسيحى» للدكتورة زينب الخضيرى.

يقول فؤاد زكريا: «ولكن أهم أجزاء هذا البحث فى نظرى هو الجزء الأخير، الذى تطرقت الباحثة فيه إلى بعض النتائج العملية التى تؤدى إلى فكرة انفصال الحقيقتين الدينية والفلسفية. فهذا الفصل يؤدى إلى فصل موازله، بين السلطة الروحية أو الدينية والسلطة الزمنية أو السياسية. وهكذا فإن أفكار ابن رشد حين نقلت إلى أوروبا قد أثرت فى كتاب أوروبيين كانوا روادا فى الدفاع عن فكرة فصل سلطتى الدين والدولة وبالتالى فى التمهيد للمبادئ الأساسية التى قامت عليها النهضة الأوروبية الحديثة».

وفى النهاية هذه التصورات لعديد من المفاهيم التى قدمها ابن رشد وهى تعبير عن تصورات واجتهادات فكرية ومنهجية مختلفة ومتباينة وهى ظاهرة صحية فى حياة القاهرة الثقافية تعبر عن الاستقلال والتنوع الفكرى. ■

حسن سرور

الإبداع القصصى لأدباء النوبة

فى تحت عنوان الإبداع القصصى لأدباء النوبة، نظم المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ندوة خاصة لمناقشة الإبداع القصصى النوبى، الذى فاض عن الإطار القصصى لينسحب على شتى فروع الإبداع، شارك فى الندوة فضلا عن «جابر عصفور» رئيس المجلس الأعلى للثقافة العديد من النقاد والكتاب البارزين، من بينهم على الراعى، إدوار الخراط، إبراهيم فتحى وفاروق خورشيد، كما شارك بها من كتاب النوبة إدريس على وحسن نور ومحمد وهبة، وأدارها الروائى صبرى موسى.

والحق أن ثمة ضجة مفتعلة حول مسمى «الأدب النوبى الحديث» ممثلا بالأعمال القصصية والروائية التى ظهرت فى العشر سنوات الماضية، فقد أعيدت قراءة هذا الأدب من قبل بعض الصحافيين الباحثين عن سجالات وذلك فى ضوء الزلزال السوفيتى وما تبعه من تغيرات متباينة حيث يتجاوز النزوع إلى التكتل وتكوين قوة اقتصادية عظمى فى أوروبا الغربية، جنبًا إلى جنب وإعادة الاعتبار إلى الإثنيات العرقية والدينية، بل وتشجيع الحركات الانفصالية فى شتى بقاع العالم.

ولذلك فقد انتدى المنتدون حول إعلان نفيهم تحوّل النوبيين إلى «أكراد» جدد أو «أرمن» آخرين أو حتى مواطنين من الدرجة الثانية مع التأكيد على وحدة الإطار المشتمل على تفرعات مناخات متعددة.

● مقدمات ●

فى البداية تحدث «جابر عصفور» بوصفه قارئًا للقصة فتناول رواية الأديب النوبى محمد خليل قاسم «الشمندورة» كعمل مؤثر فى سياق تلقيه للإبداع:

«الواقع أن هذه الندوة تثير الكثير من الأسئلة، ولست فى موضع من يجيب عليها فهذا عمل الذين تقدموا بأوراقهم ولكن حسبى أن أتحدث بوصفى قارئًا للقصة، لا أذكر أن أعمالا روائية أو قصصية قد بدهتنى وأثارت فى نفسى الكثير من الأسئلة عن الذى لا أعرفه من القصة فى مصر سوى مجموعة قليلة جدًا من الأعمال أولها فيما أذكر «الشمندورة» فهذه الرواية تفتح أفقًا من الأسئلة لا تنتهى، عن خصوصية الإبداع فى منطقة ما، وعلاقة هذه الخصوصية بالمشهد الذى تنتمى إليه ولا تنفصل عنه، عن الوحدة بين العام والخاص التى علّمنا إياها أساتذتنا فى النقد، عن الاستغراق فى التقاليد والتعمق فى الخصوصية وهو ما يمكن أن يفتح أفقًا للإبداع، عن الفرق بين تقليد الموضة، والوعى الذى يتمثل العصر من خلال تجربة فريدة، «فالشمندورة» تلفت الانتباه إلى ظاهرة الإبداع المتفجر من النوبة نتيجة لمجموعة من العوامل والأسباب، ولا شك أن الأسئلة التى سوف يطرحها الزملاء من خلال أوراقهم المقدمة، سوف تتطرق لهذه العوامل وتلك الأسباب ولكن أشير إلى أن الهدف من الندوة ليس تقديم أجوبة نهائية بل فتح أفق لحوار حول هذا الموضوع وهذ الأدب الخاص فى سياق الأدب المصرى بعامة».



جابر عصفور

وتأكيدًا للسياق جاءت كلمة «على الراعى» حماسية تشير لمحور الندوة عبر أقصر الطرق:

أقول: «من يطلب الذهب فليفجر الأرض» إن الأرض لا تفشى أسرارها إلا لمن يفتش فى جوفها»، وذهب النوبة فيما يعنى هذه الندوة هو أدبها وعلاقاتها بين جيرانها، وفى إطار البحث عن التنوع داخل الوحدة، لن نتوقف طويلا أمام الرأى القائل بأن البحث فى أدب النوبة سوف يكرس إلى نوع من الانفصال بين النوبة وسائر السياق المصرى، فلم يحدث أن كانت النوبة غائبة عن مصر فى أى من الأزمان، فى الستينيات مثلا جنّدت مصر العالم كله لإنقاذ آثار النوبة، فكان فى هذا الإنقاذ اعترافًا واضحًا بأن النوبة وَجِدتْ لتبقى، وقد صحب هذا الاعتراف شعور بالزهو عندنا، وفرحٌ فى نفوس أهل النوبة، أن تراثها جزء عزيز من تراثنا بأجمع، نجتمع للنظر فى أدب النوبة وثقافة النوبة بوصفها جزءًا لا يتجزأ من تاريخ وحاضر مصر.

● خصائص القصة النوبية ●

تم تناول القصة النوبية بشكل أكثر تخصصًا فى ورقتين تقدم بهما كل من الناقد إبراهيم فتحى والروائى إدوار الخراط، حيث تناول الأول ملامح وسمات

الإشارات والتنبيهات

القصص النوبى بعامة بينما آثر إدوار الخراط مزيداً من التخصص بقراءته لأعمال قاص نوبى واحد هو الراحل «إبراهيم فهمى» الذى غاب عنا أوائل هذا العام متأثراً بمرضه.

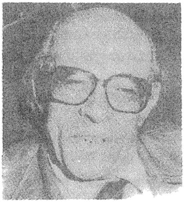
إبراهيم فتحى: «يبحث القصاصون النوبيون عن بصيص نور داخل لُجج الواقع النفسى للغرق، وقد تمثل ذلك فى البحث عن معنى بالرجوع إلى الوراء، إلى ذكريات مُستحضَرة سحرياً، وشرنقة من الفانتازيا هى قشرة متخيلة ذات طابع مثالى لفردوس مفقود، وربما كان هناك إغراء العكوف على مدخل اقليمى ضيق مقطوع الصلة بالمجال الأوسع للتاريخ المصرى وتياراته وقواه، ولكن ذلك ليس إلا خيطاً من خيوط النسيج المتشابكة

- نجد لوحة العادات اليومية والأنماط الشعبية قبل الطوفان حافلة بتمجيد السمات المحلية للجماعات المتآلفة الهانئة، المندمجة مع النهر والجبل والنبات والحيوان.

- نجد النزعة التسجيلية القائمة على التفاصيل الواقعية التاريخية محاطة بإطار غنائى يسترجع ما كان من عذوبة متخيلة فى نمط الحياة المغاير.

- لن نجد فى القصص النوبى تطويراً لغوياً يطابق كون اللغة واقعاً روائياً فى عصر الاغتراب وانفصال الزمان الفردى النفسى الفردى عن الزمان الموضوعى التاريخى بل نجد وقوفاً عند الاستعمال ذى النزعة الطبيعية أو الرومانسية للغة وربما عاق ذلك القصص النوبى عن الإمساك بالديناميـة المتناقضة الشاملة للعصر.

- أصبح المكان الذى تستدعية الذاكرة وتعيد تشكيله عبارة عن مساحة للأشواق، له وظيفته فى شبكة المصائر الإنسانية، وليس مجرد موقع بلا معنى.



إدوار الخراط

إدوار الخراط

إبراهيم فهمى من أوائل الكتاب النوبيين - بعد خليل قاسم الذى لا يُنسى بالطبع - الذين كانوا يعكفون على إعادة إحياء ثقافة قومهم، وقد كادت تندثر فى خضم التغيرات التى تتحيَّف كل ثقافات العالم الثالث اليوم، وهم كتاب يتراوح تناولهم لهذه القضية من الشجن الغنائى، كما هو الشأن عند إبراهيم فهمى، مروراً بألوان الطيف، حتى صرخة الدعوة إلى ما يشبه القطيعة الثقافية أو التمايز العرْقى وما يجرى هذا المجرى.

إن الأسى على الفقدان - فقدان أرض لا عودة لها، بل فقدان موقع روحى تكاد رسومه تبيد، إنما هو أسى موجع، وصادق، ليس فقط فى «الواقع» الظاهرى



حسن نور

الملموس بل كذلك وأساساً فى الوجود الفنى القصصى عند هذا الكاتب المبدع ذى اللغة التى يتميز فيها الشعر بالسرد، والبوح بالنجوى، حتى وإن كانت تُحمل الشفرات بشحنة واضحة ربما كانت أثقل قليلا مما يرادبها، من قبيل معادلة النوبى بالطائر وما تجده هذه المعادلة من مشابهات متوقعة، وهو ملمح مضطرد فى كل العمل القصصى لإبراهيم فهمى، هو يسمى النوبة المفقودة بالوطن القديم أما النوبة الموجودة فهى مجرد «مكاننا الجديد» وهى ليست وطناً جديداً وإن كانت التسمية تأتى بعد ذلك فى سياقات أخرى، وفى هذا الوطن القديم - فى ذلك الفردوس المفقود - يبعث لنا القاص إبراهيم فهمى طقوس الميلاد والختان والعشق والزواج والعمل، فى مناخ يجمع بين واقعية التفاصيل الدقيقة الملحوظة بعين صاحية يقظة للمحات الموحية وبين شاعرية النجوى والنداء، فمن تقنياته المألوفة أنه ينادى: النداء موجه للأرض وللأشخاص ولمفردات الكون على السواء، كما أنه موجه للذات أو للحبيبة على السواء.

إن أرض الجنة المفقودة عند إبراهيم فهمى هى أيضاً أرض الأسطورة أو التاريخ الفرعونى أو العربى على السواء، فهو إلى هذين التيارين العريضين المخصبين يَنسُب هذه الأرض بقوة.

● شهادات نوبية ●

تمثل حضور الكتاب النوبيين فى الندوة بثلاثة كُتاب هم: «ادريس على»، «حسن نور»، «محمد وهبه» حيث أدلى كل منهم بشهادة يختلط فيها الذاتى الحياتى بالنظرى المعتمد من قبله عن الفن كما تناولوا جميعاً مفهوم الأَدب النوبى وما أثير حوله من ضجيج فى الأونة الأخيرة متفقين على فصل الإبداع عن حركية

الإشارات والتنبيهات

السياسة وإن تضمن السياق الإبداعى رؤى وشطحات سياسية مؤكدين على كونهم جزءاً من وحدة هى جماع التعدد والتنوع:

● حسن نور ●

دعونا نقول أدب نوبى دون حساسية ودون خوف مما أثار البعض ضدنا، فقد حاولوا إرهابنا بعناوين ضخمة لأهداف سيئة، لا أدرى لماذا هذه الحساسية الذى يثيرها الأدب النوبى، هل هناك ضير أن نقول على سبيل المثال أدب «سيناوى» أو أدب «عرايشى» إذا كان كتاب هذه المناطق يتناولون مشاكل وقضايا تخص مناطقهم، أليس من الأفضل أن تتنوع الكتابات وأماكنها وثقافات أبطالها بدلا من تشابهها وتجانسها، ألم يتميز «محفوظ» بكتاباته عن الجمالية فى القاهرة القديمة؟، ألم يحاول «الغيطانى» البحث عن التميز فغاص فى كتب ابن اياس وتاريخ مصر المملوكية، فى النهاية أقول إن من مجموع الوحدات المختلفة والمنمنمات يتكون الفن المصرى والأدب المصرى.

● محمد وهبه ●

التنوع فى الثقافة يؤكد وحدتها ولا ينفيها بل إنه يثريها والصفة النوبية لا يمكن أن تكون تكريساً للانفصال والانكماش كما يدعو وإنما هى تكريس للخصوصية والتنوع داخل إطار الوحدة.

● إدريس على ●

النوبة التى نستعيدها من الذاكرة ونكتب عنها ليست مجرد حارة أو قرية أو حتى محافظة، ولا كان النوبيون مجرد قبيلة وافدة، النوبة تراث حضارى إنسانى وجزء هام من تاريخ المنطقة فلماذا يستنكر البعض وجود أدب نوبى؟، أو مصطلح نقدى بهذا الاسم؟، لماذا محاولة



إبراهيم فهمي

انكار وجود الآخر، ولماذا يحملون الأمور أكثر مما تحتمل؟، النوبة كانت حضارة وستظل محمولة فى الوجدان وسنعبر عنها بالأغنية والرقصة والكلمة وهذا حقنا الإنسانى ولن تستطيع قوة مهما كانت أن تصادر أصواتنا لأن بضاعتنا فن لا سياسة.

● تأصيل ثقافة النوبة ●

المحتوى الحضارى والثقافى للأدب النوبى، هو عنوان الورقة التى تقدم بها الدكتور على عثمان محمد صالح أستاذ الآثار وتاريخ الحضارة بجامعة الخرطوم، تناول فيها المميزات الإقليمية التى تحكم مسار العلاقات والوشائج بين الدول كالأديان والموروث الثقافى والمصالح المشتركة، كما تناول عناصر الثقافة النوبية من عناصر مادية كالصناعات والحرف والجداريات، والعناصر غير المادية كالأدب واللغة مركزاً على الأدب النوبى الحديث لتحديد معالمه:

من أهم مميزات الحضارة النوبية الاستمرارية الديناميكية، فقد تطورت عبر حقب تاريخية طويلة تبلورت فيها عناصر الحضارة المختلفة، المحلية منها والوافدة ثم تأصلت لتكون الموروث الحضارى النوبى، فالحضارة النوبية نشأت فى بداية الألف الثانى ق.م. واستمرت حتى منتصف الألف الثانى الميلادى، ومع أن هذه الفترة الطويلة شهدت تغيرات كثيرة فى الترتيب السياسى والدينى والإدارى على المستوى الرسمى إلا أن عناصر الحضارة النوبية الأساسية بقيت دون تغيير جذرى ولذلك فالثقافة النوبية المعاصرة نتاج لحضارة أصيلة فيها شىء من عناصر الحضارات التى وفدت إلى المنطقة عبر تاريخها الطويل مثل الحضارة المصرية وحضارات البحر المتوسط، وحضارات بلاد الشرق الأوسط والشرق الأدنى، وقد تم التقاء كل هذه الحضارات فى فترة الممالك النوبية التى تميزت بصراع حضارى وثقافى بين ثلاثة ثقافات قوية أولها الثقافة النوبية (الافريقية المحلية) والثقافة المسيحية التى دخلت المنطقة مع بداية العصر الوسيط، والثقافة الإسلامية التى جاءت إلى بلاد النوبة منذ القرن السابع الميلادى، فى هذه العملية الحضارية التى تلت التقاء الحضارة النوبية بالحضارتين المسيحية والإسلامية تكمن أصول الثقافة النوبية المعاصرة.

● مداخلات ●

اضطلع «صالح» بالرد على الاستفسارات والأسئلة المثارة حول اللغة النوبية وأبجديتها، فعن سؤال أبجدية اللغة النوبية وعلاقتها بالنوبة الحديثة أجاب:

اللغة النوبية لغة أفريقية تنتمى إلى اللغات النيلية الصحراوية ومقرها الأساسى بحيرة تشاد، وهى لغة قديمة وتاريخ التحدث بها غير معروف لكن الكتابة بها بدأت تقريباً مع القرن الثامن الميلادى، وهناك مكتبة نوبية ضخمة فى النوبة المصرية، تستقر أصولها فى المتحف المصرى، حيث بدأ نشر هذه المخطوطات، أما عن علاقة هذه اللغة

المكتوبة باللغة النوبية الحديثة فهى علاقة قريبة جداً، ونسبة الفهم تمثل حوالى ٧٠٪ وهى موجودة فى شكل لهجتين تتمركزان فى «دنقلة الكنوز، وسكوت»، وهى لغة تكتب مؤقتاً بالحروف العربية، عدد أصواتها ٢٨ صوتاً.

وعن سؤال حول عدم تسجيل تاريخ وفلكلور النوبة فى الكتب العلمية على نطاق واسع أجاب: «التاريخ النوبى مسجل وهناك كتاب جامع اسمه «الرواق النوبى» ترجمه عن الانجليزية «محجوب التيجانى»، وبالنسبة للفلكلور النوبى فقد قامت حملة من الجامعة الأمريكية بالقاهرة بتسجيل الفلكلور النوبى وهو عمل ضخم، ثم نشر ثمانية كتب من نتائج هذه الحملة، وهى كتب عظيمة، كما أن المنطقة الباقية من النوبة تضم جمعيتين لدراسة التاريخ والفلكلور النوبيين هما «الجمعية الوطنية لدراسات النوبة» و«الجمعية العالمية لدراسات النوبة»، وأجاب الدكتور «صالح» أخيراً عن مداخلة حول عدم إحياء اللغة النوبية باستخدام أبجديتها فى الكتابة بقوله:

لم نستخدم بعد اللغة النوبية فى التسجيل - الكتابة - لكن مسألة الكتابة هذه تحت الدراسة فى كل الجمعيات النوبية وهناك عمل متقدم دون أن يصل الجهد إلى الاكتمال لأن استخدام لغة شفاهية وتحويلها للغة مكتوبة ليس بالعمل السهل، وهناك جماعات عدة مهتمة بالثقافة النوبية وتساعد على إنجاز ذلك، المفرح أن المجلس الأعلى للثقافة بمصر أصبح مساهماً فى دفعنا وتشجيعنا وسنأتى له بمشاريع عديدة فى القريب. ■

كريم عبد السلام

مائة وعشرون عاماً على تعليم المرأة

مقدمة:

قام فى العشرين من نوفمبر عام ١٩٩٣ وعلى مدى ثلاثة أيام وتسع جلسات عقدت فى القاهرة بمركز الهناجر للفنون بمجمع الأوبرا المصرية ندوة فكرية حول وضع المرأة المصرية من حيث التعليم ومدى انخراطها فى عملياته، والإشكاليات المصاحبة لتعليم المرأة فى مصر كذلك إشكاليات محو أميتها، والتشريعات القانونية التى تناولت وضع المرأة المصرية سياسياً واجتماعياً وتعليمياً، بالإضافة إلى تأثيرات المتغيرات الاقتصادية الاجتماعية ونظام القيم السائد والتحولات العالمية المتسارعة على عملية تعليم المرأة فى مصر - فضلا عن مجموعة المتغيرات منذ بداية العصر الحديث والنتائج المترتبة عليها فى مجال تعليم المرأة - وتناولت الندوة أيضاً ضمن محاورها العلاقة بين المرأة وعملية الإبداع من حيث الطابع التكوينى العقلى والثقافى للمرأة المصرية - وتبع ذلك شهادات واقعية لإبداع المرأة فى الأدب والفنون والصحافة وفى النهاية تناولت الندوة علاقة التنوير - كعملية تستهدف إستنهاض قوى المجتمع الحية ضد ما هو غير عقلانى ومتخلف، وإعلاء شأن العقل وعقلانية التفكير فى تناول مظاهر ومشاكل الحياة الإنسانية كافة - بعملية تعليم المرأة الوثيق بين التنوير كعمل حضارى وبين تعليم المرأة، وعلاقة كل ذلك بآليات ومفردات العملية التعليمية للمرأة.

شارك فى الندوة نخبة متميزة من الأساتذة المتخصصين فى المجالات التربوية والإجتماعية والباحثين والصحفيين وبعض من رواد العمل العام فى مصر وشارك فيها أيضاً جمهور من المهتمين بقضايا المرأة، وقضايا العمل الاجتماعى وممثلين لجمعيات ومنظمات غير حكومية.

لماذا على مبارك وتعليم المرأة:

لعل ما قدمته تلك الاحتفالية من ندوات علمية وفى القلب منها ندوة «مائة وعشرين عاماً على تعليم المرأة» تعد استجابة واعية لمتطلبات الواقع الراهن وحاجة الأمة إلى التنوير والتطوير... كذلك تعد آلية جديدة وضرورية تضاف إلى آليات متعددة تستهدف ترسيخ مؤسسات المجتمع المدنى وإشاعة قيمه ومثله، وذلك فى ظرف تحاول فيه قوى ظلامية سلب أمتنا قوتها ووحدتها وحضارتها، وواحدة من أبرز عناصر القوة والوحدة والحضارة.. عقل المرأة ودورها.. وصفتها كصنو للرجل وصانعة للأجيال. فربطت تلك الندوة بين تراث الأمة القريب فى مجال التنوير والمدنية والاهتمام الضرورى بالمرأة وتعليم البنات، والذى تبناه على مبارك كجزء أصيل من عملية تطوير التعليم فى مصر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر - ذلك التطوير الذى استحق عنه على مبارك أن يطلق عليه رائدا للتعليم - وبين الإشكاليات التى تعوق وتؤثر على استمرار تعليم البنات وتحقيق الأهداف المرجوة منه.

الندوة ... عرض ورؤية:

شملت الندوة فيما شملت إنتاجاً فكرياً ونظرياً ومعرفياً لنخبة المثقفين الذين

الإشارات والتنبيهات

شاركوا فيها وتم تنظيمها، وتناولها ومناقشتها عبر المحاور التالية:

١ - اشكالية تعليم المرأة، جلسة واحدة

٢ - اشكالية محو أمية المرأة، جلسة واحدة

٣ - التشريع وتعليم المرأة، جلسة واحدة

٤ - تعليم المرأة والمتغيرات الاجتماعية، جلسة واحدة

٥ - تعليم المرأة والمتغيرات الاقتصادية، جلسة واحدة

٦ - المرأة والإبداع ، جلستان

٧ - رواد التنوير وتعليم المرأة فى مائة وعشرين عاماً.

وتم عرض الأوراق والأبحاث التالية:

المحور الأول: إشكالية المرأة:

م - شبل بدران

١ - محمود أبو زيد .. إشكالية تعليم المرأة وتناول فيها حال تعليم المرأة فى مصر من خلال مجموعة الظروف الاقتصادية والاجتماعية والعوامل المؤثرة فيها والدور المنوط بالمرأة المتعلمة ومدى تحققه.

٢ - زينب شاهين .. تعليم المرأة فى الوطن العربى وتناولت فيها عملية تعليم المرأة على امتداد الوطن العربى وأثر درجة التطور الاقتصادى والاجتماعى فى تحقيق الأثر المرجو منها - كدراسة حالة.

٣ - نادية حليم .. الواقع التعليمى للمرأة (دراسة ديموجرافية)، تناولت فى تلك الدراسة الإحصائيات التى توضح نسبة عدد الإناث إلى نسبة عدد الذكور فى مراحل التعليم المختلفة وتوزيعهن على نوعيات التعليم المختلفة (أكاديمى - مهنى - الخ).

٤ - مجدى مهنا .. جمعية الصعيد.. رؤية فى تنمية المرأة تناول فيها الدور الذى تلعبه الجمعية بالنسبة لمجال تعليم المرأة كشهادة واقعية والربط بين التعليم النظرى وتنمية تعليم الحرف والمهن بالنسبة للمرأة فى الريف.

٥ - نادر فرجانى... تقييم الإنجاز المصرى فى تعليم المرأة تناول حجم ونوعية الإنجاز فى مجال تعليم المرأة فى مصر وذلك بالنقد مشيراً إلى أن هذا الإنجاز يدفعه للتشاؤم بالنسبة لمستقبل تعليم المرأة فى مصر.

المحور الثانى: إشكالية محو أمية المرأة:

حامد عمار

١ - على فهمى:

تناول محو أمية النساء فى مصر من حيث المرتكزات التى تستند عليها والأهمية الحيوية لها فى عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية وواقع إنجازاتها ورؤية مستقبله

٢ - دلال باسين:

تناولت مدى وفاء المقررات والمناهج فى التعليم الأزهرى للفتيات بالحاجات التعليمية لهم وعرضت لأوجه القصور فى تلك المناهج والمقررات وسبل تلافيها.

٣ - الهام عبد الحميد فرج.. نحو استراتيجية لتطوير التعليم غير النظامى للنساء فى مصر. تناولت فى مقدمة بحثها دور النساء فى المجتمع المصرى والعوامل التى تؤثر سلبياً فى هذا الدور، ووضعية قضية المرأة وتعليمهافى العصر الحديث ثم تناولت مفهوم التعليم غير النظامى وأهميته ولمن يتوجه وضرورته وتلبيته لحاجات اجتماعية ثم تصور لاستراتيجية تطوير التعليم غير النظامى.

٤ - ليلى عبد الجواد.. أمية المرأة المصرية ،رؤية نفسية،. تناولت فيها الأسس النفسية التى حالت دون تعليم المرأة كذلك الآثار النفسية لحالة الأمية التى يعانيها قطاع كبير من المرأة المصرية.

المحور الثالث: التشريع وتعليم المرأة

م نور فرحات

١ - تهانى الجبالى ... الحقوق السياسية للمرأة المصرية تناولت بالنقد مدى ما تتمع به المرأة من حقوق سياسية ومدى مواءمتها لتطوير وضعيتها الاجتماعية بالمقارنة مع مجتمعات أخرى.

٢ - أميره بهى الدين... المرأة محلا للتشريع. تناولت فيها أهم التشريعات التى صدرت وتخص المرأة المصرية وعلاقة ذلك بتمكينها من لعب دورها المطلوب.

٣ - إبراهيم حامد طنطاوى... أمية المرأة وعلاقتها بالجريمة. تناول فى ورقته الآثار التى تترتب على أمية المرأة وأثرها فى الانحراف النفسى وارتكاب الجرائم المختلفة.

٤ - أحمد وهدان... تعليم الأم وانحراف الأبناء. تناول فى ورقته العلاقة بين تعليم الأم ومدى سواء أو انحراف الأبناء.

٥ - سميحة نصر... إشكالية التعليم والجريمة. وتناولت بشكل عام العلاقة بين التعليم والجريمة والدراسات التطبيقية التى تناولت تعليم الأم والمرأة والعلاقة بينها وبين الجريمة.

٦ - ماجد فؤاد ... التطور التشريعى لتعليم المرأة. تناول فى ورقته مجموعة التشريعات التى تناولت تعليم الفتاة فى مصر منذ الربع الأخير للقرن التاسع عشر، وحتى الآن ومدى ملاءمة هذه التشريعات للتطورات الاقتصادية والاجتماعية.

المحور الرابع: المرأة والمتغيرات الاجتماعية

م شهيدة الباز

١ - أ.د.شهيدة الباز.... التعليم ونظام القيم تناولت أثر النظام القيمى السائد فى عملية تعليم المرأة والتغيرات والاختلالات فى هذا النظام ومدى تأثيرها على تعليم المرأة.

٢ - هدى زكريا... المرأة والتحولات الاجتماعية. تناولت النتائج التى لحقت بالمرأة المصرية نتيجة التحولات الاجتماعية والاقتصادية

٣ - نيفين جمعه ... قراءة حول تعليم المرأة فى الفكر الاجتماعى، شملت الورقة عرضاً لأهم الرؤى الفكرية فى المجال الاجتماعى التى تناولت المرأة المصرية من حيث وضعها الاجتماعى وضرورة تعليمها والنتائج المترتبة على حرمانها من التعليم.

٤ - سامية خضر ... تعليم المرأة بين المتغيرات المحلية والنظام العالمى الجديد.

تضمنت الورقة رؤية حول مفهوم النظام العالمى الجديد ومدى تحققه ومجموعة المتغيرات المحلية والمترتبة على نشوء هذا النظام وارتباط كل هذه بقضية تعليم المرأة وضرورته.

وخلال المناقشات التى أعقبت تقديم تلك الأوراق ابرزت. شهيدة الدور الحيوى للمرأة فى تقديم المجتمع وازدهاره، وإن دعاة عودة المرأة للمنزل لا يطلقون هذه الدعوة إلا فى مواجهة المرأة المتعلمة والمثقفة والعاملة، لأنها بطبيعة دورها كعاملة وأم يبرز تأثيرها الإيجابى على حركة المجتمع فى اتجاه التقدم وهذا ما لايريده الظلاميون.

المحور الخامس: تعليم المرأة والمتغيرات الاقتصادية

سهير لطفى

١ - نادية سالم... تعليم المرأة والتنمية الاقتصادية. تبنت فى ورقتها مفهوماً أكثر عمقاً للتنمية ألا وهو مفهوم التنمية الشاملة الذى يربط بين التنمية الاقتصادية والتنمية البشرية، والذى يضع الأولى مترتبة على تحقيق الثانية واستعرضت برامج التنمية فى مصر خلال الستينيات والسبعينيات والثمانينيات وأثرها فى النظر إلى دور المرأة وضرورة تعليمها.

٢ - شبل بدران ... المرأة ومشاكل التعليم والعمل. تناول فى ورقته العلاقة بين تعليم المرأة وعملها والمشاكل التى تعترض تعليمها وعملها والشروط الاجتماعية التى تحد من تحقق المرأة فى هذين المجالين.

٣ - كمال نجيب... تعليم المرأة وتطور اندماج مصر بالسوق الرأسمالى العالمى. تناول هذا البحث عملية التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث والتى دخلت بها السوق الرأسمالى العالمى فى عصر تقسيمه، ورد الضعف البادى فى التوجهات الاجتماعية خاصة تعليم المرأة وتحريرها إلى طبيعة تطور الرأسمالية المصرية وضعف هيكليتها واندماجها فى هذا السوق كاقتصاد تبعى أو طرفى، وأثر ذلك فى تطور تعليم المرأة فى مصر وإشكالياته الحالية.

المحور السادس: المرأة .. الإبداع (جلستان) م.أ. علاء حمروش.

١ - ناهد رمزى... إبداع المرأة بين القدرة العقلية والواقع الثقافى. تناولت الورقة قضية الإبداع الفنى والأدبى لدى المرأة فى مصر وأرجعت قلة الأعمال المبدعة للمرأة المصرية مقارنة بالأعمال الأدبية والفكرية والفنية للرجل إلى طبيعة الواقع الثقافى فى مصر.

٢ - فوزية مهران ... قراءة فى أعمال لطيفة الزيات. شملت هذه الورقة عرضاً للإنتاج الأدبى والفكرى للأستاذة الدكتورة لطيفة الزيات موضحة علاقته بالإبداع خاصة فيما يتعلق بمذكراتها الأخيرة.

٣ - فريدة النجدى... الغيرة عند المرأة. أوضحت فى بحثها مفهوم الغيرة والنظرة العلمية لها ولماذا ارتبطت بالمرأة والعوامل الاجتماعية التى تعمل على استمرارها.

٤ - سكينة فؤاد ... الصحافة النسائية هدى وصفى عرضت فى ورقتها لتاريخ الصحافة فى مصر والدور الذى لعبته سواء بالنسبة لقضايا المرأة أو بالنسبة للقضايا القومية العامة.

٥ - إقبال بركة... المرأة والصحافة

شملت ورقتها تناول الصحافة للمرأة المصرية وقضاياها والدور الذى لعبته الصحفيات فى تطوير الفن الصحفى فى مصر.

٦ - منى رجب، أليفة رفعت، هالة سرحان ... قراءة وشهادات، قدمت كل منهن على حدة؛ شهادات على دور المرأة فى الصحافة المصرية والعربية.

المحور السابع: رواد التنوير وتعليم المرأة فى ١٢٠ عاماً - (جلستان)

عبد الفتاح جلال

١ - سيده إسماعيل الكاشف.. رؤية تاريخية لتعليم المرأة. قدمت عرضاً تاريخياً لتعليم المرأة فى مصر فأوضحت مدى ارتباط هذا التعليم بمجموعة التغيرات الاقتصادية والاجتماعية فى مصر فى العصر الحديث.

٢ - مى محمود شهاب (المركز القومى للبحوث التربوية والتنمية) ... تطور تعليم

الإشارات والتنبيهات

المرأة خلال ١٢٠ عاماً. عرضت فيه لتطور تعليم المرأة منذ ما قبل القرن ١٩ وحتى القرن العشرين فى مختلف مراحل التعليم كذلك التعليم المهنى والفنى للفتاة.

٣ ـ هدى قناوى ... المرأة بعد ١٢٠ عاماً من التعليم. وعرضت فيها للنتائج التى ترتبت على تعليم المرأة فى مصر فى مختلف المجالات وأثر ذلك التعليم على وضعية المرأة.

٤ ـ شكرى العنانى ... قراءة فى مؤلفات على مبارك. قدم عرضاً لإنتاج على مبارك الأدبى والفكرى والمعرفى.

٥ ـ عبد الفتاح جلال ... تعليم المرأة وإشكالية المنهج المدرسى

نادية جمال الدين. تناولت الورقة قضية تعليم المرأة وطبيعة المنهج المدرسى وضرورة تطويره ليلائم احتياجاتها وتنمية إمكانياتها.

٦ ـ ناجى شنودة خله، د. عوض توفيق عوض، د. كمال حامد مغيث ...

فكر رواد التنوير فى تربية المرأة وتعليمها. مثلت هذه الأوراق المركز القومى للبحوث التربوية والتنمية وقدمت عرضاً لكل من رفاعة الطهطاوى، على باشا مبارك، الشيخ محمد عبده، قاسم أمين، أحمد لطفى السيد، سلامة موسى، طه حسين، من رؤيتهم لتربية المرأة وتعليمها.

٧ ـ علا مصطفى... التنوير وتعليم المرأة. تناولت الورقة الارتباط الموضوعى بين عملية التنوير وبين عملية تعليم المرأة ■

علاء حمروش

غراميات عطوة أبو مطوة

فى تعد مسرحية «أوبرا الشحاذين» لجون جاى مصدرا رائعا لإلهام وإبداع الكثير من كتاب المسرح المعاصرين، حيث يقترب هذا النص من مساحات الكوميديا الرشيقة التى تكشف عن اختلال توزيع الثروة، وقد كتبها عام (١٧٢٨) تعليقا خشنا على رئيس وزراء إنجلترا فى ذلك الوقت «روبرت والبول» الذى صعد إلى الحكم كنموذج للنقاء السياسى، لكنه عندما استقر به المقام، فَسَدَ.

وفى زمن الخراب الاجتماعى تصبح المهن الرسمية فى أى مجتمع هى الوساطة والعمولة والدعارة، والتى يثرى أصحابها ثراء فاحشا، حيث ينعدم القانون، ويختل ميزان العدل، ويتسيد قانون مافيا اللصوص والشحاذين، ويسيطرون على الثروة وتوزيعها أو كما يقول «مات» أحد أعضاء عصابة «ماكهيث».

«مات: وظيفتنا امتصاص الفائض عن حاجة الناس».

عالج هذه الفكرة الدرامية الكاتب الألمانى «برتولدبريخت» فى مسرحيته «أوبرا الثلاث بنات»، فرأى فيها صراعاً طبقيا بين البناء الفوقى والبناء التحتى للمجتمع، فصاغ بذلك تحديدا أيديولوجيا قاطعا فى حربه ضد النازية وقوى الشر فى العالم.

والآن يعالج هذه الفكرة الدرامية الكاتب المفكر المسرحى الكبير ألفريد فرج فى مسرحيته «غراميات عطوة أبو مطوة»، غير أنه يتقدم خطوات أبعد عن سابقيه «جون جاى»، و«برتولدبريخت»، فى العرض الذى قدمه على المسرح القومى ٩٣ ـ ٩٤.

يجب أن نقرر بداية أن ألفريد فرج باحث دائم عن العدالة بمعنى الحرية، كلاهما وجه الآخر وصداه الاجتماعى، ولقد أقام عالمه المسرحى على فكرة العدالة فى بعدها التاريخى التراچيدى بمسرحيته «سقوط فرعون» و «سليمان الحلبى»، كما جسد أطروحة العدالة على مستوى الأسطورة فى «الزير سالم»، وعلى مستوى الفانتازيا فى مسرحيته «التبريزى وقفه» و «حلاق بغداد»، ثم نأتى أخيراً إلى النماذج المسرحية والتى تغفل كل المحسنات الدرامية بهدف طرح أفكار العدالة مباشرة، «عسكر وحرامية» التى يقاوم بها الانحراف فى المجتمع الاشتراكى، و «جواز على ورقة طلاق» التى يرهص من خلالها بانهيارات طبقية وإعادة ترتيب البناء الطبقى من جديد من خلال إعادة تكديس الثروة فى أيدٍ قليلة، أما «غراميات عطوة أبو مطوة» فهو بها يدين تكديس الثروة فى هذه الأيدى القليلة دون سائر المجتمع، وهو يقدم تحذيره شديدا هذه المرة بأن ما يحدث سوف يؤدى إلى تصدعات وتشوهات خطيرة فى المستقبل.

نحن أمام صراع أبدى وخطير داخل قاع المجتمع بين الشحاذين الذين أصبحت لهم نقابة تدافع عن مهنتهم وإنسانيتها ونبلها حيث يقول رئيس الشحاذين «دكتور شحاته: نحن نستثمر الرحمة فى قلوب الناس»، واللصوص على الجانب الآخر الذين

الإشارات والتنبيهات

يعيدون توزيع فائض الثروة الإنسانية من جديد، وفى الصراع الدامى بين هاتين القوتين الاجتماعيتين يتزوج عطوة من بليلة خبيرة الماكياج ابنة الدكتور شحاته زعيم الشحاذين، بهدف ضمان السيطرة على عناصر هذا الصراع، وبذلك يرتفع عطوة بزوجته «بليلة» درجة عن مستوى الشحاذين لتصل إلى مستوى اللصوصية. يبدأ عطوة فى ممارسة عمله بأن يحصل على بعض فائض الثروة من أحد محلات الذهب تارة بالرضا والسعادة البادية على وجه صاحب المحل، وتارة أخرى من خلال ملامح الفزع والرعب عند ضرورة استخدام السلاح. غير أن الدكتور شحاته والد بليلة لا يسكت على هذه المنافسة الشرسة حيث يستولى عطوة على كل فائض، وهو ما يعنى فشل الشحاذين فى الحصول على أى نسبة من هذا الفائض مما يؤدى بهم إلى الانتحار جوعا، بل ويعنى انهيار عالمهم وتنظيمهم، وهنا ندرك أن الصراع بين المجموعتين هو كذلك صراع على مناطق النفوذ ذاتها.

وكلما اتسعت ثروة عطوة وأعماله، تزوج أكثر، فبالإضافة إلى بليلة تزوج من ماجى ابنة جاربو قائد البوليس، بهدف فرض سيطرته كذلك على القانون، كل هذا بالإضافة إلى علاقة غرامية أقامها مع راقصة حتى يتمكن من السيطرة على عالم الدعارة كذلك فى قاهرة الثلاثينيات.

فى النهاية يتمكن الدكتور شحاته من اقتناص عطوة لا من منطقة فضائله كالأبطال النبلاء، بل يقتنصه من منطقة انحطاطه ورذائله، ويتم القبض عليه بمساعدة العاهرة الراقصة



عطوة أبو مطوة فى السجن بين زوجتة بليله إلى اليمين ومارجو إبنة قائد الشرطة وزوجته كذلك.

نظير حصولها على عشرة جنيهات ثمنا لخيانتها له.

وفى السجن، يكتشف الجميع أنهم ضحايا لصوص أكبر فأكبر، وبعد عفو الملك عن عطوة، يدفع الجميع إلى منطقة التضامن معه ضد اللصوص الكبار من خلال صورة فوتوغرافية جماعية.

بهذا النص المسرحى يصل ألفريد فرج فى رحلته الإبداعية إلى نتائج فكرية مهمة تمثلت فى ذلك التصنيف الحاد والقاطع الذى أنجزه بين الشحاذين واللصوص، فضلا عن قدراته الإبداعية فى تحديد التكنيك الفنى للكوميديا، فإذا ما كان أرسطو قد سجل أن الكوميديا هى «محاكاة الظرفاء من البشر»، وأدار صراعه الدرامى داخل هذا العالم الملىء بالقيم الرفيعة والانهيار المروع، بالفضائل والشرور، بالحب والكراهية... أى بكل ما يسمح بخلق دراما راقية تتميز بذلك النسيج الشفاف من التلميحات الفكرية والسياسية، والتى استكملت بها الأحداث الدرامية زخارفها الفنية، فبهذه الزخارف والمنمنمات الرقيقة الدقيقة يستكمل ألفريد فرج صورة هذا الواقع الاجتماعى فى مصر فى ثلاثينيات هذا القرن.

ولا تنبع قيمة مسرح ألفريد فرج من عدد المسرحيات التى كتبها فحسب، بل من ذلك التنوع العظيم فى طرح الأشكال المسرحية والتى كتبها بالكفاءة والاقتدار، التراجيديا، التراجيكوميدى، الميلودراما، الكوميديا، الفودفيل، الفارس.. فى أنساقها الكلاسيكية أو المعاصرة.

إنه بحق أعظم كتاب المسرح فى تاريخ الأدب العربى، الحديث والمعاصر معا ■

مجدى فرج

الصعود إلى القلعة

فى عندما نبحث عن مسرح مسكون بالحرية، ومدفوع بها وإليها .. مسرح يخرج من وضع السكون الى الحركة، ومن اللافعل إلى الفعل .. يصبح من الضرورى أن يتحرر الإبداع من قيود السائد والساكن، وينطلق بعيدا عن تلك التجارب الضامرة التى تختزل الوجود الإنسانى فى مقولات مجردة عاجزة عن إنتاج دلالة فاعلة، لها القدرة على تغيير الواقع فى هذا الإطار المشحون .. المتوهج .. جاءت مسرحية (الصعود إلى القلعة). لتكون تحقيقاً لتلك المعادلة الصعبة الساحرة.

والمسرحية يقدمها مسرح الطليعة للمؤلف (محمد أبو العلا السلاموني) والمخرج (ناصر عبد المنعم).

على المستوى التاريخى تدور الأحداث فى بداية القرن التاسع عشر أثناء ثورات القاهرة .. وتتناول بالتحديد تلك التجربة الديمقراطية الفريدة، حين اجتمعت إرادة الشعب المصرى على رفض الوالى العثمانى (خورشيد باشا). وفى جلسة تاريخية قرر وكلاء الشعب بقيادة الزعيم (عمر مكرم) عزل الوالى وتنصيب (محمد على) والياً على مصر، بإرادة الشعب وشروطه.

يقول المؤلف فى تقديمه للعرض :

«رجلان فى تاريخ مصر الحديث كان لديهما حلم تحقيق النهضة القومية، وبناء مصر الحديثة . ورغم اتفاقهما على وحدة الهدف إلا أنهما اختلفا فى الوسيلة، ومن ثم كان الصراع والشقاق. الأول (محمد على باشا) الذى رأى أن حلمه لن يتحقق إلا بالفردية والاستبداد بالرأى. وثانيهما -(عمر مكرم) الذى رأى أن حلمه لن يتحقق إلا بتضافر آراء الجميع وخضوع سلطة الفرد لسلطة المجموع.

ولو أن العلاقة بين الرجلين اتخذت شكلاًجدليا، تمثل فى وحدة الضدين .. لا تنافر القطبين .. لربما كان لمصر شأن آخر، ولما انكسر الحلم القومى لأى منهما.

من هذا المنطلق اتخذ (السلامونى) مساره الدرامى ليصور صراع الأضداد بين (محمد على) ، و(عمر مكرم) فى جدليته التاريخية المركبة.

لذلك، خرج الصراع بينهما من إطار الطرح المسطح لقوتين متناقضتين، على إحداهما أن تقضى على الأخرى، ولكنه اتخذ تلك الصيغة الدافئة والتى تقوم على مبدأ المفارقة حيث أحلام الباشا، وأفكار الزعيم هما وجهان لعملة واحدة.

ولما كانت أحداث التاريخ تتشابه وتخرج دائما بمقولة [إن التاريخ يعيد نفسه]، لذلك يتحتم أن نتوقف أمام هذه الرؤية الفكرية الواعية التى استطاعت أن تتجاوز بالمتلقى، أوهام المراهقة الفكرية التى تؤكد المقولة السابقة، حيث تعامل العرض المسرحى مع التاريخ من منظور النفى الجدلى فكل مرحلة تاريخية تنفى ما قبلها .. والنفى لا يعنى الفناء.. ولكنه نفى واحتفاظ معاً.

ترتفع موجات المد التى يثيرها ذلك الجدل المتواصل حول العديد من التيمات الظاهرة والمضمرة، مثل الحاكم وطموحه، السلطة، آليات الصعود، الشعب بحضوره وغيابه، المثالية والواقعية، الأسطورة والتاريخ. ثم ذلك الجدل الذى تفجره الرغبة فى إعطاء معنى لحياة الفرد والمجموعة فى آن واحد.

تتعدد الدوافع، ويختلط الوعى ، ولا تملك شخصيات العرض إلا ذلك الوهم بأنها تمتلك الحقيقة .. ذلك الشىء الذى يهرب دائما من التعريف.

وعندما نتتبع أحداث العرض التى تبدأ من نهاية الحدث حيث (محمد على) مشدود إلى أفق لا نهائى ليلامس بشفافية وعى الحياة فى صراعها مع الموت، مهزوم هو ومكسور .. يقف على حافة الجنون، يطارده طيف صديقه المحبوب، لا يفارقه صوته، يبحث عنه دائما .. إلى قبره يذهب .. ليعاتبه على الرحيل .. يعتبر موته خيانة له .. أمنيته أن يعود للحياة .. إحساس بالذنب يدمره.. يبعثر وجوده ويفتته.

الزوجة والأبناء والحاشية عاجزون عن رؤية ذاته العميقة .. لن يصلوا أبدا لسر عذابه .. يعتقدون أنه الجنون .. تتردد الهمسات ، وتثار التساؤلات حول الباشا الذاهب دوماً إلى قبر الزعيم.

وتقرر الزوجة عمل الزار لعله يطرد ذلك الشبح المقيم فى أعماق الوجدان . (إبراهيم) الابن يرفض آليات التخلف ولا يقتنع بالزار .. يتفق مع ديوان الباشا بتحويل الزار إلى حفل تمثيلى .. يشارك فيه (محمد على) ويمثل أيضا. سيعود الماضى والأحداث ، ليأتى (عمر مكرم) لكن فى صورة (حفيده صالح) ليشاهد الباشا وقائع حلمه المكسور .. لعله يكتشف .. ويعى ويفسر .. وقد ينتقل العذاب من لاوعى الأعماق إلى وعى المنطق والأسباب.

أما نحن المتلقين فسوف نحتفظ بتلك المسافة التى تفصلنا عن أبطال الحكاية،

الإشارات والتنبيهات

ولن نذوب معهم أو نتوحد .. حتى نعى وندرك ما يقال.

هكذا .. وباستخدام تكنيك المسرح داخل المسرح تبدأ اللعبة المسرحية الصغرى داخل اللعبة الأساسية التى ذهبنا نحن لمشاهدتها؛ حيث نلتقى (بعمر مكرم) زعيم الأشراف ، وقد اجتمع بوكلاء الشعب فى دار المحكمة الكبرى ليقرروا ضرورة عزل (خورشيد باشا) فالإحساس بالظلم أصبح عارما، وتحول إلى ثورة شعبية تؤكدها تلك الأصوات الهادرة .. يحاول الوكلاء مواجهة الثورة بشىء من التعقل .. يطلبون من (الكتخدا) أن يبلغ الوالى بضرورة عدم فرض ضرائب جديدة إلا بمشورتهم .. الزعيم الثائر .. يرفض الحلول الوسط ويصر على تحقيق رغبة الشعب. وفى لحظة تاريخية، شديدة الدلالة والإيحاء، يعلن مجلس شرع المحكمة الكبرى عزل الوالى التركى، وتنصيب (محمد على) واليا على مصر.

يذهب السيد مكرم والزعماء إلى (محمد على) ويدور هذا الحوار :

عمر مكرم : ضع كفك فى كفى يا محمد على باشا .. الليله نغلق بك صفحات كانت أحلك ما قد مر بمصر من الظلمات.. كى نبدأ معك وبك صفحات نحو النور ونحو الحريات .. وأمانى الإنسان. المصريون خلعوا الليلة الوالى الطاغية الظالم، خلعوه ليختاروا بدلا منه .. الوالى العادل والإنسان فترى يا محمد على باشا .. أتظن بنفسك هذا الوالى العادل والإنسان..؟؟

محمد على : يا سيد مكرم إنى لا أدرى.. لكننى لست أظنك تبغى منى مجرد رد سؤال .. .

وبناء على ثورة شعبية عارمة قادها (مكرم) يصدر فرمان السلطان بموافقته على تنصيب (محمد على) الذى أصبح من منظور زعيم الشعب رمزًا لإرادة مصر وعلامة مضيئة فى ذلك العصر.

يطلب زعيم الشعب من الوالى أن يمارس مهمة الحكم فى بيته القائم بقلب القاهرة، وليس من فوق القلعة ليصبح قريباً من آلام وأحلام الناس، حيث تبلورت محنة الشعب المصرى مع كل الولاة السابقين فى إصرارهم على الصعود للقلعة .. بعيدًا عن الحياة حيث تضيع الأصوات . وتتوه الأصداء .

يوافق الباشا على رغبة الزعيم .. ولكن عشق القلعة يسرى فى وجوده ويعبث بأعماقه، فهى فى داخله معادل للعظمة والطموح، لذلك يسأل الحبيبة (هيلانة) ..

هل يسعى الإنسان إلى العظمة .. أم أن العظمة تسعى إليه ؟؟

رؤية رومانسية تغلف وجود (محمد على) فهو هارب دائما من الآن وهنا، متطلع إلى المجهول والماوراء .. باحث عن شىء ما .. قد يكون آمالا .. أحلاما.. أو فردوسا مفقودا.

وفى هيلانة معشوقته الجميلة .. تتجسد كل الجنات فهى تنسج فى أعماقه حلماً أبدياً للخلود والمجد .. ويذوب هو.. فى وجودها المشبع بالأوهام، حين تعزف على أوتار قلبه المشدود دائما نحو المجهول.

هذه الذاتية المفرطة .. وتلك النزعات الرومانسية التى تدفع للهروب من واقع الوجود الفعلى .. تمثل الإطار المرجعى الذى تتحرك فيه الشخصية المحورية، والعرض المسرحى ككل .

تمضى سنوات قليلة من حكم (محمد على) وهو لا يزال يحتفظ بوعده للزعيم (مكرم) بألا يصعد القلعة .. ولكن هذا الوضع يؤرقه شخصياً .. فهو يحلم بالصعود .. ولكن شيئا ما يمنعه .. وتأتى حملة (فريزر) لتهاجم مدينة رشيد وتنجح المقاومة الشعبية بقيادة الزعيم فى مواجهتها ويطلب (الإنجليز) من (عمر مكرم) الانسحاب مقابل الأسرى.

انتصار عظيم لم يشترك فيه (محمد على) .. ذاتيته المفرطة تضخم له الأمور.. البطوله يصنعها آخرون .. منظور رؤيته للعالم .. ثم ضغوط الزوجة .. يدفعانه لاتخاذ القرار الذى تأجل كثيرا .. سوف يصعد القلعة .. وتبدأ رحلة الصعود، التى تتمثل دراميًا على المستوى النفسى والرمزى فى العزلة والمنفى.

ذهبت أيام الوعود، ويبدأ يتخلص من صورته الماضية التى صنعها مع (عمر مكرم)، فانفرد بالقرار ، ويبدأ يمارس لعبة السلطة. ويعترض زعيم الشعب متمسكًا بالمبدأ والكلمة .. حاشية الحاكم اتجهت إلى الأشراف ، الذين فضلوا الصعود مع السلطة على مسيرة الزعيم.. ببساطة تخلوا عنه، وأطاحوا به .. ليصدر مجلسهم قرارا بنفى الزعيم إلى دمياط ..

ينكسر الحلم فى داخل الثائر.. يؤثر الفرار ويتخلى عن زعامته، ينفصل عن الشعب ويقرر الاعتزال .. طبيعة الأمور تؤكد أنه يمتلك الزمام ويستطيع المواجهة، ولكن طبيعة الشخصية الرومانسية بتوجهها المثالى يحتم الاتجاه

الإشارات والتنبيهات

إلى المنفى، والسجن داخل الذات التى كسرتها خيانة الرفقاء وضياع الحلم .. قتلته المحنة، فرفض ذلك الزمن المشبوه، وكان عسيرا عليه أن يواجه ذاتا حطمتها الآلام.

وقبل أن يذهب الزعيم إلى منفاه يلتقى (بمحمد على) ليواجه كل منهما ذاته فى الآخر .. حيث يقولان :

محمد على : أنا لم أنقض معك العهد .. بل رفقاؤك هم من نقضوه وليس أنا .. حيث ظللت السنوات الأربع ملتزمًا .. لا إيمانا بالعهد ولكن تقديرًا منى لقوتكم فى تنفيذ العهد.

القلعة كانت تستهوينى منذ توليت السلطة .. لكنى كنت أراك بأقوى من أعظم قلعة.. لكن قد كانت نقطة ضعفك أنك تثق بغيرك من رفقائك فى المجلس ثقة عمياء.

عمر مكرم : إن كنت تراها نقطة ضعفى فأنا لست أراها إلا منطلق القوة فى نفسى، فأنا لا أملك أن أفقد ثقتى بالرفقاء.

محمد على : هذا لا يمنع أنك أخطأت التقدير .. وسعيت إلى ما رفضت أنت السعى إليه .. أصبحت وحيدًا مثلى إزاء الذات .. وخسرت قضية إيمانك بالقوة فى الرفقاء .. هذا لا يعنى إلا شيئا واحدا .. هو أنى كنت على حق لصعود القلعة كى أحكم وحدى ..

فى تلك المواجهة تتكشف كل الأبعاد.. إنهما يدوران فى فلك واحد .. فالباشا محاصر بأمواج طموحاته اللانهائية، فهو أسير إيمانه بتلك الذات المتفردة التى يتضاءل بجانبها كل الوجود.

أما الزعيم فهو شديد النكران لذاته .. وأسير الإيمان المفرط بالمجموع، فى أعماقه يقين مطلق لصورة مثالية تعيش فى خياله فقط .. ولكن الواقع الفعلى لا يعرفها .. لذلك يتخلى عن وجوده وواقعه وثوراته ، حفاظًا على تلك الصورة ويذهب راضيًا إلى المنفى.

وفى القلعة يظل (محمد على) نشوان بغزواته وفتوحاته وانتصاراته .. وها هو الجيش المصرى أصبح على مقربة من الآستانة .. فقد قرر الباشا أن يطيح بالسلطان ليحل محله ويحكم قبضته على العالم. ورغم إدراك السلطان لأطماع أوروبا فى الشرق إلا أنه يقرر التحالف معها خوفًا من أطماع الباشا الألبانى.

وتتحالف جيوش أوروبا مع الباب العالى ، وينزل الحلفاء بأرض الشام ويهزم (إبراهيم) قائد جيوش (محمد على) وتبدأ رحلة السقوط، حين تتكاثف سحب الأحزان فى سماء الباشا، فهو لا يستطيع أن يدرك معنى الانكسار والأفول .. الابن يؤكد أن الهزيمة محققة، والأب لا يؤمن بالأسباب لكنه يؤمن بالإصرار. ويقرر أن يعلن الحرب الشعبية فى مصر ليحارب. وأخيرًا .. ينزل من القلعة ليبحث عن الناس .. عن زعماء الشعب .. عن روح الزعيم الذى تركه ومات .. ولكن دون جدوى.. فالناس خائفون، مختبئون.. يائسون.

ويشعر الوالى، بأنه خسر الرهان فقد كان يظن أنه كسب الناس بما حقق لمصر من أمجاد .. لكنه يدرك أنها النهاية ويضطر إلى توقيع الاتفاقية التى تنص على حكم مصر فقط لا باسمه ولكن باسم السلطان. ورغم الواقع المرير إلا أن هيلانة، كتجسيد رمزى لطموحه .. تصرخ وتؤكد أنه سيظل الأقوى رغم المحنة والخسران، وتجرى مسرعة لتسقط من فوق القلعة للأعماق .. وبموتها يكون طموح (محمد على) قد انتهى ومات بالفعل.

ويواجه (الباشا) لحظات الضياع والعبث والإحباط ويصرخ فى جنون باحثًا عن (السيد مكرم) ليجيب عن تساؤلاته.. ويضع حدًا لعذابه ..

هنا بالطبع ينتهى التشخيص فى داخل المسرحية لنعود كما بدأنا فى بهو القلعة .. وتأتى التمثيلية بثمارها ويفيق الباشا من أحزانه .. ويتفرس فى وجوه الشخصيات الماثلة أمامه من قلب تجربته الماضية .. ويسأل ... ويعلم ويتحاور مع (صالح) حفيد (مكرم) والمتنكر فى زى جده.

ويختلط الحوار برأسه ، ويعود لنفسه مؤكدا أنه لا يستطيع إلا أن يكون ذاته حيث يقول ...

آه يا شعب المحروسة .. أنا ما كنت سوى فرد قد جاء برغبتكم وإرادتكم .. ما كنت سوى بعض أمانيكم .. أشعلتم بى وهجًا يخطف كل الأبصار، وصنعتم منى رجل القرن وبطل العصر .. والآن هل أملك أن أخلع عن نفسى هذا الأمر ؟ كلا .. إنى أعلنها من فوق القلعة لتدوى فى كل الأرجاء .. أبدا لن أطلب غفرانًا أو أنكص أو أرتد .. فأنا لا أملك إلا أن أصبح نفسى وحدى .. رجل القلعة .. رغم المأساة ورغم المحنة فى الزمن المهزوم .. هذا هو

تاريخى يا شعب المحروسة .. بل هذا هو قدرى المحتوم.

وينتهى العرض المسرحى بأغنية [كان ياما كان] ترددها حفيدة (عمر مكرم) ذات الصوت الجميل .. وتنقل من خلالها الرؤية الفكرية التى تحملها المسرحية، والتى تؤكد الدور الفعال للشعب فى حياة الثورات والحكام.

فيما يتعلق بالإخراج ، فقد تعامل (ناصر عبد المنعم) مع نص (السلامونى) بأسلوب يعى جماليات النص الفكرية، وكان موفقًا فى إضافته للمستوى الواقعى الثالث .. عن طريق التعليق والغناء، حيث تمكن ببساطة من إضفاء لمحة المعاصرة على العرض . أيضا تعامل المخرج مع سينوغرافيا القاعة بأسلوب يؤكد رسالة العرض، فخرج من إطار الثبات إلى التدفق والحركة السريعة والتشكيلات ذات الدلالة الفكرية.

ولكن يبدو أن تباعد كثير من أبطال العرض عن المفهوم السليم لفن التمثيل، قد ورطهم فى الانزلاق إلى المباشرة الشديدة، حيث لم نلمس فرقا فى الأداء على مستويات العرض الثلاثة . يستثنى من هذا (توفيق عبد الحميد) (محمد على)، و(أشرف طلبه) (عمر مكرم) حيث كانا على وعى بطبيعة الانتقال عبر المستويات الزمنية ، وبالأبعاد النفسية الدقيقة التى تتحرك من خلالها الشخصيات ■

وفاء حامد كمالو

الـــروح التـــى ســرقت

فى «كل ذلك الصوت الجميل» ، «انتظار الشمس» ، نصان يعبران تعبيرا صادقا عن عالم سلوى بكر، إذ تبرز لعبة الفن العميقة التى تقوم الكاتبة على إتقانها ببراعة، حيث مركز العمل الفنى وبؤرته واقع فى المجال غير المرئى للقارئ، لا يكتشف من خلال السرد ولا من واقع الحكاية، وإنما هو هناك لا تستطيع أن تمسك به، ولكنك تشعره وهو يدفعك إلى حيث يجعلك قادرا على اكتشاف كتلة التوهج العام المنبعثة من تلك البؤرة والمركز الخفى، ذاك هو الفاصل غيرالمرئى الذى تضع فيه سلوى شخوصها، حيث تتأرجح بين مجالين متداخلين من الجنون القهرى الذى تجوس فيه الشخصية وتتحرك ضمن عمق الأزمة التى تعانى منها الشخوص، كنتيجة ناجمة عن عالم ينهار بلا توقف، والتعقل التام الذى يحيط بسكناتها وسلوكها وتصرفاتها إزاء العالم ذاته الذى يشع منه الانهيار.

كل ذلك الصوت الجميل الذى يأتى من داخلها.

أزمة سيدة كما تبدو من الوهلة الأولى أزمة بسيطة، ورغم كونها ربة بيت فقيرة فهى تتميز كما تتميز بقية شخوص سلوى بكر بالنظافة الشديدة كأغلب نساء بلادنا، وهى فجأة تكتشف أن لها صوتا رخيما جميلا. والتناقض بين موقف الزوجة والزوج مثير للسخرية، فعلى حين تتحدث سيدة عن اكتشافها لصوتها الجميل، فإن الزوج لايهمه على الإطلاق أذا ما كان لزوجته صوت جميل من عدمه، إذ إن ذهنه لا يفكر، إلا فى الأعباء التى ستثقل المصروف الشهرى، أو أن تكون حاملا.

ونستطيع أن نرى بقعة من الجمال قد وضعت فجأة على صيرورة الحياة الشاقة الخالية من المتعة، وذلك فى ذات اللحظة التى أسدل أمامنا قناع الفانتازيا فى التو واللحظة، جعلنا مشدوهين لهذا الصراع الذى خرج فجأة من حالة الحلم إلى الحقيقة، رغما عن أن اللعبة كلها ليست سوى الحلم المستحيل التحقق، فلا صوت سيدة سوف يصبح فجأة جميلا.. ولا هى مستعدة على حين فجأة أن تستشعر معنى جمال الصوت كى تكافح فى سبيله.. ولكن من الممتع أن نحاول إعادة الصياغة، فلو أن سيدة اكتشفت فجأة جمال صوتها، فإن زوجها لن يهمه ذلك على الإطلاق، وهو لن ينوى على سبيل المثال أن يستثمره كى يدر له نقودا، فلا هو يملك الوقت الذى يمكنه حتى من التفكير على هذه الصورة، ولا هو يملك الرغبة التى تدعوه هو نفسه للاستمتاع بصوت زوجته الجميل، والأشد سوءا أنه ينتمى لبنية أخلاقية وثقافية تجرم الغناء والمشتغلين به، نعم يستطيع أن يستمتع به كنشاط يضم أم كلثوم وأحمد عدوية، لكن مغنية فى منزلنا.. اللعنة، إنه غارق فى قبح الحياة اليومية حتى الثمالة، وهو ليس سوى عبد لمصروفات البيت الشهرى والإنفاق على أطفاله، ولو ذهبت سيدة لطبيب نفسى حقيقى لنصح سيدة بأن تترك زوجها وأطفالها وتتفرغ لفنها وأن تغلق الراديو وتواصل تدريب صوتها على طلاوة الأداء، وطبعا أن تأكل جيدا، لكن الحقيقة تنبئنا أن سيدة لا تنوى أن تتحول الى فنانة وتترك زوجها وأطفالها من أجل فنها المقبل، لا.. فكل ماتريد أن تقوله سلوى بكر أن سيدة قد ضرب بكل حقوقها البسيطة عرض الحائط.. فحتى هذه اللحظة لم تذكر سوى أن ثمة موضوعا تريد أن تناقش فيه زوجها، وعندما

الإشارات والتنبيهات

تخبره تنفرج وتطمئن هواجسه ينفجر فى ضحك هستيرى.. نحن إزاء حالة قهر، وعلى سبيل المثال لو أن الزوج غادر المنزل إلى القهوة لما فكر حتى أن يخبرها.

ولأغانى سيدة مطالع شهيرة (أحب عيشة الحرية)، (ياحلاوة الدنيا يا حلاوة). واختيار مثل هذين المطلعين نابع من اختيار الكاتبة وليس الشخصية فالحلاوة والحرية ترف شديد لامرأة فقيرة.

ولا يفوتنا قرار الإعدام السريع الذى أوقعه الزوج على سيدة ككائن إنسانى، إذ أنه بعبارة بسيطة أوضح تقديره لأحلامها الذاتية، محولا إياها إلى موضوع للفراش تحت الطلب، وقد جاء قراره محكما بأسباب وجيهة، لقد تعدت الأربعين، فالحيوية والإبداع أمران قد فاتاها، وهما يجرحان كينونتها وقدرتها على العطاء الإنسانى، كما أنه هددها بأن تكون موضع سخرية وهذا حكم جائر، والمقصود أن الموت أقرب لها من الحياة، وهما فى النهاية يحددان مصدر المتعة الوحيد الممكن هو أن تكونه، وهو كونها موضوعاً للمتعة.

ولا تكتفى سلوى، فالمعادل الملازم لجمال الصوت الذى تصفه بكونه، خلابا، سماويا، فياضا بالقوة والنقاء، وهو ما يدفعها للشعور بأنها كائن آخر ليس له علاقة بسيدة التى تمسح وتكنس وتلف شعرها فى المنديل لكونها لا تجد الوقت الذى يمكنها من تصفيفه، فيعيد لها الشعور المقبور مسبقا بكونها امرأة جميلة.

وهكذا تأخذنا سلوى فى رحلة عبر الحياة الدميمة والمدمرة، التى تعيشها المرأة المصرية إبنة الطبقات الشعبية، ثم تدعنا فجأة أمام القرار الجميل والمستحيل «توقفت .. قررت.. لكى أغنى مفروض أن أشعر بالجمال، أى والله هذا مفروض».

وقد يبدو من الوهلة الأولى أن الشخصية قد تقمصت لغة الكاتبة.. هذا قناع للفن، والأكثر احتمالا أن الشخصية تقف على حافة الجنون. والأرجح أنها تعود الى منطقة العقل الإنسانى الذى قبرته الظروف الاجتماعية والبنية الثقافية السائدة.

وهكذا فثمة قدر مرسوم للفقراء، الكدح كالحيوانات ولا شىء سوى الكدح، ومن يخطو خارج هذا المصير يصير معتوها، أو مجنونا، وأحيانا «جنى وممسوس»، وبصورة أخرى يمكن أن يحل عليه عقاب قدرى أو حادث درامى.

إن سلوى تقف بشخصياتها على تلك الشفرة الحادة الفاصلة بين المعتاد الكريه، وبين الإحجام عن قرار بالجنون نفسه، وهذا هو القناع الثانى للفن، ولهذا مفعول السحر فى أعمالها، فلو أن سيدة قد عزمت على اتخاذ قرار وجمعت خلجاتها ورحلت، تاركة زوجها وأطفالها بحثا عن تحقيق ذاتها أو حريتها، فلن يكون مصيرها أفضل من علب الليل والكباريهات، تلك القصة القديمة المعتادة والتقليدية، والميلودراما المتكررة والباعثة على الملل، والمشكلة أن مصير المرأة المثقفة التى عاندت التقاليد، تعرف سلوى عنه أنه كان أشد مرارة. ولذا فعلى مستوى الواقع ليس ثمة بدائل أمام سيدة سوى المثول لسيدها الرجل.

على أن القناع الثالث يبدو كالضربة القاصمة، إذ إن سلوى ترفع من درجة الصراع الى المستوى الاجتماعى، فالرجل يأخذ زوجته إلى طبيب نفسانى «لاحظ الوظيفة وقرارها»، ويقرر الطبيب النفسى ببرود وجلاء بعد سماع شكواها روشتة من حبوب مهدئة «للإبداع، ونصائح للتنفيث النفسى «ابتعدى عن أى شىء يسبب لك التوتر، ولا تبقى بمفردك أبدا، أديرى المذياع وأنت فى الحمام، كلى جيدا وحاولى أن تتمشى»، والمأساة أن الإبداع واقعه التوتر والوحدة والخلق الفنى، كما أن المذياع رمز للتقليدى وليس ماهو إبداعى، كما أن هذه نصائح تفيد مريضا عاديا وليس شخصا فى حالة قلق إبداعى..ومن غير المنطقى أن يذهب زوج بزوجته إلى طبيب نفسى، وهو يحاسب نفسه على كل مليم، فضلاعن أن الطبقات الشعبية لاتؤمن بالطب النفسى، ولا تستخدمه، ربما تؤمن بالشعوذة وتركن إليها عندما تواجه مشاكل من هذا النوع، وسلوى بكر تعى ذلك جيدا، «ولهذا فالأشد وطأة من ناحية التعبير عن محتوى القضية ومضمونها أن يكون الطبيب النفسى ليس سوى رمز للأنا الأعلى، البناء الاجتماعى الفوقى، إن سيدة تحاصر من جميع الجهات، وهذه حقيقة يلزم الاعتراف بها.

انتظار الشمس

انتظار الشمس حالة وهم أخرى تتداخل فيها الحقيقة مع الأحلام. فأنت لا تثق بما إذا كانت المرأة قد قابلت الرجل العجوز الذى وعدها ذات يوم بأن يتزوجها ويعول طفليها الصغيرين، فإذا وافته المنية فإنه سوف يترك لها عمارته، أم أن الأمر مجرد وهم..

ربما لهذا تستخدم سلوى لغة الحكاية الخرافية بطابعها القدرى ولغتها المستقاة من التراث، بها ملامح النزوع الدينى والتسليم بالمقدر والمكتوب.

ولكن من هو ذاك الرجل الذى سيعرض على امرأة تجلس بجواره على مقعد حجرى، تجر فى ذيل جلبابها ولدين، وليس لها ما هو أكثر من ذلك، سوى خرف مجنون وربما كان يستدرجها، أو أنها هلاوس عجوز مخرف.

ولكن كل هذه التفاصيل لا تهمنا فى شىء، مع اعتبارها ذات مغزى، وعلى العكس إن ثمة طقوسا توحى لنا بأن ما جرى بين العجوز والمرأة كان حقيقيا، وكى تلقى لنا سلوى بأقنعتها، يجب أن توحى لنا أولا بقوة الحقيقة.. وقوة الحقيقة تبرز عنف الجنون.. وعنف الجنون هو اختراع العقل الإنسانى لواقعة جرت منذ سنوات عديدة، أما الذى أمامنا الآن هو «امرأة ذاهلة العقل شاردة الفكر تتطلع إلى بوابة فى انتظار الشمس».. نحن أمام هلاوس لامرأة تعيش على لحظة غير مؤكدة، وبمعنى ثان غير حقيقية، ذلك أن حقيقة حدوث انتشالها من أزمتها لم تكن سوى قضية احتمالية الحدوث، ولكنها لم تتحقق، لهذا السبب حدث أنكفاء وتثبيت لدى المرأة عند تلك اللحظة التى كانت يوما ما حقيقة بأى حال من الأحوال، ولكن النقيض يبرز ذلك أن هذه الحقيقة توقفت بوصفها ذلك بمجرد كونها حادثا جرى فى الماضى.

وهكذا تصنع سلوى حيلها والأحرى فنها، فتجعله «القارئ» يقف أمام عملها ليس كمن يتابع متوالية سرد الأحداث، لا فالنص عمق يقع خارج حدود الصفحات، إنها تدفعه للولوج داخل العمل الكائن.

العلاقة بين الرجل والمرأة:

تعبر سلوى بكر عن علاقة المرأة بالرجل بشكل خاص، وعلاقة الزواج بشكل عام، فالزوجة عادة تضرب من زوجها، وهى تغتصب فى ليلة الزفاف، بمعنى أن مشاعرها الجنسية لا توضع فى الاعتبار، فالرجل يقضى متعته منها، دون أن يهتم بتناولها الشخصى للمتعة تلك، والزواج نهاره خدمة متواصلة شاقة للآخر؛ الزوج والأطفال، والليل انقضاء لمتعة الآخر «الزوج»، وقد يتحول إلى سادية وحلقة من الإهانة والضرب، وإذا آن لها أن تنام فإلى صباح مبكر لتبدأ معزوفة المهانة والمشقة من جديد، ولهذا فعلاقة الرجل بالمرأة هى «علاقة الثعبان بالحمام، والقط بالفأر..».

هل هذا هو الطابع الوحيد للعلاقة؟..

بالطبع لا.. لن نتحدث عن العلاقات الإيجابية التى يتعامل فيها الرجل مع المرأة بشكل سوى، ولكن هناك أيضا - وهو الأهم - الجانب السلبى النابع من المرأة ذاتها، سلوكها، بناؤها الثقافى والاجتماعى علاقاتها بالموروث القديم، نضالها من أجل حقوقها. استسلامها لخانقيها الجدد، ثم إن هناك طموحاتها المدمرة، طابعها الذاتى والأنانى، هناك تمكنها المتمرس فى استخدامها أسلحة القهر ذاتها التى تستخدم ضدها.. ولكن من يستطيع أن يجيب على كل الأسئلة دفعة واحدة؟!

الدفاع عن المرأة عند سلوى بكر يتوغل داخل العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة، لكن الحذر، فلا يجب أن نقع فى فخ الألفاظ الملغومة، فسلوى بكر لا تكتب جنسا، والحقيقة أنها لا تضيع وقتها هباء، فالدفاع عن المرأة ضد أشكال اضطهادها أمر يشغل بالها بلا توقف، ولهذا فالعلاقة المتوازنة بين الرجل والمرأة وتلك الناجحة أمر لايشغلها طويلا، وقد حلا للبعض اتهام أعمالها بأنه سيكون جميلا إن فعلت، ولكن حتى لو لم تفعل.. الأهم أن أدب سلوى بكر مأخوذ من الحقائق الدامية للحياة المصرية فى الثلث الأخير من هذا القرن، وليس هناك من يزعم أن العملَ الأدبى يجب أن يتناول الحقيقة موضع الشك كاملة. إن جزءا من الحقائق يؤثر على درجة استيعابنا للحقائق، ولكنه فى الوقت نفسه يساهم فى الكشف عما هو مجهول فيها. ■

فتحى إمبابى

الشعر السياسى فى مصر من ١٩٦٧ - ١٩٨٠

شهدت المرحلة التاريخية الواقعة ما بين عامى ١٩٦٧و ١٩٨٠ أحداثا سياسية خطيرة ومتلاحقة، فمن نكسة يونيو إلى انتصار أكتوبر إلى زيارة «السادات» للقدس، وتوقيع معاهدة سلام مع إسرائيل أنهت حالة الحرب بينه وبين مصر، وأصبح بمقتضاها لإسرائيل «سفارة» يرتفع عليها العلم ذو النجمة السداسية.

وعلى الرغم من خطورة هذه الأحداث فإن أحدًا من الباحثين لم يتعرض لها بالدرس العلمى الموضوعى، بذلك تجىء هذه الدراسة للباحث مشهور فواز إضافة حقيقية تسعى لسد هذا النقص.

وقد انقسمت الدراسة إلى ثلاثة فصول، مهد لها الباحث بتمهيد تناول فيه أهم القضايا التى يثيرها الشعر السياسى، حيث تناول مفهوم الشعر السياسى، والعلاقة بين الشعر والسياسة من خلال إبراز نقاط الالتقاء، وأبعاد الخلاف بينهما، كما أجاب على سؤال على قدر من الأهمية، وهو: كيف تحضر السياسة فى الشعر؟، إضافة إلى تناوله لملامح وأبعاد العلاقة بين الشاعر والسلطة.

وبعد هذا التمهيد، تتابعت فصول الدراسة، حيث بدأت بفصل يتناول شعر النكسة، ومن خلال الدرس الفنى التحليلى لقصائد النكسة، بين الباحث أن الشعراء كانوا أكثر التحاما بالواقع، وأكثر صدقا فى قراءته، ومنهم من توقع النكسة وتنبأ بها، فقد اتجه الشعر إلى كشف سوءات

الإشارات والتنبيهات

الواقع الذى أدى إلى النكسة فى أبعاده المختلفة، كما اتجه الشعراء إلى فضح المسئولين عن النكسة، وإلقاء الضوء على ما رصدوه فيهم من ملامح، وأبرزوا صورة ضحايا النكسة الذين رأى الشعراء أنهم قتلى سيق بهم للمذبحة وليسوا شهداء فى معركة حقيقية، وممارسة للصدق، فقد اتجه الشعراء إلى الذات وبيان ما فيها من ضعف وخلل، ولجأوا إلى البحث عن طريق الخلاص، وذهبوا فى ذلك مذاهب عديدة، لاذوا فى بعضها بالتاريخ القديم المشرق يستلهمون ما فيه من صور مشرقة انتظارا للحظة الثأر.

وفى الفصل الثانى تناول الباحث شعر النصر، حيث كشفت القصائد عن ميلاد زمن جديد ولد فى فوهات البنادق ولهيب المعركة، كما بشّر الشعراء بميلاد أبجدية جديدة فى أتون المعركة، ودعوا إلى سيادة رموزها، وتحدثوا عن ثمار أكتوبر، فعلا غناؤهم بعودة القناة والعريس وسيناء والكرامة والشموخ، غير أن الباحث كشف، من خلال قصائد النصر، عن وجه آخر لشعر النصر، وهو الشعر الذى رفض وقف إطلاق النار، ومباحثاته مع قوات الأمم المتحدة وإسرائيل ورأى فى ذلك إهداراً لتضحيات الجند، ولدمائهم كما رصد الشعراء ملامح واقع ما بعد النص حيث صوروا جوانب القصور فيه، كما صوروا روح التشاؤم والإحباط، هذه الروح التى غلفت مناخ قبول وقف إطلاق النار وسادت رؤى سوداوية للمستقبل.

وفى الفصل الثالث تناول الباحث شعر السلام الذى تناول زيارة السادات للقدس وتوقيع معاهدة «كامب ديفيد» بين



مشهور فواز

مصر وإسرائيل، فكشفت عن أن الغالبية العظمى من القصائد المؤيدة للسلام كتبت بعد زيارة السادات للقدس، وقبل توقيع اتفاقية «كامب ديفيد»، كما كشف البحث عن أن الغالبية العظمى من القصائد المؤيدة للسلام كانت صدى للإعلان الموجه آنذاك، وأنها وقعت فى الخطابية والمباشرة. وانحدر بعضها إلى حدود الإبتذال خاصة فى خطابهم مع جبهة الرفض العربية. كما كشف البحث عن وقوع بعض الشعراء المؤيدين لمبادرة السلام فى مغالطات تاريخية صارخة سعياً منهم لبيان سلامة الموقف العربى للمعاهدة، ورغبة فى إدانة الموقف العربى منها. كما تناول الباحث الشعر الرافض لمبادرة السلام، ومعاهدتها، حيث بيّن الشعراء الرافضون لمعاهدة السلام مبررات الرفض، كما طرحوا النار والحرب بديلا عن السلام وأدانوا معاهدة السلام ومَنْ وقعها، وأبرزوا ما فى واقع ما بعد السلام من مهانة ومذلّة يتم فيه إهدار الكرامة والعزة ويقنع فيه العربى بالمؤخرة بعد أن يلفه العجز، كما بينوا ما فى المعاهدة من إهدار لجهد الجنود وكشفوا استباحة الواقع الجميل بكل مفرداته فى طوفان المعاهدة البوليسية، وإحساس الإنسان بالاغتراب.

وقد استخدم الباحث المنهج الفنى التحليلى أداة لدراسته، وبالتالى اكتفى بطرح أهم مفردات الحدث السياسى، ولم يعوّلْ كثيراً على مناقشة ما يطرحه من قضايا وما يشهده من تعدد رؤى واختلاف آراء، وإنما بحث عن الحدث السياسى شعرياً، وصورته فنياً، كما طرحها الشعراء فى قصائدهم، وكانت رغبته من وراء ذلك أن يحفظ للشعر استقلاليته الفنية ولايربطه إلى السياسة: فالسياسة ـ فى مفهوم هذا البحث ـ ليست إلا مثيراً ومحوراً رئيسياً من محاور التجربة الشعرية فى القصائد التى تناولها، كما أن الباحث تعامل مع هذه الظاهرة الشعرية فى مجملها، ليحفظ لها تكاملها وبناءها ومعماريتها فلم يشأ أن يفتت العمل إلى محتوى ولغة وصورة وموسيقى.

وقد تناول الباحث عدداً كبيراً من الشعراء منهم: صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى وأمل دنقل وبدر توفيق ومحمد إبراهيم أبوسنة وفاروق شوشة ود. أحمد هيكل ود. حسن فتح الباب وعبد المنعم عواد يوسف ومحمد مهران السيد وملك عبدالعزيز وفولاذ عبد الله الأنور وحسن النجار وأحمد الحوتى وغيرهم...■

إيناس رفعت

جائزة السيدة / سوزان مبارك
لأدب ورسوم كتب الأطفال لعام ١٩٩٤

مجالات الجائزة

أولاً: جائزة أحسن كتاب للأطفال صدر في مصر عام ١٩٩٤ وذلك من ناحية التأليف والرسوم والإخراج الفني والطباعة (جميع الناشرين المصريين مدعوون للاشتراك في المسابقة بإرسال الكتب التي يرشحونها للفوز بهذه الجائزة الكبرى إلى مركز توثيق وبحوث أدب الأطفال.

ثانياً: جوائز السيدة / سوزان مبارك للكتاب ورسامي كتب الأطفال من الشباب

(أ) في مجال أدب الأطفال

- مغامرة في سيناء أو الوادي الجديد أو بحيرة ناصر (للسن من ٩ - ١٥)
- كتاب تلوين يحتوي على مشاهد من أهم آثار مصر أو مناظرها الطبيعية أو العادات والتقاليد الشعبية (لسن ما قبل المدرسة)

(ب) في مجال رسوم كتب الأطفال

- كتاب مجسم يحتوي على شكل بسيط من البيئة وقصة بسيطة مناسبة للشكل المجسم (لسن ما قبل المدرسة)
- يمكن للمتسابق من الرسامين أن يتقدم في أوائل سبتمبر إلى مركز توثيق وبحوث أدب الأطفال بالروضة لاستلام النصوص الأدبية الفائزة والاشتراك في مسابقة رسم النصوص الفائزة.

الشروط بالنسبة لمؤلفي كتب الأطفال

١- يشترط أن يكون العمل المقدم للاشتراك في المسابقة لم يسبق نشره بأي صورة من صور النشر المكتوبة أو المسموعة أو المرئية

٢- تقدم الأعمال المشاركة من ثلاث نسخ مكتوبة على الآلة الكاتبة إلى مركز توثيق وبحوث أدب الأطفال التابع للهيئة المصرية العامة للكتاب ١٥ ميدان المماليك - بالروضة وذلك في موعد أقصاه أول سبتمبر ١٩٩٤

٣- يتم منح جائزتين في فرعين من فروع المسابقة

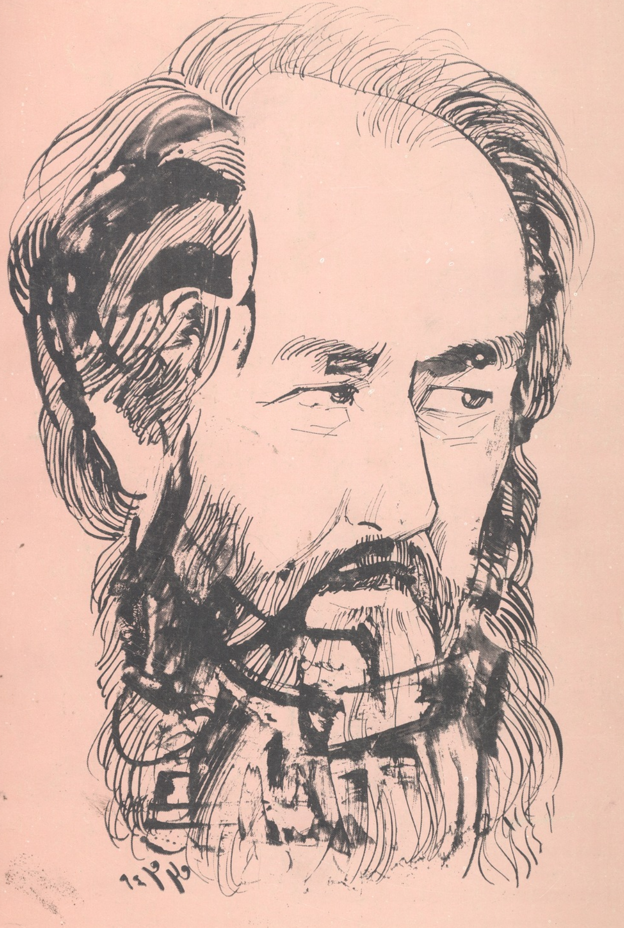
الجوائز



الرسوم		التأليف	
الجائزة الأولى	١٥٠٠ جنيه	الجائزة الأولى	١٥٠٠ جنيه
الجائزة الثانية	٧٥٠ جنيه	الجائزة الثانية	٧٥٠ جنيه
الجائزة الثالثة	٥٠٠ جنيه	الجائزة الثالثة	٥٠٠ جنيه

وسوف توزع الجوائز في معرض القاهرة الدولي لكتب الأطفال الحادي عشر في ٢٤ نوفمبر ١٩٩٤

لوحة الغلاف الأخير
سولچنتسين
للفنان: مكرم حنين



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب